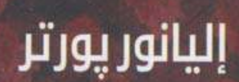
2020
3.1.2020



إليانور پورتر

پوليانا

ترجمة: بثينة الإبراهيم




منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

إليانور پورتر

پوليانا

رواية

ترجمة

بثينة الإبراهيم







پوليانا

الكاتب: إليانور بورتر

عنوان الكتاب: بوليانا

ترجمة: بثينة الإبراهيم

لوحة الغلاف: ديانا بيدت

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-25-0

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019

3000 نسخة

منشورات تكوين TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw

www.takweenkw.com @takweenKw



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

info@daralrafidain.com Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com @Dar alrafidain

الكتاب الأول

پوليانا

الفصل الأول
الآنسة پولي

دخلت الآنسة پولي هارنغتن المطبخ بشيء من العجلة في صباح يونيو هذا. لا تأتي الآنسة پولي بحركات عجولة في العادة، بل إنها تتباهى بأسلوبها الهادئ دائمًا. غير أنها اليوم كانت مسرعة، مسرعة حقًا.

نظرت نانسي مندهشة، وهي تغسل الصحون عند حوض المغسلة. لم تعمل نانسي في مطبخ الآنسة پولي إلا منذ شهرين فقط، غير أنهما كافيان لتعرف أن سيدتها لا تسرع في العادة.

«نانسي!».

«نعم يا سيدتي»، أجابت نانسي مبتهجة، وهي لم تزل تجفف الإبريق الذي تحمله.

«نانسي!»، صار صوت الآنسة پولي أكثر صرامة، «أرجو أن توقفي عملك وتصغي لما أقوله حين أخاطبك».

احمر وجه نانسي كثيرًا، فوضعت الإبريق جانبًا في الحال، والمنشفة لم تزل فيه، وكادت أن توقعه مما زاد اضطرابها كثيرًا.

«أجل يا سيدتي، سأفعل يا سيدتي»، قالت متلعثمة، وهي تعدّل الإبريق ثم تستدير في عجلة، «كنت أؤدي عملي فحسب لأنك أخبرتني هذا الصباح تحديدًا أن أسرع في تنظيف الصحون، كما تعرفين».

قطبت سيدتها.

«هذا يكفي يا نانسي، لم أطلب منك تفسيرًا، بل طلبت منك أن تنتبهي».

«أجل يا سيدتي»، أطلقت نانسي تنهيدة، وتساءلت إن كان بوسعها يومًا إرضاء هذه المرأة بأي شكل. لم يسبق لنانسي أن عملت في الخدمة قبلًا، ولكن وجود أم مريضة ترملت فجأة وتُركت لرعاية ثلاثة أطفال صغار إلى جانب نانسي، قد أجبر الفتاة على فعل شيء ما من أجل إعالتهم. وسرت كثيرًا حين عثرت على مكان في مطبخ المنزل الكبير الواقع على التل، وقد جاءت نانسي من «ذا كورنرز» الواقعة على بعد ستة أميال، ولم تعرف عن الآنسة بولي هارنغتن إلا أنها سيدة عزبة هارنغتن القديمة، وإحدى أغنى سكان البلدة. كان هذا قبل شهرين، أما الآن فهي تعرف أن الآنسة بولي امرأة صارمة متجهمة الوجه، تقطب إن قعقعت سكين على الأرض، أو إن صُفق الباب، ولا تفكر بالابتسام إن كانت السكاكين والأبواب هادئة.

«حين تفرغين من عملك الصباحي يا نانسي»، قالت الآنسة بولي، «نظفي الغرفة الصغيرة الواقعة أعلى الدرج في العلية، ورتبي

السرير النقال. واكنسي الغرفة ونظفيها بعد أن تخرجي الصناديق والحقائب منها طبعًا».

«حاضر يا سيدتي، وهلا أخبرتني من فضلك أين علي وضع الأشياء التي سأخرجها؟».

«في العلية الأمامية»، ترددت الآنسة بولي ثم واصلت، «أظن أن علي إخبارك الآن أيضًا يا نانسي أن ابنة أختي، الآنسة بوليانا ويتير، قادمة للعيش معي. إنها تبلغ الحادية عشرة من عمرها، وستنام في تلك الغرفة».

«فتاة صغيرة قادمة هنا يا آنسة هارنغتن؟ أليس هذا جميلًا؟!»، صاحت نانسي متذكرة المرح الذي تضفيه أختاها الصغيرتان على البيت في ذا كورنرز.

«جميل؟ حسن، ليست هذه الكلمة التي سأستخدمها»، ردت الآنسة بولي بجفاف، «غير أني أنوي أن أبذل ما في وسعي طبعًا، فأنا امرأة صالحة، كما أرجو، وأعرف واجبي».

احمرت نانسي بحرارة.

«بلا شك يا سيدتي، لقد ظننت فحسب أن فتاة صغيرة هنا قد... قد تجعل الأمور مبهجة لك»، تلعثمت.

أجابت السيدة بجفاء «شكرًا لك، غير أني لا أرى حاجة ملحة لذلك».

«ولكن... ولكنك تريدينها طبعًا، أعني ابنة أختك»، تجرأت

نانسي شاعرة قليلًا بضرورة الإعداد للترحيب بهذه الغريبة الصغيرة الوحيدة.

رفعت الآنسة پولي ذقنها بغطرسة.

«حسن، حقًا يا نانسي، إن صادف أن كان لدي أخت سخيفة تمامًا تزوجت وأنجبت أطفالًا لا حاجة لهم وأتت بهم إلى هذا العالم المكتظ قبلًا، فإنني لا أفهم على وجه التحديد كيف لي أن أقوم على رعايتهم. على أية حال، وكما قلت سابقًا، أرجو أني أعرف واجبي. احرصي على تنظيف الزوايا يا نانسي»، أنهت حديثها بحدة وهي تغادر المكان.

«حاضر يا سيدتي»، تنهدت نانسي، وهي تحمل الإبريق نصف المبتل، وقد جفّ كثيرًا ولا بد من شطفه ثانية.

في غرفتها أخرجت الآنسة پولي مرة أخرى الرسالة التي تلقتها قبل يومين من البلدة الغربية البعيدة، التي حملت لها مفاجأة لم تكن سارة البتة. عُنونت الرسالة إلى «الآنسة پولي هارنغتن، بلدنغزڤِل، ڤرمونت. وجاء فيها ما يلي:

سيدتي العزيزة

يؤسفني إبلاغك أن الموقر جون ويتير قد مات قبل أسبوعين، تاركًا طفلة واحدة، فتاة في الحادية عشرة من عمرها. ولم يترك شيئًا آخر فعليًا سوى بضعة كتب، إذ إنه كما تعرفين حتمًا، كان قس هذه الكنيسة المحلية الصغيرة، وكان له راتب ضئيل جدًا.

أدرك أنه كان زوج أختك الراحلة، غير أنه أطلعني أن العائلتين ليستا على وفاق. غير أنه ظن أنك ترغبين، لخاطر أختك، أن تتولي رعاية الطفلة وتنشئتها بين أهلها في الشرق.

لذا أكتب إليك.

ستكون الفتاة على أهبة الاستعداد للانطلاق حالما تصلك هذه الرسالة، وإن قبلت رعايتها، فإننا نقدر كثيرًا إن كتبت لنا أنك تأذنين بقدومها في الحال، لأن رجلًا وزوجته مسافران شرقًا في وقت قريب، وسيأخذانها معهما حتى بوسطن، ويضعانها في قطار بلدنغزفِل. وسنعلمك حتمًا باليوم وموعد القطار الذي تنتظرون فيه پوليانا.

أرجو أن أعرف موافقتك قريبًا.

المخلص باحترام
جيرميا أو. وايت.

طوت الآنسة پولي الرسالة مقطبة ودستها في مظروفها. لقد أجابتها أمس الأول قائلة إنها ستأخذ الطفلة طبعًا، وإنها ترجو أنها تعرف واجبها جيدًا للقيام بذلك، رغم كراهة المهمة!

عادت بها أفكارها، وهي تجلس حاملة الرسالة بيدها، إلى أختها جيني أم هذه الطفلة، وإلى الزمن الذي أصرت فيه جيني وهي فتاة في العشرين على الزواج بالقس الشاب، رغم اعتراض عائلتها. فقد طلبها للزواج رجل ثري، وفضلته العائلة على القس، لكن جيني لم تفعل. وفضّلت العائلة الرجل الثري لأنه يكبرها سنًا،

إلى جانب ثرائه الفاحش. في حين أن القس لم يكن إلا شابًا له ذهن يعج بمُثل الشباب وحماسهم، وقلب مفعم بالحب. وآثرت جيني هذه السمات، فتزوجت القس، وسافرت معه جنوبًا بوصفها زوجة مبشّر.

وحدث الفراق حينها. تذكرت الآنسة پولي هذا جيدًا، رغم أنها كانت حينئذ فتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، وهي الأصغر. انقطعت صلات العائلة بزوجة المبشر، ومن الأكيد أن جيني كتبت مرة وقد سمت طفلتها پوليانا تيمنًا بأختيها پولي وآنا، أما الأطفال الآخرين فقد ماتوا جميعًا. كانت هذه آخر مرة كتبت لهم جيني، ثم وصلهم نبأ موتها بعد بضع سنوات، مكتوب برسالة موجزة موجعة من القس نفسه، معنونة من بلدة صغيرة في الغرب.

غير أن الزمن لم يقف عند سكان البيت الكبير على التل، فقد تذكرت الآنسة پولي وهي تطل على الوادي البعيد في الأسفل، كل التغيير الذي أحدثته فيها هذه السنوات الخمس والعشرون.

إنها في الأربعين، ووحيدة تمامًا في الدنيا. فقد مات الأب والأم والأختان، وها هي منذ سنوات السيدة الوحيدة للبيت والآلاف التي تركها أبوها. أسف بعض الأشخاص علانية لحياة الوحدة التي تعيشها، وحثوها على أن تُسكن معها رفيقة أو صديقة، غير أنها لم تسعد بتعاطفهم ولا بمشورتهم، وقالت إنها ليست وحيدة، وأنها تفضل البقاء بمفردها، وتؤثر الهدوء، ولكن الآن...

نهضت الآنسة پولي بوجه عابس وشفتين مزمومتين بقوة. كانت سعيدة بطبيعة الحال لأنها امرأة صالحة، وأنها لا تعرف واجبها فحسب، بل تتمتع بشخصية قوية تمامًا لتقوم به.

ولكن پوليانا! يا له من اسم سخيف!

الفصل الثاني
توم العجوز ونانسي

كنست نانسي وفركت بقوة الغرفة الصغيرة في العلية، مولية عناية خاصة للزوايا. كانت القوة التي تؤدي بها عملها بعض الأحيان ترويحًا عن مشاعرها، أكثر من كونها رغبة بإزالة الغبار. ولم تكن نانسي قديسة، رغم إذعانها وخوفها من سيدتها.

«أتمنى لو كان بوسعي حفر زوايا روحها!»، همهمت بحركات عصبية مخللة كلامها بطعنات قاتلة من عصا المكنسة المدببة. «ثمة الكثير مما يحتاج تنظيفًا، حسن، حسن! كيف خطر لها حشر الفتاة الصغيرة المباركة في الأعلى هنا في هذه الغرفة الحارة، بلا تدفئة في الشتاء أيضًا، ولديها كل هذا البيت الكبير لتنتقي منه وتختار؟! أطفال لا حاجة لهم إذن! أف!» قالت نانسي وهي تعصر خرقتها بقوة حتى آلمتها أصابعها من العصر، «لا أظن الأطفال من لا حاجة لهم الآن!».

وعملت في صمت لبعض الوقت، وبعد أن انتهت مهمتها نظرت في أرجاء الغرفة الصغيرة الجرداء بقرف واضح.

«حسن، إنها جاهزة، فيما يتعلق بعملي على الأقل»، تنهدت،

«فلا شيء قذر، وما من شيء آخر أفعله. يا للطفلة الصغيرة المسكينة! يا له من مكان تسكنه طفلة صغيرة وحيدة تشعر بالحنين!»، أنهت قولها وخرجت مغلقة الباب بخبطة، فقالت وهي تعض شفتيها «أوه!»، ثم أضافت بإصرار «حسن، لست أبالي. أرجو أنها سمعت هذه الخبطة، حقًا حقًا!».

عثرت نانسي بعد ظهر ذلك اليوم على دقائق قليلة في الحديقة لتتحدث إلى توم العجوز الذي اقتلع الحشائش وجرف الدروب حول المنزل لسنوات لا تحصى.

«سيد توم»، بدأت نانسي، وهي تلقي نظرات من خلفها لتتأكد أنها ليست مراقبة، «هل عرفت أن فتاة صغيرة قادمة للعيش هنا مع الآنسة بولي؟».

«ماذا؟»، سأل الرجل العجوز، وقد قوّم ظهره بشيء من المشقة.

«فتاة صغيرة، لتعيش مع الآنسة بولي».

«واصلي مزاحك»، وبخها توم المرتاب، «لم لا تخبريني أن الشمس ستغرب في المشرق غدًا؟».

«لكنّ هذا صحيح. لقد أخبرتني بنفسها»، تابعت نانسي، «إنها ابنة أختها، وهي في الحادية عشرة من عمرها».

«عجبًا!... لكني أتساءل»، همهم، ثم أضاء عينيه المنطفئتين ضوء رقيق «إنها ليست... ولكن لا بد أن تكون ابنة الآنسة جيني الصغيرة! إذ لم تتزوج منهن إلا هي. يا إلهي يا نانسي، لا بد أنها ابنة

الآنسة جيني الصغيرة. ليتمجد الرب! لقد امتد بي العمر لتشهد عيناي هذا!».

«من تكون الآنسة جيني؟».

«كانت ملاكًا هبط من السماء مباشرة»، قال الرجل منفعلًا، «غير أن السيد والسيدة الكبيرين يعرفانها على أنها ابنتهما الكبرى. كانت في العشرين حين تزوجت وسافرت منذ سنوات بعيدة. مات كل أطفالها، كما سمعت، عدا الأخيرة، ولا بد أنها هي القادمة».

«إنها في الحادية عشرة من العمر».

«أجل، قد تكون كذلك»، هز الرجل العجوز رأسه.

«وستنام في العلية، عار على الخالة!»، تذمرت نانسي وهي تنظر للخلف صوب المنزل.

عبس توم العجوز، ثم علت شفتيه ابتسامة غريبة.

«أتساءل عما ستفعله الآنسة بولي بوجود طفلة في البيت»، قال.

«أف! حسن، أما أنا فأتساءل ما الذي ستفعله طفلة مع الآنسة بولي في البيت!»، ردت نانسي.

ضحك الرجل العجوز.

«أخشى أنك لا تحبين الآنسة بولي»، قال مبتسمًا.

«وكأن أحدًا يمكن أن يحبها!»، ردت نانسي باستخفاف.

ابتسم توم العجوز ابتسامة غريبة، وانحنى ليستأنف عمله.

«أظنك لم تعرفي بأمر علاقة الآنسة بولي العاطفية»، قال ببطء.

«علاقة عاطفية! هي؟! كلا، ولا أظن أحدًا آخر يعلم بأمرها».

«أوه، بلى، لقد عرفوا»، هز الرجل العجوز رأسه، «والرجل حي يرزق ويعيش في هذه البلدة أيضًا».

«من يكون؟».

«لن أخبرك بذلك، لا يجدر بي القول»، وأقام الرجل العجوز ظهره. ولمع في عينيه الزرقاوين الداكنتين، وهو يقابل البيت، زهو صادق للخادم المخلص الذي خدم العائلة وأحبها لسنوات طويلة.

«لكن هذا غير ممكن، هي وعاشق»، ظلت نانسي تردد.

هز توم العجوز رأسه معترضًا.

«لم تعرفي الآنسة بولي كما عرفتها. لقد كانت جميلة فعلًا، وبوسعها أن تكون كذلك الآن، إن سمحت لنفسها بذلك».

«جميلة؟! الآنسة بولي؟!».

«أجل. لو أنها تترك هذا الشعر المشدود ينساب حرًا، كما كان، وتعتمر القلنسوات ذات الزهور، وترتدي الفساتين ذات الدانتيلا وأشياء بيضاء، لرأيت أنها جميلة! فالآنسة بولي ليست عجوزًا يا نانسي».

«ليست عجوزًا إذن؟ حسن، لكنها تحسن محاكاة ذلك للغاية، حقًا، حقًا!»، سخرت نانسي.

«أجل، أعلم. لقد بدأ ذلك في وقت شجارها مع حبيبها»، أومأ توم العجوز، «ويبدو كأنها تتغذى على العلقم والشوك منذئذ، فصارت مُرة وواخزة يصعب التعامل معها».

«لا بد لي من القول إنها كذلك» قالت نانسي بازدراء، «ليس ثمة ما يرضيها، مطلقًا، مهما حاولت! لم أكن لأبقى لولا الأجر والناس في المنزل الذين يحتاجونه. غير أني يومًا ما، يومًا ما، سيطفح بي الكيل، وحين يحدث ذلك، فسأقول وداعًا. سيحدث، سيحدث».

هز توم العجوز رأسه نافيًا.

«أعلم، لقد شعرت بذلك، وهذا طبيعي. لكنه ليس جيدًا يا صغيرتي، ليس جيدًا. ثقي بكلامي، ليس جيدًا»، وحنى رأسه الهرم ثانية على العمل بين يديه.

«نانسي!»، نادى صوت حاد.

«أجل يا سيدتي»، تلعثمت نانسي وهرعت نحو البيت.

الفصل الثالث

قدوم پوليانا

في الوقت المناسب وصلت البرقية تعلن أن پوليانا ستصل إلى بلدنغزفِل اليوم التالي، في الخامس والعشرين من يونيو، الساعة الرابعة مساءً. قرأت الآنسة پولي البرقية، وعبست ثم صعدت الدرج إلى غرفة العلية، وظلت عابسة وهي تنقل نظرها في أرجائها.

ضمت الغرفة سريرًا صغيرًا حسن الترتيب وكرسيين قائمي الظهر، ومغسلة ومنضدة بلا مرآة، وطاولة صغيرة. لم يكن على الرواشن أي ستائر قماشية، ولا لوحات معلقة على الجدران. وكانت الشمس تنسكب على السطح طوال اليوم، والغرفة الصغيرة مثل الفرن من الحرارة. ولم تفتح النوافذ فليس عليها حاجب منخلي، وطنت ذبابة كبيرة بغضب على إحداها، متنقلة أعلى وأسفل، وأسفل وأعلى في محاولة منها للخروج.

قتلت الآنسة پولي الذبابة وأخرجتها من النافذة (وقد رفعت الإطار بمقدار إنش لفعل ذلك)، وعدلت كرسيًا وعبست ثانية، ثم غادرت الغرفة.

«نانسي»، قالت بعد بضع دقائق عند باب المطبخ، «لقد وجدت ذبابة في الأعلى في غرفة الآنسة پوليانا. لا بد أن النافذة رفعت في وقت ما، لقد طلبت حاجبًا منخليًا، ولكن حتى وصوله سأتوقع منك أن تتأكدي من بقاء النوافذ مغلقة. ستصل ابنة أختي غدًا في الساعة الرابعة، وأود منك أن تنتظريها في المحطة. سيأخذ تِموثي العربة المفتوحة ويأخذك إلى هناك. تقول البرقية إنها «فتاة فاتحة الشعر ترتدي ثوبًا قطنيًا بنقوش حمراء مربعة وقبعة من القش». هذا كل ما أعرفه، غير أنني أظنه يكفيك».

«أجل يا سيدتي، ولكنك...».

من الواضح أن الآنسة پولي قرأت الصمت قراءة صحيحة، لأنها عبست وقالت بجفاف: «كلا، لن أذهب. ليس من الضروري أن أفعل، كما أظن. هذا كل شيء». ثم استدارت مبتعدة، وها قد انتهت ترتيبات الآنسة پولي لراحة ابنة أختها پوليانا.

في المطبخ ضغطت نانسي مكواتها بقوة على منشفة المطبخ التي تكويها.

«شعر فاتح، ترتدي ثوبًا قطنيًا بنقوش حمراء مربعة وقبعة من القش كل ما تعرفه حقًا! لو أقررت بذلك لشعرت بالخزي، حقًا، حقًا، وهذه ابنة أختها الوحيدة قادمة من مكان بعيد في القارة!».

بعد ظهر اليوم التالي وقبل الرابعة بعشرين دقيقة ذهب تموثي ونانسي مسرعين في العربة المفتوحة لاستقبال الضيفة المنتظرة. كان

تموثي ابن توم العجوز، ويشاع في البلدة أحيانًا أنه إن كان توم العجوز ذراع الآنسة بولي الأيمن فإن تموثي ذراعها الأيسر.

كان تموثي شابًا حسن الطباع، كما أنه حسن الطلعة. وسرعان ما صار هو ونانسي صديقين رغم قصر إقامتها في البيت. غير أن نانسي اليوم كانت مشغولة بمهمتها ولم تكن على طبعها الثرثار المعتاد، وقطعت الرحلة إلى المحطة في صمت، ثم ترجلت من العربة بانتظار القطار.

ظلت تقول في نفسها مرة بعد مرة: «شعر فاتح، ترتدي ثوبًا قطنيًا بنقوش حمراء مربعة، وقبعة قش»، وظلت تتساءل المرة تلو الأخرى أي الأطفال بوليانا هذه على أية حال.

«أرجو أن تكون هادئة وعاقلة لصالحها، ولا توقع السكاكين أو تصفق الأبواب»، قالت متنهدة لتموثي الذي تقدم نحوها.

«حسن، إن لم تكن كذلك فلا أحد يدري ما سيحدث للبقية منا. تخيلي الآنسة بولي وطفلة مزعجة! يا إلهي! ها قد انطلقت الصافرة!».

«أوه يا تموثي، أرى إرسالي لؤمًا»، قالت نانسي المذعورة فجأة، وقد استدارت وهرعت نحو بقعة يمكنها منها رؤية المسافرين يترجلون في المحطة الصغيرة على نحو أفضل.

لم يطل الوقت بنانسي حتى رأتها، الفتاة الصغيرة الرشيقة التي ترتدي ثوبًا قطنيًا بنقوش حمراء مربعة ولها ضفيرتان ثخينتان من الشعر بلون الكتان تتدليان على ظهرها. وتحت قبعة القش وجه

صغير منمش متلهف، يلتفت يمنة ويسرة وواضح أنه يبحث عن أحد ما.

عرفت نانسي الطفلة في الحال، غير أنها لبعض الوقت لم تستطع السيطرة على ركبتيها المصطكتين بما يكفي لتذهب إليها. وقفت الفتاة الصغيرة بمفردها حين اقتربت منها نانسي في نهاية المطاف.

«هل أنت الآنسة پوليانا؟»، تلعثمت، ووجدت نفسها في اللحظة التالية وقد خنقها الذراعان المكسوان بالقماش القطني.

«أوه، إنني سعيدة، سعيدة، سعيدة جدًا لرؤيتك»، هتف صوت متحمس في أذنها، «أنا پوليانا طبعًا، وأنا سعيدة للغاية أنك قدمت لاستقبالي! إذ تمنيت أن تفعلي».

«هل... هل فعلت؟»، تلعثمت نانسي، وهي تتساءل في سرها كيف أمكن لپوليانا أن تعرفها، وأن تريدها. «هل... هل فعلت؟» كررت سؤالها محاولة تعديل قبعتها.

«أوه، أجل. لقد تساءلت طوال الطريق كيف تبدين»، صاحت الفتاة الصغيرة وهي ترقص على أطراف أصابعها وتتفحص بعينيها نانسي المحرجة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، «وهأنا أعرف، وأنا سعيدة لأنك تبدين كما تخيلتك».

ارتاحت نانسي لمقدم تموثي، فقد كانت كلمات پوليانا محيرة جدًا.

«هذا تموثي. لعلك تملكين حقيبة»، تلعثمت.

«أجل، لدي»، هزت پوليانا رأسها تأكيدًا. «لدي واحدة جديدة، اشترتها لي النساء المحسنات، أليس هذا لطفًا منهن، في حين أنهن بحاجة للسجادة أيضًا؟ لست أدري كم سجادة حمراء يمكن شراؤها بثمن حقيبة، لكن لا بد أنه يكفي لشراء بعض منها على أية حال، شيء بقدر نصف ممشى، ألا تظنين ذلك؟ لدي في حقيبتي شيء صغير قال السيد غراي إنه إيصال، وإن علي أن أعطيك إياه قبل الحصول على حقيبتي. السيد غراي هو زوج السيدة غراي. إنهما نسيبا زوجة ديكون كار، وقد سافرت شرقًا معهما وهما لطيفان! و... إليك هذا هو»، وفرغت من الكلام مقدمة الإيصال بعد أن نقبت كثيرًا في الحقيبة التي تحملها.

أخذت نانسي نفسًا طويلًا، إذ شعرت تلقائيًا أن على المرء أن يأخذ نفسًا بعد خطاب كهذا. ثم استرقت نظرة إلى تموثي، الذي تعمد الإشاحة بنظره.

انطلق الثلاثة في نهاية المطاف، وحقيبة پوليانا في الخلف، وپوليانا نفسها جالسة بارتياح بين نانسي وتموثي. ظلت الفتاة الصغيرة أثناء الرحلة تطلق سيلًا لا ينقطع من التعليقات والأسئلة، حتى وجدت نانسي المشدوهة نفسها منقطعة الأنفاس وهي تحاول مواكبتها.

«يا سلام! أليس هذا جميلًا؟ هل هو بعيد؟ أرجو أنه كذلك، لأني أحب ركوب العربة»، تنهدت پوليانا، حين انعطفت عجلات العربة. «غير أني لا أمانع ألا يكون بعيدًا طبعًا، إذ سأسر لوصولي

هناك بسرعة كما تعرفين. يا له من شارع جميل! أعلم أنه جميل، لأن أبي أخبرني بذلك».

فصمتت كاتمة أنفاسها قليلًا. نظرت نانسي إليها بقلق ورأت ذقنها الصغير يرتعش، وأن عينيها مغرورقتين بالدمع. غير أنها في لحظة واصلت وقد رفعت رأسها بشجاعة.

«أخبرني أبي كل شيء عنه. لقد تذكره. و.. وكان علي أن أوضح قبلًا. لقد أخبرتني السيدة غراي في الحال عن هذا الثوب القطني ذي النقوش الحمراء المربعة، كما ترين، وعن سبب عدم ارتدائي للأسود. إذ قالت إنك قد تظنين هذا غريبًا، إلا إن صندوق المعونات الأخير لم يكن فيه أي شيء أسود، إلا قميصًا من القطيفة يلائم سيدة وقالت زوجة ديكون كار إنه لا يناسبني على الإطلاق، إلى جانب أن فيه بقعًا بيضاء مهترئة عند المرفقين ومواضع أخرى. أراد قسم من النساء المحسنات شراء ثوب أسود وقبعة، غير أن القسم الآخر رأى ضرورة إنفاق المال على السجادة الحمراء التي يحاولن شراءها من أجل الكنيسة كما تعلمين. وقالت السيدة وايت إن هذا قد يكون الأفضل على أية حال، فهي لا تحبذ رؤية الأطفال يرتدون اللون الأسود، وأعني أنها تحب الأطفال طبعًا لكنها لا تحب الجزء المتعلق باللون الأسود».

صمتت بوليانا لتلتقط نفسها، وتمكنت نانسي من القول متلعثمة «حسن، أنا واثقة أنه لا بأس بذلك».

«أنا سعيدة لأنك ترين هذا، فأنا أرى ذلك أيضًا»، هزت بوليانا

رأسها ثانية بذلك النفس المكتوم قالت «سيكون الأمر أصعب قليلًا أن تكوني سعيدة وأنت ترتدين الأسود».

«سعيدة!»، شهقت نانسي وقد فوجئت فقاطعتها.

«أجل، بأن أبي ذهب إلى السماء ليكون مع أمي والبقية منا كما تعرفين. قال إن علي أن أكون سعيدة، غير أن هذا يصعب فعله، حتى وأنا أرتدي ثوبًا قطنيًا أحمر، لأنني أردته أيضًا. ولا أستطيع منع نفسي من الإحساس بوجوب أن يكون معي، وبخاصة أن أمي والبقية معهم الرب والملائكة، أما أنا فليس معي إلا النساء المحسنات. لكني واثقة أن الأمر سيغدو أسهل الآن لأنك معي يا خالتي بولي، أنا سعيدة أنك معي».

تحولت شفقة نانسي المتوجعة على حزن المسكينة الصغيرة بجانبها إلى خوف وذهول.

«لكن، أوه، لكنك أخطأت خطأ جسيمًا يا عزيزتي»، تلعثمت، «أنا نانسي فحسب ولست خالتك بولي أبدًا!».

«أنت... أنت لست هي؟»، غمغمت الفتاة الصغيرة في خوف.

«كلا، أنا نانسي فحسب. لم أحسب أنك تظنينني إياها. فنحن، نحن لسنا متشابهتين بتاتًا، لسنا كذلك، لسنا كذلك!».

ضحك تموثي بهدوء، لكن نانسي كانت مستاءة جدًا ولم ترد على البريق المرح في عينيه. «ولكن من تكونين؟»، سألت بوليانا، «إنك لا تشبهين النساء المحسنات البتة!».

ضحك تموثي عاليًا هذه المرة.

«أنا نانسي، الفتاة الخادمة. أقوم بكل العمل إلا غسيل الثياب وكيها، فالسيدة دورغن تقوم بهما».

«ولكن هل من خالة بولي؟»، سألت الطفلة بقلق.

«ستراهنين بحياتك أنها موجودة»، قال تموثي.

فاسترخت بوليانا استرخاء جليًا.

«أوه، لا بأس إذن»، وساد الصمت لحظة ثم واصلت بمرح «وهل تعلمان؟ إنني سعيدة على أية حال أنها لم تأت لاستقبالي، فما زلت أتطلع للقائها، إلى جانب أنك معي».

احمرت نانسي خجلًا، والتفت تموثي إليها بابتسامة ساخرة.

«أسمي هذا إطراء راقيًا جدًا، لماذا لا تشكرين السيدة الصغيرة؟»، قال لها.

«كنت أفكر.. أفكر بالآنسة بولي»، قالت نانسي متلعثمة.

تنهدت بوليانا راضية.

«وأنا كذلك، أنا مهتمة بها، فكما تعرفان هي الخالة الوحيدة التي لدي، ولم أعرف أن لي خالة قبل ذلك. إلا أن أبي أخبرني، وقال إنها تعيش في بيت كبير جميل بعيدًا على قمة تل».

«إنها كذلك، يمكن لك رؤيته الآن»، قالت نانسي، «إنه ذاك البيت الكبير الأبيض ذو المصاريع الخضراء، أمامنا».

«أوه، كم هو جميل! ويا لكثرة الأشجار والعشب الذي يحيط به! لم أر في حياتي هذا القدر من العشب الأخضر هكذا في مكان واحد. هل خالتي بولي ثرية يا نانسي؟».

«أجل يا آنستي».

«إنني سعيدة جدًا. لا بد أن امتلاك الكثير من المال جميل للغاية. لم أعرف يومًا أحدًا ثريًا، عدا آل وايت، إنهما ثريان نوعًا ما. لديهما سجادات في كل الغرف ومثلجات أيام الأحد. هل لدى الخالة بولي مثلجات أيام الأحد؟».

هزت نانسي رأسها نفيًا، وزمت شفتيها ونظرت في عيني تموثي نظرة مرحة.

«كلا يا آنستي، فخالتك لا تحب المثلجات كما أظن، فلم أرها يومًا على مائدتها على أية حال».

تجهم وجه بوليانا.

«أوه، ألا تفعل؟ أنا آسفة جدًا! لست أدري كيف يمكنها ألا تحب المثلجات. ولكن على أية حال، بوسعي أن أكون سعيدة حول ذلك، لأن المثلجات التي لا تأكلينها لا يمكنها أن تؤلم معدتك مثلما فعلت مثلجات السيدة وايت؛ فقد تناولتها كما تعرفين، والكثير منها. لعل الخالة بولي تملك سجادات إذن؟».

«أجل، إنها تملك سجادات».

«في كل غرفة؟».

«حسن، في كل غرفة تقريبًا»، أجابت نانسي وقد عبست فجأة لدى تذكرها غرفة العلية الصغيرة الجرداء التي ليس فيها سجادة.

«أوه، أنا سعيدة للغاية»، قالت پوليانا جذلة، «أحب السجادات. لم نملك أيًا منها، بل كان عندنا بساطان جاءا في صندوق المعونات، وكان على أحدهما بقع حبر. تملك السيدة وايت لوحات أيضًا، لوحات جميلة للغاية فيها زهور وفتيات صغيرات يجثين وهريرة وحِملان وأسد، ليسوا معًا، أعني الأسد والحِمْلان كما ترين. أوه، بالطبع يقول الكتاب المقدس إنهم سيكونون معًا أحيانًا، غير أنهم لم يفعلوا بعد، أعني أن حملان السيدة وايت وأسدها لم يفعلوا بعد. ألا تحبين اللوحات؟».

«أ... لست أدري»، قالت نانسي بصوت مكتوم.

«أنا أحبها. لم نملك أي لوحة، فهي لا تأتي في صناديق المعونات كثيرًا كما تعلمين. مرة أتت لوحتان، غير أن إحداهما كانت جميلة جدًا فباعها أبي ليحصل على المال ليبتاع به حذاء لي، والأخرى كانت بحال سيئة للغاية حتى أنها تكسرت إلى قطع حين علقناها. تكسر الزجاج كما تعرفين، فبكيت. غير أني سعيدة الآن أننا لم نملك شيئًا من هذه الأشياء الجميلة، لأنني سأحب أشياء الخالة پولي أكثر، فأنا لم أعتد رؤيتها [الأشياء] كما ترين. تمامًا كما هو الحال حين تأتي في الصندوق شرائط شعر جميلة بعد الكثير من الشرائط البنية الباهتة. يا إلهي! أليس هذا بيتًا جميلًا للغاية؟»، هتفت بحماس حين انعطفوا إلى المدخل الواسع.

حين أنزل تموثي الحقيبة وجدت نانسي فرصة لتهمهم بصوت خفيض في أذنه «لا تقل لي شيئًا عن الرحيل البتة يا تموثي دورغن، فأنت لم تستأجرني لأغادر!».

«تغادرين؟! لن أقول ذلك»، ابتسم تموثي، «لا يمكنك جري بعيدًا. سيكون الأمر ممتعًا هنا بوجود هذه الطفلة أكثر من عروض السينما كل يوم!».

«ممتعًا! ممتعًا!»، رددت نانسي بازدراء، «أظن الأمر سيكون أكثر من المتعة لتلك الطفلة المباركة... حين تحاول كلاهما العيش معًا، وأظن أنها ستحتاج حجرًا ما يكون لها ملاذًا. حسن، سأكون أنا ذلك الحجر يا تموثي، سأفعل، سأفعل!»، تعهدت وهي تستدير وتقود پوليانا وترتقيان العتبات العريضة.

الفصل الرابع
غرفة العلية الصغيرة

لم تنهض الآنسة پولي هارنغتن لاستقبال ابنة أختها. صحيح أنها رفعت نظرها عن كتابها حين دخلت نانسي والفتاة الصغيرة في ممر غرفة الجلوس، ومدت يدًا كتب على كل أصبع منها ببرود كلمة «واجب».

«كيف حالك يا پوليانا؟»، ولم تحظ بفرصة لقول المزيد، فقد طارت پوليانا عبر الغرفة وألقت بنفسها في حِجر خالتها القاسي المرتاع.

«أوه خالتي پولي، خالتي پولي، لست أدري كيف أكون أسعد لأنك سمحت لي بالقدوم للعيش معك»، أخذت تنشج، «لست تدرين كم جميل أن يكون لدي أنت ونانسي وكل هذا، بعد أن لم يكن عندي سوى النساء المحسنات!».

«ربما، لكني لم أحظ بسعادة التعرف إلى النساء المحسنات»، أجابت الآنسة پولي بجفاء محاولة فك الأصابع الصغيرة المتشابكة، وناظرة بعينين متجهمتين إلى نانسي عند الممر. «هذا يكفي يا نانسي،

بوسعك الذهاب. أما أنت يا بوليانا، فكوني مطيعة من فضلك وقفي باستقامة بطريقة ملائمة. فلست أعرف بعد كيف تبدين».

تراجعت بوليانا في الحال وهي تضحك بشيء من الصخب.

«كلا، لا أظنك تعرفين. غير أنني ليس لدي كثير مما ينظر إليه كما ترين بسبب النمش. أوه، علي أن أشرح لك أمر الثوب القطني الأحمر والقميص الأسود من القطيفة ذي البقعتين البيضاوين على المرفقين. أخبرت نانسي أن أبي...».

«حسن، ليس مهمًا ما قاله أبوك الآن، أظن أن لديك حقيبة؟».

«أوه، أجل فعلًا يا خالتي بولي. حصلت على حقيبة جميلة منحتها لي النساء المحسنات. ليس الكثير فيها، أعني مما يعود إلي. فلم يأتِ في صناديق المعونات الكثير من الثياب المناسبة للفتيات مؤخرًا، لكن فيها كل كتب أبي وقالت السيدة وايت إنها تظن أن علي الاحتفاظ بهذه. أبي كما تعرفين...».

«بوليانا»، قاطعتها خالتها بحدة مرة أخرى، «ثمة أمر واحد لا بد أن تدركيه تمامًا في الحال، وهو أنني لا أهتم باستمرارك بالحديث إليّ عن أبيك».

شهقت الفتاة الصغيرة مرتجفة.

«ويلي يا خالة بولي. أنت... أنت تعنين...»، ترددت وملأت خالتها الصمت.

«سنذهب إلى الأعلى إلى غرفتك. لقد وضعت حقيبتك هناك

سلفًا، كما أظن. أخبرت تموثي أن يأخذها للأعلى، إن كانت لديك حقيبة. اتبعيني يا پوليانا».

استدارت پوليانا وتبعت خالتها خارجتين الغرفة دون أن تتحدث، وكانت عيناها مخضلتين بالدمع لكن ذقنها مرفوعٌ بشجاعة.

«رغم كل شيء أحسب... أحسب أني سعيدة أنها لا تريدني أن أتحدث عن أبي. لعله من الأسهل عليّ أتحدث عنه. وهذا على الأغلب سبب قولها لي ألا أتحدث عنه»، قالت پوليانا في نفسها ورفت بعينيها لتحبس الدمع وأخذت تنظر حولها بحماس، وهي مقتنعة بـ«عطف» خالتها مرة أخرى.

كانت على الدرج، وأمامها تنورة خالتها السوداء الحريرية تحف بأناقة. وخلفها باب أتاح لها نظرة إلى البسط ذات الألوان المريحة للنظر، والكراسي المنجدة بالطيلسان، وتحت قدميها سجادة بديعة تشبه الطحالب الخضراء تمتد إلى الممشى. ولمع في عينيها بريق الإطارات المذهبة للصور وسنا ضوء الشمس خلال الستائر الرقيقة من الدانتيلا.

«أوه، خالتي پولي، خالتي پولي»، شهقت الفتاة الصغيرة منتشية؛ «يا له من بيت جميل، جميل للغاية! لا بد أنك سعيدة جدًا لأنك فاحشة الثراء!».

«پوليانا!»، قالت خالتها ملتفتة بحدة عندما وصلت أعلى الدرج، «يفاجئني منك أن تقولي مثل هذا الكلام لي!».

«عجبًا يا خالتي بولي، ألست سعيدة؟»، سألت بوليانا في دهشة واضحة.

«كلا يا بوليانا قطعًا. آمل ألا أنسى نفسي لينتابني الكِبْر بما رأى الرب أن يسبغه علي من نعم»، أجابت السيدة، «ولن أفخر قطعًا بما منحني من مال».

استدارت الآنسة بولي وقطعت الردهة نحو باب درج العلية. كانت سعيدة أنها وضعت الطفلة في غرفة العلية، إذ رأت في البدء أن تبعد ابنة أختها بقدر المستطاع عنها، وأن تضعها في الوقت نفسه حيث لا تخرب رعونتها الطفولية الأثاث الفاخر. أما وقد رأت نزعة التفاهة التي ظهرت في هذا العمر الباكر، فقد كان من الأفضل أن الغرفة التي خصصت لها بسيطة ومعقولة، حسب رأي الآنسة بولي.

خبّت قدما بوليانا الصغيرتين بحماس خلف خالتها، وحاولت عينها الزرقاوان الكبيرتان بحماس أكبر النظر في كل الاتجاهات دفعة واحدة، حتى لا يفوتها رؤية شيء من جمال هذا البيت الرائع وبهائه. غير أن عقلها اتجه بحماس أكبر نحو المسألة المهمة الرائعة التي توشك على الحل؛ خلف أي من هذه الأبواب الساحرة تنتظرها غرفتها، الغرفة الجميلة العزيزة الملأى بالستائر والبسط والصور، وستكون لها وحدها؟ ثم فتحت خالتها بحدة بابًا وصعدت درجًا آخر.

لم يكن في المكان الكثير مما يرى، جدارٌ عارٍ على كل جانب، وفي أعلى الدرج منبسط واسع معتم يؤدي إلى زوايا قصية يكاد السطح

فيها أن يلامس الأرضية، كُدست فيه صناديق وحقائب لا حصر لها، كما أن المكان حار وخانق أيضًا. رفعت پوليانا رأسها أعلى بعفوية، وبدا أنه يصعب التنفس، ثم رأت أن خالتها فتحت بابًا على يمينها.

«تعالي يا پوليانا، هذه غرفتك، وحقيبتك هنا كما أرى، ألديك مفتاحها؟».

أومأت پوليانا بصمت، إذ كانت عيناها متسعتين وخائفتين قليلًا.

عبست خالتها.

«حين أسألك سؤالًا يا پوليانا أؤثر أن تجيبني بصوت عالٍ، لا أن تجيبي في سرك فحسب».

«حاضر يا خالتي پولي».

«شكرًا لك، هذا أفضل. أظن أن لديك كل ما تحتاجينه هنا»، أضافت وهي تنظر إلى مشجب المناشف وإبريق الماء الممتلئين. «سأرسل نانسي للأعلى لتساعدك في إفراغ متاعك. يقدم العشاء عند السادسة»، ختمت حديثها بذلك وهي تغادر الغرفة وتنزل الدرج.

وقفت پوليانا هادئة لوهلة بعد خروج الخالة وهي تنظر إليها. ثم أدارت عينيها الواسعتين إلى الجدار العاري والأرضية العارية والنوافذ العارية، ثم أدارتها في نهاية المطاف إلى الحقيبة الصغيرة التي

كانت منذ وقت قريب أمامها في غرفتها الصغيرة في البيت البعيد غربًا. ثم تخبطت متقدمة منها وجثت على ركبتيها بجانبها، وهي تغطي عينيها بيديها.

هكذا وجدتها نانسي حين صعدت بعد بضع دقائق.

«هوني عليك أيتها الحبيبة الصغيرة»، ترنمت وهي تنزل إلى الأرض وتجذب الفتاة الصغيرة بين ذراعيها، «كنت أخشى أن أجدك على هذه الحال حقًا».

هزت بوليانا رأسها.

«لكني شريرة سيئة يا نانسي، شريرة للغاية»، نشجت، «لست أستطيع استيعاب أن الرب والملائكة بحاجة لأبي أكثر مني».

«إنهم لا يحتاجونه أكثر»، قالت نانسي بقوة.

«أوه! نانسي!»، جفف الذعر الحارق الدمع في عيني بوليانا.

ابتسمت نانسي ابتسامة خجلة وفركت عينيها بشدة. «حسن، حسن يا طفلة. أنا لم أقصد ذلك»، صاحت بحماس، «هيا، دعينا نخرج مفتاحك ونفتح هذه الحقيبة ونخرج ثيابك سريعًا سريعًا».

أعطتها بوليانا المفتاح دامعة قليلًا وقالت متعلثمة «ليس فيها الكثير من الثياب على أية حال».

«فهذا يعني أننا سنفرغها بسرعة»، قالت نانسي.

ابتسمت بوليانا ابتسامة مشرقة على حين غرة وصاحت «هذا صحيح! يمكن أن أسر بهذا، أليس كذلك؟».

حدقت بها نانسي «ويْ! طبعًا»، أجابت بشيء من الارتياب.

انتهت يدا نانسي الماهرتان من إفراغ الكتب والثياب الداخلية المرقعة، والفساتين القليلة القبيحة. مضت بوليانا، تبتسم بشجاعة، تعلق الثياب في الصوان، وترتب الكتب على الطاولة وتضع الثياب الداخلية في أدراج المنضدة.

«أنا واثقة أنها... أنها ستكون غرفة جميلة جدًا. ألا تظنين هذا؟»، قالت بعد وقت.

لم يأتها جواب، فنانسي منهمكة، كما يبدو، ورأسها في الحقيبة. وقفت بوليانا قرب المنضدة، ونظرت بشيء من الحزن إلى الجدار العاري فوقها.

«كما أن بوسعي أن أسر لعدم وجود مرآة هنا أيضًا، فإن لم تكن في الغرفة مرآة فلن أرى نمشي».

أطلقت نانسي من فمها صوتًا قصيرًا غريبًا، ولكن حين التفتت بوليانا كان رأسها في الحقيبة ثانية. وبعد دقائق قليلة صاحت بوليانا صيحة فرح قرب إحدى النوافذ وصفقت بيديها بمرح.

«أوه، لم أر هذا من قبل يا نانسي»، وتنهدت، «انظري إلى البعيد هناك، إلى هذه الأشجار والبيوت وبرج الكنيسة الجميل ذاك، والنهر يلمع مثل الفضة. حسن يا نانسي لا يحتاج المرء إلى لوحات بوجود هذا المنظر. إنني في غاية السعادة الآن لأنها أسكنتني هذه الغرفة!».

انفجرت نانسي بالبكاء مما فاجأ پوليانا وأخافها، فهرعت إلى ناحيتها بسرعة.

«أوه يا نانسي، ما الأمر يا نانسي؟»، صاحت ثم قالت بخوف «هذه لم تكن غرفتك، أليس كذلك؟».

«غرفتي!»، اغتاظت نانسي بشدة وهي تحبس دموعها «لولا أنك ملاك صغير هبط من السماء مباشرة، ولولا أن بعض الناس يتجرعون الإهانات قبل... أوه يا إلهي! هذا جرسها!» وبعد هذا الخطاب المذهل، نهضت نانسي وخرجت من الغرفة مسرعة ونزلت الدرج مقعقعة.

عادت پوليانا، بعد أن تركت وحدها، إلى «لوحتها» كما وصفت المنظر الجميل من النافذة. ثم مست الإطار بتردد، وبدا أنها لم تعد تستطيع احتمال الحرارة الخانقة. وفرحت لرؤية الإطار يتحرك تحت أصابعها، ثم فتحت النافذة ومالت پوليانا بجسدها إلى الخارج، لتتنشق الهواء النقي العذب.

ثم ركضت نحو النافذة الأخرى، وهذه أيضًا انفتحت سريعًا تحت يديها المتحمستين. مرت ذبابة كبيرة قرب أنفها وطنت طنينًا مزعجًا في الغرفة. ثم دخلت أخرى وأخرى، لكن پوليانا لم تلق بالًا. بل إنها اكتشفت اكتشافًا عظيمًا، إذ تقع أمام هذه النافذة شجرة مدت أغصانًا كبيرة، وبدت لپوليانا أذرعًا ممدودة تدعوها.

فضحكت عاليًا على حين غرة.

«أظن أن بوسعي فعلها»، قهقهت. ثم صعدت إفريز النافذة

برشاقة، ومن هناك سهل عليها أن تتقدم إلى أقرب أغصان الشجرة. وبعدئذ، تشبثت مثل قرد وتأرجحت من غصن لآخر حتى وصلت إلى أخفض الغصون. كان الهبوط إلى الأرض مخيفًا بعض الشيء حتى لدى پوليانا وهي التي اعتادت تسلق الأشجار. غير أنها فعلتها بأنفاس لاهثة، وتأرجحت بذراعيها القويين ثم هبطت على أطرافها الأربعة على العشب الطري، ثم نهضت ونظرت حولها متلهفة.

كانت خلف المنزل، وأمامها حديقة انحنى فيها رجل عجوز يعمل. وخلف الحديقة درب صغير في حقل مفتوح يفضي إلى تلة عالية، انتصبت أعلاها شجرة صنوبر وحيدة لحماية الصخرة الضخمة قربها. في تلك اللحظة بدا لپوليانا أن المكان الأوحد في العالم الذي يستحق الوجود فيه قمة الصخرة الكبيرة تلك.

تخطت پوليانا الرجل العجوز المنحني على عمله وهي تجري وتنعطف برشاقة، وشقت طريقها بين الصفوف المنسقة للنبتات الخضراء النامية، ووصلت وقد انقطعت أنفاسها قليلًا، إلى الدرب الذي يتخلل الحقل الواسع. وبدأت عندئذ بالصعود بعزم. تنبهت لطول الطريق حتى تلك الصخرة، في حين بدت من تلك النافذة شديدة القرب!

وبعد خمس عشرة دقيقة، دقت الساعة الكبيرة في ممر عزبة هارنغتن معلنة أنها السادسة، فقرعت نانسي جرس العشاء عند دقتها الأخيرة بالضبط.

مرت دقيقة واثنتان وثلاث، وتجهمت الآنسة پولي وخبطت

الأرض بخفها. ثم نهضت بشيء من الارتعاش، وذهبت إلى الردهة ونظرت إلى الدرج بنفاد صبر جلي. وأصغت بانتباه لدقيقة، ثم استدارت متجهة إلى غرفة الطعام.

«نانسي»، قالت بحزم ما إن ظهرت الخادمة الشابة، «تأخرت ابنة أختي. كلا، ليس عليك أن تناديها»، أضافت بفظاظة حين تقدمت نانسي صوب باب الردهة. «لقد أخبرتها بموعد العشاء، وعليها الآن أن تتحمل العواقب. كما عليها أن تتعلم دقة المواعيد حالًا. حين تنزل يمكنها تناول الخبز والحليب في المطبخ».

«أجل يا سيدتي»، لعله من حسن الحظ أن الآنسة بولي لم تنظر إلى وجه نانسي عندئذ.

تسللت نانسي في أقرب فرصة سنحت لها بعد العشاء وصعدت الدرج الخلفي ومن ثم إلى غرفة العلية.

«خبز وحليب إذن! كأن الحبيبة الصغيرة لم تبك حتى نامت»، دمدمت بغضب وهي تفتح الباب بهدوء، ثم أطلقت صرخة مذعورة. «أين أنت؟ أين ذهبت؟ أين ذهبت؟»، قالت لاهثة وهي تبحث في الصوان وتحت السرير وفي الحقيبة وأسفل إبريق الماء. ونزلت بعدها وخرجت إلى توم العجوز في الحديقة.

«سيد توم، سيد توم، لقد رحلت تلك الطفلة المباركة»، قالت باكية، «لقد اختفت في السماء من حيث أتت، الحبيبة المسكينة، وقيل لي أن أعطيها الخبز والحليب في المطبخ، لا بد أنها تأكل طعام الملائكة هذه اللحظة، أنا أشهد، أنا أشهد».

اعتدل الرجل العجوز.

«رحلت؟ السماء؟»، ردد بغباء ممعنًا النظر تلقائيًا بسماء الغروب الجميلة. وتوقف وحدق بانتباه ثم التفت بابتسامة بطيئة. «حسن يا نانسي، يبدو أنها حاولت الوصول إلى أقرب موضع من السماء، وهذه حقيقة»، قال وهو يشير بإصبع أعقف إلى حيث جلست فتاة رشيقة تقابل السماء المحمرة يهب عليها النسيم على قمة صخرة كبيرة.

«إذن فهي ليست ذاهبة إلى السماء هذه الليلة، ليس إن قلت ذلك»، قالت بعزم، «إن سألت السيدة أخبرها أنني لم أنس الصحون، غير أنني ذهبت في نزهة». وعدلت كتفيها وهي تسرع باتجاه الدرب الذي يتخلل الحقل الواسع.

الفصل الخامس

اللعبة

«حبًا بالرب يا آنسة پوليانا، لقد أفزعتني أيّما فزع»، لهثت نانسي وهي تسرع في صعود الصخرة الكبيرة، التي انزلقت پوليانا منها نزولًا آسفة.

«أفزعتك؟ أوه، أنا آسفة، ولكن ليس عليك أن تفزعي من أجلي حقًا يا نانسي. لقد اعتاد أبي والنساء المحسنات أن يشعروا بذلك أيضًا حتى تأكدوا أنني أعود دومًا بخير».

«لكني لم أعلم أين ذهبت»، صاحت نانسي وقد تأبطت يد الفتاة الصغيرة وهرعت نازلة التل. «لم أرك تذهبين، ولم يرك أحد، أظنك طرت من السطح، أظن ذلك حقًا».

وثبت پوليانا بجذل.

«لقد فعلت، تقريبًا. عدا أنني طرت للأسفل عوضًا عن الأعلى. لقد هبطت من الشجرة».

توقفت نانسي قليلًا «ماذا... ماذا فعلت؟».

«نزلت من الشجرة، خارج نافذتي».

«يا للهول!»، لهثت نانسي مسرعة ثانية، «أود أن أعرف ما ستقوله خالتك حول ذلك!».

«حقًا؟ حسن، سأخبرها إذن، فتعرفين»، تعهدت الفتاة الصغيرة بمرح.

«يا إلهي الرحيم!»، لهثت نانسي، «كلا، كلا».

«عجبًا، أنت لا تعنين أنها ستغضب!»، هتفت پوليانا محتارة قليلًا.

«كلا... إه... نعم... حسن، لا تهتمي. أنا لست راغبة جدًا بمعرفة ما ستقول حقًا»، تلعثمت نانسي وقد عزمت على أن تحمي پوليانا من التوبيخ، إن لم يكن أكثر. «ولكن علينا أن نسرع. علي أن أنظف الصحون كما تعلمين».

«سأساعدك»، وعدتها پوليانا فورًا.

«أوه يا آنسة پوليانا!»، اعترضت نانسي.

ساد الصمت لحظة، وقد أخذت السماء تعتم بسرعة، وأمسكت پوليانا بذراع نانسي بقوة أكبر.

«أحسب أنني سعيدة على أية حال لشعورك بالخوف قليلًا، لأنك حينئذ جئت لأجلي»، وارتجفت.

«أيتها الحبيبة الصغيرة المسكينة! ولا بد أنك جائعة أيضًا! أخشى

أن كل ما ستتناولينه هو الخبز والحليب في المطبخ معي. استاءت خالتك لأنك لم تنزلي لتناول العشاء كما تعرفين».

«لكني لم أستطع، فقد كنت في الأعلى هنا».

«أجل، لكنها لا تدري بذلك كما تعرفين»، قالت نانسي وهي تجهد في كبح ضحكة، «أنا حزينة بشأن الخبز والحليب، حقًا».

«أوه، أنا لست كذلك، أنا سعيدة».

«سعيدة! لماذا؟».

«حسن، إنني أحب تناول الخبز والحليب، وأود تناوله معك. لست أرى أي سوء في سعادتي بهذا».

«يبدو أنك لا تجدين صعوبة في أن تسعدي بأي شيء»، قالت نانسي وقد حزنت قليلًا لتذكرها محاولات پوليانا الشجاعة لتحب الغرفة الجرداء الصغيرة في العلية.

«حسن، هذه هي اللعبة على أية حال كما تعلمين».

«اللعبة؟!».

«أجل، لعبة «السعادة»».

«ما الذي تتحدثين عنه بحق السماء؟».

«حسن، إنها لعبة. علمني إياها أبي وهي ممتعة»، ردت پوليانا، «لقد لعبناها دومًا، منذ أن كنت فتاة صغيرة صغيرة. لقد علمتها للنساء المحسنات، ولعبنها؛ بعض منهن».

«وما هي؟ لست خبيرة بالألعاب على أية حال».

ضحكت بوليانا غير أنها تنهدت أيضًا، وتحت الشفق الكثيف بدا وجهها نحيلًا وحزينًا.

«حسن، لقد بدأناها لوصول بعض العكازات في صندوق المعونات».

«عكازات؟!».

«أجل. لقد أردت دمية، وكتب لهم أبي بذلك. ولكن حين وصل الصندوق كتبت السيدة أنه لم تصلهم أية دمى، بل وصل عكازان صغيران. فأرسلتها لأن طفلًا ما قد يحتاجها يومًا ما. وبدأت اللعبة حينئذ».

«حسن، علي القول إنني لا أرى أية لعبة في هذا»، قالت نانسي بشيء من الاستياء.

«أوه، بلى. كانت اللعبة في العثور على شيء ما يسعدنا في كل شيء، أيًا كان»، أجابت بوليانا بهدوء، «وبدأنا عندئذ، بالعكازات».

«يا إلهي! لست أرى شيئًا يسعد في الحصول على عكازين في حين أنك أردت دمية».

صفقت بوليانا.

«هذا هو الأمر، هذا هو»، زعقت، «لكني لم أستطع رؤيته أيضًا في البدء يا نانسي»، أضافت سريعًا بصدق، «وكان أبي من أخبرني به».

«أظنك ستخبرني إذن»، أجابت نانسي بسرعة.

«يا إلهي! عليك أن تكوني سعيدة لأنك لا تحتاجينها»، أجابت بوليانا جذلة، «إنها سهلة للغاية كما ترين حين تعرفين كيف تلعبينها!».

«يا لها من لعبة غريبة!»، شهقت نانسي متفحصة بوليانا بعينين خائفتين.

«أوه، لكنها ليست غريبة، بل إنها جميلة»، أصرت بوليانا بحماس، «وقد لعبناها على الدوام. وكلما صعبت ازدادت متعتها، إلا أنها تصبح أحيانًا... تصبح صعبة جدًا، مثلما يحدث حين يذهب والدك إلى السماء، ولا يبقى لك أحد إلا النساء المحسنات».

«أجل، أو حين تُسكنين في غرفة صغيرة قبيحة بعيدة في أعلى المنزل دون أي شيء فيها»، تذمرت نانسي، فتنهدت بوليانا وأقرت:

«كان هذا صعبًا في بادئ الأمر، وبخاصة أنني كنت وحيدة. لم أشعر برغبة في لعب اللعبة على أية حال، وتمنيت أشياء جميلة! ثم تذكرت عِظم كرهي لرؤية نمشي في المرآة، ورأيت تلك اللوحة الجميلة من النافذة أيضًا، فأدركت عندئذ أنني سأعثر على الأشياء التي تشعرني بالسعادة. حين يبحث المرء عن الأمور السعيدة ينسى الأمور الأخرى، مثل الدمية التي أردتها، كما تعرفين».

«أف!» اختنقت نانسي محاولة ابتلاع غصة في حلقها.

تنهدت بوليانا قائلة «إنها لا تستغرق وقتًا معظم الأحيان، وأجد نفسي أفكر في الأمور السعيدة دون تفكير في كثير من المرات، كما

ترين. لقد اعتدت كثيرًا على لعبها. إنها لعبة رائعة. أحببناها أنا وأ... وأبي كثيرًا»، قالت متلعثمة، «لكني أظنها ستصبح أصعب، ما دمت لا أجد أحدًا يلعبها معي. لعل الخالة پولي تلعبها»، أضافت مستدركة.

«يا للهول!... هي؟!»، قالت نانسي لاهثة في سرها. ثم قالت بصوت عالٍ بشيء من الإصرار «أصغي إليّ يا آنسة پوليانا، لست أقول إنني سألعبها جيدًا، ولست أقول إنني أعرف كيف أفعل، على أية حال، لكني سألعب معك بصورة ما، سأفعل حتمًا!».

«أوه يا نانسي، سيكون هذا رائعًا. سنستمتع أليس كذلك؟»، تهللت پوليانا وقد عانقتها عناقًا مبتهجًا.

«إه، ربما»، سلمت نانسي بريبة جلية، «غير أنك يجب ألا تعتمدي علي كثيرًا، فلم أكن يومًا ماهرة في الألعاب. لكني سأبذل قصارى جهدي في هذه اللعبة، فيكون لديك أحد يلعب معك على أية حال»، ختمت قولها وهما تدخلان المطبخ سويًا.

تناولت پوليانا الخبز والحليب بشهية مفتوحة، ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس، بناء على اقتراح نانسي، حيث جلست خالتها تقرأ.

رفعت الآنسة پولي نظرها ببرود.

«هل تناولت عشاءك يا پوليانا؟».

«أجل يا خالتي پولي».

«يؤسفني يا پوليانا أنني اضطررت لإرسالك إلى المطبخ لتناول الخبز والحليب هكذا».

«لكني سررت كثيرًا بفعلك هذا يا خالتي پولي، فأنا أحب الخبز والحليب ونانسي أيضًا، فلا تشعري بالاستياء حيال هذا البتة».

جلست الخالة پولي في كرسيها بتحفز أكثر.

«لقد حان الوقت لتخلدي إلى الفراش يا پوليانا، فقد قضيت يومًا شاقًا، وعلينا أن نخطط غدًا لتنظيم وقتك ونتفقد ثيابك لنرى إن كنت بحاجة لشراء بعض منها. ستعطيك نانسي شمعة، فكوني حذرة في حملها. سيقدم الإفطار في السابعة والنصف، احرصي على أن تنزلي على الموعد. طابت ليلتك».

تقدمت پوليانا نحو خالتها، بحكم العادة، وعانقتها عناقًا محبًا.

«لقد قضيت وقتًا رائعًا حتى الآن»، تنهدت بسعادة، «وأعلم أنني سأسر بالعيش معك، ولكني عرفت هذا قبل مجيئي. طابت ليلتك»، قالت بمرح وهي تجري خارجة من الغرفة.

«يا للعجب!»، قالت الآنسة پولي بصوت عالٍ قليلًا، «يا لها من طفلة غريبة!»، ثم تجهمت وقالت «إنها «سعيدة» لأنني عاقبتها، «وليس علي أن أشعر بالاستياء البتة»، و«ستحب العيش» معي! حسن، يا للعجب!» كررت الآنسة پولي قولها، وهي تحمل كتابها.

بكت الفتاة الصغيرة الوحيدة، بعد مضي خمس عشرة دقيقة في غرفة العلية تحت الملاءة التي تشبثت بها بقوة «أعلم يا أبي الذي يتوسط الملائكة أنني لا ألعب اللعبة الآن، البتة. غير أنني لا أظنك أنت أيضًا ستجد شيئًا يسرك في النوم وحدك بعيدًا في الأعلى هنا

في العتمة هكذا. لو كنت قريبة من نانسي أو الخالة پولي، أو حتى النساء المحسنات، لكان الأمر أسهل!».

في المطبخ في الأسفل، لطمت نانسي التي تتعجل إنهاء عملها المتأخر إبريقَ الحليب بخرقة الصحون ودمدمت وهي ترتعد «إن كان لعب لعبة سخيفة بأن يسعد المرء لحصوله على عكازين بدلًا من الدمى، فستكون تلك طريقتي في أن أصبح صخرة الملاذ تلك، حسن، سألعبها، سأفعل!».

الفصل السادس
مسألة واجب

كانت الساعة قرابة السابعة عندما استيقظت پوليانا في أول يوم لها بعد وصولها. واجهت نوافذها الجنوب والغرب، فلم تر الشمس بعد، غير أنها رأت الزرقة الضبابية لسماء الصبح، وعلمت أن النهار يوحي بأنه سيكون نهارًا جميلًا. كانت الغرفة الصغيرة أبرد، وهب النسيم نقيًا وعذبًا. زقزقت الطيور بمرح في الخارج، وأسرعت پوليانا إلى النافذة لتتحدث إليها. فرأت عندئذ في الأسفل في الحديقة أن خالتها قد خرجت إلى شجيرات الورد. فارتدت ثيابها بسرعة لتنضم إليها. نزلت پوليانا درج العلية مسرعة تاركة البابَين مفتوحين على مصراعيهما، وقطعت الردهة ونزلت الطبقة الأخرى، ثم صفقت الحاجز المنخلي للباب الأمامي وركضت حول الحديقة.

مالت الخالة پولي، مع الرجل العجوز المحدودب الظهر، على شجيرة ورد حين ألقت پوليانا بنفسها عليها، وهي تقهقه فرحًا.

«أوه يا خالتي پولي، أحسب أني سعيدة هذا الصباح لكوني على قيد الحياة فحسب يا خالتي پولي!».

«بوليانا!» اعترضت السيدة بحزم، محاولة الاعتدال بقدر مستطاعها وهي تجر وزنًا بثقل تسعين رطلًا يتدلى حول عنقها، «أهذه طريقتك المعتادة لقول صباح الخير؟».

وقفت الفتاة على أصابع قدميها، ورقصت بخفة جيئة وذهابًا.

«كلا، غير أنني لا أستطيع منع نفسي إن أحببت أحدهم! لقد رأيتك من نافذتي يا خالتي بولي، وخطر لي أنك لست من النساء المحسنات، بل خالتي الحقيقية، كما بدوت جميلة جدًا فنزلت لأعانقك!».

أدار الرجل المحدودب ظهره فجأة، وحاولت الآنسة بولي أن تعبس، غير أنها لم تفلح على غير عادتها.

«بوليانا، إنك... أنا... هذا يكفي لهذا الصباح يا توماس. أظنك فهمت ما قلت حول شجيرات الورود تلك»، قالت بجفاف واستدارت ومضت مبتعدة بسرعة.

«هل تعمل في الحديقة دومًا أيها السيد الرجل؟»، سألت بوليانا باهتمام.

التفت الرجل، وكانت شفتاه مزمومتين غير أن عينيه غائمتان كأنهما مخضلتان بالدمع.

«أجل يا آنسة. أنا توم العجوز، البستاني»، أجابها بلطف، غير أنه مد يده المرتعشة، كأنما دفع بقوة لا تقاوم، ومسد بها على شعرها اللامع. «إنك تشبهين أمك كثيرًا يا آنستي الصغيرة! لقد عرفتها

منذ أن كانت طفلة أصغر منك، إذ عملت في الحديقة حينئذ كما ترين».

شهقت بوليانا بصوت مسموع.

«حقًا؟ وعرفت أمي فعلًا حين كانت ملاكًا أرضيًا صغيرًا، لا ملاكًا في السماء؟ أوه، احك لي عنها من فضلك!»، وجلست بوليانا وسط الدرب الترابي قرب الرجل العجوز.

سمع صوت جرس من البيت، ثم شوهدت نانسي تخرج مسرعة من الباب الخلفي.

«هذا الجرس يعني موعد الإفطار يا آنسة بوليانا، صباح الخير»، قالت لاهثة وهي تجذب الفتاة الصغيرة لتنهضها وتسرع بها عائدة إلى البيت، «والجرس في المواعيد الأخرى يعني الوجبات الأخرى، إلا إنه يعني دومًا أن عليك الجري مثل الزمن عند سماعه، أينما كنت. وإن لم تفعلي، حسن، سيتطلب الأمر منا مجهودًا أكبر للعثور على شيء نسر به في ذلك!»، فرغت من كلامها وهي تهش لإدخال بوليانا إلى البيت كما تهش على دجاجة عنيدة في حظيرة.

كان الإفطار وجبة صامتة، في الدقائق الخمس الأولى منه، ثم قالت الآنسة بولي بصرامة وعيناها المستنكرتان تلاحقان الأجنحة الخفيفة لذبابتين تطيران هنا وهناك فوق المائدة «من أين أتت هاتان الذبابتان يا نانسي؟».

«لست أدري يا سيدتي. ليس في المطبخ واحدة»، كانت نانسي شديدة القلق ولم تلحظ نافذتي بوليانا المفتوحتين بعد ظهر أمس.

«أحسبها ذبابتيّ يا خالتي بولي»، قالت بوليانا بدماثة، «في الأعلى كان الكثير منها يقضي وقتًا ممتعًا هذا الصباح».

غادرت نانسي الغرفة على عجل، رغم أنها حين فعلت حملت معها الكعكات الساخنة التي جلبتها لتوها.

«ذباباتك؟! ماذا تعنين؟ من أين أتتا؟». قالت الآنسة بولي.

«حسن يا خالتي بولي، لقد أتتا من الخارج عبر النافذة. لقد رأيت بعضها يدخل».

«رأيت بعضها؟! هل تعنين أنك فتحت النوافذ التي ليس لها حواجب منخلية؟».

«أجل، لم يكن عليها أي حواجب منخلية يا خالتي بولي».

دخلت نانسي ثانية هذه اللحظة عائدة بالكعكات، وكان وجهها جادًا لكنه شديد الحمرة.

«نانسي»، نادتها السيدة بحدة، «يمكنك وضع الكعكات واذهبي حالًا إلى غرفة بوليانا وأغلقي النوافذ، وأغلقي الأبواب أيضًا. حين تفرغين من عملك الصباحي فيما بعد، ادخلي كل غرفة حاملة مضرب الذباب، واحرصي على أن تفتشي الغرف جيدًا».

وقالت لابنة أختها «لقد طلبت حواجب منخلية يا بوليانا لتلك النوافذ. أعلم طبعًا أن من واجبي فعل ذلك، ولكن يبدو لي أنك نسيت واجبك تمامًا».

«واجبي؟!»، اتسعت عينا بوليانا دهشة.

«طبعًا. أعلم أن الغرفة حارة، غير أنني أرى أن واجبك أن تبقي نوافذك مغلقة حتى تصل الحواجب المنخلية. إن الذباب يا بوليانا ليس قذرًا ومزعجًا فحسب، بل خطيرًا على صحتك أيضًا. سأعطيك بعد الإفطار كتيبًا صغيرًا حول هذا الأمر لتقرأيه».

«لأقرأه؟ أوه، شكرًا لك يا خالتي بولي، فأنا أحب القراءة!».

أخذت الآنسة بولي نفسها بصوت مسموع، ثم زمت شفتيها بقوة. وحين رأت بوليانا وجهها الصارم، قطبت بشيء من الجدية.

«أنا آسفة طبعًا لنسياني واجبي يا خالتي بولي، ولن أرفع النوافذ ثانية»، اعتذرت بدماثة.

لم تجب خالتها، بل إنها لم تتحدث حتى انتهتا من الطعام. ثم نهضت ومضت نحو رف الكتب في غرفة الجلوس، وأخذت كتيبًا صغيرًا وذرعت الغرفة نحو ابنة أختها.

«هذا هو المقال الذي تحدثت عنه. أرجو منك أن تذهبي إلى غرفتك حالًا وتقرأيه. سأصعد بعد نصف ساعة لأنظر في متاعك».

هتفت بوليانا بجذل وهي تنظر إلى رسمة وجه الذبابة، المكبر عدة مرات «أوه، شكرًا لك يا خالتي بولي!» ثم جرت خارجة من الغرفة بفرح وهي تصفق الباب خلفها.

عبست الآنسة بولي وترددت ثم عبرت الغرفة بوقار وفتحت الباب، إلا أن بوليانا اختفت عن الأنظار سريعًا، وهي تقعقع على درج العلية.

بعد نصف ساعة صعدت الآنسة بولي هذه الدرجات، ووجهها يوحي بالواجب الملحّ في كل تقاطيعه، ودخلت غرفة بوليانا التي حيتها بدفقة حماس ولهفة.

«أوه لم أرَ شيئًا جميلًا وممتعًا للغاية هكذا في حياتي يا خالتي بولي. أنا سعيدة لأنك أعطيتني الكتاب لأقرأه. حسن، لم أعلم أن الذباب يمكنه حمل الكثير من الأشياء في أقدامه و...».

«هذا يكفي»، قالت الآنسة بولي بوقار، «أخرجي ثيابك الآن يا بوليانا لأراها. ما لا يناسبك سأهبه لآل سولِڤان طبعًا».

وضعت بوليانا الكتيب بشيء من التردد واتجهت نحو الصوان.

«أخشى أن تريها أسوأ مما تظنها النساء المحسنات، اللاتي قلن إنها مخزية»، تنهدت، «لكن آخر صندوقي معونات أو ثلاثة لم يكن فيها إلا ثياب أولاد أو ثياب للكبار و... هل أخذت يومًا من صندوق معونات يا خالتي بولي؟».

وعند رؤية نظرة خالتها الغاضبة المذهولة صححت بوليانا قولها على الفور. «حسن، كلا طبعًا لم تفعلي يا خالتي بولي»، وأسرعت مواصِلة وقد احمر وجهها، «لكني أنسى أحيانًا أنك ثرية، حين أكون في الأعلى هنا في هذه الغرفة كما ترين».

انفرجت شفتا الآنسة بولي بازدراء، لكنها لم تحر جوابًا. من الواضح أن بوليانا لم تدرك أنها قالت شيئًا سيئًا البتة، بل واصلت «كما وددت القول إنك لا تستطيعين معرفة شيء عن صناديق

المعونات، عدا أنك لن تجدي فيها ما تظنين أنك ستحصلين عليه، بل حتى إن ظننت أنك لن تجديه. لقد كانت الصناديق أيضًا مما يصعب لعب اللعبة حوله لأن أبي و...».

تذكرت بوليانا في الوقت المناسب أنها يجب ألا تحدث خالتها عن أبيها، فغاصت في صوانها وأخرجت على عجل كل الثياب الرثة القليلة بين ذراعيها.

«إنها ليست جميلة مطلقًا»، قالت بغصة، «ولولا مال السجادة الحمراء من أجل الكنيسة لكانت سوداء، غير أنها كل ما أملك».

قلّبت الآنسة بولي بأناملها كومة الثياب، التي بدا واضحًا أنها صنعت من أجل أي أحد غير بوليانا. ثم أولت عنايتها، عابسة، الثياب الداخلية المرقعة في جوارير المنضدة.

«لقد ارتديت أفضلها»، اعترفت بوليانا بقلق، «لقد اشترت لي النساء المحسنات طقمًا واحدًا جديدًا تمامًا. فقد أخبرتهن السيدة جونز، وهي رئيستهن، أنه لا بد من شرائه لي ولو اضطررن أن يقعقعن بأحذيتهن على المشى الأجرد في الكنيسة لما تبقى من حياتهن. لكنهن لن يفعلن، فالسيد وايت لا يحب الضجيج. تقول زوجته إنه عصبي، غير أنه غني أيضًا، ويتوقع أن يقدم كثيرًا من المال لشراء السجاد، من أجل الأعصاب كما تعرفين. أظن أن عليه أن يسر لأنه وإن كان عصبيًا، فهو غني أيضًا، ألا ترين ذلك؟».

لا يبدو أن الآنسة بولي تصغي، وقد فرغت من تفحصها للثياب الداخلية، فالتفتت نحو بوليانا بعجلة نوعًا ما.

«لقد ارتدتِ المدرسة يا بوليانا حتمًا، صحيح؟».

«أوه أجل يا خالتي بولي، كما أن أبـ... أعني أنني تعلمت في البيت أيضًا». عبست الآنسة بولي.

«جيد جدًا. ستدخلين المدرسة هنا في الخريف طبعًا. وسيقرر السيد هول، مدير المدرسة، في أي صف يضعك. وحتى ذلك الوقت أظن أن علي سماعك وأنت تقرأين جهرًا لنصف ساعة كل يوم».

«أحب القراءة، ولكن إن لم ترغبي بالاستماع إلي، فيسعدني القراءة لنفسي حقًا يا خالتي بولي. ولن أجهد في محاولة أن أكون سعيدة أيضًا، لأنني أحب القراءة لنفسي، لأجل الكلمات الكبيرة كما تعرفين».

«لست أشك في هذا»، أجابت الآنسة بولي عابسة، «وهل تعلمت الموسيقى؟».

«ليس كثيرًا، فأنا لا أهوى العزف، رغم أنني أحب عزف الآخرين. تعلمت العزف على البيانو قليلًا، إذ علمتني الآنسة غراي التي تعزف في الكنيسة. غير أنني سأنسى ذلك سريعًا يا خالتي بولي، سأفعل حتمًا».

«هذا مؤكد»، قالت الآنسة بولي وهي ترفع حاجبها قليلًا، «ورغم ذلك، أظن أن من واجبي أن أحرص على أن تتعلمي أصول الموسيقى جيدًا. وأنت تتقنين الخياطة طبعًا؟».

«أجل يا سيدتي»، تنهدت بوليانا، «لقد علمتني النساء المحسنات. لكني قضيت وقتًا مريعًا، إذ لم تقتنع السيدة جونز بحمل الإبرة كما تفعل البقية عند صنع عرى الأزرار، ورأت السيدة وايت أن علي تعلم غرزة الشلالة قبل غرزة اللقطة العادية (أو العكس)، ولم تقتنع الآنسة هاريمان في تعليمي الترقيع أبدًا».

«حسن، لن تواجهي أي مشكلة من هذا النوع يا بوليانا، فأنا سأعلمك الخياطة بنفسي طبعًا. أظنك لا تجيدين الطبخ».

ضحكت بوليانا فجأة.

«لقد بدأن بتعليمي هذا الصيف، غير أنني لم أحرز تقدمًا. فقد انقسمن في هذا الأمر أكثر مما فعلن في أمر الخياطة. فقد أردن البدء بالخبز، إلا أن إحداهن لم تصنع خبزًا بمثل طريقة الأخرى، وبعد أن تجادلن حول الأمر في أحد دروس الخياطة، اتفقن على أن ينظمن أدوارًا بينهن على أن أزورهن قبل الظهر مرة في الأسبوع في مطبخ كل واحدة منهن كما تعلمين. وقد تعلمت كعكة الشوكولاته الطرية، وكعكة التين عندما... عندما اضطررت للتوقف»، وتهدج صوتها.

«كعكة الشوكولاته الطرية وكعكة التين إذن!»، قالت الآنسة بولي هازئة، «أظن أن بوسعنا إصلاح ذلك قريبًا»، ثم صمتت مفكرة للحظة ثم تابعت ببطء «ستقرأين لي جهرًا في الساعة التاسعة من كل صباح ولنصف ساعة، وقبل هذا ستستغلين الوقت لترتيب هذه الغرفة. ستقضين قبل الظهر أيام السبت والأربعاء في

المطبخ مع نانسي لتتعلمي الطبخ، وستقضين الأصباح الأخرى في الخياطة معي، هذا سيسمح لك بتعلم الموسيقى بعد الظهر. سأعين معلمًا لك في الحال»، فرغت من حديثها بحسم وهي تنهض من كرسيها.

فقالت پوليانا في ذعر.

«أوه، ولكنك لم تتركي لي أي وقت لأعيش فحسب يا خالتي پولي».

«لتعيشي يا صغيرة! ماذا تعنين؟ كأنك لست حية طوال الوقت!».

«أوه، إنني أتنفس طبعًا طوال الوقت الذي أفعل فيه هذه الأمور يا خالتي پولي، لكني لا أحيا فيها. يتنفس المرء وهو نائم لكنه لا يحيا. وأنا أعني بالحياة أن أفعل الأشياء التي أحب فعلها، من قبيل اللعب في الخارج، والقراءة (لنفسي طبعًا)، وتسلق التلال، والتحدث إلى السيد توم في الحديقة، ونانسي والتعرف على كل المنازل والناس وكل شيء في كل مكان عبر الشوارع الجميلة للغاية التي مررت بها البارحة. هذا ما أسميه حياة يا خالتي پولي، أما التنفس وحده ليس بحياة!».

رفعت الآنسة پولي رأسها باستياء.

«إنك أكثر الأطفال غرابة يا پوليانا! سيتاح لك وقت كافٍ للعب طبعًا. ولكني أظن أنني إن كنت مستعدة لأداء واجبي في الحرص على تلقيّك لرعاية وتعليم لائقين، فإن عليك أن تكوني

مستعدة لأداء واجبك بالحرص على ألا يذهب هذا التعليم والرعاية هباء بجحود».

نظرت پوليانا بذهول.

«أوه، وكأنني سأكون جاحدة لعطفك يا خالتي پولي! عجبًا، إنني أحبك، وأنت لست من النساء المحسنات، بل أنت خالتي!».

«حسن جدًا، فاحرصي إذن على ألا تتصرفي بجحود»، تلطفت الآنسة پولي وهي تلتفت نحو الباب.

لقد نزلت نصف الدرج عندما نادى صوت مرتجف صغير خلفها «عفوًا يا خالتي پولي، لم تخبريني أي من ثيابي تريدين... تريدين التبرع بها».

تنهدت الخالة پولي تنهيدة قصيرة، تنهيدة صعدت إلى أذني پوليانا.

«أوه، نسيت إخبارك يا پوليانا. سيأخذنا تموثي إلى البلدة عند الواحدة والنصف من بعد ظهر اليوم. ما من شيء من ثيابك ملائم لترتديه ابنة أختي. سأكون أبعد ما يكون عن أدائي واجبي حتمًا إن جعلتك ترتدين أحدها».

تنهدت پوليانا، وقد اقتنعت أنها ستكره هذه الكلمة؛ الواجب.

«من فضلك يا خالتي پولي، أليس ثمة فرصة لأن تكوني سعيدة بهذا الواجب؟».

«ماذا؟»، نظرت الآنسة پولي بدهشة مسببة للدوار، ثم استدارت على حين غرة ونزلت الدرج غاضبة بوجنتين حمراوين.

«لا تكوني وقحة يا پوليانا!».

ألقت پوليانا بنفسها على كرسي قائم الظهر في غرفة العلية الصغيرة الحارة، ولاحت الحياة أمامها جولة لا نهائية من الواجب.

«لست أدري حقًا ما الوقاحة في هذا؟»، تنهدت، «سألت إن كان بوسعها إخباري شيئًا أسر به في كل مسألة الواجب هذه فحسب».

جلست پوليانا في صمت لبضع دقائق، وقد ثبتت عينيها الحزينتين على كومة الثياب الرثة على السرير، ثم نهضت ببطء وأخذت تبعد الثياب.

«ما من شيء يمكنني أن أسر به، هذا ما أراه»، قالت بصوت عال، «إلا... أن أكون سعيدة بأدائي للواجب!»، وضحكت فجأة عندئذ.

الفصل السابع

بوليانا والعقاب

أخذ تموثي الآنسة بولي وابنة أختها في الساعة الواحدة والنصف إلى أربعة متاجر أو خمسة، تبعد نصف ميل تقريبًا عن العزبة.

تبين أن شراء ثياب جديدة ملائمة لبوليانا تجربة مثيرة لكل الأطراف، وخرجت منها الآنسة بولي بإحساس واهن من الارتياح، كالذي يشعر به المرء عندما يجد نفسه واقفًا على أرض صلبة بعد مشي محفوف بالمخاطر على القشرة الرقيقة لبركان. وخرج الموظفون الذين خدموا السيدتين بوجوه محمرة وحكايات عن بوليانا تكفي لإبقاء أصدقائهم في عاصفة من الضحك لبقية الأسبوع. أما بوليانا فقد خرجت منها بابتسامات مشرقة وقلب راضٍ، لأنه «إن لم يكن للمرء أحد سوى صندوق المعونات والنساء المحسنات ليتولوا أمر ثيابه، فسيكون من الجميل للغاية دخوله وشراؤه ثيابًا جديدة، لا يحتاج إلى طيها أو بسطها لأنها لا تلائمه!»، كما قالت لأحد الموظفين.

استمرت رحلة التسوق بعد الظهيرة بأكملها، ثم حان وقت العشاء تلاه حديث ممتع مع توم العجوز في الحديقة، وحديث آخر

مع نانسي على السقيفة الخلفية بعد تنظيف الصحون، حين كانت الخالة پولي في زيارة للجيران.

أخبر توم العجوز پوليانا أمورًا رائعة عن أمها أسعدتها كثيرًا، وأخبرتها نانسي عن المزرعة الصغيرة التي تبعد ستة أميال في ذا كورنرز، حيث تعيش أمها الحبيبة أخوها وأختاها الأحباء. كما وعدتها أيضًا أن تأخذها لرؤيتهم، إن سمحت الآنسة پولي بذلك.

«كما أن لهم أسماء جميلة، ستعجبك أسماؤهم»، تنهدت نانسي، «فهم ألجرنن وفلورابل وإستل. إنني أكره اسم نانسي!».

«أوه يا نانسي! يا له من شيء مريع قوله! لماذا؟».

«لأنه ليس جميلًا بقدر البقية. تعرفين أنني كنت الطفلة الأولى، ولم تكن أمي قد قرأت الكثير من القصص التي تحوي أسماء جميلة عندئذ».

«لكني أحب اسم نانسي، لأنه أنت»، أجابت پوليانا.

«آه! حسن، أظنك ستحبين «كلارِسا ميبل» بالقدر نفسه»، أجابت نانسي، «وسأكون أسعد، إذ أظن هذا الاسم فخمًا!».

ضحكت پوليانا وقهقهت «حسن، على أية حال بوسعك أن تسري أنك لست «حفصيبه»»[1].

««حفصيبه»؟!».

(١) زوجة حزقيا الوارد ذكره في سفر الملوك.

«أجل، إنه اسم السيدة وايت، وزوجها يناديها حف، وهي لا تحب ذلك، إذ تقول إنه حين ينادي «حف! حف!» تشعر أنه سيهتف تاليًا «مرحى!»، وهي لا تحب أن يهلل لها أحد».

ارتخى وجه نانسي العابس في ابتسامة عريضة.

«يا للروعة! اسمعي هل تعرفين؟ لن أسمع اسم نانسي الآن دون أن أتذكر «حف! حف!» وأضحك. يا إلهي، أظنني سعيدة»، صمتت بسرعة وأدارت عينين مندهشتين نحو الفتاة الصغيرة، «هل تعنين يا آنسة بوليانا... هل كنت تلعبين تلك اللعبة إذن، في أن أكون سعيدة لأن اسمي ليس حفصيبه؟».

قطبت بوليانا ثم ضحكت.

«عجبًا يا نانسي، هذا صحيح! كنت ألعب اللعبة، لكن هذه إحدى المرات التي فعلتها دون تفكير، كما أحسب. كما تعرفين، حين تفعلين شيئًا مرات كثيرة فأنت تعتادينه، أعني البحث عن شيء يسعدك. وفي معظم الأحيان ثمة شيء في كل شيء يمكن أن يسعدك، إن واصلت البحث للعثور عليه».

«حسن، ر... ربما»، اعترفت نانسي بارتياب صريح.

خلدت بوليانا إلى الفراش في الثامنة والنصف. لم تصل الحواجب المنخلية بعد، وكانت الغرفة الصغيرة المغلقة مثل الفرن. نظرت بوليانا بعينين متلهفتين إلى النوافذ المغلقة، لكنها لم تفتحها. خلعت ثيابها وطوتها بعناية وتلت صلواتها ونفخت على شمعتها وصعدت إلى فراشها.

استلقت في أرق بائس، تتقلب من جانب لآخر على السرير الحار الصغير. ولم تعرف الوقت غير أنه بدا لها أن ساعات مرت قبل أن تنزلق خارجة من الفراش، وتحسست طريقها في الغرفة وفتحت الباب.

في الخارج، في العلية الرئيسة كانت العتمة حالكة إلا حيث صنع القمر دربًا من الفضة من الروشن الشرقي في منتصف الطريق عبر الأرضية. التقطت پوليانا نفسًا سريعًا وخطت متقدمة نحو الدرب الفضي وإلى النافذة، عازمة على تجاهل العتمة المخيفة.

لقد أملت، بصورة ما، أن يكون لهذه النافذة حاجب منخلي لكنها لم تجد. على أية حال، امتد في الخارج عالم واسع جميل جمالًا ساحرًا، وعرفت أن في الخارج أيضًا هواء نقيًا عذبًا سيكون ناعمًا على اليدين والوجنتين الساخنة!

حين اقتربت أكثر واسترقت نظرة إلى الخارج بلهفة، رأت شيئًا آخر؛ فقد رأت، تحت النافذة بقليل، سطح الصفيح الواسع المستوي لحجرة الآنسة پولي الشمسية قائم فوق المدخل المسقوف، فغمرها المنظر بشوق بأن تكون في الخارج هناك الآن!

نظرت خلفها بخوف. ففي الخلف غرفتها الصغيرة الحارة وفراشها الحار للغاية، غير أن بينها وبينها تقع صحراء مرعبة من العتمة لا بد أن يتحسس المرء طريقه عبرها بذراعين ممدودين وجلين، أما أمامها على سطح الحجرة الشمسية خارجًا كان نور القمر ونسيم الليل العذب البارد.

ليت فراشها هناك! ينام الناس في الخارج، فجويل هارتلي في الديار المعتلة بالسل اضطرت للنوم خارجًا.

تذكرت پوليانا فجاة أنها رأت قرب نافذة العلية هذه صفًا من الأكياس الطويلة البيضاء تتدلى من المسامير. قالت نانسي إنها تحوي ثياب الشتاء، وقد رفعت لحلول الصيف. تحسست پوليانا دربها بشيء من الخوف إلى هذه الأكياس واختارت واحدًا طريًا ممتلئًا (كان فيه معطف الآنسة پولي المصنوع من جلد الفقمة) لتجعله فراشًا لها، وآخر أخف لتجعل منه وسادة وثالث (كان خفيفًا جدًا وبدا أنه فارغ تقريبًا) ليكون غطاء. وهكذا بعد أن أعدت عدتها تقدمت پوليانا جذلة إلى النافذة المضاءة بنور القمر، ورفعت الزجاج، وألقت بحملها إلى السطح في الأسفل، ثم نزلت خلفه مغلقة النافذة بحذر خلفها، إذ لم تنس پوليانا الذبابات ذات الأقدام العجيبة التي تحمل الأشياء.

يا لها من برودة منعشة! رقصت پوليانا جيئة وذهابًا فرحًا، وهي تشهق شهقات طويلة عميقة من الهواء المنعش. فرقع سطح الصفيح تحت أقدامها بأصوات تردد صداها أحبتها پوليانا. بل إنها مشت ذهابًا وإيابًا لثلاث مرات أو أربع من طرف لآخر، فقد منحها إحساسًا بهيجًا بالفضاء المفتوح بعد الغرفة الصغيرة الحارة، وكان السطح واسعًا ومستويًا للغاية فلم تخش السقوط منه. وفي نهاية المطاف لفت نفسها، بتنهيدة رضا، على حشية معطف جلد الفقمة، وجعلت من أحد الأكياس وسادة والآخر غطاء وتهيأت للنوم.

«أنا سعيدة جدًا الآن لأن الحواجب المنخلية لم تأت»، همهمت وهي تغمز للنجوم، «وإلا لما حصلت على هذا!».

في الأسفل في غرفة الآنسة بولي المجاورة للحجرة الشمسية، وجدت الآنسة بولي نفسها تهرع لارتداء مبذلها وخفها وقد شحب وجهها خوفًا. لقد هاتفت تموثي بصوت مرتعش قبل دقيقة: «تعال بسرعة! أنت وأبوك وأحضرا مصابيح. أحدهم على سطح الحجرة الشمسية. لا بد أنه تسلق تعريشة الورد أو غيرها ويمكنه حتمًا أن يدخل البيت عبر نافذة العلية الشرقية. لقد أقفلت الباب المؤدي إلى العلية هنا، ولكن أسرعا، بسرعة!».

بعد مضي وقت، فوجئت بوليانا، التي غطت في نوم عميق، بنور مصباح، وثلاثة أشخاص يعبرون عن دهشتهم. ففتحت عينيها لترى تموثي أعلى سلم بالقرب منها، وتوم العجوز يخرج من النافذة وخالتها تطل عليها من خلفه.

«ما معنى هذا يا بوليانا؟»، صاحت الخالة بولي.

طرفت بوليانا بعينين ناعستين واعتدلت.

«يا إلهي، سيد توم، خالتي بولي!»، قالت متلعثمة، «لا تخافا! لست مصابة بالسل مثل جويل هارتلي. غير أنني شعرت بالحر الشديد فحسب في الداخل. لكنني أغلقت النافذة يا خالتي بولي، فلا تحمل الذبابات تلك الجراثيم إلى الداخل».

اختفى تموثي فجأة أسفل السلم، وبسرعة مماثلة ناول توم العجوز المصباح للآنسة بولي ولحق بابنه. عضت الآنسة بولي على

شفتيها بقوة حتى ذهب الرجلان ثم قالت بحزم «ناوليني هذه الأشياء يا بوليانا حالًا وادخلي. يا لك من طفلة غريبة!» قالت بعد قليل حين استدارت باتجاه العلية وبوليانا قربها والمصباح في يدها.

وجدت بوليانا الهواء خانقًا بعد النسيم العليل خارجًا، لكنها لم تتذمر، بل تنهدت تنهيدة طويلة متهدجة.

أعلى الدرج قالت الآنسة بولي جازمة «ستنامين في فراشي معي يا بوليانا لبقية هذه الليلة. ستصل الحواجب المنخلية غدًا، ولكن حتى حدوث ذلك أرى أن من واجبي أن أبقيك حيث أعلم مكانك».

حبست بوليانا أنفاسها.

«معك؟ في فراشك؟»، صاحت بفرح، «أوه يا خالتي بولي، جميل منك هذا يا خالتي بولي! ولكم أردت أن أنام مع أحدهم أحيانًا، أحد يمت لي بقرابة، لا النساء المحسنات، وها قد تحقق لي. يا إلهي! أحسب أنني سعيدة لعدم وصول هذه الحواجب المنخلية! ألست كذلك؟».

لم يأتها جواب، وكانت الآنسة بولي تمضي متقدمة إياها، وفي الحقيقة شعرت بشيء من العجز. فهذه المرة الثالثة منذ وصول بوليانا التي تعاقبها فيها الآنسة بولي إلا أنها ووجهت للمرة الثالثة بالحقيقة المذهلة بأن عقابها ينظر إليه على أنه مكافأة استحقاق خاصة. لا عجب أن تشعر الآنسة بولي بالعجز على نحو غريب.

الفصل الثامن

پوليانا تذهب في زيارة

لم يمض وقت طويل حتى استقرت الأمور في عزبة هارنغتن، رغم أنها لم تستقر تمامًا على النحو الذي وضعته الآنسة پولي في بادئ الأمر. صحيح أن پوليانا خاطت وعزفت وقرأت جهرًا وتعلمت الطهو في المطبخ، إلا أنها لم تمنح وقتًا لكل هذه الأمور كما كان مزمعًا. وقد حظيت بوقت أكبر لـ«تحيا فحسب»، كما قالت، فمعظم وقت ما بعد الظهر من كل يوم من الثانية حتى السادسة كان لها تفعل فيه ما تشاء، ما دامت لن «تشاء» فعل أشياء بعينها تحظرها الخالة پولي.

غير أن المرء ليتساءل حتمًا إن كان وقت الفراغ هذا كله منح للطفلة إراحة لپوليانا من العمل، أم أنه إراحة للخالة پولي من پوليانا. وبعد انقضاء الأيام الأولى من شهر يوليو، وجدت الآنسة پولي بلا شك مناسبات عديدة لتقول «يا لك من طفلة غريبة!»، وقد خلفتها دروس القراءة والخياطة في نهاية كل يوم دائخة بعض الشيء ومنهكة تمامًا.

أما نانسي فقد كانت حالها أفضل، فلم تكن دائخة ولا منهكة، بل صارت عندها أيام السبت والأربعاء أيامًا ميمونة.

لم يكن في جوار عزبة هارنغتن أطفال تلعب معهم بوليانا، فالبيت يقع على أطراف القرية، ورغم وجود بيوت قريبة فلم يصدف أن فيها صبية أو فتيات بمثل سن بوليانا. غير أن هذا لم يثر استياء بوليانا بتاتًا.

فقد قالت لنانسي «أوه، إنني لا أهتم بذلك مطلقًا. إنني سعيدة لأن أمشي وأرى الشوارع والبيوت الجميلة وأراقب الناس فحسب. إنني أحب الناس، ألا تحبينهم يا نانسي؟».

«حسن، لا يمكنني القول إني أحبهم... كلهم»، أجابت نانسي باقتضاب.

توسلت بوليانا كل عصر رائق لتوكل إليها «مهمة تنجزها»، فتتمكن من الذهاب في نزهة في هذا الاتجاه أو ذاك، وقد رأت ذاك الرجل في هذه النزهات. سمته بوليانا في سرها دومًا بـ «الرجل»، وإن رأت اثني عشر رجلًا غيره في اليوم نفسه.

كان الرجل يرتدي معطفًا طويلًا أسود وقبعة عالية من الحرير، وهما شيئان لا يرتديهما «الرجال العاديون»، وكان وجهه حليقًا وشاحبًا بعض الشيء، وشعره -ما يظهر من أسفل القبعة- رماديًا قليلًا. كان يمشي منتصب القامة وبشيء من السرعة، وكان وحيدًا دومًا ما جعل بوليانا تشعر بالأسى من أجله. لعل هذا ما جعلها تتحدث إليه يومًا.

«كيف حالك يا سيدي؟ أليس هذا يومًا جميلًا؟»، قالت فرحة وهي تدنو منه.

نظر الرجل نظرة سريعة حوله ثم توقف مرتابًا.

«هل خاطبتني؟»، سأل بصوت حاد.

«أجل يا سيدي. لقد قلت إنه يوم جميل، أليس كذلك؟»، قالت متهللة.

«إيه؟ أوه! أف!»، نخر ثم مشى ثانية.

ضحكت بوليانا. فقد وجدته رجلًا طريفًا.

رأته ثانية في اليوم التالي «ليس اليوم جميلًا بقدر البارحة، لكنه جميل»، قالت فرحة.

«إيه؟ أوه! أف!»، نخر الرجل كما البارحة، وضحكت بوليانا سعيدة مرة أخرى.

وحين بادرته بوليانا بالكلام للمرة الثالثة بالطريقة نفسها توقف الرجل بغتة.

«أصغي إلي يا صغيرة، من أنت ولماذا تتحدثين إلي كل يوم؟».

«أنا بوليانا ويتير، ولقد ظننتك وحيدًا. أنا سعيدة لأنك توقفت، وها قد تعارفنا غير أنني لا أعرف اسمك بعد».

«حسن، من بين كل الـ...»، لم ينه الرجل جملته بل مشى أسرع من ذي قبل.

نظرت إليه پوليانا وقد ارتسمت خيبة الأمل على شفتيها الباسمتين عادة.

«ربما لم يفهمني، لكن هذا نصف تعارف فأنا لا أعرف اسمه بعد»، همهمت وهي تستأنف سيرها.

كانت پوليانا تحمل حساء فخذ العجل إلى السيدة سنو اليوم. اعتادت الآنسة پولي إرسال شيء ما للسيدة سنو مرة في الأسبوع، فقد قالت إنها تظن هذا واجبها، نظرًا لأن السيدة سنو فقيرة وعليلة ومن أتباع كنيستها، ومن واجب كل أتباع الكنيسة الاعتناء بها طبعًا. كانت الآنسة پولي تؤدي واجبها نحو السيدة سنو عصر كل خميس، ليس بنفسها بل بواسطة نانسي. توسلت پوليانا اليوم أن تحظى بهذا الامتياز، وقد أوكلت نانسي إليها المهمة سريعًا وفقًا لأوامر الآنسة پولي.

«إنني سعيدة لخلاصي من المهمة»، قالت نانسي سرًا لپوليانا لاحقًا، «رغم أن من المخجل إيكال المهمة إليك أيتها الصغيرة، إنه كذلك!».

«لكنني أحب القيام بها يا نانسي».

«حسن، لن تحبيها بعد أن تفعليها مرة»، تنبأت نانسي بحدة.

«لمَ لا؟».

«لا أحد يحب ذلك. لولا أن الناس يشعرون بالأسى نحوها لما وجدت أحدًا قربها من الصباح حتى الليل. إنها شكسة الطبع، وإنني لأشفق على ابنتها التي تعتني بها».

«ولكن لماذا يا نانسي؟».

رفعت نانسي كتفيها، «حسن، بكلمات بسيطة، لأن أي شيء يحدث مهما يكن، لا يحدث على نحو صحيح في نظر السيدة سنو. حتى أيام الأسبوع لا تعجبها كيف تمر، فإن كان يوم الاثنين قالت إنها تتمناه يوم الأحد، وإن أخذت لها حساء فخذ العجل سمعت أنها رغبت بحساء الدجاج، ولكن إن أخذت لها حساء الدجاج قالت إنها اشتهت مرقة لحم الضأن!».

«عجبًا يا لها من امرأة طريفة. أظنني أحب الذهاب لرؤيتها، لا بد أنها مفاجئة ومختلفة، وأنا أحب الناس المختلفين»، ضحكت بوليانا.

«أف! حسن، أرجو أن السيدة سنو مختلفة تمامًا، لصالح البقية منا!»، أنهت نانسي حديثها عابسة.

ظلت بوليانا تفكر بهذه الملاحظات اليوم وهي تنعطف عند بوابة كوخ قديم صغير. لقد تلألأت عيناها حقًا ترقبًا للقاء السيدة سنو المختلفة هذه. فتحت شابة شاحبة الوجه متعبة الهيئة الباب لدى قرعها.

«كيف حالك؟»، بادرتها بوليانا بأدب، «أنا من منزل الآنسة بولي هارنغتن، وأود رؤية السيدة سنو من فضلك».

«حسن، إن أردت ذلك. إنك أول من يود رؤيتها»، غمغمت الفتاة بصوت خفيض، لكن بوليانا لم تسمعه. استدارت الفتاة وقادتها عبر الردهة إلى باب في نهايتها.

في غرفة العليلة، وبعد أن أدخلتها الفتاة وأغلقت الباب، طرفت پوليانا بعينيها قليلًا قبل أن تعتاد عيناها الظلمة. ثم رأت امرأة نصف جالسة في الفراش عبر الغرفة، فتقدمت إليها پوليانا من فورها.

«كيف حالك يا سيدة سنو؟ تقول الخالة پولي إنها تتمنى أنك تشعرين بالراحة اليوم، وقد أرسلت لك بعضًا من حساء قدم العجل».

«يا إلهي! حساء؟»، رد صوت نكد، «أنا ممتنة طبعًا، غير أنني تمنيت أن يكون مرقة لحم الضأن اليوم».

قطبت پوليانا قليلًا.

«حسن، لقد ظننت أنك ترغبين بالدجاج عندما يجلب لك الآخرون حساء العجل»، قالت.

«ماذا؟»، التفتت المرأة العليلة بحدة.

«حسن، لا تهتمي»، اعتذرت پوليانا بسرعة، «وهذا لا يحدث أي فرق طبعًا. إن الأمر بأن نانسي قالت إنك ترغبين بالدجاج عندما نجلب لك لحم العجل، ومرقة لحم الضأن حين نجلب الدجاج، ولكن لعل الأمر بالعكس ونسيت نانسي».

سحبت المرأة نفسها حتى اعتدلت في الفراش، وهذا أمر غريب للغاية منها رغم جهل پوليانا بهذا، «حسن أيتها الآنسة وقحة، من أنت؟»، سألت.

ضحكت بوليانا جذلة.

«أوه، هذا ليس اسمي يا سيدة سنو، وأنا سعيدة أنه ليس كذلك أيضًا! وسيكون هذا أسوأ من حفصيه، أليس كذلك؟ أنا بوليانا ويتير، ابنة أخت الآنسة بولي هارنغتن، وقد جئت للعيش معها، وهذا سبب مجيئي لجلب الحساء هذا الصباح».

اعتدلت السيدة العليلة باهتمام لدى الجزء الأول من الجملة، لكنها اضطجعت على الوسادة بتوانٍ عند الإشارة إلى حساء العجل.

«حسن جدًا، شكرًا لك. إن خالتك عطوفة جدًا طبعًا، لكن قابليتي ليست جيدة هذا الصباح، وقد رغبت بمرقة الـ...». وصمتت فجأة، ثم تابعت مغيرة الموضوع تغييرًا مفاجئًا «لم أنم للحظة ليلة البارحة، ولا لحظة!».

«أوه يا إلهي، كم أتمنى لو أنني لم أنم»، تنهدت بوليانا، واضعة الحساء على الطاولة الصغيرة وقد جلست بارتياح على أقرب كرسي. «إن المرء يضيع الكثير من الوقت بالنوم! ألا تظنين ذلك؟».

«يضيع الوقت... بالنوم؟!»، قالت المرأة العليلة متعجبة.

«أجل، في حين أنه قد يحظى بوقت ليحيا، كما تعرفين. يا لها من خسارة أننا لا نستطيع أن نحيا في الليل أيضًا».

اعتدلت المرأة في فراشها مرة أخرى.

«حسن، إنك لطفلة عجيبة!»، صاحت، «اسمعي! هلا ذهبت

إلى تلك النافذة وفتحت الستارة»، قالت آمرة، «أود أن أرى كيف تبدين».

نهضت بوليانا، لكنها ضحكت بشيء من الحزن «أوه يا إلهي! إذن سترين نمشي، أليس كذلك؟»، تنهدت عندما ذهبت إلى النافذة، «لقد شعرت بالسعادة أن الغرفة مظلمة وأنك لن تريه. والآن، صار بوسعك... أوه!»، قالت بحماس، وهي تستدير ناحية الفراش «يسرني أنك أردت رؤيتي لأن بوسعي رؤيتك الآن! لم يقولوا لي إنك جميلة جدًا!».

«أنا... جميلة؟!»، اعترضت المرأة بفظاظة.

«عجبًا، أجل. ألم تعرفي ذلك؟»، صاحت بوليانا.

«كلا، لم أعرف»، أجابت السيدة سنو بجفاء. يبلغ عمر السيدة سنو أربعين عامًا، قضت خمسة عشر منها منشغلة في تمني أشياء مختلفة ولم تجد وقتًا لتستمتع بالأشياء على حالها.

«أوه، لكن عينيك كبيرتان وداكنتان، وشعرك داكن أيضًا ومعقوص»، لاطفتها بوليانا، «أحب العقص السوداء (إنها أحد الأمور التي سأحصل عليها عندما أذهب إلى السماء). كما أن لك وجنتين حمراوين. عجبًا يا سيدة سنو، إنك جميلة! أظنك ستعرفين هذا حين ترين نفسك في المرآة».

«المرآة؟!»، قالت المرأة العليلة وقد مالت بظهرها على الوسادة، «نعم، أنا لا أقف أمام المرآة كثيرًا هذه الأيام، ولم تكوني لتفعلي لو أنك تضطجعين على ظهرك مثلي!».

«كلا طبعًا، لم أكن لأفعل»، وافقتها پوليانا، «ولكن انتظري، دعيني أريك»، قالت وهي تجري نحو المنضدة وترفع مرآة يدوية صغيرة.

توقفت في طريق عودتها للفراش، وهي تنظر إلى المرأة العليلة نظرة متفحصة.

«أظن أن علي ترتيب شعرك قليلًا قبل أن أريك، إن لم تمانعي»، اقترحت، «هل يمكنني ترتيب شعرك من فضلك؟».

«حسن، أظن ذلك، إن أردت»، أذنت لها السيدة سنو كرهًا، «لكنه لن يدوم، كما تعرفين».

«أوه، شكرًا لك. أنا أحب ترتيب الشعر للآخرين»، فرحت پوليانا، وهي تضع المرآة جانبًا بعناية ومضت تبحث عن مشط. «لن أفعل الكثير اليوم بالطبع، فأنا أسرع لتري كم أنت جميلة. لكني سأسرحه كله يومًا ما وأقضي وقتًا جميلًا في ذلك»، قالت وهي تلمس بأصابعها الرقيقة الشعر المموج فوق جبين المرأة العليلة.

عملت پوليانا بنشاط لخمس دقائق، وهي تسرّح خصلة جامحة لتغدو ناعمة، وتزين الشعر المنفوش المتدلي عند العنق، أو تهز الوسادة لتصبح طرية فيحظى الرأس بوضع أفضل. في أثناء ذلك أخذت المرأة العليلة رغمًا عنها تحس إحساسًا يقترب من الحماس، رغم عبوسها المفرط وانتقادها الصريح لكل ما يجري.

«والآن!»، قالت پوليانا لاهثة وقد قطفت زهرة وردية من زهرية قريبة وثبتتها في الشعر الداكن حيث ستمنح عظيم

الأثر، «أحسب الآن أنك جاهزة لتري نفسك!»، وحملت المرآة مبتهجة.

«أف!»، نخرت المرأة العليلة، متفحصة صورتها بشدة، «أحب الزهور الحمراء أكثر من الزهرية، إلا أنها ستذوي كلها قبل حلول الليل على أية حال، فما الفرق إذن؟».

«لكني أظن أن عليك أن تسعدي لذبولها»، ضحكت پوليانا، «لأنك ستستمتعين عندئذ في الحصول على أخرى. إنني أحب شعرك منثورًا هكذا، ألا تحبينه؟»، ختمت بنظرة رضا.

«هممم، ربما. ومع ذلك فهو لن يدوم، لأني أتقلب على الوسادة كما أفعل».

«طبعًا، وأنا سعيدة أيضًا»، أومأت پوليانا بمرح، «لأن بوسعي عندئذ أن أسرحه لك ثانية. على أية حال، أظن أن عليك أن تسري أنه أسود، فالأسود يبدو أجمل على الوسادة من الأشقر مثل شعري».

«ربما، لكني لا أحب الشعر الأسود كثيرًا، إذ يظهر فيه الشيب سريعًا»، أجابت السيدة سنو. لقد تحدثت على نحو شكس، غير أنها لم تزل تحمل المرآة أمام وجهها.

«أوه، أحب الشعر الأسود! سأسعد كثيرًا لو كان لي مثله»، تنهدت پوليانا.

ألقت السيدة سنو بالمرآة والتفتت مستاءة.

«حسن، لن تفعلي إن كنت مكاني. لن تكوني سعيدة بالشعر

الأسود ولا بأي شيء آخر، إن كان عليك الاستلقاء هنا طوال اليوم كما أفعل!».

قطبت پوليانا حاجبيها في عبوس مفكر.

«أجل، سيكون الأمر صعبًا بعض الشيء لفعلها، أليس كذلك؟»، فكرت بصوت عالٍ.

«فعل ماذا؟».

«أن تسعدي بالأشياء».

«أن تسعدي بالأشياء... حين تكونين عليلة في فراشك طوال اليوم؟ علي القول إنه صعب»، أجابت السيدة سنو، «إن لم تري ذلك فقولي لي شيئًا أسعد به، هذا كل ما في الأمر!».

قفزت پوليانا واقفة وصفقت بيديها أمام دهشة السيدة سنو.

«أوه يا إلهي! هذا سيكون سؤالًا صعبًا، أليس صحيحًا؟ علي الذهاب الآن، لكنني سأفكر وأفكر طوال الطريق إلى البيت، ولعلي أخبرك الجواب حين آتي في المرة القادمة. إلى اللقاء، لقد قضيت وقتًا ممتعًا! إلى اللقاء!»، قالت ثانية وهي تخرج من الباب.

«حسن، أنا لم أفعل! وماذا تعني بهذا؟»، قالت السيدة سنو وهي تنظر إلى زائرتها. أدارت رأسها من جانب لآخر ورفعت المرآة متفحصة صورتها بحرص.

«تلك الصغيرة بارعة في تصفيف الشعر، بلا شك»، غمغمت بصوت خفيض، «أعترف أنني لم أعرف أنه قد يبدو بهذا الجمال.

ولكن ما الجدوى؟»، تنهدت وهي تلقي بالمرآة الصغيرة على الملاءة، وتدحرج رأسها على الوسادة على نحو نكد.

بعد قليل، حين دخلت ميلي ابنة السيدة سنو، وجدت المرآة لم تزل ملقاة على الملاءة، رغم أنها قد أخفيت عن الأنظار بحذر.

«عجبًا يا أمي، الستائر مرفوعة!» صاحت ميلي وهي تقسم دهشتها بين النافذة والزهرة في شعر أمها.

«حسن، وماذا في ذلك؟»، قالت المرأة العليلة، «ليس علي البقاء في العتمة طوال حياتي، إن كنت عليلة، أليس كذلك؟».

«كلا، كلا بالطبع»، أجابت ميلي في استرضاء متعجل، وهي تناولها زجاجة الدواء، «إن الأمر... حسن، كما تعلمين جيدًا أنني حاولت مرارًا أن أجعل الغرفة أكثر إنارة لك، لكنك لم تقبلي».

لم تحصل على جواب لهذا، فقد كانت السيدة سنو تتفحص الدانتيلا على منامتها، ثم تحدثت على نحو شكس أخيرًا.

«أظن أن على أحدهم أن يجلب لي منامة جديدة، بدلًا من مرقة لحم الضأن، على سبيل التغيير!».

«عجبًا يا أمي!».

لا عجب أن ميلي قد لهثت من فرط دهشتها، ففي الجارور خلفها تلك اللحظة وضعت منامتان جديدتان ظلت ميلي تحث أمها على ارتدائهما منذ شهرين.

الفصل التاسع
سر الرجل

كانت تمطر في المرة التالية التي رأت فيها پوليانا الرجل، غير أنها حيته بابتسامة مشرقة.

«ليس الجو جيلًا اليوم، أليس كذلك؟»، قالت بمرح، «إنني مسرورة أنها لا تمطر دومًا على أية حال!».

لم ينخر الرجل هذه المرة ولا أدار رأسه، فقالت پوليانا إنه لم يسمعها بلا شك. ولذا تحدثت بصوت أعلى في المرة التالية (التي صدف أنها في اليوم التالي)، فقد ظنت من الضروري فعل هذا على وجه الخصوص، لأن الرجل كان يمضي في طريقه ويداه خلف ظهره ونظره على الأرض؛ وهو ما بدا لپوليانا غير معقول أمام ضوء الشمس البهي وهواء الصباح العليل، وقد أوكلت لپوليانا مهمة صباحية تقضيها مكافأة لها.

«كيف حالك؟»، زقزقت، «أنا مسرورة أن اليوم ليس البارحة، ألست كذلك؟».

توقف الرجل بغتة، وعلت وجهه تقطيبة غاضبة.

«اسمعي أيتها الفتاة الصغيرة، لا بد أن نفرغ من هذا الأمر الآن وللأبد»، قال نكدًا، «لدي أمور تشغلني عدا عن الطقس، فأنا لست أدري إن أشرقت الشمس أم لا».

ابتسمت پوليانا بفرح.

«كلا يا سيدي، أظنك لا تدري. ولهذا أخبرتك».

«أجل، حسن.. إه؟ ماذا؟»، قال بحدة بعد إدراكه لكلماتها.

«أقول إنني أخبرتك لهذا السبب، حتى تنتبه إلى شروق الشمس وما إلى ذلك، كما تعلم. أعرف أنك ستسر إن توقفت للتفكير بالأمر، وقد بدا لي أنك لم تفكر به البتة!».

«حسن، من بين كل...»، قال الرجل بإيماءة واهنة غريب، ثم واصل مشيه ثانية. إلا أنه استدار بعد خطوته الثانية ولم يزل مقطبًا «أصغي إلي، لم لا تعثرين على أحد من عمرك لتتحدثي إليه؟».

«أود ذلك يا سيدي، غير أن لا أحد في الجوار كما تقول نانسي. إلا انني لا أهتم بذلك كثيرًا، فأنا أحب الكبار أيضًا، وأحبهم أكثر أحيانًا، إذ اعتدت وجود النساء المحسنات».

«أف! النساء المحسنات إذن! أهذا ما تعتبريني؟»، وشت شفتا الرجل بابتسامة، لكن العبوس فوقها ما زال يحاول تثبيتها بقوة.

ضحكت پوليانا جذلة.

«أوه كلا يا سيدي، فأنت لا تشبه النساء المحسنات البتة، إلا

أنك طيب مثلهن طبعًا، وربما أكثر»، أضافت مسرعة بتهذيب، «أنا واثقة أنك ألطف مما تبدو!».

أطلق الرجل صوتًا غريبًا من حنجرته.

«حسن، من كل...»، قال ثانية بعد أن أدار ظهره ومشى كما ذي قبل.

حين رأت پوليانا الرجل في المرة التالية، حدقت عيناه في عينيها مباشرة، بصدق مبهم جعل وجهه يبدو مبهجًا حقًا، كما ظنت پوليانا.

«طاب وقتك»، حياها بشيء من الغلظة، «لعل من الأفضل لي أن أبادر بالقول إنني أعلم أن الشمس مشرقة اليوم».

«لكنك لست مضطرًا لإخباري»، أومأت پوليانا بمرح، «علمت أنك تعلم منذ أن رأيتك».

«أوه، لقد علمت، أليس كذلك؟».

«أجل يا سيدي، لقد رأيتها في عينيك وفي ابتسامتك كما تعلم».

«أف!»، نخر الرجل وهو يتابع سيره.

تحدث الرجل إلى پوليانا دومًا بعد هذا، وكان أول من يتحدث دائمًا، رغم أنه يقول القليل عادة: «طاب وقتك». وكان هذا مثار استغراب نانسي التي صدف وجودها مع پوليانا يومًا حين حياها.

«عجبًا عجبًا يا آنسة پوليانا، هل تحدث إليك ذلك الرجل؟»، قالت لاهثة.

«أجل، إنه يفعل دومًا، الآن»، ابتسمت پوليانا.

«يفعل دومًا؟! يا إلهي! هل تعرفين من يكون؟»، سألتها نانسي.

قطبت پوليانا وهزت رأسها نفيًا.

«أحسب أنه نسي إخباري. لقد أديت نصيبي من التعارف غير أنه لم يفعل».

اتسعت عينا نانسي.

«لكنه لا يتحدث إلى أحد يا صغيرتي، ولم يفعل منذ سنوات كما أظن، إلا حين يضطر من أجل التجارة وما إلى ذلك. إنه جون پندلتن، ويسكن وحده في البيت الكبير على تلة پندلتن. كما أنه لم يعين أحدًا ليطبخ له، بل ينزل إلى الفندق لتناول طعامه ثلاث مرات في اليوم. أعرف سالي ماينر، التي تخدمه، وتقول إنه بالكاد يفتح فمه ليخبرها بما يريد تناوله، ويتعين عليها أن تخمن ذلك نصف الوقت، شرط أن يكون رخيصًا! إنها تعرف هذا دون الحاجة لإخبارها».

هزت پوليانا رأسها شفقة.

«أعلم، يضطر المرء للبحث عن الأشياء الرخيصة إن كان فقيرًا، كنا أنا وأبي نتناول الوجبات في الخارج كثيرًا، فنأكل الفاصولياء وكرات السمك معظم الأحيان، ونقول دومًا إننا سعيدين بأننا نحب الفاصولياء، أعني أننا نقول ذلك حين نبحث عن شرائح الديك الرومي المشوي، وكان ثمنه ستين سنتًا. هل يحب السيد پندلتن الفاصولياء؟».

«يحبها؟! وماذا يعني إن أحبها أو إن لم يحبها؟ عجبًا يا آنسة بوليانا، إنه ليس بفقير. بل إن لديه أموالًا طائلة ورثها جون بندلتن عن أبيه. ليس في البلدة أحد بثرائه، وبوسعه أكل أوراق النقود إن أراد، دون أن يدري».

قهقهت بوليانا. «كأن بوسع أحد تناول أوراق النقود دون أن يدري إلا حين يحاول مضغها يا نانسي!».

«أوه! أعني أنه غني بما يكفي لفعل ذلك»، رفعت نانسي كتفيها، «إنه لا ينفق ماله، هذا كل ما في الأمر، إنه يدخره».

«أوه، من أجل غير المؤمنين»، خمنت بوليانا، «يا للروعة! هذا يعني إنكار ذاتك وحمل صليبك، أعلم ذلك، لقد أخبرني به أبي».

انفرجت شفتا نانسي بغتة، كأنما كلمات غاضبة تتأهب للخروج، غير أن عينيها حين وقعتا على وجه بوليانا الواثق المبتهج، رأتا شيئًا منع الكلمات من أن تقال.

«أف!»، رضخت نانسي، ثم تابعت القول مبدية حماسها السابق «إلا أن من الغريب أن يتحدث إليك، صدقًا يا آنسة بوليانا. إنه لا يتحدث إلى أحد، ويعيش وحده في بيت كبير جميل مكتظ بالأشياء الفاخرة كما يقولون. يقول البعض إنه مجنون، والبعض الآخر إنه شكس فحسب، وآخرون يقولون إنه يحتفظ بهيكل عظمي في خزانته»[1].

---

(١) تعبير يقصد به وجود فضيحة طي الكتمان، وفضلت كتابتها حرفيًا لأن هذا ما فهمته بوليانا.

«أوه يا نانسي!»، ارتعشت پوليانا، «كيف له أن يحتفظ بشيء مخيف كهذا؟ أظن أن عليه التخلص منه!».

ضحكت نانسي، فقد فهمت پوليانا أمر الهيكل العظمي حرفيًا لا مجازيًا، وقد أدركت نانسي هذا تمامًا، لكنها على العكس امتنعت عن تصحيح الخطأ.

«ويقول الجميع إنه غامض»، تابعت، «كان كثير الأسفار لبعض السنوات، يبقى أسبوعًا ويسافر أسبوعًا، وأسفاره دومًا إلى بلاد غير المؤمنين، مصر وآسيا و«صحراء سارا»[1] كما تعلمين».

«أوه، بعثة تبشيرية»، هزت پوليانا رأسها.

ضحكت نانسي ضحكًا غريبًا. «حسن، لم أقل ذلك يا آنسة پوليانا. حين يعود يؤلف الكتب، كتبًا غريبة مخيفة كما يقولون، عن بعض الحلي التي وجدها في تلك البلاد. غير أنه لا يبدو راغبًا في إنفاق المال هنا، ولو قليلًا ولا حتى من أجل العيش».

«لن يفعل طبعًا إن كان يدخرها من أجل غير المؤمنين»، أجابت پوليانا، «ولكنه رجل ظريف وهو مختلف أيضًا، مثل السيدة سنو، إلا أنه مختلف على نحو مختلف».

«حسن، أظنه كذلك... قليلًا»، ضحكت نانسي.

«أنني أسعد الآن على أية حال أنه يتحدث إلي»، تنهدت پوليانا راضية.

(١) تعني الصحراء الكبرى، وهي بالإنجليزية Sahara ونانسي تلفظها سارا!

الفصل العاشر

مفاجأة للسيدة سنو

حين ذهبت بوليانا في المرة التالية لرؤية السيدة سنو، وجدت السيدة في البدء في غرفة معتمة.

«إنها الفتاة الصغيرة من منزل الآنسة بولي يا أمي»، قالت ميلي بصوت متعب، ثم وجدت بوليانا نفسها وحيدة مع العليلة.

«أوه، هذه أنت، أليس كذلك؟»، سأل صوت شكس من الفراش، «إني أذكرك، أحسب أن أي امرئ يتذكرك إن رآك مرة. أتمنى لو أنك أتيت البارحة، فقد أردتك البارحة».

«هل فعلت؟ حسن، أنا مسرورة أن هذا لم يكن أبعد من البارحة عن اليوم إذن»، وضحكت بوليانا وهي تتقدم مرحة في الغرفة، واضعة سلتها بحذر على كرسي، «يا إلهي! أليست الغرفة مظلمة هنا؟ لا أستطيع رؤيتك البتة»، قالت وهي تتقدم نحو النافذة بلا تردد وترفع الستارة.

«أود أن أرى إن سرحت شعرك مثلما فعلت، أوه، لم تفعلي! ولكن لا عليك؛ أنا سعيدة أنك لم تفعلي على أية حال، فربما سمحت

لي بتسريحه، لاحقًا. لكني أود منك الآن أن تري ما جلبته لك».
تململت المرأة بغير ارتياح.

«كأنما شكله سيحدث فرقًا في طعمه»، قالت بنكد غير أنها أدارت نظرها نحو السلة، «حسن، ما هو؟».

«خمني! ماذا اشتهيت؟»، وثبت پوليانا عائدة إلى السلة، وقد أشرق وجهها.

عبست المرأة العليلة.

«لست أريد شيئًا حسبما أعرف»، تنهدت، «فكل شيء له الطعم نفسه على أية حال!».

قهقهت پوليانا.

«ليس هذا. خمني! إن أردت شيئًا فماذا سيكون؟».

ترددت المرأة. لم تدرك المرأة أنها اعتادت تمني ما ليس لديها، بل بدا من المستحيل أن تقول ما أرادته حقًا بلا تفكير حتى تعرف ما حصلت عليه. غير أن من الواضح أنها مضطرة لتسمية شيء، فهذه الطفلة الغريبة تنتظر.

«حسن، مرقة لحم الضأن طبعًا».

«لقد جلبتها»، زعقت پوليانا.

«لكن هذا ما لم أرده»، تنهدت المرأة العليلة وهي مدركة الآن ما اشتهته معدتها، «بل أردت الدجاج».

«أوه، لقد جلبت هذا أيضًا»، قهقهت بوليانا.

التفتت المرأة دهشة.

«كليهما؟»، سألت.

«أجل، وحساء لحم العجل»، أجابت بوليانا مبتهجة، «لقد ظننت أنك لا بد أن تحصلي على ما تريدين ولو لمرة، لذا تدبرنا الأمر أنا ونانسي. أوه، ثمة القليل من كل شيء طبعًا، ولكن لديك بعض من كل شيء! أنا سعيدة أنك أردت الدجاج»، تابعت قولها راضية، وهي تخرج ثلاثة أوعية صغيرة من سلتها. «لقد قلت في نفسي في طريقي إليك «وماذا لو أرادت الكَرِش أو البصل أو شيئًا من هذا القبيل ليس معي؟! ألن يكون ذلك مخجلًا، رغم أنني حاولت جاهدة؟»، ضحكت جذلة.

لم يأتها جواب، وبدا أن المرأة العليلة تحاول في ذهنها أن تجد شيئًا ما افتقدته.

«حسن! سأتركها كلها»، قالت بوليانا وهي ترتب الأوعية الثلاثة في صف على الطاولة، فلعلك ترغبين بمرقة لحم الضأن غدًا. كيف حالك اليوم؟»، وختمت حديثها بسؤال مهذب.

«بحال سيئة جدًا، شكرًا لسؤالك»، غمغمت السيدة سنو، وهي تضطجع بهيئتها العاجزة المعتادة، «لقد فوّتّ رقدتي هذا الصباح. فقد بدأت نيلي هغنز من المنزل المجاور دروس الموسيقى، وأكاد أن أجن من تمرينها، وظلت تتمرن طوال الصباح، كل دقيقة منه! ولست أدري ما أفعل حقًا!».

هزت بوليانا رأسها متعاطفة.

«أعلم أن هذا مريع! حدث هذا للسيدة وايت مرة؛ وهي إحدى النساء المحسنات كما تعرفين. أصيبت بحمى رثوية أيضًا في الوقت نفسه، فلم تستطع التقلب في فراشها. وقالت إن الأمر سيكون أسهل لو استطاعت التقلب، هل تستطيعين؟».

«أستطيع ماذا؟».

«أن تتقلبي؛ أعني أن تغيري وضعيتك حين يصعب عليك احتمال الموسيقى».

حدقت الآنسة سنو لوهلة.

«عجبًا، إنني أستطيع الحركة بلا شك، في كل مكان في فراشي»، أجابت بشيء من الاستياء.

«يمكنك أن تشعري بالسعادة لذلك إذن، أليس صحيحًا؟»، هزت بوليانا رأسها، «لم تستطع السيدة وايت ذلك، فلا يمكن للمرء أن يتقلب في فراشه إن عانى من حمى رثوية، رغم أنه يود ذلك بقوة، كما تقول السيدة وايت. لقد قالت لي فيما بعد إنها ظنت أنها كادت أن تجن لولا أذنا أخت السيد وايت الصماوان».

«أذنا الأخت! ماذا تقصدين؟».

ضحكت بوليانا.

«حسن، أحسب أنني لم أخبرك بالأمر كاملًا، ونسيت أنك لا تعرفين السيدة وايت. كما ترين، لقد كانت الآنسة وايت ثقيلة

السمع للغاية، وقد جاءت لزيارتها ولتساعد في الاعتناء بالسيدة وايت والمنزل. لقد قضيا وقتًا مريعًا في محاولة إفهامها شيئًا، وبعد هذا شعرت السيدة وايت بالسعادة كلما بدأ عزف البيانو في الشارع أن بوسعها سماعه، وأنها لا تهتم كثيرًا لسماعه، لأنها ظلت ترى أن الأمر سيكون مزعجًا للغاية إن كانت ثقيلة السمع ولا تسمع كما هي حال أخت زوجها. لقد كانت تلعب اللعبة أيضًا كما ترين، فقد علمتها لها».

«اللعبة؟».

صفقت پوليانا.

«يا إلهي! لقد كدت أن أنسى، لكني فكرت يا سيدة سنو بما قد يجلب لك السعادة».

«يجلب لي السعادة؟! ماذا تقصدين؟».

«عجبًا، لقد أخبرتك أنني سأفكر بالأمر، ألا تذكرين؟ لقد طلبت مني أن أخبرك بشيء يجلب لك السعادة، أن تكوني سعيدة حتى لو اضطررت للاستلقاء في الفراش طوال اليوم».

«أوه!»، ردت المرأة بنكد، «ذلك الأمر؟ أجل إني أتذكر، لكني لم أحسب أنك أخذت الأمر على محمل الجد أكثر مني».

«أوه، بلى لقد فعلت»، هزت پوليانا رأسها بفرح، «ولقد وجدته أيضًا. لقد كان صعبًا، إلا أن المتعة تزداد إن كان الأمر صعبًا. ولكن علي الاعتراف بكل صدق أنني لم أستطع العثور على شيء لبعض الوقت، ثم وجدته».

«هل فعلت حقًا؟ حسن، ما هو؟»، كان صوت السيدة سنو مهذبًا على نحو ساخر.

شهقت پوليانا نفسًا طويلًا.

«ظننت أن بوسعك أن تكوني سعيدة أن الآخرين ليسوا مثلك، أعني ليسوا مرضى طريحي الفراش هكذا، كما تعرفين»، قالت على نحو مثير للإعجاب.

نظرت إليها السيدة سنو، وقد بدا الغضب في عينيها.

«حسن، حقًا!»، قالت بصوت ممتعض بعض الشيء.

«والآن سأخبرك باللعبة»، اقترحت پوليانا واثقة مبتهجة. «سيكون رائعًا أن تلعبيها، وستكون صعبة جدًا غير أن هذا يجعل المتعة أكبر! إنها هكذا»، وأخذت تسرد حكاية صندوق المعونات والعكازين والدمية التي لم تصل.

حين ظهرت ميلي كانت القصة قد انتهت.

«خالتك بانتظارك يا آنسة پوليانا»، قالت في فتور كئيب، «لقد هاتفت آل هارلو في المنزل المقابل، وتقول لك أن تسرعي، وإن لديك تمرينًا يجب أن تفرغي منه قبل المساء».

نهضت پوليانا كرهًا، وتنهدت.

«حسن، سأسرع»، ثم ضحكت فجأة، «أظن أن علي أن أسعد لأن لدي ساقين أسرع بهما، أليس كذلك يا سيدة سنو؟».

لم يأتها جواب، وكانت عينا السيدة سنو مغمضتين. غير أن

ميلي التي اتسعت عيناها من الدهشة رأت دموعًا على وجنتي العليلة.

«إلى اللقاء»، قالت پوليانا ناظرة إلى الخلف بعد أن وصلت الباب، «أنا آسفة جدًا بشأن تسريح الشعر، فقد أردت تسريحه. لعلي أفعل ذلك المرة القادمة!».

مرت أيام يوليو يومًا بعد آخر، وكانت أيامًا سعيدة لدى پوليانا. وكثيرًا ما قالت لخالتها بمرح إنها أيام سعيدة، فترد خالتها على ذلك عادة متبرمة «حسن يا پوليانا، أنا راضية لأنها أيام سعيدة، إلا أنني أظنها أيامًا مجدية أيضًا، وإلا فإن هذا يعني فشلي في أداء واجبي».

وترد پوليانا على هذا دومًا بعناق وقبلة، وهما أمران ظلا يربكان الآنسة پولي. لكنها تحدثت يومًا، وكان ذاك في ساعة الخياطة.

«هل تعنين أن كون الأيام سعيدة فحسب ليس أمرًا كافيًا يا خالتي پولي؟»، سألت بحزن.

«هذا ما أعنيه يا پوليانا».

«ولا بد أن تكون مجدية أيضًا؟».

«بلا شك».

«وما معنى مجدية؟».

«إنها تعني مجدية، أن تكون ذات جدوى، أن تسفر عن شيء يا پوليانا. يا لك من طفلة غريبة!».

«فأن يكون المرء سعيدًا فحسب ليس مجديًا؟»، سألت پوليانا بشيء من القلق.

«نعم طبعًا».

«أوه يا إلهي! فلن تحبيها إذن حتمًا. أخشى أنك لن تلعبي اللعبة مطلقًا يا خالتي پولي».

«اللعبة؟ أية لعبة؟».

«حسن، أبي...»، ووضعت پوليانا يدها على شفتيها، «لا شيء»، قالت متلعثمة.

عبست الآنسة پولي.

«هذا يكفي لهذا الصباح يا پوليانا»، قالت على نحو شكس وانتهى درس الخياطة.

التقت پوليانا بعد ظهيرة ذلك اليوم وهي تنزل من عليتها بخالتها على الدرج.

«مرحى يا خالتي پولي، يا للروعة!»، صاحت، «كنت قادمة لرؤيتي! تعالي فأنا أحب الصحبة»، وفرغت وهي تذرع الدرجات وتفتح باب غرفتها.

لم يكن في نية الآنسة پولي زيارة ابنة أختها، بل اعتزمت البحث عن وشاح صوفي أبيض في صندوق خشب الأرز قرب النافذة الشرقية. غير أنها لدهشتها الجلية لم تجد نفسها في العلية الرئيسة أمام صندوق خشب الأرز، بل في غرفة پوليانا الصغيرة تجلس على أحد

الكرسيين القاسيين. كثيرًا من المرات وجدت الآنسة پولي نفسها هكذا منذ قدوم پوليانا، تفعل شيئًا مفاجئًا غير متوقع، يختلف كليًا عن الأمر الذي ذهبت لفعله!

«أحب الصحبة»، قالت پوليانا ثانية وهي تتنقل بسرعة كأنما تقوم بواجب الضيافة في قصر، «وبخاصة منذ أن سكنت هذه الغرفة، لي وحدي، كما تعلمين. أوه، كان لي غرفة دومًا بطبيعة الحال، لكنها غرفة مستأجرة، والغرف المستأجرة لا تبلغ نصف جمال الغرف المملوكة، أليس كذلك؟ وأنا أملك هذه الغرفة طبعًا، أليس صحيحًا؟».

«عجبًا، بـ... بلى يا پوليانا»، غمغمت الآنسة پولي، وهي تتساءل على نحو غامض لم لم تنهض من فورها وتذهب للبحث عن الوشاح.

«وقد صرت أحب هذه الغرفة وإن خلت من السجاد واللوحات والستائر التي تمنيتها..»، وصمتت پوليانا سريعًا وقد احمر وجهها بتوجع. وقد اندفعت بجملة جديدة مختلفة تمامًا حين قاطعتها خالتها بحدة.

«ما هذا يا پوليانا؟».

«لا شيء يا خالتي پولي، لم أقصد قول ذلك حقًا».

«ربما لا»، ردت الآنسة پولي ببرود، «لكنك قلته، لذا دعينا نسمع نهايته».

«لكنه ليس بشيء، إلا أنني فكرت بالحصول على سجادة جميلة وستائر من الدانتيلا وأشياء كما تعرفين، ولكن طبعًا...».

«فكرت بالحصول عليها؟!»، قاطعتها الآنسة پولي بحدة.

احمرت پوليانا بتوجع أكبر.

«لا داعي لحصولي عليها طبعًا يا خالتي پولي»، قالت معتذرة، «وأظن سبب هذا لأنني أردتها دومًا ولم أحصل عليها. أوه، لقد حصلنا على بساطين من صندوق المعونات، لكنهما كانا صغيرين، وعلى أحدهما بقع حبر وفي الآخر ثقوب. ولم نحصل إلا على لوحتين؛ واحدة باعها أبـ... أعني بعنا الجميلة منهما، والرديئة انكسرت. ولولا هذا لما أردتها طبعًا، أعني الأشياء الجميلة، ولما فكرت بجمال أشيائي هنا عندما دخلت الردهة في أول يوم لي، و... و... لكن هذا لم يستغرق إلا دقيقة حقًا يا خالتي پولي، أعني بضع دقائق قبل أن أغدو سعيدة بعدم وجود مرآة لمنضدتي، لأني لن أرى نمشي، ثم إنني لن أحصل على لوحة أجمل من المنظر خارج نافذتي، وقد كنت طيبة جدًا معي و....».

نهضت الآنسة پولي على حين غرة، وقد احمر وجهها كثيرًا.

«هذا يكفي يا پوليانا»، قالت بجفاء، «أنا واثقة أنك قلت ما يكفي». ثم نزلت الدرج، ولم تتذكر أنها صعدت العلية للبحث عن الوشاح الصوفي في صندوق خشب الأرز قرب النافذة الشرقية، حتى وصلت الطبقة الأولى.

قالت الآنسة پولي بهدوء لنانسي بعد هذا بأقل من أربع وعشرين

ساعة «بوسعك نقل حاجيات الآنسة پوليانا إلى الغرفة التي تقع أسفل العلية مباشرة يا نانسي، فقد قررت أن تنام ابنة أختي هناك في الوقت الراهن».

«أجل يا سيدتي»، قالت نانسي بصوت عال، «أوه، يا إله السماء!» قالت لنفسها.

ثم صاحت بفرح مخاطبة پوليانا بعد لحظات «انتظري حتى تسمعي ما لدي يا آنسة پوليانا. ستنامين في الغرفة التي تقع أسفل هذه مباشرة، ستفعلين، ستفعلين!».

فشحبت پوليانا فعلًا.

«هل تعنين؟ عجبًا يا نانسي، ليس صحيحًا، أصحيح وحقيقي؟».

«أظنك سترينه صحيحًا وحقا»، تنبأت نانسي نشوى وهي تومي برأسها لپوليانا إلى حفنة الثياب التي أخرجتها من الصوان. «لقد أخبرت أن أنزل حاجياتك وأنا سآخذها أيضًا قبل أن تتسنى لها الفرصة لتغيير رأيها».

لم تتوقف پوليانا لسماع نهاية الجملة، وأخذت تنزل الدرج مسرعة درجتين في كل مرة، رغم الخطر الوشيك بانكبابها على وجهها.

صفق باباب وكرسي قبل أن تصل پوليانا هدفها في نهاية المطاف، الخالة پولي.

«أوه، خالتي پولي، هل قصدت ذلك حقًا يا خالتي پولي؟ في

تلك الغرفة كل شيء، سجادة وستائر وثلاث لوحات، إلى جانب المنظر في الخارج أيضًا، لأن النافذة تطل على الناحية نفسها. أوه يا خالتي بولي!».

«جيد جدًا يا بوليانا. أنا مسرورة أن التغيير أعجبك بلا شك، ولكن إن تمنيت تلك الأشياء كثيرًا، فأظن أن عليك الاعتناء بها جيدًا. هذا كل ما لدي يا بوليانا. ارفعي هذا الكرسي من فضلك، كما أنك صفقت بابين في آخر نصف دقيقة»، تحدثت الآنسة بولي بحزم، بل بحزم أكثر لسبب مجهول فقد شعرت برغبة في البكاء، ولم تعتد الآنسة بولي أن تنتابها رغبة في البكاء.

رفعت بوليانا الكرسي.

«أجل، أعلم أنني صفقت ذلكما البابين»، أقرت بمرح، «فقد عرفت لتوي بأمر الغرفة، وأحسب أنك ستصفقين الباب لو...»، صمتت بوليانا سريعًا ونظرت إلى خالتها باهتمام، «هل صفقت بابًا في حياتك يا خالتي بولي؟».

«أرجو أني لم أفعل يا بوليانا!»، كان صوت الآنسة بولي مندهشًا للغاية.

«عجبًا يا خالتي بولي! إنها لخسارة!»، وأظهر وجه بوليانا شفقة حزينة.

«خسارة!»، كررت الخالة بولي، وهي تشعر بكثير من الدوار فلم تقل شيئًا.

«عجبًا، أجل. لو شعرت برغبة في صفق الأبواب لصفقتها طبعًا، وإن لم تشعري فلا بد أن ذلك يعني أنك لم تشعري بالسعادة حيال أي شيء، وإلا لصفقتها. لم تكوني لتمنعي نفسك، وأنا حزينة جدًا لأنك لم تشعري يومًا بالسعادة من أجل أي شيء!».

«بوليانا!»، لهثت السيدة، لكن بوليانا خرجت وكان جوابها صفقة لباب الدرج المؤدي للعلية. فقد ذهبت بوليانا لمساعدة نانسي في إنزال «متاعها».

شعرت الآنسة بولي في غرفة الجلوس باضطراب غامض، ثم إنها شعرت بالسعادة من أجل بعض الأشياء طبعًا!

الفصل الحادي عشر
التعرف على جيمي

جاء أغسطس، وجلب معه مفاجآت عدة وبعض التغييرات أيضًا، غير أن لا شيء منها كان مفاجئًا لنانسي حقًا، التي أخذت منذ مجيء پوليانا تبحث عن المفاجآت والتغييرات.

في البدء جيء بهريرة.

وجدت پوليانا الهريرة تموء مواء مثيرًا للشفقة على مبعدة من الدرب. وحين لم يفلح سؤال الجيران المنتظم في العثور على أحد ينسبها له، جلبتها پوليانا إلى البيت من فورها بطبيعة الحال.

«وأنا سعيدة لأنني لم أعثر على أحد يملكها أيضًا»، أخبرت خالتها في ثقة سعيدة، «لأنني أردت جلبها إلى البيت طوال الوقت. أنا احب الهريرات، وأعلم أنك ستكونين سعيدة بالسماح لها بالعيش هنا».

نظرت الآنسة پولي إلى الكومة البائسة الرمادية للشقية المهجورة بين ذراعي پوليانا وارتجفت، إذ لم تحب الآنسة پولي القطط، ولا حتى النظيفة المعافاة الجميلة منها.

«أغ! يا لها من حيوان صغير قذر يا پوليانا! كما أنني واثقة أنها مريضة ومليئة بالبراغيث والديدان».

«أعلم ذلك، المسكينة»، ترنمت پوليانا، ناظرة برقة في عيني الحيوان الصغير المذعور، «كما أنها ترتعش أيضًا، إنها خائفة جدًا. كما ترين، فلا تعرف بعد أننا سنحتفظ بها حتمًا».

«كلا، ولا أي أحد آخر»، أجابت الآنسة پولي بعزم وإصرار.

«أوه، بل سيفعلون»، قالت پوليانا وقد أساءت فهم كلمات خالتها تمامًا، «لقد أخبرت الجميع أننا سنحتفظ بها إن لم أعثر على صاحبها. أعلم أنك ستسرين للاحتفاظ بها، هذه الصغيرة المسكينة الوحيدة!».

فتحت الآنسة پولي فمها وحاولت أن تتحدث، بلا جدوى. فقد استولى عليها سريعًا ذاك الشعور الغريب بالعجز الذي يغمرها منذ مجيء پوليانا.

ثم واصلت پوليانا بسرعة بامتنان «أعلم طبعًا أنك لن تسمحي لهريرة صغيرة حلوة وحيدة بالذهاب للبحث عن بيت ما دمت قد أخذتني، وقد قلت ذلك للسيدة فورد حين سألتني إن كنت ستسمحين لي بالاحتفاظ بها. حسن، لقد كان لدي النساء المحسنات كما تعرفين، لكن الهريرة ليس لها أحد، وأعلم أنك تشعرين بهذا»، أضافت سعيدة وهي تخرج من الغرفة.

«ولكن يا پوليانا، يا پوليانا»، اعترضت الآنسة پولي، «لست...».

لكن پوليانا كانت في منتصف الطريق نحو المطبخ، تنادي نانسي: «انظري يا نانسي إلى هذه الهريرة الصغيرة التي ستحتفظ بها الخالة پولي معي!» وتهاوت الخالة پولي على كرسيها في غرفة الجلوس بزفرة خوف عاجزة عن الاحتجاج، فهي تمقت القطط.

في اليوم التالي كان دور الكلب، الذي كان أقذر وأكثر بؤسًا من الهريرة. ومرة أخرى وجدت الآنسة پولي نفسها، وهي مذهولة مشدوهة، تمثل الراعية العطوف وملاك الرحمة، وهي السمة التي أسبغتها عليها پوليانا دون تردد بوصفها حقيقة، فوجدت المرأة -التي تمقت الكلاب أكثر من مقتها للقطط إن أمكن- نفسها عاجزة عن الاعتراض كما حدث قبلًا.

غير أن الآنسة پولي كان لديها ما تقوله، حين جلبت پوليانا إلى البيت صبيًا قذرًا وطلبت له الحماية بثقة. لقد حدث الأمر كله على هذا المنوال.

في صباح يوم خميس بهيج أخذت پوليانا حساء العجل ثانية إلى السيدة سنو، وقد غدت السيدة سنو وپوليانا أعز صديقتين. بدأت صداقتهما في زيارة پوليانا الثالثة، تلك التي أعقبت المرة التي أخبرت فيها السيدة سنو عن اللعبة، إذ صارت السيدة سنو تلعب اللعبة مع پوليانا بكل تأكيد، ولم تكن تلعبها جيدًا، فقد طالت حسرتها على كل شيء ولم يعد من السهل عليها أن تسعد بأي شيء. ولكن بفضل تعليمات پوليانا المرحة وضحكتها الجذلة على أخطائها فإنها أخذت تتعلم بسرعة. حتى إنها قالت اليوم لپوليانا، التي ابتهجت للغاية،

إنها سعيدة لإحضار بوليانا لحساء العجل، لأن هذا ما أرادته، دون أن تدري أن ميلي قد أخبرت بوليانا عند باب البيت أن زوجة القس قد أرسلت ذلك اليوم وعاء كبيرًا من حساء العجل نفسه.

كانت بوليانا تفكر في هذا حين رأت الصبي على حين غرة.

كان الصبي يجلس متكومًا على نفسه حزينًا على طرف الدرب، يبري عصا صغيرة بفتور.

«مرحبًا»، قالت بوليانا باهتمام.

رفع الصبي نظره إليها، ثم أشاح برأسه في الحال.

«مرحبًا لنفسك»، غمغم الصبي.

ضحكت بوليانا.

«إنك لا تبدو كمن سيسر بحصوله على حساء العجل»، قهقهت وهي تقف قبالته.

تململ الصبي منزعجًا، ونظر إليها نظرة دهشة وواصل بري عصاه بسكين كليل مثلوم النصل في يده.

ترددت بوليانا، ثم جلست على العشب قربه. ورغم تأكيد بوليانا الجسور على اعتيادها النساء المحسنات، وأنها لا تبالي، فإنها تنهدت مرات توقًا لبعض الرفاق من أقرانها، ولذا عزمت على الاستمتاع هذه المرة.

«اسمي بوليانا ويتير»، قالت بسرور، «فما اسمك؟».

تململ الصبي منزعجًا مرة أخرى، بل إنه كاد أن ينهض غير أنه تراجع.

«جيمي بِين»، نخر بفتور وفظاظة.

«جيد! ها قد تعارفنا. إنني سعيدة لأنك عرفت بنفسك، فبعض الناس لا يفعلون كما تعلم. إنني أعيش في بيت الآنسة پولي هارنغتن، فأين تعيش؟».

«لا مكان».

«لا مكان! عجبًا، لا يمكنك فعل ذلك، فالجميع يعيشون في مكان ما»، أكدت پوليانا.

«حسن، أنا ليس لدي الآن، إنني أبحث عن مكان جديد».

«أوه! أين هو؟».

نظر إليها الصبي بعينين هازئتين.

«سخيفة؛ كأنني سأبحث عنه إن كنت أعرفه!».

أرجعت پوليانا رأسها للوراء قليلًا، فهذا الصبي ليس لطيفًا، وهي لا تحب أن تنعت بالسخيفة. ورغم ذلك فهو أحد ما إلى جانب الكبار.

«أين عشت قبلًا؟».

«حسن، حبذا لو أنك لا تسألين هذه الأسئلة!»، قال الصبي بنفاد صبر.

«علي ذلك»، ردت پوليانا بهدوء، «وإلا فإنني لن أعرف شيئًا عنك، ولو أنك تحدثت أكثر لما سألت كثيرًا».

ضحك الصبي ضحكة قصيرة، وقد كانت ضحكة بلهاء وليست عفوية تمامًا؛ غير أن وجهه بدا أكثر سرورًا حين تحدث هذه المرة.

«حسن إذن، إليك القصة! أنا جيمي بِين، وعمري عشر سنوات وأقترب من الحادية عشرة. جئت العام الماضي للعيش في ملجأ الأيتام، إلا أن لديهم الكثير من الأطفال وليس لديهم متسع لي، ولم يكونوا ليرغبوا بي بتاتًا كما أظن. لذا تركته، وسأعيش في مكان آخر، غير أني لم أعثر على المكان بعد. أرغب ببيت، بيت عادي فحسب، أنت لديك أهل، وأنا لا أهل لي منذ... أن مات أبي. لذا فإنني أبحث الآن، لقد سألت أربعة بيوت، ولكن لا أحد يريدني رغم أنني أخبرتهم أنني أقبل العمل طبعًا. حسن! أهذا كل ما أردت معرفته؟»، تهدج صوت الصبي قليلًا في الجملتين الأخيرتين.

«يا إلهي، يا لها من خسارة!»، قالت پوليانا بعطف، «أما وجدت أحدًا يريدك؟ أوه يا إلهي! إنني أعرف شعورك تمام المعرفة، لأنني بعد... بعد أن مات أبي أيضًا، لم يكن لدي أحد سوى النساء المحسنات، إلى أن قالت الخالة پولي إنها ستأخذ...» توقفت پوليانا بغتة. وظهر على وجهها أن فكرة خطرت لها.

«أوه، إنني أعرف المكان المناسب لك»، هتفت، «ستأخذك

الخالة بولي، أعرف أنها ستفعل! ألم تأخذني؟ ألم تأخذ فْلَفي وبَقي حين لم يكن لديها أحد يحبهما، أو مكان يأويان إليه؟ وهما ليسا سوى قطة وكلب. أوه، هلم، أعلم أن الخالة بولي ستأخذك! إنك لا تعلم مقدار عطفها وطيبتها!».

أشرق وجه جيمي بِين النحيل الصغير.

«حقًا؟ هل ستفعل الآن؟ سأعمل كما تعرفين، وأنا قوي جدًا!»، وكشف عن ذراع مهزول صغير.

«ستفعل طبعًا! حقًا، إن الخالة بولي هي ألطف سيدة في العالم، الآن بعد أن ذهبت ماما إلى السماء لتكون ملاكًا. كما أن في البيت غرفًا، الكثير منها»، واصلت وهي تنهض جاذبة ذراعه. «إنه منزل كبير للغاية، غير أنك ربما»، أضافت بشيء من القلق وهما يغذان السير، «غير أنك ربما ستضطر للنوم في غرفة العلية. لقد فعلت أنا في بادئ الأمر، لكن فيها حواجب منخلية، فلن تكون حارة جدًا ولن يدخل الذباب أيضًا فيجلب الجراثيم بأقدامه. هل عرفت شيئًا عن هذا؟ إنها رائعة للغاية! وربما ستجعلك تقرأ الكتاب إن كنت مطيعًا، أعني إن كنت مشاكسًا. كما أن لديك نمشًا أيضًا»، بنظرة متفحصة، «ستسر أن ليس في الغرفة مرآة، ولوحة المنظر الخارجي أجمل من أي لوحة تعلق على الجدار، لذا فإني واثقة أنك لن تمانع في النوم في تلك الغرفة بتاتًا»، لهثت بوليانا وقد اكتشفت فجأة أنها بحاجة لما بقي من أنفاسها لغرض آخر عدا الكلام.

«يا للروعة!»، قال جيمي بِين باقتضاب وبلا فهم ولكن

بإعجاب. ثم أضاف «لست أعرف أحدًا يتحدث هكذا وهو يجري، ولن أطرح الأسئلة لأجعل الوقت يمر!».

ضحكت بوليانا.

«حسن على أية حال عليك أن تسعد لأنني إن تحدثت فلن تضطر أنت لذلك»، أجابت.

حين وصلا البيت قادت بوليانا رفيقها بلا إبطاء ليمثل أمام خالتها المذهولة.

«أوه، انظري هنا يا خالتي بولي! لقد أحضرت شيئًا أجمل بكثير من فلَفي وبَفي من أجلك لتربيه. إنه صبي حي حقيقي، ولن يمانع البتة في النوم في العلية في البدء كما تعرفين، وهو يقول إنه سيعمل، إلا أنني أحسب أنني سأحتاجه جل الوقت لألعب معه».

شحب وجه الآنسة بولي، ثم احمر كثيرًا. صحيح أنها لم تفهم تمامًا، غير أنها ظنت أنها فهمت ما يكفي.

«ما معنى هذا يا بوليانا؟ من هذا الصبي الصغير القذر؟ أين عثرت عليه؟» سألت بحدة.

تراجع «الصبي الصغير القذر» خطوة إلى الوراء ونظر نحو الباب، فضحكت بوليانا بجذل.

«يا إلهي! لقد نسيت إخبارك باسمه! إنني سيئة بقدر الرجل. كما أنه قذر أيضًا، أليس كذلك؟ أعني أن الصبي مثلما كان فلَفي وبفي حين أخذتهما. إلا أنني أحسبه سيبدو أفضل بعد الاغتسال

كما فعلا، أوه، لقد نسيت ثانية»، وانفجرت ضاحكة، «هذا جيمي بين يا خالتي پولي».

«حسن، وما الذي يفعله هنا؟».

«عجبًا يا خالتي پولي، لقد أخبرتك لتوي!»، اتسعت عينا پوليانا دهشة. «إنه لك، لقد جلبته إلى البيت، فيعيش هنا كما تعرفين. إنه يريد بيتًا وأهلًا، وأخبرته أنك كنت طيبة معي للغاية، ومع فلَفي وبَفي، وأنني واثقة أنك ستكونين كذلك معه، لأنه أجمل من القطط والكلاب طبعًا».

تهاوت الآنسة پولي في كرسيها ورفعت يدًا مرتجفة إلى حلقها، فقد أخذ العجز القديم يهدد بالاستحواذ عليها ثانية. إلا أنها تمكنت من تمالك نفسها، بجهد واضح.

«هذا يكفي يا پوليانا. إن هذا لأكثر الأمور التي فعلتِها عجبًا حتى الآن. وكأنما القطط الضالة والكلاب الجرباء ليست سيئة بما يكفي، بل إنك بحاجة لجلب متسول صغير أشعث من الشارع، والذي...».

تململ الصبي على حين غرة، وقد اتقدت عيناه غضبًا ورفع ذقنه، وتقدم خطوتين بساقيه الصغيرتين القويتين حتى واجه الآنسة پولي بلا وجل.

«أنا لست متسولًا يا سيدتي، وأنا لا أريد شيئًا منك. وقد حسبت أنني سأعمل لديك طبعًا مقابل إقامتي وإبقائي. ولم أكن لآتي إلى بيتك العتيق على أية حال لولا أن أحضرتني هذه الفتاة

الصغيرة قائلة إنك طيبة وعطوفة للغاية وأنك تتحرقين شوقًا لأخذي، وهذا ما حدث!»، وسار وخرج من الغرفة بكبرياء ستبدو رائعة لو لم تكن مثيرة للشفقة.

«أوه يا خالتي بولي»، قالت بوليانا بغصة، «لقد ظننتك ستسرين بإبقائه هنا! أنا واثقة أنك ستسرين».

رفعت الآنسة بولي يدها بإيماءة حاسمة لتصمت، وقد ثارت ثائرة الآنسة بولي في نهاية المطاف، وما زالت كلمات الصبي عن «طيبتها وعطفها» ترن في في مسامعها، وعرفت أن العجز القديم قد استحوذ عليها. إلا أنها استجمعت قواها بآخر ما بقي لديها من طاقة، فصرخت بحدة:

«سيتعين عليك أن تكفي عن استخدام هذه الكلمة الدائمة «سعيدة»! إنه لأمر «سعيد»، «سعيد»، «سعيد»، من الصباح حتى المساء يا بوليانا حتى ظننت أنني سأجن!».

وفغرت بوليانا فاها لفرط دهشتها.

«عجبًا يا خالتي بولي»، قالت لاهثة، «ظننت أنك ستسرين لرؤيتي سعـ... أوه!»، ثم قطعت حديثها واضعة يديها على شفتيها وخرجت مسرعة للغاية من الغرفة.

لحقت بوليانا بالصبي قبل أن يصل نهاية مدخل العزبة.

«يا فتى! يا فتى! جيمي بِين، أردتك أن تعلم أنني شديدة الأسف»، لهثت وهي توقفه بيدها.

«لا تأسفي على شيء! لست ألومك»، أجاب الصبي متجهمًا، «لكني لست متسولًا!»، أضاف بزهو مفاجئ.

«لست كذلك طبعًا! ولكن لا تلم خالتي»، توسلت إليه بوليانا، «ربما لم أحسن تعريفكما ببعض، وأحسب أنني لم أخبرها كثيرًا عمن تكون. إنها طيبة وعطوفة حقًا، وقد كانت كذلك دومًا. ربما لم أحسن شرح الأمر جيدًا. إنني أتمنى بحق لو كان بوسعي العثور على مكان لك».

رفع الصبي كتفيه، واستدار ليذهب «لا تهتمي. أظن أن بوسعي العثور على مكان لنفسي، فأنا لست متسولًا كما تعرفين».

تجهمت بوليانا وهي تفكر بعمق، والتفت فجأة وقد أشرق وجهها. «اسمع! سأخبرك بما سأفعل! تلتقي السيدات المحسنات بعد ظهر اليوم، لقد سمعت خالتي بولي تقول هذا. لذا سأعرض حالتك عليهن، فهذا ما يفعله أبي دومًا حين يريد شيئًا، من قبيل تعليم غير المؤمنين وشراء السجاد الجديد كما تعرف».

استدار الصبي بسرعة.

«حسن، أنا لست من هؤلاء ولست سجادة جديدة، ثم من تكون السيدات المحسنات؟».

نظرت إليه بوليانا نظرة استنكار ودهشة.

«عجبًا يا جيمي بِين، أين نشأت؟ ألا تعرف من السيدات المحسنات؟!».

«أوه، حسن، إن لم تشائي أن تخبريني»، نخر الصبي واستدار وأخذ يمشي بعيدًا بلا اكتراث.

قفزت پوليانا قربه قفزة واحدة. «إنهن، إنهن، حسن، إنهن نسوة كثيرات يلتقين ويخطن ويقدمن وجبات العشاء ويجمعن الأموال و... ويتحدثن، هذا ما تفعله النساء المحسنات. إنهن عطوفات للغاية، أعني معظم من عرفتهن في الديار. لم أر النساء المحسنات هذه البلدة، إلا أنهن طيبات دومًا كما أظن. سأخبرهن بأمرك بعد ظهر اليوم».

استدار الصبي بقوة مرة أخرى. «لن تستفيدي شيئًا! لعلك تظنين أنني سأقف في الجوار وأصغي لحشد من النساء يسمينني متسولًا، بدلًا من واحدة فحسب! كلا، قطعًا!».

«أوه، ولكنك لن تكون هناك»، جادلته پوليانا بسرعة، «سأذهب وحدي طبعًا وأخبرهن».

«ستفعلين؟!».

«أجل، وسأشرح الأمر على نحو أفضل هذه المرة»، أسرعت پوليانا، وسرعان ما رأت أن أسارير الصبي قد انفرجت، «وأنا واثقة أن بعضهن سيسعدن بمنحك بيتًا».

«سأعمل، لا تنسي قول ذلك»، نبهها الصبي.

«لن أنسى حتمًا»، وعدت پوليانا سعيدة وقد تأكدت أن هدفها قد تحقق، «ثم سأخبرك بالأمر غدًا».

«أين؟».

«في الشارع، حيث عثرت عليك اليوم قرب منزل السيدة سنو».

«حسن، سأكون هناك»، صمت الصبي ثم واصل بهدوء، «لعل من الأجدر بي العودة الليلة إلى الملجأ. إذ ليس لدي مكان أقيم فيه كما ترين، ولم أغادر حتى هذا الصباح. لقد تسللت ولم أخبرهم أني لست بعائد، وإلا لادعوا أن ليس بوسعي العودة، رغم أنني أعرف أنهم لن يقلقوا لغيابي لبعض الوقت. إنهم ليسوا كالأهل فهم لا يهتمون كما تعرفين».

«أعرف»، هزت بوليانا رأسها موافقة بعينين متفهمتين، «ولكني واثقة أنني سيكون لدي بيت وأهل يهتمون لأمرك كثيرًا. إلى اللقاء!»، هتفت بمرح وهي تستدير للعودة إلى البيت.

ومن غرفة المعيشة في تلك اللحظة، تابعت الآنسة بولي، التي راقبت الطفلين، الصبي بعينين قاتمتين إلى أن غيبه منعطف الدرب عن نظرها. ثم تنهدت واستدارت وصعدت إلى الأعلى بوهن. ما زالت كلمات الصبي الهازئة ترن في مسمعيها «إنك طيبة وعطوفة للغاية»، وفي قلبها شعور غريب بالحزن، كأنها فقدت شيئًا ما.

الفصل الثاني عشر
أمام السيدات المحسنات

كان الغداء الذي يقدم وقت الظهيرة في عزبة هارنغتن غداء صامتًا في يوم لقاء السيدات المحسنات. صحيح أن بوليانا حاولت التحدث، لكنها لم تفلح، وذلك غالبًا لأنها اضطرت لأربع مرات أن تكف عن قول «سعيدة» في حديثها، ما جعلها تشعر باستياء شديد، وحين حدث هذا للمرة الخامسة حركت الآنسة بولي رأسها متبرمة.

«حسن، حسن يا صغيرة. قوليها إن شئت»، ثم تنهدت، «أفضّل أن تقوليها حتمًا بدلًا من التصرف على هذا النحو، إن كان الأمر سيحدث كل هذه الجلبة».

«أوه، شكرًا لك. أخشى أن الأمر سيكون عسيرًا جدًا بألا أقولها، فقد لعبتها لوقت طويل كما تعرفين».

«ماذا فعلت؟»، سألت الخالة بولي.

«لعبتها، اللعبة. تعرفين أن أبي..»، وصمتت بوليانا وقد خجلت متألمة لأنها وجدت نفسها في منطقة محظورة مرة أخرى.

عبست الآنسة بولي ولم تنبس ببنت شفة، ومضى ما بقي من الغداء بصمت.

لم تأسف بوليانا لدى سماعها الخالة بولي تخبر زوجة القس على الهاتف، بعد ذلك، أنها لن تحضر اجتماع السيدات المحسنات بعد ظهر اليوم بسبب الصداع. وحين صعدت الخالة بولي إلى غرفتها وأغلقت الباب، حاولت بوليانا أن تحزن لصداعها، إلا أنها لم تستطع منع نفسها من الشعور بالسعادة لتغيب خالتها بعد الظهر عند عرضها أمر جيمي بِين أمام السيدات المحسنات. ولم تنس أن الخالة بولي نعتت جيمي بِين بالمتسول الصغير، ولم ترغب بأن تنعته الخالة بولي بذلك أمام النساء المحسنات.

علمت بوليانا أن السيدات المحسنات يلتقين عند الساعة الثانية في الكنيسة الصغيرة المجاورة للكنيسة التي تبعد عن البيت نصف ميل. ولذلك خططت لذهابها حتى تتمكن من الوصول قبل الثالثة بقليل.

«أريد أن يكنّ جميعهن هناك»، قالت في نفسها، «فقد تكون تلك المتغيبة هي التي ترغب بمنح منزل لجيمي بِين، كما أن الساعة الثانية تعني دومًا الثالثة لدى السيدات المحسنات».

صعدت بوليانا عتبات الكنيسة بهدوء ولكن بشجاع وثقة، وفتحت الباب ودخلت الرواق. تناهى إليها صخب ثرثرة نسائية وضحك من الغرفة الرئيسة، ولم تتردد بوليانا لحظة في فتح أحد الأبواب الداخلية.

هدأت الجلبة وصارت صمتًا ذاهلًا، فتقدمت پوليانا بشيء من الخوف. إذ إنها شعرت حين آن الأوان بخجل على غير العادة. فلم تكن هذه الوجوه نصف الغريبة ونصف المألوفة السيدات المحسنات اللاتي تعرفهن.

«كيف حالكن أيتها السيدات المحسنات؟»، تلعثمت بأدب، «أنا پوليانا ويتير، و... وأحسب أن بعضكن يعرفنني، ربما، على أية حال. إنني أعرفكن، إلا أنني لا أعرفكن مجتمعات على هذا النحو».

خيم الصمت. عرفت بعض السيدات ابنة الأخت الغريبة الأطوار لزميلتهن، وقد سمع معظمهن بها، إلا أن ولا واحدة منهن استطاعت إيجاد شيء لقوله حينئذ.

«لقد جئت... لقد جئت لعرض أمر عليكن»، ارتبكت پوليانا بعد لحظات دون أن تعي أنها تردد عبارات أبيها المألوفة.

وسمع هسهسة خفيفة.

«هل... هل أرسلتك خالتك يا عزيزتي؟»، سألت زوجة القس السيدة فورد.

احمرت پوليانا قليلًا.

«أوه، كلا. لقد جئت بمفردي. لقد اعتدت رؤية السيدات المحسنات كما ترين، فقد ربتني السيدات المحسنات مع أبي».

ضحكت إحداهن ضحكًا مكتومًا فعبست السيدة فورد.

«نعم يا عزيزتي، ما الأمر؟».

«حسن، إنه... إنه جيمي بِين»، تنهدت بوليانا، «ليس لديه منزل سوى ملجأ الأيتام، وهو مكتظ ولا يريدونه على أية حال. لذا فإنه يفكر، أعني أنه يريد منزلًا آخر. يريد منزلًا عاديًا، فيه أم بدلًا من المشرفة، وأهل يهتمون كما تعرفن. إنه في العاشرة من عمره وسيتم الحادية عشرة. لقد خطر لي أن بعضكن قد يحببنه، ويحببن أن يعيش معكن، كما تعلمن».

«كيف يخطر لك؟»، غمغم صوت قاطعًا الصمت الذي أعقب كلمات بوليانا.

نظرت بوليانا إلى الوجوه المتحلقة حولها بعينين قلقتين.

«أوه، لقد نسيت القول إنه سيعمل»، فأكملت بحماس.

ما زال الصمت مخيمًا، ثم أخذت امرأة أو اثنتان تسألانها بفتور. وبعد أن سمعن بالقصة جميعًا أخذن يتحدثن فيما بينهن، بحماس يفتقر للبهجة.

أنصتت بوليانا بقلق متزايد، ولم تفهم بعض ما قيل، غير أنها فهمت بعد وقت أنه ما من امرأة لديها منزل تمنحه له، رغم أن كل امرأة بدت تفكر أن إحدى الأخريات ستأخذه، فكثيرات منهن ليس لهن أولاد صغار من أصلابهن يسكنون بيوتهن. ولكن لم تقبل أي واحدة أخذه، ثم سمعت زوجة القس تقترح اقتراحًا خجولًا بأنهن، في جمعيتهن، قد يتمكن من إعالته والإنفاق على دراسته بدلًا من إرسال الكثير من المال هذا العام إلى الصبية الصغار في بلاد الهند البعيدة.

فتحدثت الكثير من السيدات حينئذ، وتحدثت العديدات في آن واحد، وبصوت أعلى وأكثر غضبًا من ذي قبل. فقد تبين أن جمعيتهن اشتهرت بتمويل البعثات التبشيرية للهندوس، وقالت العديدات إن الكثيرين سيموتون من الغرغرينا إن كان المال أقل هذا العام. ظنت بوليانا ثانية أنها لم تفهم بعضًا مما قلنه، لأنه بدا أنهن لا يكترثن البتة بما فعله المال، ما دام المبلغ واسم جمعيتهن قبله سيتصدر القائمة في تقرير ما، وقد لا يكون هذا مقصدهن البتة! غير أن الأمر كان محيرًا جدًا وليس مبهجًا. فسُرت بوليانا حقًا لأنها وجدت نفسها خارجًا في الهواء الطلق العذب، عدا أنها كانت شديدة الأسى أيضًا، إذ عرفت أن الأمر لن يكون سهلًا، ولن يكون إلا أمرًا حزينًا، لتخبر جيمي بِين غدًا أن السيدات المحسنات عقدن العزم على إرسال كل المال لتنشئة الصبية الهنود الصغار بدلًا من تخصيص ما يكفي لتنشئة صبي واحد صغير في بلدتهن، لن يحصلن مقابله على منزلة في التقرير، وفقًا لما قالته السيدة الطويلة التي تضع نظارات.

«إلا إن إرسال المال للوثنيين أمر جيد طبعًا، ولكني أحبذ لو أرسلن قسمًا منه»، تنهدت بوليانا وهي تخطو بحزن، «لكنهن يتصرفن كأن الأولاد الصغار هنا ليسوا مهمين، بل المهم هم الأولاد الصغار البعيدون. أنني أرى رغم ذلك أن يجب أن يفضلن رؤية جيمي بِين يكبر عوضًا عن تقرير ما!».

الفصل الثالث عشر
في غابة پندلتن

لم تنعطف پوليانا نحو المنزل بعد مغادرتها للكنيسة، بل انعطفت نحو تلة پندلتن. لقد كان يومًا شاقًا، لأنه كان يوم «إجازة» (كما تسمي الأيام القليلة التي لا يكون فيها دروس خياطة أو طبخ)، وكانت پوليانا واثقة من أن لا شيء سيهدئها مثل نزهة جيدة في الخضرة الهادئة لغابة پندلتن، فصعدت تلة پندلتن بثبات رغم سطوع الشمس على ظهرها.

«ليس علي الذهاب إلى البيت حتى الساعة الخامسة والنصف»، قالت لنفسها، «وسيكون الذهاب عبر طريق الغابة أجمل بكثير، حتى إن تعين علي الصعود للوصول إلى هناك».

كانت غابة پندلتن جميلة، وهذا ما عرفته پوليانا بنفسها. إلا إنها اليوم بدت أكثر بهجة من ذي قبل، على الرغم من خيبة أملها بما ستخبر به جيمي بِين غدًا.

«أتمنى لو كن جميعهن هنا، كل أولئك السيدات اللاتي يتحدثن بصوت عال»، تنهدت پوليانا، رافعة نظرها إلى الرقع الزرقاء المشرقة

التي تتخلل أعالي الأشجار الخضراء المضاءة بنور الشمس. «على أية حال، لو كن هنا، لغيرن رأيهن وأخذن جيمي بين ليكون فتاهن الصغير حقًا، كما أظن»، فرغت من حديثها واثقة من قناعتها، لكنها عاجزة عن إعطاء سبب حتى لنفسها.

رفعت پوليانا رأسها فجأة وأصغت، وسمعت صوت كلب ينبح على مبعدة، ثم جاء إليها مسرعًا، ولم يزل ينبح.

«مرحبًا، أيها الكلب، مرحبًا!»، فرقعت پوليانا بأصابعها للكلب ونظرت بترقب إلى الدرب. لقد كانت واثقة أنها رأت الكلب مرة من قبل، إذ كان حينها مع الرجل، السيد جون پندلتن. وأخذت تنظر آملة أن تراه. وترقبت لبضع دقائق بلهفة غير أنه لم يظهر، ثم وجهت انتباهها نحو الكلب.

كان الكلب يتصرف بغرابة كما رأت پوليانا، إذ لم يزل ينبح، وهو يطلق عواء قصيرًا حادًا كأنه خائف. وكان يجري جيئة وذهابًا أيضًا في الدرب أمامها، وسرعان ما وصلا دربًا جانبيًا، أسرع إليه الكلب الصغير تمامًا، ليعود من فوره نابحًا ومتوجعًا.

«هو! هذا ليس طريق العودة إلى البيت»، ضحكت پوليانا ولم تزل سائرة على الدرب الرئيس.

بدا الكلب هائجًا، وهو يروح ويغدو ويروح ويغدو بين پوليانا والدرب الجانبي نابحًا ومتوجعًا نباحًا محزنًا. كانت كل رعدة من جسده البني الصغير وكل نظرة من عينيه البنيتين المتوسلتين ناضحة بالالتماس، حتى فهمت پوليانا في نهاية المطاف وانعطفت وتبعته.

انطلق الكلب الصغير يتقدمها بسرعة جنونية، ولم يمض وقت طويل حتى عرفت بوليانا سبب هذا كله، إذ وجدت رجلًا يستلقي دون حراك عند سفح كتلة صخرية متدلية عالية على بعد بضع ياردات من الدرب الجانبي.

انقصف غصن تحت قدم بوليانا بصوت عالٍ فأدار الرجل رأسه، وركضت بوليانا نحوه وهي تصرخ ذعرًا.

«أوه، هل جرحت يا سيد بندلتن؟».

«جرحت؟ أوه، كلا! إنني أرقد في قيلولة في ضوء الشمس فحسب»، أجاب الرجل بانزعاج، «انظري إلي، ماذا تعرفين؟ ماذا بوسعك أن تفعلي؟ هل لديك عقل؟».

حبست بوليانا أنفاسها بشهقة قصيرة، ولكنها كعادتها أجابت عن الأسئلة حرفيًا واحدًا تلو الآخر.

«عجبًا يا سيد بندلتن، لست... لست أعرف كثيرًا، وليس بوسعي فعل أمور كبيرة، ولكن معظم السيدات المحسنات يقلن إن لي عقلًا جيدًا، باستثناء السيدة راوسن. لقد سمعتهن يومًا يقلن ذلك، غير أنهن لم يعلمن أنني سمعتهن».

ابتسم الرجل متجهمًا، «حسن، حسن يا صغيرة، أستميحك عذرًا، إنها هذه الساق المزعجة فحسب، والآن اسمعيني»، صمت وبشيء من الصعوبة وضع يده في جيب بنطاله وأخرج حزمة مفاتيح، مفردًا واحدًا بين إبهامه وسبابته. «يقع بيتي على مبعدة خمس

دقائق سيرًا من هنا إن سرت على هذا الدرب. وهذا المفتاح سيتيح لك الدخول من الباب الجانبي تحت السقيفة، هل تعرفين ما هي السقيفة؟».

«أوه، أجل يا سيدي. لدى خالتي واحدة تعلو حجرة شمسية، وهذا هو السطح الذي نمت عليه، غير أنني لم أنم، فقد عثروا علي كما تعرف».

«إه؟ أوه! حسن، حين تدخلين البيت اذهبي مباشرة إلى الرواق والردهة إلى الباب في نهايته. وعلى المكتب الكبير ذا السطح المستوي في وسط الغرفة ستعثرين على هاتف. هل تعرفين كيف تستخدمين الهاتف؟».

«أوه، أجل يا سيدي! مرة حينما قامت الخالة پولي....».

«انسي الخالة پولي الآن»، قاطعها الرجل عابسًا وهو يحاول تحريك نفسه قليلًا، «حاولي العثور على رقم الطبيب توماس تشلتن المكتوب في دفتر الهواتف الذي ستجدينه في مكان ما هناك، لا بد أنه معلق على المشبك على الجانب، وقد لا يكون هناك. أظنك تعرفين دفتر الهواتف حين ترينه؟».

«أوه، أجل يا سيدي! إنني أحب دفتر هواتف الخالة پولي المليء بالأسماء الغريبة و...».

«أخبري الطبيب تشلتن أن جون پندلتن عند سفح حيد النسر الصغير في غابة پندلتن وساقه مكسورة، وأخبريه أن يأتي حالًا مع

نقالة ورجلين. وسيعرف ما يفعله بالإضافة إلى ذلك، وأخبريه أن يأتي من الدرب القريب من البيت».

«ساق مكسورة؟ أوه يا سيد پندلتن، إن هذا لأمر بغيض للغاية!»، ارتعشت پوليانا، «ولكني سعيدة للغاية لقدومي! ألا يمكنني...».

«أجل يمكنك، غير أن من الجلي أنك لن تفعلي! هلا ذهبت وفعلت ما طلبته وكففت عن الكلام؟»، تذمر الرجل بوهن.

وذهبت پوليانا ببكاء ونشيج. لم تتوقف لتنظر إلى الرقع الزرقاء التي تتخلل أعالي الشجر المضاء بالشمس، بل أبقت عينيها على الأرض لتتأكد ألا تعثُر قدميها بغصن أو حجر.

لم يمض وقت طويل قبل أن ترى البيت. لقد رأته من قبل، رغم أنها لم تره من هذا القرب. لقد خافت من ضخامة الحجارة الرمادية الكبيرة وشرفاته ذوات الأعمدة ومدخله الفخم. توقفت پوليانا للحظة، غير أنها أسرعت عبر المرج الكبير المهمل ودارت حول البيت إلى الباب الجانبي تحت السقيفة. لم تفلح أصابعها، التي تشنجت لإحكام قبضتها على المفاتيح، في محاولاتها لإدارة الرتاج في القفل، غير أن الباب الثقيل المنقوش تأرجح ببطء على مصراعه.

التقطت پوليانا أنفاسها. رغم إحساسها بالعجلة توقفت للحظة ونظرت بخوف إلى الردهة المعتمة الواسعة، وأخذ رأسها يدور. لقد كان هذا بيت جون پندلتن، البيت الغامض الذي لا يدخله أحد سوى صاحبه، البيت الذي يحوي هيكلًا عظميًا في

مكان ما. ورغم ذلك، كان مطلوبًا من پوليانا أن تدخل وحدها هذه الغرفة المخيفة، وتهاتف الطبيب وتخبره بأن سيد البيت يرقد...

بصرخة قصيرة، ودون أن تنظر يمنة او يسرة جرت پوليانا عبر الردهة نحو الباب الواقع في نهايتها وفتحته.

كانت الغرفة كبيرة ومعتمة بأثاث وستائر داكنة مثل الردهة، لكن الشمس ألقت على الأرض بوشاح طويل من الذهب عبر النافذة الغربية، لمع لمعانًا خافتًا على الأثافي النحاسية الملطخة في المصطلى ولمست معدن الهاتف على المكتب الكبير وسط الغرفة. تقدمت پوليانا على عجل نحو هذا المكتب.

لم يكن دفتر الهواتف معلقًا على المشبك، بل كان على الأرض. ووجدته پوليانا، ومررت سبابتها المرتعشة أسفل الحروف إلى أن عثرت على اسم تشلتن. ووجدت الطبيب تشلتن نفسه في الوقت المناسب على الطرف الآخر، وأخذت توصل الرسالة مرتجفة وتجيب عن أسئلة الطبيب الموجزة السديدة. وبعد أن فرغت من هذا أغلقت السماعة وتنفست الصعداء.

نظرت پوليانا نظرة قصيرة إلى ما حولها، وقد شوش رؤيتها الستائر القرمزية والجدران التي اصطفت عليها الكتب والأرضية التي تناثرت عليها الأوراق، والمكتب الفوضوي، والأبواب المغلقة الكثيرة (يمكن لأي منها أن يخفي الهيكل العظمي)، والغبار في كل مكان، غبار، غبار، فهرعت عبر الردهة إلى الباب الكبير المنقوش الذي لم يزل مواربًا كما تركته.

عادت بوليانا إلى الغابة قرب الرجل فيما بدا، حتى للرجل الجريح، وقتًا قصيرًا للغاية.

«حسن، ما الأمر؟ ألم تستطيعي الدخول؟» سألها.

ففتحت بوليانا عينيها واسعتين.

«بلى، لقد استطعت طبعًا! وأنا هنا!»، أجابت، «كأنني سأكون هنا لو لم أستطع الدخول! وسيحضر الطبيب بأسرع ما يستطيع مع الرجال والأشياء. لقد قال إنه يعرف أين أنت، لذا لم أبق حتى أريه الدرب، فقد أردت أن أكون معك».

«حقًا؟»، ابتسم الرجل عابسًا، «حسن، لا يمكنني القول إنني أحب ذوقك، إذ يمكنك العثور على رفاق أكثر بهجة».

«هل تعني... لأنك شكس جدًا؟».

«شكرًا على صراحتك. أجل».

ضحكت بوليانا بنعومة.

«لكنك شكس في الخارج فحسب، ولست شكسًا في داخلك البتة!».

«حقًا! كيف تعرفين هذا؟»، سأل الرجل وهو يحاول تغيير موضع رأسه دون تحريك بقية جسده.

«أوه، من طرق عديدة، انظر مثل هذه؛ من طريقة تعاملك مع الكلب»، أضافت مشيرة إلى اليد الطويلة النحيلة التي تستقر على

رأس الكلب الناعم قربه. «من الغريب أن تعرف الكلاب والقطط دواخل الناس أفضل مما يفعل الناس، أليس كذلك؟ اسمع، سأمسك برأسك»، أنهت قولها فجأة.

أجفل الرجل عددًا من المرات وأنّ بهدوء ما إن حدث التغيير، غير أنه وجد في نهاية المطاف حِجر پوليانا بديلًا مريحًا عن الحفرة الصخرية التي وضع رأسه فيها قبلًا.

«حسن، هذا... هذا أفضل»، غمغم واهنًا.

لم يتحدث ثانية لبعض الوقت. وتساءلت پوليانا التي تراقب وجهه إن كان نائمًا، غير أنها لا تظنه كذلك. فقد بدا كأنه يزم شفتيه بقوة لئلا يئن ألمًا. كادت پوليانا أن تبكي بصوت عالٍ وهي تنظر إلى جسده الكبير القوي مستلقيًا هنا عاجزًا. وكانت أصابع إحدى يديه مضمومة بقوة وذراعه ممدودة بلا حراك. أما الأخرى مفتوحة موضوعة على رأس الكلب. كما جلس الكلب أيضًا يراقب سيده بعينيه الحزينتين المتلهفتين بلا حراك.

مر الوقت دقيقة تلو الأخرى، وانحدرت الشمس نحو الغرب وغدت الظلال أعمق تحت الأشجار. جلست پوليانا بهدوء وبدت كأنها لا تتنفس. حلق طير بلا وجل في متناول يدها، ولوّح سنجاب بذيله الكث على غصن شجرة على مقربة منها، غير أن عينيه اللامعتين الصغيرتين كانتا على الكلب الساكن طوال الوقت.

حرك الكلب أخيرًا أذنيه وأنّ بهدوء ثم نبح نباحًا قصيرًا حادًا. سمعت پوليانا في اللحظة التالية أصواتًا، وسرعان ما

ظهر أصحابها؛ ثلاثة رجال يحملون نقالة وعددًا من الأدوات الأخرى.

وتقدم منهما مرحًا أطول الرجال، وهو رجل حليق لطيف العينين عرفت پوليانا لدى رؤيته أنه الطبيب تشلتن.

«حسن، يا سيدتي الصغيرة، أتمارسين دور الممرضة؟».

«أوه، كلا يا سيدي»، ابتسمت پوليانا، «لقد أمسكت برأسه فحسب، ولم أعطه ذرة من دواء، لكني سعيدة أنني كنت هنا».

«وأنا كذلك»، هز الطبيب رأسه موافقًا وهو يولي اهتمامه الكبير نحو الرجل الجريح.

الفصل الرابع عشر
مسألة الحساء!

تأخرت بوليانا قليلًا على العشاء في ليلة حادث جون بندلتن، غير أنها نجت دون توبيخ كما تبين.

التقتها نانسي عند الباب.

«حسن، إنني لسعيدة لأني رأيتك»، تنهدت براحة واضحة، «إنها السادسة والنصف».

«أعلم ذلك»، أقرت بوليانا قلقة، «ولكن لا يمكنك لومي، حقًا لا يمكنك ذلك. ولا أظن أن الخالة بولي ستفعل».

«لن تسنح لها الفرصة»، أجابت نانسي برضا كبير. «لقد ذهبت».

«ذهبت!»، لهثت بوليانا، «إنك لا تعنين أنني جعلتها ترحل؟»، وعبرت ذهن بوليانا في تلك اللحظة ذكريات حزينة للصباح والصبي الذي لا يريده أحد، والقطة والكلب وكلمتيها «سعيدة» المستهجنة، و«أبي» المحظورة اللتين تقفزان إلى لسانها النسّاء الصغير، «أوه، أجعلتها ترحل؟».

«كلا لم تفعلي»، تهكمت نانسي، «لقد مات نسيبها فجأة في بوسطن، وقد اضطرت للذهاب. لقد تلقت واحدة من البرقيات الصُفر بعد مغادرتك بعد ظهر اليوم، ولن تعود إلا بعد ثلاثة أيام. وأظنك الآن سعيدة تمامًا. سيكون البيت لنا، أنا وأنت طوال الوقت، حقًا!».

بدت پوليانا مذهولة.

«سعيدة؟! أوه يا نانسي، متى ستكون الجنازة؟».

«أوه. لكني لم أكن سعيدة لأمر الجنازة يا آنسة پوليانا، بل لـ...»، توقفت نانسي، وقد لمعت عيناها بشدة. «ويلي يا آنسة پوليانا كأنك لست من علمني أن ألعب اللعبة»، أنبتها بحزن.

تغضن جبين پوليانا بعبوس انزعاج.

«لا أستطيع يا نانسي»، قالت وهي تهز رأسها نفيًا، «لا بد أن لعب اللعبة ليس أمرًا صائبًا في بعض الأمور، وأنا واثقة أن الجنازات أحد هذه الأمور، فليس في الجنازة ما يسعد».

ضحكت نانسي «يمكننا أن نسر لأنها ليست لنا»، قالت برزانة، لكن پوليانا لم تسمعها إذ بدأت من فورها تقص عليها الحادث ونانسي تصغي فاغرة فاها.

التقت پوليانا بجيمي بِين في المكان المحدد النهار التالي حسب الاتفاق. أبدى جيمي، كما هو متوقع طبعًا، خيبة أمل حادة لتفضيل السيدات المحسنات الصبي الهندي الصغير عليه.

«حسن، ربما كان ذلك عاديًا»، تنهد، «فالأشياء التي لا تعرفين الكثير عنها تبدو أجمل من تلك التي تعرفينها، مثل البطاطا على الطرف الآخر من الصحن التي تبدو أكبر دومًا. إلا إنني أتمنى لو أبدو هكذا لدى أحدهم في الخارج، ألن يكون رائعًا لو أرادني أحد ما في الهند؟».

صفقت بوليانا.

«رائع، طبعًا! هذا هو الأمر يا جيمي. سأكتب عنك إلى «سيداتي المحسنات». إنهن لسن في الهند، بل في الغرب فحسب، غير أن هذا بعيد جدًا، فالأمر سيان. أحسب أنك ستظن ذلك بنفسك إن كان عليك قطع كل تلك المسافة للقدوم إلى هنا، كما فعلت!».

أشرق وجه جيمي.

«هل تظنين حقًا أنهن سيأخذنني؟»، سأل.

«سيفعلن طبعًا! ألم يأخذن الصبية الصغار في الهند لتربيتهم؟ حسن، يمكنهن أن يتظاهرن بأنك فتى هندي صغير هذه المرة. أحسب أنك بعيد بما يصلح للتقرير تمامًا. انتظر، سأكتب لهن، وسأكتب للسيدة وايت. كلا، سأكتب للسيدة جونز. صحيح أن السيدة وايت لديها مال أكثر، إلا أن السيدة جونز تتبرع بمعظم المال، وهذا غريب حين تفكر فيه، أليس كذلك؟ غير أني أظن أن بعض المحسنات سيأخذنك».

«حسن، ولكن لا تنسي أن تذكري أنني سأعمل مقابل الاحتفاظ بي وإقامتي»، أضاف جيمي. «أنا لست متسولًا، والعمل هو العمل

حتى لدى النساء المحسنات كما أرى»، تردد قليلًا ثم قال «وأظن أن علي البقاء في مكاني لفترة، إلى أن يأتيك رد».

«طبعًا»، هزت بوليانا رأسها مؤكدة، «ثم سأعرف أين أجدك. وسيأخذنك، أنا واثقة أنك بعيد بما يكفي ليفعلن ذلك. ألم تأخذني الخالة بولي....، اسمع!»، توقفت فجأة، «هل تظن أنني كنت فتاة صغيرة من الهند لدى الخالة بولي؟».

«حسن، إنك أغرب طفلة رأيتها!»، ابتسم جيمي وهو يستدير راحلًا.

قالت بوليانا لخالتها ذات صباح، بعد مرور أسبوع على الحادثة في غابة بندلتن «هل تمانعين يا خالتي بولي إن أخذت حساء العجل المخصص للسيدة سنو لأحد آخر هذا الأسبوع؟ أنا واثقة أن السيدة سنو لن تمانع، هذه المرة».

«عزيزتي بوليانا، ما الذي تفكرين به هذه المرة؟»، تنهدت خالتها، «إنك أغرب طفلة رأيتها!».

تجهمت بوليانا بشيء من القلق.

«أخبريني ما الغريب من فضلك يا خالتي بوليانا، فإن كان المرء غريبًا فهو ليس بعادي، أليس كذلك؟».

«طبعًا ليس كذلك».

«أوه، لا بأس إذن. أنا سعيدة أنني غريبة»، تنهدت بوليانا، وقد راق وجهها، «لقد اعتادت السيدة وايت أن تقول إن السيدة راوسن

امرأة عادية جدًا، كما ترين، وقد كرهت السيدة راوسن كثيرًا. فقد كانتا تتشاجران كثيرًا.. أعني أن أبي قد... أعني أننا عانينا الأمرّين في..» وقد انقطعت أنفاسها قليلًا لجهودها في تفادي نار أوامر أبيها الماضية فيما يتعلق بمشاجرات الكنيسة، ورمضاء الأوامر الراهنة لخالتها فيما يتعلق بالحديث عن أبيها.

«أجل، أجل، حسن، لا تهتمي»، قاطعتها الخالة پولي بشيء من نفاد الصبر، «إنك تواصلين فعل هذا حقًا يا پوليانا، وأيًا كان ما نتحدث عنه فإنك تذكرين أولئك السيدات المحسنات دومًا!».

«أجل»، ابتسمت پوليانا بجذل، «أحسب أنني أفعل، ربما. لكنهن ربينني كما تعرفين...».

«هذا يكفي يا پوليانا»، قاطعها صوت بارد، «والآن ما أمر الحساء؟».

«لا شيء تمانعينه يا خالتي پولي، حقًا، أنا واثقة. فقد سمحت لي بأخذ الحساء إليها، وأحسب أنك ستسمحين لي بأخذ الحساء إليه، هذه المرة. فالساق المكسورة كما تعرفين ليست مثل العلة الدائمة، لذا فإنه لن يستمر على هذه الحال إلى الأبد كالسيدة سنو، ويمكنها أن تحصل على بقية الحساء بعد مرة أو اثنتين».

«إليه؟ ساق مكسورة؟ ما الذي تتحدثين عنه يا پوليانا؟».

نظرت پوليانا، ثم راق وجهها.

«أوه، لقد نسيت. أحسب أنك لم تعلمي، فقد حدث الأمر في

غيابك كما تعلمين. لقد حدث في يوم سفرك نفسه، إذ وجدته في الغابة، كما تعرفين، وكان علي فتح بيته ومهاتفة الطبيب والرجال، والإمساك برأسه وكل شيء. ثم عدت طبعًا ولم أره منذئذ. ولكن حين أعدت نانسي الحساء للسيدة سنو هذا الأسبوع ظننت أن الأمر سيكون لطيفًا جدًا إن استطعت أخذ الحساء إليه بدلًا منها، لهذه المرة فحسب. فهل يمكنني يا خالتي بولي؟».

«أجل، أجل، أظن ذلك»، أذعنت الآنسة بولي بشيء من الضجر، «قلت من يكون؟».

«الرجل، أعني السيد جون پندلتن».

قفزت الآنسة بولي من كرسيها ناهضة «جون پندلتن؟!».

«أجل، أخبرتني نانسي باسمه، لعلك تعرفينه؟!».

لم تجب الآنسة بولي عن هذا السؤال، بل سألت «هل تعرفينه؟».

هزت پوليانا رأسها «أوه، أجل. إنه يتحدث إلي ويبتسم دومًا. إنه شكس من الخارج فحسب كما تعلمين. سأذهب وآخذ الحساء، فقد جهزته نانسي»، أنهت پوليانا جملتها وقد قطعت نصف الغرفة.

«انتظري يا پوليانا!»، صار صوت الآنسة بولي حاسمًا فجأة، «لقد غيرت رأيي. أفضل أن تحصل السيدة سنو على ذاك الحساء اليوم كالمعتاد. هذا كل شيء، يمكنك الذهاب الآن».

فاكفهر وجه پوليانا. «أوه يا خالتي بولي. لكن مرضها سيدوم، يمكنها دومًا أن تكون مريضة وتحصل على الأشياء كما تعرفين. أما

هو فإن ساقه مكسورة فحسب، والساق لا تدوم، أعني كسر الساق لا يدوم. لقد مضى على كسره أسبوع».

«أجل، أذكر. سمعت أن السيد پندلتن تعرض لحادث»، قالت الآنسة پولي بشيء من الجفاف، «لست مهتمة بإرسال الحساء إلى جون پندلتن يا پوليانا».

«أعلم أنه شكس من الخارج»، أقرت پوليانا حزينة، «لذا أظنك لا تحبينه. لكني لن أقول إنك من أرسل الحساء، بل سأقول إنها أنا، فأنا أحبه وسأسر إن أخذت له الحساء».

أخذت الآنسة پولي تهز رأسها نفيًا مرة أخرى، ثم توقفت فجأة وسألت بصوت هادئ على نحو غريب «هل يعرف من تكونين يا پوليانا؟».

تنهدت الفتاة الصغيرة «أحسب أنه لا يعرف. أخبرته باسمي مرة، لكنه لا يناديني به مطلقًا».

«هل يعلم أين تعيشين؟».

«أوه، كلا. فلم أخبره بهذا قط».

«فهو لا يعرف إذن أنك ابنة أختي؟».

«أظن ذلك».

ساد الصمت للحظة، وكانت الآنسة پولي تنظر إلى پوليانا بعينين كأنهما لا ترياتها. وأخذت الفتاة الصغيرة تراوح بين قدميها بنفاد صبر، وتتنهد بصوت مسموع. ثم انتبهت الآنسة پولي فجأة.

«حسن جدًا يا پوليانا»، قالت في نهاية المطاف بذلك الصوت الغريب على غير عادتها، «بوسعك.. بوسعك أخذ الحساء للسيد پندلتن على أنه هديتك أنت. ولكن افهمي أنني لا أرسله، واحرصي على ألا يظن أنني فعلت!».

«أجل. لا. شكرًا لك يا خالتي پولي»، سرت پوليانا وهي تندفع خارجة من الباب.

الفصل الخامس عشر
الطبيب تشلتن

بدا ذلك البناء الحجري الرمادي الضخم مختلفًا في عيني پوليانا حين ذهبت في زيارتها الثانية إلى منزل السيد جون پندلتن. كانت النوافذ مفتوحة، وامرأة مسنة تنشر الغسيل في الفناء الخلفي، وعربة الطبيب تقف في المدخل الرئيس.

ذهبت پوليانا إلى الباب الجانبي كما فعلت قبلًا. وقرعت الجرس هذه المرة، ولم تكن أصابعها متشنجة اليوم من إحكام قبضتها على حزمة مفاتيح. قفز كلب صغير مألوف الهيئة العتبات لملاقاتها، إلا أن المرأة التي تنشر الثياب تأخرت قليلًا في فتح الباب.

«لقد جلبت بعض حساء العجل للسيد پندلتن، لو سمحت»، ابتسمت پوليانا.

«شكرًا لك»، أجابت المرأة وهي تتناول الوعاء من يد الفتاة الصغيرة. «من الذي أرسله فأخبره؟ وهل قلت إنه حساء العجل؟».

سمع الطبيب الذي خرج تلك اللحظة إلى الردهة كلمات المرأة ورأى النظرة الخائبة على وجه پوليانا، فتقدم بسرعة.

«آه! بعض حساء العجل؟»، سأل بلطف، «سيكون هذا جيدًا! لعلك ترغبين برؤية مريضنا، إه؟».

«أوه، أجل يا سيدي»، ابتهجت پوليانا، وأخذتها المرأة التي أذعنت لإيماءة الطبيب في الردهة فورًا، رغم الدهشة البادية على وجهها.

ومن خلف الطبيب قال شاب بانزعاج (وهو ممرض متمرس من أقرب مدينة) «ولكن أيها الطبيب، ألم يأمر السيد پندلتن بعدم إدخال أحد؟».

«أوه، بلى»، هز الطبيب رأسه بعناد، «لكني من يأمر الآن، وسأجازف بذلك»، ثم أضاف على نحو غريب، «إنك لا تعرف طبعًا، لكن تلك الفتاة الصغيرة أفضل من زجاجة دواء مقدارها خمس لترات على أية حال. لو كان بوسع شيء ما أو أحد ما تخليص پندلتن من الضجر هذه العصرية، فإنها پوليانا. ولهذا أدخلتها».

«من تكون؟».

تردد الطبيب للحظة قصيرة.

«إنها ابنة أخت إحدى أشهر سكاننا، واسمها پوليانا ويتير. لم أتعرف شخصيًا إلى السيدة الصغيرة بعد، غير أن كثيرًا من مرضاي يعرفونها، وأنا ممتن لذلك!».

ابتسم الممرض.

«حقًا؟! وما مكونات هذا الدواء الناجع الرائع، دواؤها؟».

هز الطبيب رأسه.

«لست أدري. ما أعرفه أنه مصنوع من سعادة غامرة لا تخمد لأي شيء حدث أو سيحدث. على أية حال، لقد رُددت كلماتها الآسرة على مسامعي كثيرًا، وعلى حد علمي، فإن مغزى معظمها «أن تكون سعيدًا»»، ثم أضاف بابتسامة غريبة أخرى وهو يخطو خارجًا نحو السقيفة «وجل ما أتمناه أن أتمكن من وصفها -وشرائها- كما أفعل بعلبة أقراص، ولو كان في العالم كثير منها لاتجهنا أنا وأنت لبيع شرائط الشعر وحفر الخنادق للحصول على المال الذي نحصل عليه من الطب والتمريض»، وضحك ممسكًا باللجام صاعدًا إلى العربة.

أدخلت بوليانا أثناء ذلك، تنفيذًا لتعليمات الطبيب، إلى غرفة جون بندلتن.

ولما شقت طريقها عبر المكتبة الكبيرة في طرف الردهة، التي عبرتها بسرعة، فقد رأت بوليانا أن تغييرات كبيرة قد طرأت. كانت الجدران التي اصطفت عليها الكتب والستائر القرمزية لم تزل نفسها، لكن الأرضية خلت من الأوراق، والمكتب مرتب ولم تر ذرة غبار. وعلق دفتر الهواتف في مكانه، ولمعت الأثافي النحاسية. كان أحد الأبواب الغامضة مفتوحًا، والخادمة تأخذها نحوه. وجدت بوليانا نفسها بعد قليل في غرفة نوم مؤثثة تأثيثًا فاخرًا وقد قالت الخادمة بصوت وجل «إن سمحت يا سيدي، هنا... هنا فتاة صغيرة تحمل حساء العجل. وقال الطبيب إن علي إدخالها».

وجدت پوليانا نفسها وحيدة بعدئذ مع رجل له هيئة نكدة جدًا يضطجع على ظهره في فراشه.

«اسمعي، ألم أقل...»، جاء صوت غاضب، «أوه! هذه أنت!»، قال بشيء من الفظاظة، حين تقدمت نحوه پوليانا.

«أجل يا سيدي»، ابتسمت پوليانا، «أوه، إنني سعيدة للغاية لسماحهم لي بالدخول! لقد أخذت السيدة الحساء أول الأمر، وخشيت ألا أراك مطلقًا. ثم جاء الطبيب وقال إن بوسعي الدخول. أليس لطفًا منه أن يسمح لي برؤيتك؟».

افترت شفتا الرجل عن ابتسامة رغمًا عنه، ولكنه لم يقل إلا «أف!».

«وقد جلبت لك بعض الحساء»، استأنفت پوليانا، «حساء قدم العجل. أرجو أنك تحبه؟!»، وبدا في صوتها شيء من التساؤل.

«لم آكله قط»، لقد غارت الابتسامة الهاربة وعاد العبوس إلى وجه الرجل.

بدا على پوليانا خيبة الأمل للحظة قصيرة، لكنها زالت حين وضعت وعاء الحساء جانبًا.

«ألم تفعل؟ حسن، إن لم تفعل فلست تعرف أنه لن يعجبك على أية حال، أليس كذلك؟ لذا فإني أحسب أنني سعيدة لأنك لم تفعل في نهاية المطاف. فلو عرفت...».

«أجل، أجل. حسن، ثمة أمر واحد أعرفه حق المعرفة، وهو

أنني مستلق على ظهري هنا في هذه اللحظة، وأنني ملزم للبقاء هنا، حتى يوم الحساب كما أظن».

بدت پوليانا مذهولة.

«أوه، كلا! لن يستمر ذلك حتى يوم الحساب، حين ينفخ الملاك جبريل في الصور كما تعرف[1]، إلا لو جاء أسرع مما نظن. أوه، أعرف طبعًا أن الكتاب المقدس يقول إنه قد يأتي أسرع مما نظن، لكني لا أظنه سيفعل، أعني أنني أؤمن بالكتاب المقدس طبعًا، غير أني لا أظنه سيأتي أسرع مما سيحدث لو أنه حان الآن، و...».

ضحك جون پندلتن فجأة وبصوت عال. وسمع ضحكه الممرض، الذي دخل في اللحظة نفسها، فتراجع مسرعًا في صمت. لقد كان له مظهر الطاهي المذعور الذي يرى خطر هبوب هواء بارد سيلفح كعكة نصف ناضجة، فأغلق باب الفرن على عجل.

«ألست تخلطين الأمور قليلًا؟» سأل جون پندلتن پوليانا.

ضحكت الفتاة الصغيرة.

«ربما. لكني أعني أن الساق لا تدوم، كسر الساق كما تعلم، مثل العلل المزمنة، كالتي أصيبت بها السيدة سنو. لذا فإنك لن تبقى حتى يوم الحساب أبدًا. أظن أن بوسعك أن تسر لهذا».

---

(١) يرد نفخ الصور الذي يسبق بعث الأموات في الكتاب المقدس، إلا إنه لا يذكر أن جبريل هو نافخ الصور. ويرى اليهود أن الرب هو من ينفخ في الصور، أما في الإسلام فنافخ الصور هو إسرافيل. ومع ذلك ورد في بعض أناشيد السود في أمريكا أن جبريل هو نافخ الصور، فلعل الكاتبة كانت على اطلاع بهذه الأناشيد.

«أوه، إنني كذلك»، أجاب الرجل متجهمًا.

«كما أنك لم تكسر سوى واحدة، يمكنك أن تسر إنهما ليستا الاثنتين»، تحمست بوليانا لمهمتها.

«طبعًا! يا لي من محظوظ!»، نخر الرجل بحاجبين مرفوعين، «بالنظر إلى الأمر من هذه الزاوية أظن أن علي أن أسر أنني لست حشرة المئينية ولم أكسر خمسين ساقًا!».

ضحكت بوليانا.

«أوه، إن هذا أفضل بكثير»، زعقت، «إنني أعرف ما المئينية، إن لديها كثيرًا من الأرجل، ولك أن تسر...».

«طبعًا»، قاطعها الرجل بحدة وقد عادت المرارة السابقة إلى صوته، «كما لي أن أسر لأجل كل شيء آخر كما أظن، من الممرض والطبيب وتلك المرأة اللعينة في المطبخ!».

«عجبًا، أجل يا سيدي، فكر بمدى سوء الأمر إن لم يكن عندك أحد منهم!».

«حسن، أنا.. ماذا؟» سأل بحدة.

«أقول فكر فقط بمدى سوء الأمر لو لم يكن عندك أحد منهم، وأنت مستلق هنا على هذا النحو!».

«كأنما ليس هذا ما ذكرته أخيرًا»، أجاب الرجل، «لأني أستلقي هنا على هذا النحو! ورغم ذلك فإنك تنتظرين مني أن أقول إنني سعيد لوجود امرأة حمقاء تعبث بترتيب البيت بأكمله وتسميه

«تنظيمًا»، ورجل يساعدها في ذلك ويحضها عليه ويسميه «تمريضًا»، ولن أقول شيئًا عن الطبيب الذي يحثهما على ذلك، وكلهم ينتظرون مني أثناء ذلك أن أدفع لهم، وأن أجزل لهم العطاء أيضًا!».

عبست بوليانا متعاطفة.

«أجل، أعلم. هذا الجزء سيء جدًا، ما يتعلق بالمال، في حين أنك كنت تدخره طوال الوقت».

«حين... ماذا؟».

«تدخره، وتشتري الفاصولياء وكرات السمك كما تعلم. اسمع، هل تحب الفاصولياء؟ أم أنك تحب الديك الرومي أكثر، ولا يزيد سعره عن ستين سنتًا؟».

«أصغي إلي يا طفلة، ما الذي تتحدثين عنه؟».

«عن مالك كما تعرف، إنك تهمل نفسك وتدخر المال من أجل غير المؤمنين. لقد عرفت ذلك، كما ترى. إن هذا أحد الأمور الذي جعلني أعرف أنك لست نكدًا في سريرتك. لقد أخبرتني نانسي».

فغر الرجل فاه.

«هل أخبرتك نانسي أنني أدخر المال من أجل الـ... حسن، هل لي أن أسأل من تكون نانسي؟».

«نانسينا، إنها تعمل في خدمة الخالة بولي».

«الخالة بولي! حسن، ومن الخالة بولي؟».

«إنها الآنسة پولي هارنغتن. إنني أعيش هناك».

تحرك الرجل فجأة.

«الآنسة... پولي... هارنغتن!»، زفر، «أتعيشين معـ...ـها؟!».

«أجل، أنا ابنة أختها. لقد أخذتني لتربيني، لخاطر أمي كما تعلم»، تلعثمت پوليانا بصوت خفيض، «لقد كانت أختها. وقد ذهب أبي ليكون معها ومع بقيتنا في السماء، ولم يبق لي أحد على الأرض هنا إلا السيدات المحسنات، لذا فقد أخذتني».

لم يجب الرجل. وقد شحب وجهه كثيرًا وهو يستلقي على الوسادة، شحب شحوبًا كبيرًا أفزع پوليانا، فنهضت مرتبكة.

«أحسب أن من الأفضل لي الذهاب الآن»، اقترحت، «وأرجو أن... أن يعجبك الحساء».

أدار الرجل وجهه فجأة وفتح عينيه، وكان في أعماق عينيه الداكنتين لهفة غريبة رأتها پوليانا وتعجبت لأمرها.

«إذن فأنت ابنة أخت الآنسة پولي هارنغتن»، قال بلطف.

«أجل يا سيدي».، وما زالت عينا الرجل الداكنتين تنظران إلى وجهها حتى غمغمت پوليانا التي انتابها ارتباك غامض «أحسب أنك... أنك تعرفها».

افترت شفتا جون پندلتن عن ابتسامة غريبة.

«أوه، أجل، إني أعرفها»، تردد ثم تابع ولم يزل مبتسمًا تلك

الابتسامة الغريبة، «غير أنك لا تعنين، ولا يمكن أن تعني، أن الآنسة بولي هي من أرسل الحساء إلي؟»، قال ببطء.

بدت بوليانا قلقة.

«كـ.. كلا يا سيدي، لم تفعل. لقد قالت إن علي أن أحرص على ألا تظن أنها أرسلته، لكنني...».

«أظن ذلك»، تلطف الرجل باقتضاب، وقد أشاح بوجهه. وتسللت بوليانا، التي زاد قلقها، من الغرفة.

عند المدخل المسقوف وجدت الطبيب ينتظر في عربته، والممرض يقف على العتبات.

«حسن يا آنسة بوليانا. هل أحظى بشرف إيصالك إلى البيت؟»، سأل الطبيب مبتسمًا، «لقد انطلقت منذ دقائق، ثم خطر لي أن أنتظرك».

«شكرًا لك يا سيدي. يسرني أنك فعلت، فأنا أحب ركوب العربة»، ابتسمت بوليانا حين مد لها يده ليساعدها على الركوب.

«حقًا؟»، ابتسم الطبيب، مودعًا الشاب الواقف على العتبات بإيماءة من رأسه. «حسن، على حد علمي فإنك تحبين فعل كثير من الأشياء، أليس كذلك؟»، أضاف حين انطلقا في طريقهما بنشاط.

ضحكت بوليانا.

«لست أدري. أحسب أنني كذلك»، أقرت، «إنني أحب فعل كل شيء حي تقريبًا. إنني لا أحب القيام بأمور أخرى كثيرًا من مثل الخياطة والقراءة جهرًا وكل ذلك. لأنها ليست حياة».

«ليست كذلك؟ فما هي إذن؟».

«تقول الخالة پولي إنها «تعلم الحياة»»، تنهدت پوليانا بابتسامة حزينة.

ابتسم الطبيب بشيء من الغرابة.

«هل تقول هذا؟ أظنها تعني هذا تمامًا».

«أجل»، أجابت پوليانا، «لكني لا أراها على هذا النحو بتاتًا. أنا لا أظن أن عليك أن تتعلم أن تحيا، ولم أفعل على أية حال».

زفر الطبيب تنهيدة طويلة.

«أخشى أن بعضنا يضطر لذلك أيتها الفتاة الصغيرة»، قال. ثم صمت لبعض الوقت. استرقت پوليانا نظرة إلى وجهه، وشعرت بالأسى من أجله على نحو غامض. فقد بدا حزينًا جدًا، وتمنت قلقة لو أن بوسعها فعل شيء.

لعل هذا ما جعلها تقول بصوت خافت «أظن أن يكون المرء طبيبًا لهو أسعد الأعمال على الإطلاق أيها الطبيب تشلتن».

استدار الطبيب دهشًا «الأسعد؟! حتى إن كنت أرى كثيرًا من المعاناة دومًا أينما ذهبت؟»، قال.

هزت رأسها «أعلم، ولكنك تمنعها، ألا ترى؟ وأنت سعيد طبعًا لأنك تمنعها! وهذا ما يجعلك أسعد من أي أحد منا، طوال الوقت».

امتلأت عينا الطبيب فجأة بدموع حارة. لقد كان الطبيب

يعيش عازبًا وحيدًا، فليس له زوجة ولا بيت إلا عيادته المؤلفة من غرفتين في نزل. لقد كانت مهنته عزيزة عليه جدًا. وشعر وهو ينظر في عيني پوليانا اللامعتين أن يدًا محبة وضعت على رأسه وباركته. لقد علم أيضًا أنه لن يمر عليه يوم عمل طويل أو ليلة أرق طويلة دون هذا الجذل الجديد الذي انتقل إليه عبر عيني پوليانا.

«باركك الرب أيتها الفتاة الصغيرة!»، قال متوترًا، ثم أضاف مبتسمًا ابتسامته المشرقة التي يعرفها مرضاه ويحبونها «وأظن، في النهاية، أن الطبيب هو من كان بحاجة لتلك الجرعة من الدواء، بقدر حاجة مرضاه إليها!»، وهذا حير پوليانا كثيرًا، حتى أبعد الأمر عن ذهنها سنجاب يجري في الطريق.

أنزل الطبيب پوليانا عند بابها، وابتسم لنانسي التي كانت تكنس السقيفة الأمامية ثم انطلق مسرعًا.

«لقد حظيت برحلة جميلة للغاية مع الطبيب»، صرحت پوليانا قافزة العتبات، «إنه رائع يا نانسي!».

«حقًا؟».

«أجل، وقد أخبرته أنني أرى أن عمله أسعد الأعمال على الإطلاق».

«ماذا؟! الذهاب لرؤية المرضى، وأولئك الذين ليسوا بمرضى لكنهم يظنون أنفسهم كذلك، أيهما أسوأ؟»، ظهر شك واضح على وجه نانسي.

ضحكت بوليانا بمرح «أجل، هذا ما قاله تقريبًا. غير أن ثمة طريقة ليكون سعيدًا، خمني!».

قطبت نانسي مفكرة. لقد اعتادت نانسي لعب لعبة السعادة بنجاح، ففكرت. كما أنها استمتعت بالتفكير في أحاجي بوليانا كما تسمي بعض أسئلة الفتاة الصغيرة.

«أوه، لقد عرفت»، ضحكت، «إنها على عكس ما أخبرت به السيدة سنو».

«عكس؟»، كررت بوليانا وقد بدت عليها الحيرة.

«أجل، لقد أخبرتها أن عليها أن تسر لأن الآخرين ليسوا مثلها، مرضى، كما تعرفين».

«أجل»، هزت بوليانا رأسها موافقة.

«حسن، يمكن للطبيب أن يسعد لأنه ليس مثل الآخرين، أعني المرضى الذي يعودهم»، أنهت نانسي جملتها منتصرة.

قطبت بوليانا جبينها هذه المرة. «حسن، أجل»، أقرت، «صحيح أنها طريقة، لكنها ليست التي قلتها، كما أنني لا أحب الهيئة التي تبدو عليها، فهو لم يقل إنه سعيد بأنهم مرضى، ولكن... إنك تلعبين اللعبة بطريقة غريبة أحيانًا يا نانسي»، تنهدت وهي تدخل البيت.

وجدت بوليانا خالتها في غرفة الجلوس.

«من كان ذاك الرجل، الذي أوصلك إلى الفناء يا بوليانا؟»، سألت السيدة بشيء من الحدة.

«إنه الطبيب تشلتن يا خالتي پولي! هل تعرفينه؟».

«الطبيب تشلتن؟! وماذا يفعل هنا؟».

«لقد أوصلني إلى البيت. أوه، وقد أعطيت الحساء للسيد پندلتن و...».

رفعت الآنسة پولي رأسها بسرعة.

«لم يظن أنني أرسلته، أليس كذلك يا پوليانا؟».

«أوه، كلا يا خالتي پولي. أخبرته أنك لم تفعلي».

أصبحت الآنسة پولي زهرية اللون بشدة على حين غرة.

«أخبرته أنني لم أفعل!».

فتحت پوليانا عينيها واسعتين أمام الخوف والندم في صوت خالتها.

«عجبًا يا خالتي پولي، لقد قلتِ أنت ذلك!».

تنهدت الخالة پولي.

«لقد قلت إنني لم أرسله يا پوليانا، وأن تحرصي كثيرًا على ألا يظنني فعلت! وهذا أمر مختلف جدًا عن إخباره صراحة أنني لم أرسله»، ثم استدارت غاضبة.

«يا إلهي! حسن، لست أرى الفرق»، تنهدت پوليانا، وهي تعلق قبعتها على خطاف في البيت قالت الخالة پولي إن عليها تعليقها عليه.

الفصل السادس عشر
وردة حمراء ووشاح من الدانتيلا

كان اليوم مطيرًا بعد أسبوع من زيارة پوليانا للسيد جون پندلتن، وقد أخذ تموثي الآنسة پولي أول العصرية لاجتماع لجنة جمعية السيدات المحسنات. وحين عادت في الساعة الثالثة كانت وجنتاها زهريتين زاهيتين، وشعرها الذي عبثت به الريح الرطبة قد انتفش في ثنيات وطيات، أينما سمحت مشابك الشعر المرتخية بذلك.

لم تر پوليانا خالتها على هذه الشاكلة من قبل.

«أوه، أوه، أوه! عجبًا يا خالتي پولي، لديك منها أنت أيضًا»، صاحت منتشية وهي ترقص حول خالتها، حين دخلت السيدة غرفة الجلوس.

«لدي من أي شيء أيتها الطفلة الغريبة؟».

ما زالت پوليانا تدور وتدور حول خالتها.

«ولم أعرف أن لديك منها! هل يمكن أن تكون لدى شخص دون أن يعلم أنها لديه؟ هل ظننت أنني سأعرف؟ أعني قبل أن

أذهب إلى السماء؟»، هتفت وهي تسحب بأصابعها المتلهفة الخصل الناعمة فوق أذنيها. «ولكنها حينئذ لن تكون سوداء إن صارت لدي، ولا يمكنك إخفاء الجزء الأسود».

«ما معنى هذا كله يا پوليانا؟»، سألت الخالة پولي وهي تخلع قبعتها بسرعة، وتحاول تمسيد شعرها المبعثر.

«كلا، كلا، أرجوك يا خالتي پولي!»، تحول صوت پوليانا الفرح إلى التماس حزين، «لا تمسديها! إنها هي ما أتحدث عنه، هذه الخصل السوداء الحلوة. أوه يا خالتي پولي، إنها جميلة للغاية!».

«هراء! ما الذي تعنينه يا پوليانا بذهابك إلى السيدات المحسنات ذلك اليوم بهذه الطريقة الغريبة حول ذلك الفتى المتسول؟».

«ولكنه ليس هراء»، أصرت پوليانا مجيبة عن القسم الأول من سؤال خالتها. «ألا تعلمين مدى جمالك وشعرك هكذا؟! أوه يا خالتي پولي، أرجوك، هل لي أن أصفف شعرك كما فعلت بشعر السيدة سنو وأن أضع فيه زهرة؟ إنني لأحب رؤيتك على هذا النحو! يا للروعة، ستبدين أجمل بكثير مما بدت عليه!».

«پوليانا!»، (تحدثت الآنسة پولي بحدة، بل بحدة أكبر لأن كلمات پوليانا جعلتها تنبض فرحًا، فمن الذي اهتم قبلًا بمظهرها أو بشعرها؟ من الذي أحب قبلًا رؤيتها جميلة؟)، «لم تجيبي عن سؤالي يا پوليانا. لماذا ذهبت إلى السيدات المحسنات بتلك الطريقة الغريبة؟».

«أجل، أعلم. ولكن أرجوك، لم أعرف أنها غريبة حتى ذهبت

ووجدت أنهن يفضلن رؤية التقرير يكبر على جيمي. لذا فإني كتبت إلى «سيداتي المحسنات» لأن جيمي بعيد عنهن، كما تعرفين، وظننت أن بوسعه أن يكون فتاهن الهندي الصغير، مثلما كنت أنا فتاتك الهندية الصغيرة يا خالتي بولي! وستسمحين لي بتصفيف شعرك يا خالتي بولي، أليس كذلك؟».

وضعت الخالة بولي يدها على حلقها، فقد عرفت أن ذلك الإحساس القديم بالعجز قد غمرها.

«ولكن حين أخبرتني السيدات المحسنات كيف جئت إليهن، شعرت بالخجل يا بوليانا! أنا..».

أخذت بوليانا ترقص جيئة وذهابًا بخفة على أصابع قدميها.

«لم تقولي! لم تقولي إني لا أستطيع تصفيف شعرك»، زعقت منتصرة، «ولذا فإني واثقة أن هذا يعني العكس تمامًا، أعني، مثلما عنيت ذلك اليوم بشأن حساء السيد بندلتن حين قلت إنك لم ترسليه، ولكنك لم تريديني أن أقول إنك لم تفعلي، كما تعلمين. والآن انتظري مكانك، سأحضر مشطًا».

«ولكن يا بوليانا، يا بوليانا»، اعترضت الخالة بولي وهي تلحق بالفتاة الصغيرة خارج الغرفة وتلهث مرتقية الدرج خلفها.

«أوه، هل صعدت إلى هنا؟»، رحبت بها بوليانا قرب باب غرفة الآنسة بولي، «هذا أجمل بكثير! لقد أحضرت المشط. والآن اجلسي هنا من فضلك. أوه، إنني سعيدة للغاية لأنك سمحت لي بتصفيفه!».

«ولكني يا پوليانا...!».

لم تنه الآنسة پولي جملتها، بل وجدت نفسها مندهشة عاجزة، على كرسي منخفض أمام طاولة الزينة، وشعرها ينساب حول أذنيها، تحت عشر أصابع متلهفة حنونة.

«أوه، وا عجبي! يا له من شعر جميل!»، هذرت پوليانا، «كما أنه أكثر بكثير من شعر السيدة سنو! غير أنك تحتاجين أكثر منها طبعًا، لأنك معافاة وتستطيعين الذهاب إلى أماكن يراه فيها الناس! عجبًا! أحسب أن الناس سيسرون لرؤيته، ويدهشون أيضًا، لأنك خبأته طويلًا. حسن يا خالتي پولي، سأجعلك جميلة جدًا بحيث يحب الجميع النظر إليك!».

«پوليانا!»، لهث صوت مكتوم مذهول من تحت كومة الشعر، «أنا... أنا أكيدة أنني لا أعرف لم أسمح لك بفعل هذا الأمر السخيف».

«حسن يا خالتي پولي، أظنك ستكونين مسرورة بأن يحب الناس النظر إليك! ألا تحبين النظر إلى الأشياء الجميلة؟ إنني أسعد كثيرًا لرؤية الناس الجميلين، لأنني عندما أنظر إلى الآخرين أشعر بالأسى من أجلهم».

«ولكن... ولكن...».

«وأنا أحب تصفيف شعر الناس»، خرخرت پوليانا راضية، «لقد صففت شعر الكثير من السيدات المحسنات، غير أنه لم يكن شعر أي منهن بجمال شعرك. مع أن شعر السيدة وايت جميل،

وقد بدا رائعًا جدًا يومًا حين صففته لها... أوه يا خالتي پولي، لقد عرضت لي فكرة! إلا أنها سرية ولن أبوح بها. لقد انتهيت من شعرك تقريبًا، وسأتركك لحظة فحسب، وأعدك أنك ستفاجئين، عديني ألا تتحركي، وألا تسترقي النظر حتى أعود. تذكري هذا!»، أنهت قولها وتخرج من الغرفة.

لم تقل الآنسة پولي شيئًا جهرًا، لكنها قالت في سرها طبعًا، إن عليها أن تنقض العمل الغريب لأصابع ابنة أختها، وأن تعيد تصفيف شعرها تصفيفًا لائقًا مرة أخرى. أما فيما يتعلق بأمر «استراق النظر» فلم تكترث كيف تفعل ذلك....

في تلك اللحظة، ودونما سبب، لمحت الآنسة پولي نفسها في مرآة طاولة الزينة. وقد جعل ما رأته وجنتيها تتوردان، لقد كانتا ورديتين وتوردتا أكثر لما رأت.

لقد رأت وجهًا، صحيح أنه ليس شابًا، لكنه مشرق من الحماس والدهشة. وكانت الوجنتان زهريتين جدًا، وبرقت العينان. والشعر الداكن، الذي لم يزل رطبًا من الريح خارجًا، ينساب في تموجات حرة على جبينها وينثني فوق الأذنين في خطوط تلائمها ملاءمة رائعة، إلى جانب الخصل الناعمة هنا وهناك.

كانت الآنسة پولي شديدة الدهشة وشديدة الاستغراق فيما رأته في المرآة فنسيت عزمها على إعادة تصفيف شعرها حتى سمعت پوليانا تدخل الغرفة ثانية. وقبل أن تتحرك، شعرت حينئذ بشيء مطوي ينزلق على عينيها ويربط من الخلف.

«بوليانا! ما الذي تفعلينه يا بوليانا؟!»، صاحت.

ضحكت بوليانا.

«هذا تمامًا ما لا أريد لك أن تعرفيه يا خالتي بولي، وقد خشيت أن تسترقي النظر فعقدت المنديل. اجلسي الآن بهدوء، ولن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة، ثم سأسمح لك بالنظر».

«ولكن يا بوليانا»، بدأت الآنسة بوليانا وهي تجهد للنهوض، «عليك رفع هذا! أيتها... الطفلة، يا طفلة! ما الذي تفعلينه؟»، لهثت وهي تشعر بشيء ناعم ينزلق على كتفيها.

ضحكت بوليانا بمرح أكبر. بأصابع مرتعشة، مسدت الثنيات الناعمة لوشاح الدانتيلا، الذي اصفر بفعل سنوات التخزين الطويلة، وفاحت منه رائحة الخزامى على كتفي خالتها. وجدت بوليانا الوشاح قبل أسبوع حين كانت نانسي ترتب العلية، وخطر لها اليوم أنه ما من سبب يدعو خالتها، والسيدة وايت في ديارها في الغرب، ألا تتهندما.

اكتملت مهمتها، وتفحصت بوليانا عملها بعينين راضيتين، لكنها ترى وجوب وضع لمسة أخيرة. فأخذت خالتها بسرعة نحو الحجرة الشمسية فتتمكن من رؤية الورد الأحمر المتفتح في العريشة في متناول يدها.

«ما الذي تفعلينه يا بوليانا؟ إلى أين تأخذينني؟»، نكصت الخالة بولي وهي تحاول عبثًا أن تعود، «لن أذهب يا بوليانا...».

«سآخذك إلى الحجرة الشمسية، لدقيقة فحسب! سأجعلك جاهزة الآن بسرعة»، لهثت پوليانا، وهي تتناول الوردة وتغرسها في الشعر الناعم فوق أذن الآنسة پولي. «حسن!»، قالت مبتهجة وهي تحل عقدة المنديل وترمي قطعة الكتان بعيدًا عنها، «أوه، أحسب أنك ستسرين الآن بأني هندمتك يا خالتي پولي!».

نظرت الآنسة پولي للحظة مدوخة إلى نفسها المتزينة، وإلى محيطها، ثم أطلقت صرخة عالية وركضت إلى غرفتها. رأت پوليانا، التي نظرت باتجاه نظرة خالتها المذعورة، عبر النافذة المفتوحة للحجرة الشمسية، الحصان والعربة في مدخل العزبة. وعرفت الرجل الممسك باللجام فورًا.

فمالت إلى الأمام مبتهجة.

«أيها الطبيب تشلتن! هل أردت رؤيتي أيها الطبيب تشلتن؟ إنني في الأعلى هنا».

«أجل»، ابتسم الطبيب بشيء من الحزن، «هلا نزلت من فضلك؟».

وجدت پوليانا في غرفة النوم امرأة محمرة الوجه غاضبة العينين تنتزع المشابك التي تثبت وشاح الدانتيلا في مكانه.

«كيف خطر لك التلاعب بي هكذا، ثم تجعلين الآخرين يروني يا پوليانا؟!»، تذمرت المرأة.

توقفت پوليانا وجلة.

«الكنك بدوت جميلة، جميلة للغاية يا خالتي بولي، و....».

«جميلة؟!»، هزئت المرأة ملقية بالوشاح جانبًا وهاجمت شعرها بأصابع مرتجفة.

«أوه، أرجوك أن تبقي الشعر على حاله يا خالتي بولي!».

«على حاله؟ هكذا؟ كأنني سأفعل!»، وأرجعت الآنسة بولي الخصل بقوة حتى تمددت آخر خصلة في أناملها.

«أوه يا إلهي! وقد بدوت جميلة جدًا»، نشجت بوليانا وهي تتعثر ماشية نحو الباب.

وجدت بوليانا الطبيب في انتظارها في العربة.

«لقد وصفتك لمريض، فأرسلني لإحضار الوصفة، هلا ذهبنا؟»، قال الطبيب.

«هل تعني... في مهمة إلى الصيدلية؟»، سألت بوليانا بشيء من الارتياب، «لقد اعتدت الذهاب في مهام كهذه من أجل السيدات المحسنات».

هز الطبيب رأسه مبتسمًا.

«ليس تمامًا. إنه السيد جون بندلتن. إنه يود رؤيتك اليوم، إن كنت لطيفة فتقبلين بالذهاب. لقد توقف المطر، لذا جئت من أجلك، فهلا أتيت؟ سأذهب من أجلك وأعيدك قبل السادسة».

«أود ذلك!»، قالت بوليانا، «دعني أسأل خالتي بولي».

وعادت في غضون لحظات، وقبعتها في يدها ولكن وجهها جاد قليلًا.

«ألم تسمح لك خالتك بالذهاب؟»، سأل الطبيب بشيء من الخجل بعد أن شق طريقه.

«بـ.. بلى»، تنهدت پوليانا، «أخشى أنها أرادت كثيرًا أن أذهب».

«أرادت كثيرًا أن تذهبي؟!».

تنهدت پوليانا مرة أخرى.

«أجل، أحسب أنها قصدت أنها لا ترغب بي هناك. فقد قالت: أجل، أجل، اذهبي بسرعة، اذهبي بسرعة! ليتك ذهبت قبلًا».

ابتسم الطبيب ولكنها ابتسامة على شفتيه فحسب، أما عيناه فكانتا حزينتين جدًا. لم يقل شيئًا لبعض الوقت، ثم سأل بشيء من التردد «أليست هذه خالتك التي رأيتها قبل دقائق عند نافذة الحجرة الشمسية؟».

أخذت پوليانا نفَسًا طويلًا.

«بلى. هذا سبب المشكلة برمتها كما أظن. لقد وضعت عليها وشاح الدانتيلا الرائع للغاية الذي وجدته في الأعلى، كما ترى، وصففت شعرها ووضعت فيه وردة وبدت جميلة جدًا. ألم ترَ أنها كانت جميلة جدًا؟».

لم يجب الطبيب للحظة، وحين تحدث رد بصوت خفيض للغاية غير أن پوليانا سمعت كلماته تمامًا.

«بلى يا پوليانا، رأيت أنها بدت... بدت جميلة».

«حقًا؟ إنني سعيدة جدًا! سأخبرها»، أومأت الفتاة الصغيرة برضا.

غير أن الطبيب فاجأها بقوله

«مطلقًا! أخشى يا پوليانا أنني مضطر أن أطلب منك ألا تخبريها أن...».

«عجبًا أيها الطبيب تشلتن! لم لا؟ أظنها ستسر لـ...».

«لكنها قد لا تسر»، قاطعها الطبيب.

فكرت پوليانا للحظة.

«هذا صحيح، ربما لن تفعل»، تنهدت پوليانا، «تذكرت الآن أنها هربت حين رأتك، وتحدثت بعد ذلك عن أنها شوهدت بذلك الزي».

«أظن ذلك»، قال الطبيب في نفسه.

واصلت پوليانا «غير أني ما زلت لا أرى السبب، فقد بدت جميلة!».

لم يقل الطبيب شيئًا، بل لم يتحدث ثانية حتى وصلا البيت الحجري الكبير الذي يرقد فيه جون پندلتن مكسور الساق.

الفصل السابع عشر
مثل كتاب

حيى جون پندلتن پوليانا بابتسامة اليوم.

«حسن يا آنسة پوليانا، أظنك صغيرة متسامحة جدًا، وإلا لما أتيت لرؤيتي اليوم».

«إنني لسعيدة حقًا لقدومي اليوم يا سيد پندلتن، ولست أرى سببًا لئلا أكون كذلك أيضًا».

«أوه، حسن، أخشى أنني كنت شكسًا جدًا معك كما تعرفين، في كلتا المرتين، مرة حين جلبت لي حساء العجل بلطف ذلك اليوم، ومرة حين عثرت علي مكسور الساق في البدء. وبالمناسبة أيضًا، لا أظنني شكرتك على هذا. وأنا واثق أنك ستقرين بتسامحك الكبير معي وقد أتيت لرؤيتي، بعد ما تلقيته مني من معاملة جاحدة كهذه!».

تململت پوليانا بقلق.

«لكنني كنت سعيدة لأني وجدتك، أعني أني لا أعني أني سررت أن ساقك كسرت طبعًا»، صححت قولها بسرعة.

ابتسم جون بندلتن.

«أفهمك. إن لسانك يفلت منك بين الحين والآخر، أليس كذلك يا آنسة بوليانا؟ إلا أنني أشكرك، وإني لأراك فتاة صغيرة شجاعة جدًا لفعلك ما فعلت ذلك اليوم. وأشكرك على الحساء أيضًا»، أضاف بصوت أرق.

«هل أعجبك؟» سألت بوليانا باهتمام.

«جدًا. أظنك لم تجلبي المزيد اليوم من ذلك، ذلك الذي لم ترسله الخالة بولي، صحيح؟» سألها بابتسامة غريبة.

فبدت زائرته حزينة.

«كلا، كلا يا سيدي»، ترددت ثم تابعت وقد احمر وجهها، «عفوًا يا سيد بندلتن، ولكني لم أقصد أن أكون وقحة ذلك اليوم عندما قلت إن الخالة بولي لم ترسل الحساء».

لم يصلها جواب، ولم يكن السيد بندلتن يبتسم الآن، بل كان ينظر أمامه بعينين بدتا تنظران إلى ما خلف الأشياء المقابلة له. فتنهد تنهيدة طويلة بعد بعض الوقت واستدار نحو بوليانا. وحين تحدث حمل صوته التجهم القديم.

«حسن، حسن، هذا لن يجدي نفعًا أبدًا. لم أرسل في طلبك لتريني كئيبًا هذه المرة. اسمعي! في المكتبة خارجًا، في الغرفة حيث يوجد الهاتف، كما تعرفين، ستجدين صندوقًا منقوشًا على الرف الأسفل في الخزانة الكبيرة ذات الأبواب الزجاجية في الزاوية ليست

ببعيدة عن المصطلى. أعني أنه سيكون هناك ما لم «تنظمه» تلك المرأة الملعونة في مكان ما! هلا أحضرته لي؟ إنه ثقيل، لكني لا أظنه ثقيلًا جدًا عليك».

«أوه، إنني قوية للغاية»، قالت پوليانا بمرح، وهي تنهض. ثم عادت بعد دقيقة حاملة الصندوق.

لقد كانت نصف ساعة رائعة قضتها پوليانا عندئذ، إذ كان الصندوق مليئًا بالكنوز، بل التحف التي جمعها جون پندلتن طوال سنوات من السفر، وكان لديه قصة مثيرة عن كل غرض بينها، سواء أكان مجموعة أحجار شطرنج محفورة فخمة من الصين، أم تمثالًا عاجيًا من الهند.

غمغمت پوليانا بحزن بعد أن سمعت حكاية التمثال الهندي «حسن، أحسب أن أخذ صبي صغير في الهند لتنشئته، صبي جاهل جدًا يحسب ذلك التمثال ربًا، أفضل من أخذ جيمي بِين الصبي الصغير الذي يعرف أن الرب في السماء. ومع ذلك، ما زلت لا أستطيع إلا أن أتمنى لو أنهم أخذوا جيمي بين، إلى جانب الفتى الهندي».

لم يبد أن جون پندلتن سمعها، إذ كانت عيناه تنظران للأمام وكأنهما لا تريان شيئًا. لكنه اعتدل بسرعة ورفع تحفة أخرى ليتحدث عنها.

كانت الزيارة ممتعة بلا شك، ولكن قبل انتهائها أدركت پوليانا أنهما يتحدثان عن أمر ما إلى جانب الأشياء الموجودة في الصندوق المنقوش. لقد تحدثا عنها، وعن نانسي وعن الخالة پولي وعن حياتها

اليومية، كما تحدثا عن الديار والحياة قبل سنوات في البلدة الغريبة البعيدة.

لم يقل الرجل إلى أن حان وقت رحيلها بصوت لم تسمعه بوليانا من جون بندلتن المتجهم:

«أيتها الفتاة الصغيرة، أريدك أن تأتي لزيارتي كثيرًا، هلا فعلت؟ أنا وحيد وأحتاجك. كما أن لدي سببًا آخر، وسأخبرك به أيضًا. ظننت في بادئ الأمر حين عرفت من أنت ذلك اليوم، أنني لا أريدك أن تأتي مرة أخرى. إنك تذكريني بشيء حاولت نسيانه لسنوات طويلة. لذا قلت في نفسي إنني لا أريد رؤيتك ثانية، وكلما قال لي الطبيب إن كنت أسمح له بجلبك إلي رفضت.

لكني وجدت بعد بعض الوقت أنني أود رؤيتك كثيرًا، وأن عدم رؤيتي لك تذكرني بالشيء الذي أردت نسيانه بقوة، لذا فإني أريد منك أن تأتي، فهلا فعلت أيتها الفتاة الصغيرة؟».

«وي، أجل يا سيد بندلتن»، شهقت بوليانا وعيناها تبرقان عطفًا على الرجل ذي الوجه الحزين الراقد على الوسادة أمامها، «أحب المجيء!».

«شكرًا لك»، قال جون بندلتن بلطف.

بعد العشاء تلك الليلة، أخبرت بوليانا نانسي، وهي تجلس في السقيفة الخلفية، بكل شيء عن الصندوق المحفور الخاص بالسيد جون بندلتن، ومحتوياته الأروع.

«حين أفكر أنه أراك كل تلك الأشياء وأخبرك عنها هكذا، وهو الشكس الذي لا يتحدث إلى أحد مطلقًا!»، تنهدت نانسي.

«أوه، لكنه ليس شكسًا يا نانسي، هذا من الخارج فحسب»، اعترضت بوليانا بولاء سريع، «لست أفهم لماذا يظنه الجميع سيئًا جدًا أيضًا. لن يروه هكذا لو عرفوه. حتى خالتي بولي لا تعرفه جيدًا، ولن ترسل له الحساء كما تعرفين، وخشيت أن يظنها أرسلته!».

«لعلها لا ترى في ذلك أي واجب»، رفعت نانسي كتفيها، «غير أن ما يدهشني أنه تحدث إليك يا آنسة بوليانا، لست أعني إساءة لك بهذا طبعًا، لكنه ليس من الرجال الذين يكترثون للأطفال عادة، ليس كذلك».

ابتسمت بوليانا بسعادة.

«لكنه فعل يا نانسي»، هزت رأسها، «إلا أنني أحسب أنه لا يريد ذلك طوال الوقت. فقد صرح لي اليوم أنه لم يرد رؤيتي مطلقًا، لأني أذكره بشيء ما أراد نسيانه. غير أنه بعدها...».

«وما ذاك؟»، قاطعتها نانسي بحماس، «ألم يقل إنك تذكرينه بشيء ويريد نسيانه؟».

«بلى، ولكن بعدها...».

«وما ذاك؟»، أصرت نانسي بحماس.

«لم يخبرني، لقد اكتفى بالقول إنه أمر ما».

«اللغز!» قالت نانسي بصوت وجل، «لهذا أولع بك في المقام

الأول. أوه يا آنسة بوليانا! يا إلهي، إن هذا مثل الكتب تمامًا. لقد قرأت الكثير منها من مثل سر السيد مود والوريث المفقود وسنوات الاختباء، كلها فيها لغز وأشياء من هذا القبيل. يا للهول! تخيلي امتلاك كتاب حي قريب مني هكذا، ودون أن أعرف به طوال هذا لوقت! والآن أخبريني بكل شيء، كل ما قاله يا آنسة بوليانا، ثمة عاشق! ولا عجب أنه تحدث إليك مطلقًا!».

«لكنه لم يفعل» قالت بوليانا، «إلى أن تحدثت إليه أولًا، ولم يعرف من أكون حتى أخذت له حساء العجل، وجعلته يدرك أن خالتي بولي لم ترسله و...».

نهضت نانسي وصفقت فجأة.

«أوه يا آنسة بوليانا، أنا أعرف، أعرف!» انتشت بمرح. ثم جلست قرب بوليانا ثانية، «أخبريني الآن وأجيبيني بصراحة وصدق»، ألحت بحماس، «لقد قال إنه لا يريد رؤيتك ثانية بعد أن عرف أنك ابنة أخت الآنسة بولي، أليس كذلك؟».

«أوه، أجل. قلت له هذا في المرة الماضية التي رأيته فيها، وأخبرني بهذا اليوم».

«هذا ما ظننته»، قالت نانسي منتصرة، «وما كانت الآنسة بولي لترسل الحساء بنفسها، أليس صحيحًا؟».

«بلى».

«وقد أخبرته أنها لن تفعل».

«حسن، أجل. أنا...».

«وأخذ يتصرف بغرابة ويصرخ فجأة بعد أن عرف أنك ابنة أختها، لقد فعل هذا، صحيح؟».

«أجل، لقد تصرف بشيء من الغرابة من أجل ذلك الحساء»، أقرت بوليانا وقد عبست تفكر.

أخذت نانسي نفسًا عميقًا.

«إذن فقد عرفت السر بلا شك! والآن اسمعي. لقد كان السيد جون بندلتن حبيب الآنسة بولي هارنغتن!»، قالت مؤكدة وهي تسترق النظر إلى الخلف.

«ويحك يا نانسي، لا يمكن ذلك! إنها لا تحبه»، اعترضت بوليانا.

نظرت إليها نانسي نظرة ساخرة.

«لن تحبه طبعًا! فقد تشاجرا».

لم تزل بوليانا مرتابة، أما نانسي فهيأت نفسها لتقص الحكاية بعد أن أخذت نفسًا طويلًا.

«لقد حدث الأمر كالتالي. قبل قدومك أخبرني السيد توم أن الآنسة بولي كان لديها حبيب ذات يوم، ولم أصدقه. لم أستطع، هي وحبيب؟! لكن توم قال إنها كان لها حبيب وإنه يعيش في هذه البلدة. وها قد عرفت، إنه جون بندلتن. ألم تكن حياته لغزًا؟ ألم يحبس نفسه في ذلك البيت الكبير وحده دون أن يتحدث إلى أحد

البتة؟ ألم يتصرف بغرابة حين عرف أنك ابنة أخت الآنسة پولي؟ ثم ألم يقل لك إنك تذكرينه بشيء ما يريد نسيانه؟ كأنما لا يمكن لأحد معرفة أنها الآنسة پولي! ثم ألم تقل لك إنها لن ترسل الحساء أيضًا؟ حسن يا آنسة پوليانا، إن الأمر واضح وضوح الشمس، إنه حقًا!».

«أوه»، شهقت پوليانا في دهشة غامرة، «لكني أظنهما سيتصالحان يومًا ما إن أحبا بعضهما، فكلاهما يعيش وحيدًا طوال هذه السنوات، وأظن أنهما سيسران بالصلح!».

نخرت نانسي باستهزاء.

«أظنك لا تعرفين الكثير عن العشاق يا آنسة پوليانا. لكنك صغيرة. ولكن إن كان في العالم ثنائي لن يتفع بلعبة السعادة تلك فسيكونان عاشقين متخاصمين، وهذا ما هما عليه. أليس شكسًا، غالبًا؟ وأليست هي...».

توقفت نانسي بغتة، فقد تذكرت في الوقت المناسب إلى من تتحدث وعمن تتحدث، ثم ضحكت فجأة.

«لن أقول يا آنسة پوليانا، غير أن الصعب حقًا هو جعلهما يلعبان اللعبة، فيسعدان بالصلح. ولكن يا إلهي! ألن يحملق بهما الناس، الآنسة پولي وهو! أشعر أنه ما من فرصة!».

لم تقل پوليانا شيئًا، ولكنها حين دخلت البيت بعد ذلك بقليل بدا وجهها جادًا.

الفصل الثامن عشر
موشورات

ترددت بوليانا كثيرًا على البيت الكبير الواقع على تل بندلتن مع انقضاء أيام أغسطس الدافئة. غير أنها لم تشعر أن زياراتها ناجحة. صحيح أن الرجل أرادها هناك، إذ إنه يرسل في طلبها كثيرًا، ولكنها عند ذهابها، لا تراه يبدو أسعد، أو هذا ما ظنته بوليانا على الأقل.

صحيح أنه يتحدث إليها ويريها الكثير من الأشياء الغريبة والجميلة؛ من الكتب واللوحات والتحف، غير أنه لم يزل يتذمر جهرًا من عجزه، إلى جانب غضبه الواضح من التعليمات و«القواعد» لسكان بيته غير المرغوب بهم. لقد تبين أنه يحب حديث بوليانا حقًا، فتتحدث بوليانا. وهي تحب الكلام، لكنها لم تكن يومًا واثقة من أنها لن ترفع نظرها فتجده راقدًا على وسادته بتلك الهيئة الشاحبة المتوجعة التي آلمتها، ولم تكن واثقة أيضًا أي من كلماتها -إن كان ثمة واحدة- قد سببتها. أما عن إخباره بأمر «لعبة السعادة»، ومحاولتها في جعله يلعبها، فلم تجد بوليانا الوقت المناسب الذي ترى أنه سيهتم لها. لقد أخبرته مرتين، غير أنها لم تتجاوز في المرتين بداية

اللعبة وأن والدها قال... إذ غير جون بندلتن دفة الحديث بغتة إلى موضوع آخر.

لم يعد الشك يساور بوليانا بأن جون بندلتن كان يومًا حبيب خالتها بولي، وتمنت من أعماق قلبها المحب المخلص لو استطاعت بطريقة ما إدخال السعادة إلى ما رأته حياة وحدة بائسة لكليهما.

إلا أنها لم تعرف كيف تفعل هذا، فقد تحدثت إلى السيد بندلتن عن خالتها، وأصغى هو بأدب أحيانًا، وباستياء أحيانًا أخرى، ومرارًا بابتسامة غامضة على شفتيه المزمومتين عادة. وتحدثت إلى خالتها عن السيد بندلتن، أو أنها حاولت بالأحرى أن تحدثها عنه. غير أن الآنسة بولي، كعادتها، لم تكن تصغي لوقت طويل. بل كانت تجد دومًا شيئًا آخر تتحدث عنه. وكثيرًا ما فعلت هذا إن تحدثت بوليانا عن الآخرين؛ عن الطبيب تشلتن مثلًا. وعزت بوليانا ذلك إلى أن الطبيب تشلتن هو من رآها في الحجرة الشمسية والوردة في شعرها ووشاح الدانتيلا منسدل على كتفيها. في الحقيقة، لقد بدت الخالة بولي أكثر استياء من الطبيب تشلتن على وجه الخصوص، كما تبين لبوليانا عندما أصابها البرد الشديد وأبقاها في البيت يومًا.

«إن لم تتحسني الليلة فسأرسل في طلب الطبيب»، قالت الخالة بولي.

«حقًا؟ فلن أتحسن إذن»، قهقهت بوليانا، «لأني أحب أن يأتي الطبيب تشلتن لرؤيتي!».

ثم تعجبت للنظرة التي علت وجه خالتها.

«لن يكون الطبيب تشلتن يا بوليانا»، قالت الآنسة بولي بحزم، «فالطبيب تشلتن ليس طبيب العائلة. سأرسل في طلب الطبيب وارِن إن لم تتحسني».

غير أن بوليانا تحسنت، ولم يستدعَ الطبيب وارن.

قالت بوليانا لخالتها ذلك المساء «كما أنني سعيدة جدًا. أحب الطبيب وارن طبعًا وما إلى ذلك، لكني أحب الطبيب تشلتن أكثر، وأخشى أنه سيحزن إن لم نرسل في طلبه. لم يكن هو الملوم كما تعرفين لأنه رآك ذلك اليوم حين زينتك وكنت جميلة للغاية يا خالتي بولي»، ختمت بوليانا حديثها بحزن.

«هذا يكفي يا بوليانا. لست أرغب حقًا بنقاش أمر الطبيب تشلتن أو مشاعره»، أنبتها الآنسة بولي بصرامة.

نظرت بوليانا إليها للحظة بعينين متفحصتين حزينتين ثم تنهدت «إنني أحب أن أراك حين تغدو وجنتاك زهريتين هكذا يا خالتي بوليانا، غير أنني أحب كثيرًا أن أصفف شعرك إن... آه خالتي بولي!»، إلا أن خالتها قد غابت عن نظرها في الردهة.

اقترب أغسطس من نهايته حين وجدت بوليانا، وقد ذهبت في زيارة صباحية لجون بندلتن، حزمة الألوان البراقة من الأزرق والذهبي والأخضر يحفها الأحمر والبنفسجي سقطت على وسادته. فوقفت في بهجة وذهول.

«رائع يا سيد بندلتن، إنها قوس قزح صغيرة، قوس قزح

حقيقية جاءت لتزورك!»، قالت مصفقة بيديها بنعومة. «أوه، أوه، أوه يا إلهي! ولكن كيف دخلت؟»، صاحت.

ضحك الرجل بشيء من العبوس، فقد كان جون پندلتن غضبان على العالم هذا الصباح.

«حسن، أحسب أنها «دخلت» عبر الحافة المشطوبة لزجاج مقياس الحرارة ذاك المعلق على النافذة»، قال بوهن، «لا يفترض بالشمس أن تمسه أبدًا، لكنها فعلت هذا الصباح».

«أوه، لكنها جميلة للغاية يا سيد پندلتن! وهل الشمس فقط من يفعل هذا؟ يا إلهي! لو كانت لي لعلقتها في الشمس طوال النهار!».

«فلن يكون مقياس الحرارة بذي فائدة، وكيف تظنين أنك ستعرفين حرارة الطقس أو برودته، إن علقت مقياس الحرارة في الشمس طوال النهار؟»، ضحك الرجل.

«لست أبالي»، لهثت پوليانا وعيناها على حزمة الألوان الزاهية على الوسادة. «كأن أحدًا سيكترث إن كان سيعيش في قوس قزح طوال الوقت!».

ضحك الرجل الذي كان يراقب وجه پوليانا النشوان بشيء من الغرابة، ثم خطرت له فكرة جديدة فجأة، فقرع الجرس بجانبه.

«نورا»، قال حين وقفت الخادمة المسنة عند الباب، «أحضري لي أحد الشمعدانات النحاسية من فوق الموقد في غرفة الجلوس الأمامية».

«حاضر يا سيدي»، غمغمت المرأة التي تبدو ذاهلة قليلًا. ثم عادت سريعًا، فدخل الغرفة رنين موسيقي وهي تتقدم متعجبة من الفراش. إنه يصدر من الحلي المتدلية التي لها شكل الموشور المحيطة بالشمعدان القديم الطراز في يدها.

«شكرًا لك. يمكنك وضعه على الطاولة»، أمرها الرجل. «والآن أخرجي خيطًا وثبتيه إلى مشبكي زنار الستائر على تلك النافذة هناك. حلي زنار الستارة وأوصلي الخيط بين طرفي النافذة، هذا كل شيء. شكرًا لك»، قال، حين نفذت تعليماته.

ثم بعد أن غادرت الغرفة استدار باسمًا نحو بوليانا المستغربة.

«أحضري لي الشمعدان الآن من فضلك يا بوليانا».

حملته بوليانا بكلتا يديها، فأخذ يزيل الحلي المتدلية واحدة فواحدة، حتى وضعت كلها على السرير جنبًا إلى جنب.

«والآن يا عزيزتي، أرجو منك أن تأخذيها وتعلقيها على ذلك الخيط الصغير الذي ثبتته نورا على النافذة. إن أردت العيش في قوس قزح حقًا، فليس أمامنا سوى أن نصنع لك واحدة تعيشين فيها!».

ما إن علقت بوليانا ثلاثًا من الحلي في النافذة المضاءة حتى رأت قليلًا مما سيحدث. لقد كانت متحمسة جدًا ولم تستطع أن تسيطر على ارتجاف أصابعها بما يكفي لتعليق البقية. لكنها أتمت مهمتها في نهاية المطاف، وتراجعت بصرخة خفيضة من البهجة.

لقد تحولت تلك الغرفة الفاخرة الكئيبة إلى عالم سحري. وتراقصت الألوان الأحمر والأخضر والبنفسجي والبرتقالي والذهبي والأزرق في كل مكان؛ على الأرضية والجدار والأثاث، بل إن الفراش نفسه اتقد بالألوان البراقة.

«أوه، أوه، أوه! يا للجمال!»، لهثت بوليانا ثم ضحكت فجأة، «أحسب أن الشمس نفسها تحاول لعب اللعبة الآن، ألا تظن ذلك؟»، هتفت وقد نسيت تلك اللحظة أن السيد بندلتن لم يعرف عما تتحدث. «أوه! ليت عندي الكثير من هذه الأشياء! أود كثيرًا أن أمنحها لخالتي بولي والسيدة سنو والكثير من الناس. أظن أنهم سيكونون سعداء تمامًا حينئذ! حسن، إنني أظن أن حتى الخالة بولي ستصفق الأبواب من السعادة إن عاشت في قوس قزح كهذه، ألا تظن هذا؟».

ضحك السيد بندلتن.

«حسن، من ذكرياتي عن خالتك يا آنسة بوليانا، علي القول إن الأمر سيتطلب أكثر من بضعة موشورات في ضوء الشمس لجعلها تصفق الأبواب من السعادة. ولكن اسمعي الآن، ما الذي تعنينه حقًا؟».

حملقت بوليانا قليلًا ثم أخذت نفسًا طويلًا.

«أوه، لقد نسيت. إنك لا تعرف بأمر اللعبة، لقد تذكرت الآن».

«فلتخبريني إذن».

فأخبرته پوليانا هذه المرة، وأخبرته بالحكاية كاملة من بدايتها، من العكازين اللذين جاءا بدل الدمية. لم تنظر إلى وجهه وهي تتحدث، بل كانت عيناها الجذلتان مثبتتين على رقاقات الألوان المتراقصة من الحلي الموشورية المتأرجحة عند النافذة المنيرة.

«وهذه كل الحكاية»، تنهدت حين فرغت، «وهأنت تعرف الآن لم قلت إن الشمس تلعب تلك اللعبة».

ساد صمت للحظة، ثم قال صوت قادم من الفراش بهدوء «ربما، لكني أظن أن أجمل موشور فيها كلها هي أنت يا پوليانا».

«أوه، لكني لا يظهر مني ألوان جميلة حمراء وخضراء وبنفسجية حين تشرق علي الشمس يا سيد پندلتن!».

«حقًا؟»، ابتسم الرجل، وتساءلت پوليانا، التي نظرت في عينيه، عن سبب الدمع فيهما.

«كلا»، قالت، ثم أضافت بحزن «أخشى أن الشمس لا تعطيني إلا النمش يا سيد پندلتن. تقول خالتي پولي إن الشمس تصنعه!».

ضحك الرجل قليلًا، ونظرت پوليانا إليه ثانية، وبدت الضحكة شبيهة بالبكاء.

الفصل التاسع عشر

أمر يثير العجب قليلا

دخلت بوليانا المدرسة في سبتمبر. وأظهرت الاختبارات التحضيرية أنها متقدمة جدًا على أي فتاة من عمرها، وسرعان ما صارت فردًا سعيدًا من فصل من الفتية والفتيات من مثل عمرها.

كانت المدرسة مفاجأة لبوليانا بصورة ما، كما كانت بوليانا مفاجأة للمدرسة، بصور عديدة. وسرعان ما صارتا على وفاق، واعترفت بوليانا لخالتها أنها وجدت في الذهاب إلى المدرسة حياة، رغم أن الشكوك ساورتها قبلًا.

لم تنس بوليانا أصدقاءها القدامى رغم سعادتها بانشغالها الجديد. صحيح أنها لم تستطع منحهم كثيرًا من الوقت، لكنها منحتهم ما استطاعت. ولعل جون بندلتن كان الأكثر استياء بينهم.

وقد حدثها بالأمر ذات سبت.

«أصغي إلي يا بوليانا، ما رأيك في القدوم والعيش معي هنا»، سأل نافد الصبر قليلًا، «فأنا لا أراك هذه الأيام».

ضحكت بوليانا، فقد كان السيد بندلتن رجلًا طريفًا.

«ظننتك لا تريد أناسًا حولك»، قالت.

فتجهم وجهه.

«أوه، ولكن هذا قبل أن تعلميني أن ألعب لعبتك الرائعة. فأنا سعيد الآن أني يُعنى بي خير عناية! ليس مهمّا، إذ سأقف على ساقيّ الاثنين، فأنا على واحدة هذه الأيام، ثم سأرى عندئذ من سيزوني». ختم حديثه وهو يرفع أحد العكازين إلى جانبه ويهزه مداعبًا أمام الفتاة الصغيرة. كانا يجلسان في المكتبة الكبيرة اليوم.

«أوه، ولكن ألست سعيدًا حقًا بكل الأشياء؟ فقد قلت لتوك إنك كذلك»، عبست بوليانا وهي تنظر إلى الكلب الناعس أمام النار. «تعلم أنك لا تلعب اللعبة لعبًا صحيحًا يا سيد بندلتن، تعلم أنك لا تفعل!».

أصبح وجه الرجل جادًا جدًا، «ولهذا أريدك أيتها الفتاة الصغيرة، لتساعديني في لعبها. هلا أتيت؟».

استدارت إليه بوليانا في ذهول.

«أنت لا تعني حقًا يا سيد بندلتن أن...؟».

«بل أعنيه. أريدك فهلا أتيت؟».

بدت بوليانا مضطربة.

«حسن يا سيد بندلتن، لا أستطيع، وأنت تعلم أني لا أستطيع. أنا أنتمي للخالة بولي!».

عبر شيء سريع وجه الرجل لم تفهم پوليانا تمامًا، وارتفع رأسه بقوة.

«لست تنتمين إليها أكثر من... ربما تسمح لك بالقدوم إلي»، قال بلطف أكثر، «هلا أتيت إن فعلت؟».

قطبت پوليانا في تفكير عميق.

«لكن الخالة پولي كانت طيبة جدًا معي»، قالت ببطء، «وقد أخذتني حين لم يبق لي أحد إلا السيدات المحسنات و...».

تشنج وجه الرجل مرة أخرى، لكنه حين تحدث هذه المرة كان صوته خفيضًا وحزينًا جدًا.

«لقد أحببت إحداهن كثيرًا قبل سنوات طويلة يا پوليانا، وتمنيت أن أدخلها هذا البيت يومًا. وتخيلت حجم سعادتنا معًا في بيتنا طوال السنوات التي ستأتي».

«أجل»، أشفقت عليه پوليانا بعينين تنضحان بالعطف.

«ولكن.. حسن، لم أُدخلها، والسبب ليس مهمًا. لم أفعل فحسب وهذا كل ما في الأمر. ومنذ ذلك الوقت لم تكن هذه الحجارة الرمادية الكبيرة سوى بيت لا دار. يتطلب الأمر يد امرأة وقلبها ووجود طفل لصنع دار يا پوليانا، وليس لي أي منها. والآن هلا أتيت يا عزيزتي؟».

نهضت پوليانا، وقد أشرق وجهها.

«هل تعني يا سيد پندلتن أنك تتمنى لو كانت لديك يد تلك المرأة وقلبها طوال تلك السنوات؟».

«حسن، أ... أجل يا پوليانا».

«أوه، إنني سعيدة للغاية! فلا بأس إذن»، تنهدت الفتاة الصغيرة، «يمكنك أن تأخذ كلينا الآن فيكون كل شيء رائعًا!».

«آخذ كليكما؟»، كرر الرجل مرتبكًا.

ساور پوليانا شك طفيف.

«حسن، طبعًا. صحيح أنك لم تفز بالخالة پولي بعد، لكني واثقة أنك ستفعل إن أخبرتها بما قلته لي تمامًا، ثم نأتي كلانا طبعًا».

بدت في عيني الرجل نظرة خوف حقيقي.

«الخالة پولي تأتي... هنا؟».

اتسعت عينا پوليانا قليلًا.

«هل تؤثر الذهاب إلى هناك؟»، سألت، «صحيح أن البيت ليس جميلًا جدًا، لكنه أقرب...».

«ما الذي تتحدثين عنه الآن يا پوليانا؟»، سأل الرجل بلطف شديد.

«عجبًا، عن مكان عيشنا طبعًا»، أجابت پوليانا بدهشة جلية، «ظننت أنك قصدت هنا في بادئ الأمر. فقد قلت إنك أردت يد الخالة پولي وقلبها هنا طوال هذه السنوات ليكون البيت دارًا، و...».

انبعثت صرخة حادة من حنجرة الرجل، ورفع يده وأخذ يتحدث، ثم أنزل يده إلى جانبه بهدوء.

«الطبيب يا سيدي»، قالت الخادمة في الممر.

نهضت بوليانا من فورها.

استدار جون بندلتن بانفعال «لا تذكري شيئًا عما طلبته منك حبًا بالسماء يا بوليانا»، توسل إليها بصوت خفيض.

ابتسمت بوليانا ابتسامة مشرقة.

«لن أفعل طبعًا! كأني لا أعلم أنك تود إخبارها بنفسك!»، قالت وهي تنظر للخلف بمرح.

تهاوى جون بندلتن على كرسيه بوهن.

«يا إلهي، ما الأمر؟»، سأل الطبيب بعد دقيقة وهو يجس بأصابعه النبض المضطرب لمريضه.

ارتعشت ابتسامة غريبة على شفتي جون بندلتن.

«أظنها جرعة زائدة من دوائك»، ضحك حين انتبه إلى عيني الطبيب اللتين تلاحقان بوليانا التي خرجت من الدرب المسقوف.

الفصل العشرون

أمر يثير العجب أكثر

أصباح أيام الأحد، اعتادت بوليانا الذهاب إلى الكنيسة ومدرسة الأحد، وأما بعد الظهر فتذهب في نزهة مع نانسي. وقد خططت لنزهة هذا اليوم بعد زيارتها عصر السبت إلى السيد جون بندلتن، ولكنها صادفت الطبيب تشلتن في عربته، في طريق العودة من مدرسة الأحد، فأوقف حصانه.

«هل لي بإيصالك إلى البيت يا بوليانا؟!»، قال مقترحًا، «أود الحديث إليك قليلًا وقد كنت متجهًا إلى بيتك لإخبارك»، ثم تابع بعد أن جلست بوليانا إلى جانبه، «أرسل السيد بندلتن طلبًا خاصًا لتذهبي وتريه عصر اليوم، إذ يقول إن الأمر هام للغاية».

هزت بوليانا رأسها سعيدة.

«أجل، إنه كذلك. أعلم، سأذهب».

نظر إليها الطبيب في دهشة.

«لست متأكدًا إن كنت سأسمح لك»، قال وعيناه تبرقان، «فقد بدوت مزعجة أكثر من كونك مهدئة البارحة أيتها الشابة».

ضحكت پوليانا.

«أوه لست أنا حقًا، ليس تمامًا كما تعلم، ليس كثيرًا بقدر ما كان ذاك بسبب خالتي پولي».

استدار الطبيب بلفتة سريعة.

«خالتك؟!»، قال.

قفزت پوليانا قفزة سعيدة في مقعدها.

«أجل، والأمر مثير وجميل، مثل حكاية كما تعرف، أنت... سأخبرك»، قالت بقرار مفاجئ، «لقد قال ألا أتحدث عن الأمر، لكنه لن يعترض على معرفتك طبعًا. لقد قصد إلا أذكره لها».

«لها؟».

«أجل، لخالتي پولي، كما أنه يود إخبارها بنفسه طبعًا، بدلًا من أن أفعل أنا ذلك، هذا حال العشاق!».

«عشاق؟!»، حين نطق الطبيب الكلمة انطلق الحصان مسرعًا، كأنما اليد الممسكة باللجام قد نخسته نخسة حادة.

«أجل»، هزت پوليانا رأسها بسعادة «هذا هو جزء من القصة، كما ترى لم أعرف بالأمر حتى أخبرتني نانسي، إذ قالت إنه كان لخالتي عاشق قبل سنوات وتشاجرا. لم تعرف من هو في بادئ الأمر، غير أننا عرفناه الآن، إنه السيد پندلتن كما ترى».

استرخى الطبيب فجأة وسقطت اليد الممسكة باللجام واهنة في حجره.

«أوه، كلا. لم أعرف»، قال بهدوء.

أسرعت پوليانا في الحديث لأنهما اقتربا من عزبة هارنغتن.

«أجل. إنني سعيدة للغاية، لقد تطور الأمر على نحو رائع. سألني السيد پندلتن الذهاب والعيش معه، لكني لن أترك خالتي پولي طبعًا هكذا بعد عطفها علي، ثم أخبرني عن يد المرأة وقلبها اللذين أرادهما، وعرفت أنه أرادهما الآن، وسررت! لأنه إن أراد تسوية الخلاف فسيكون كل شيء على ما يرام وسنذهب أنا وخالتي پولي للعيش هناك، أو سيأتي هو للعيش معنا. لا تعرف الخالة پولي بهذا بعد طبعًا، كما أننا لم نقرر كل شيء بعد، لذا فإني أظن أنه يود رؤيتي عصر اليوم لهذا السبب».

جلس الطبيب متحفزًا فجأة وعلى شفتيه ابتسامة غريبة.

«أجل أستطيع تخيل أن السيد پندلتن يريدك يا پوليانا حقًا»، هز رأسه وهو يوقف حصانه أمام الباب.

«ها هي الخالة پولي تقف عند النافذة»، قالت پوليانا ثم بعد لحظة، «أوه كلا، ليست هي لكني ظننتني رأيتها».

«كلا، إنها ليست هناك الآن»، قال الطبيب وقد زالت البسمة عن شفتيه فجأة.

وجدت پوليانا جون پندلتن عصبيًا جدًا في انتظارها عصر ذلك اليوم.

فبادرها من فوره «لقد حاولت طوال الليل أن أفهم ما عنيته

بذلك كله البارحة، عن رغبتي بيد خالتك پولي وقلبها طوال هذه السنوات. ماذا قصدت؟».

«حسن، لأنكما كنتما عاشقين ذات يوم كما تعرف، وأنا سررت للغاية لأنك لم تزل تشعر بهذا الإحساس راهنًا».

«عاشقان؟! أنا وخالتك پولي؟».

اتسعت عينا پوليانا لدى الدهشة الواضحة في صوت الرجل.

«ويحي يا سيد پندلتن، لقد قالت نانسي ذلك».

ضحك الرجل ضحكة قصيرة.

«حقًا! حسن، أخشى أن علي القول إن نانسي لا تعرف».

«إذن لستما... لم تكونا عاشقين؟»، كان صوت پوليانا ناضحًا بالخوف.

«قط!».

«ولن يحدث الأمر كما في الكتب؟».

لم تتلق جوابًا، فقد تركز نظر الرجل على النافذة بكآبة.

«أوه يا إلهي! وقد مضى كل شيء على نحو رائع»، كادت پوليانا أن تبكي، «لقد سررت للغاية بأن آتي مع خالتي پولي».

«ولن تفعلي الآن؟»، سأل الرجل السؤال دون الالتفات.

«كلا طبعًا، فأنا أنتمي لخالتي پولي».

استدار الرجل بقوة.

«قبل أن تنتمي لها فأنت انتميت لأمك، وقد كانت يد أمك وقلبها هما اللذان أردتهما قبل سنوات».

«أمي؟!».

«أجل، لم أقصد إخبارك. ولكن لعل إخبارك أفضل»، شحب وجه جون پندلتن للغاية، وأخذ يتحدث بمشقة واضحة. اتسعت عينا پوليانا ذعرًا وانفرجت شفتاها وحملقت به بثبات. «لقد أحببت أمك لكنها لم تحببني، ثم سافرت بعد زمن مع أبيك، لم أعرف كم أحبها حتى حدث ذلك. فقد تحول العالم كله إلى السواد في عيني و... ولكن لا عليك. لقد كنت رجلًا عجوزًا شكسًا نكدًا بغيضًا ومكروهًا لسنوات طويلة، رغم أني لم أبلغ الستين بعد يا پوليانا. ثم ذات يوم، مثل أحد الموشورات التي تحبينها كثيرًا، رقصت في حياتي أيتها الفتاة الصغيرة ولونت عالمي العتيق الموحش بلطخات من البنفسجي والذهبي والقرمزي لمرحك المبهي. لقد تبينت بعد زمن مَن كنت، وظننت أنني لا أريد رؤيتك ثانية، ولكن... أنت تعلمين إلام آل إليه هذا. لقد وددت أن تأتي، والآن أود أن تكوني معي دومًا، الن تأتي يا پوليانا؟».

«ولكن لدي خالتي بولي يا سيد پندلتن».

تململ الرجل نافد الصبر.

«وماذا عني؟ كيف تظنيني سأكون سعيدًا بكل شيء دونك؟ عجبًا يا پوليانا منذ أن أتيت صرت نصف مسرور بحياتي! ولكن إن صرت فتاتي الصغيرة فسأسعد بكل شيء، وسأحاول إسعادك

أيضًا يا عزيزتي. ستجاب كل أمنياتك، وكل مالي حتى آخر سنت منه سيصرف لإسعادك».

بدت بوليانا ذاهلة.

«ويلي يا سيد بندلتن، وكأني سأسمح لك بأن تصرف علي كل المال الذي ادخرته من أجل غير المؤمنين».

احمر وجه الرجل حزنًا، وأراد أن يتحدث لكن بوليانا لم تزل تتكلم.

«كما أن أي أحد يملك مالًا كثيرًا بقدر ما تملك ليس بحاجة لي ليسر بالأشياء، فأنت تسعد الآخرين بمنحهم أشياء، فلا تستطيع عندئذ إلا أن تسعد! انظر إلى هذه الموشورات التي قدمتها للسيدة سنو ولي، والهدية الجميلة التي منحتها لنانسي في عيد ميلادها و...».

«أجل، أجل. لا تهتمي لكل ذلك»، قاطعها الرجل، وقد احمر وجهه للغاية، ولا عجب، لعل جون بندلتن لم يشتهر في ماضيه بالعطاء، «هذا كلام فارغ، لم أعط كثيرًا على أية حال، ولكن ما أعطيته كان بفضلك، أنت التي أعطيت هذه الأشياء لا أنا! أجل، لقد فعلت». كرر قوله ردًا على الإنكار والدهشة على وجهها، «وهذا يثبت أكثر أني بحاجتك أيتها الفتاة الصغيرة»، أضاف وقد رقّ صوته في التماس حنون مرة أخرى، «إن كنت يومًا سألعب لعبة السعادة؛ فسيتعين عليك أن تأتي وتلعبي معي يا بوليانا».

تغضنت جبهة الفتاة الصغيرة في تقطيبة حزينة.

«لقد كانت الخالة پولي عطوفة معي»، قالت لكن الرجل قاطعها بحدة. لقد عاد النكد القديم إلى وجهه. ونفاد الصبر الذي لا يطيق أي اعتراض كان من طبع جون پندلتن لزمن طويل جدًا فلن يتخلى عنه بسهولة تحت الضغط.

«كانت عطوفة عليك طبعًا يا پوليانا، لكني أراهن أنها لا تريدك نصف ما أريدك أنا»، ناقشها.

«لكني أعرف يا سيد پندلتن أنها سعيدة بـ...».

«سعيدة؟!»، قاطعها الرجل وقد عيل صبره تمامًا، «أراهن أن الآنسة پولي لا تعرف كيف تكون سعيدة بأي شيء! أوه، أعرف أنها تؤدي واجبها. إنها امرأة صالحة، وقد خبرتُ واجبها قبلًا. سأعترف لك أننا لسنا بصديقين مقربين منذ السنوات الخمس عشرة أو العشرين الأخيرة. لكني أعرفها والكل يعرفها، وهي ليست من الصنف السعيد يا پوليانا، ولا تعرف كيف تكون. أما عن قدومك إلي؛ فاسأليها فحسب وانظري إن كانت تسمح لك بالقدوم. وأوه أيتها الفتاة الصغيرة، إنني أريدك بقوة!»، قال بانكسار.

نهضت پوليانا بتنهيدة طويلة.

«حسن، سأسألها»، قالت بحزن، «أنا لا أعني أنني لا أحب القدوم للعيش هنا معك يا سيد پندلتن، لكن..»، ولم تكمل جملتها، وسادت لحظة صمت ثم أضافت «حسن على أية حال أنا سعيدة أنني لم أخبرها البارحة، فقد ظننتها مرغوبة أيضًا».

ابتسم جون پندلتن بتجهم.

«حسن، أجل يا پوليانا. أحسب أنك أحسنت صنعًا بأنك لم تذكري الأمر البارحة».

«لم أفعل، إلا للطبيب وهو لا يحتسب طبّعا».

«الطبيب؟!»، صاح جون پندلتن والتفت بسرعة «ليس الطبيب تشلتن؟».

«بلى، حين جاء ليخبرني أنك تطلب رؤيتي اليوم كما تعلم».

«حسن، من كل الـ...»، غمغم الرجل متهاويًا في كرسيه، ثم اعتدل باهتمام مفاجئ، «وماذا قال الطبيب تشلتن؟»، سأل.

قطبت پوليانا مفكرة.

«حسن، لست أذكر. لا أحسبه قال الكثير. أوه لقد قال إنه يتخيل تمامًا لماذا تريد رؤيتي».

«أوه، حقًا؟»، أجاب جون پندلتن وتساءلت پوليانا لماذا ضحك تلك الضحكة الغريبة المفاجئة.

الفصل الحادي والعشرون
جواب السؤال

أخذت السماء تكفهر سريعًا فيما بدا عاصفة رعدية مطرية، حين نزلت پوليانا التل مسرعة من بيت جون پندلتن. في منتصف الطريق إلى البيت التقت نانسي حاملة مظلة. غير أن الغيوم عندئذ غيرت رأيها ولم يبد المطر وشيكًا.

«أظنها تتجه نحو الشمال»، قالت نانسي وهي تعاين السماء بتمعن، «ظننت ذلك طوال الوقت لكن الآنسة پولي أرادتني أن آتي مع هذه، لقد قلقت عليك!».

«حقًا؟»، غمغمت پوليانا بذهول وهي تعاين الغيوم بدورها.

نخرت نانسي قليلًا.

«لا يبدو أنك سمعت ما قلته»، قالت متأملة، «قلت إن خالتك قلقت عليك».

«أوه»، تنهدت پوليانا وقد تذكرت فجأة السؤال الذي ستسأله لخالتها قريبًا، «أنا آسفة، لم أقصد إثارة خوفها».

«لكني سعيدة»، أجابت نانسي فجأة، «إنني كذلك».

حملقت پوليانا.

«أسعيدة بخوف خالتي پولي علي؟ ويحك يا نانسي، ليست هذه هي طريقة اللعبة، بأن نسعد لأمور كهذه»، اعترضت.

«ليس في الأمر لعبة»، أجابت نانسي، «لم أفكر بها قط. يبدو أنك لا تفهمين معنى أن تقلق عليك الآنسة پولي يا صغيرة».

«عجبًا! إنه يعني أنها قلقة، والقلق شعور مريع»، واصلت پوليانا، «أي معنى آخر له؟».

أرجعت نانسي رأسها.

«حسن، سأخبرك بمعناها. إنها تعني أنها أخيرًا أخذت تصبح إنسانة مثل البشر وأنها لم تعد تؤدي واجبها فحسب نحوك طوال الوقت».

«ويحك يا نانسي»، استنكرت پوليانا المستهجنة، «إن الخالة پولي تؤدي واجبها دومًا. إنها امرأة صالحة جدًا»، رددت پوليانا دون وعي كلمات جون پندلتن التي سمعتها قبل نصف ساعة.

ضحكت نانسي، «إنك محقة وأحسبها كانت كذلك دومًا، لكنها أكثر من ذلك الآن، منذ أن أتيت».

تغير وجه پوليانا وعقدت حاجبيها، «حسن، هذا ما كنت سأسألك عنه يا نانسي»، تنهدت، «هل تظنين أن الخالة بولي تحب وجودي هنا؟ هل تهتم لو... لو أنني لم أعد هنا؟».

نظرت نانسي نظرة سريعة إلى وجه الطفلة الصغيرة المفكر، لقد توقعت أن تسأل هذا السؤال منذ زمن بعيد، وقد خشيته إذ تساءلت كيف تجيبه، كيف تجيبه بصدق دون إيلام السائلة بقوة. ولكن الآن، الآن في ظل الشكوك الجديدة التي صارت حقائق مع إرسال المظلة عصرًا رحبت نانسي بالسوال بذراعين واسعين، فقد كانت واثقة اليوم بضمير مرتاح أنها ستبعث الراحة في قلب الفتاة الصغيرة المتعطش للحب.

«تحب وجودك هنا؟هل ستفتقدك إن لم تكوني هنا؟»، قالت نانسي ساخرة، «كأنما لم يكن هذا ما قلته لتوي! ألم ترسلني بأقصى سرعة حاملة المظلة لأنها رأت غيمة صغيرة في السماء؟ ألم تجعلني أنقل متاعك للأسفل، فتحصلين على الغرفة الجميلة التي أردتها؟ «عجبًا يا آنسة پوليانا، حين تتذكرين في البداية كم كرهت أن....».

بسعال مكتوم أسكتت نانسي نفسها في الوقت المناسب.

«وأمور أخرى لا أستطيع عدها»، قالت نانسي مقطوعة النفس، «إن الأمور الصغيرة هي ما تظهر لك أنك قد ألنت قلبها وذوبته، مثل سماحها لك برعاية القطة والكلب، والطريقة التي تحدثني بها وأوه، الكثير من الأمور. حسن يا آنسة پوليانا لا سبيل للقول كم ستفتقدك إن لم تكوني هنا»، أنهت نانسي قولها متحدثة بثقة حماسية قصدت منها إخفاء الاعتراف الخطير الذي كادت أن تقوله، وحتى عندئذ لم تكن مستعدة تمامًا للفرح المفاجئ الذي أضاء وجه پوليانا.

«أوه يا نانسي إني مسرورة.. مسرورة.. مسرورة! لا تعرفين مقدار سعادتي بأن الخالة بولي تريدني!».

«كأني سأغادر الآن!»، قالت بوليانا وهي ترتقي الدرج ذاهبة إلى غرفتها بعد قليل، «لقد عرفت دومًا أني أود العيش مع الخالة بولي، ولكن أظنني لم أعرف كم أردت الخالة بولي أن تحب العيش معي».

أيقنت بوليانا أن مهمة إخبار جون بندلتن بقرارها ليست بالهينة، وخشيت ذلك. لقد أحبت جون بندلتن كثيرًا، وشعرت بالأسى من أجله، لأنه يشعر بالأسى على نفسه. كما شعرت بالأسى على حياة الوحدة الطويلة التي جعلته تعسًا للغاية وحزنت لأنه قضى تلك السنوات الكئيبة بسبب أمها. تخيلت البيت الرمادي الكبير بعد أن يستعيد السيد عافيته بغرفه الصامتة وأرضياته القذرة ومكتبه المبعثر وأوجعها قلبها لوحدته. وتمنت أن يعثر على أحد في مكان ما، ثم نهضت قافزة فرحًا عندما خطرت لها هذه الفكرة.

وأسرعت صاعدة التلة بعد هذا بأسرع ما استطاعت إلى بيت جون بندلتن، ووجدت نفسها في الوقت المناسب في المكتبة الكبيرة المعتمة، وجون بندلتن يجلس قربها ويداه الطويلتان النحيلتان على مسندي الكرسي، وكلبه الصغير المخلص قرب قدميه.

«حسن يا بوليانا، هل ستلعبين لعبة السعادة معي طوال ما بقي من حياتي؟»، سأل الرجل بلطف.

«أوه أجل، صاحت بوليانا، لقد فكرت في أسعد الأمور التي تفعلها و...».

«معك؟»، سأل جون پندلتن، وقد زم فمه قليلًا عند الزاويتين.

«كلا، ولكن...».

«لن ترفضي يا پوليانا»، قاطعها صوت شديد الانفعال.

«علي... علي ذلك حقًا يا سيد پندلتن، فالخالة بولي...».

«هل رفضت السماح لك بالقدوم؟».

«لم أسألها»، تلعثمت الفتاة ببؤس.

«پوليانا!».

أشاحت پوليانا بنظرها، إذ لم تستطع مواجهة النظرة المجروحة الحزينة لصديقها.

«لم تسأليها إذن!».

«لم أستطع يا سيدي»، تلعثمت پوليانا، «لقد عرفت دون سؤال كما ترى. إن الخالة پولي تريدني وأنا أريد البقاء أيضًا»، اعترفت بشجاعة، «لست تدري كم عطفت علي، وأظنها حقًا بدأت تسعد بالأشياء، الكثير من الأشياء. وأنت تعرف أنها لم تكن كذلك لقد قلت هذا بنفسك. أوه يا سيد پندلتن، لا أستطيع ترك خالتي پولي الآن».

ساد صمت طويل، ولم يكسر الصمت إلا فرقعة الحطب في النار، وتحدث الرجل في نهاية المطاف «كلا يا پوليانا، أفهمك، لا يمكنك تركها»، قال، «لن أسألك ثانية»، كانت الكلمة الأخيرة خفيضة جدًا تكاد لا تسمع لكن پوليانا سمعتها.

«أوه، ولكنك لا تعرف الباقي»، ذكرته بحماس، «ثمة أسعد أمر تفعله، إنه موجود حقًا!».

«ليس عندي يا پوليانا».

«أجل يا سيدي عندك، أنت قلتها. لقد قلت ما من شيء يجعل البيت دارًا إلا يد امرأة وقلبها ووجود طفل ويمكنني أن أحقق لك وجود الطفل، لست أنا كما تعلم بل طفل آخر».

«كأني سأقبل بأحد سواك»، اعترض صوت غاضب.

«لكنك ستفعل حين تعرف، فأنت طيب وعطوف للغاية! تذكر الموشورات والحلية الذهبية وكل المال الذي تدخره لأجل غير المؤمنين، و...».

«پوليانا!»، قاطعها بفظاظة، «دعينا ننه هذا الهراء مرة وللأبد! لقد حاولت إخبارك مرارًا من قبل، ما من مال لغير المؤمنين، لم أرسل پنسًا واحدًا إليهم مرة في حياتي، كفى!».

رفع ذقنه واستجمع قواه ليواجه ما توقع، الخيبة الحزينة في عيني پوليانا. لكنه دهش لأنه لم ير خيبة ولا حزنًا في عيني پوليانا، بل فرح ودهشة فحسب. «أوه، أوه»، قالت مصفقة بيديها، «أنا سعيدة للغاية، أعني...» صححت وهي تحمر بقلق، «لست أعني أني لا أشعر بالأسى من أجل غير المؤمنين، غير أني لا أستطيع كبح سعادتي، فأنت لا تريد الفتية الهنود الصغار، لأن كل الآخرين يريدونهم، ولذا فإني سعيدة لأنك تؤثر أخذ جيمي بين، والآن أعلم أنك ستأخذه».

«آخذ من؟».

«جيمي بين. إنه يمثل وجود الطفل كما تعلم، وسيكون سعيدًا لذلك. اضطررت لإخباره الأسبوع الماضي أن السيدات المحسنات في الغرب لن يأخذنه، وقد خاب أمله كثيرًا. ولكنه سيكون سعيدًا جدًا الآن حين يسمع هذا».

«حقًا؟ أنا لن أكون كذلك»، قال الرجل بحزم، «هذا محض هراء يا پوليانا!».

«أنت لا تقصد أنك لن تأخذه؟!».

«بل أعني ذلك حتمًا».

«لكنه سيكون حضور طفل رائع»، تلعثمت پوليانا وكانت تبكي، «ولن تكون وحيدًا بوجود جيمي».

«لا أشك في ذلك»، قال الرجل، «لكن أظنني أؤثر الوحدة».

تذكرت پوليانا عندئذ للمرة الأولى منذ أسابيع أمرًا أخبرتها به نانسي مرة، فرفعت ذقنها بحزن.

«لعلك تظن أن طفلًا حيًا لطيفًا صغيرًا ليس بأفضل من هيكل عظمي قديم ميت تحتفظ به في مكان ما، لكني أظنه كذلك».

«هيكل عظمي؟».

أجل. قالت نانسي إنك تحتفظ بواحد في خزانتك في مكان ما».

«عجبًا، يا له..»، ثم أرجع الرجل رأسه فجأة، وضحك وضحك

من أعماقه وضحك حتى أخذت تبكي من الغضب الخالص، وحين رأى ذلك اعتدل جون پندلتن سريعًا وصار وجهه جادًا في الحال.

«أظنك محقة يا پوليانا، محقة أكثر مما تعرفين»، قال بلطف، «في الحقيقة أعلم أن فتى صغيرًا حيًا لطيفًا أفضل بكثير من هيكل عظمي أبقيه في خزانتي. غير أن المرء لا يكون مستعدًا دومًا للتغيير، بل يميل إلى التشبث بهيكله العظمي يا پوليانا. على أية حال، أخبريني المزيد عن هذا الفتى الصغير اللطيف»، وأخبرته پوليانا.

لعل الضحكة صفّت الأجواء، أو هو بؤس قصة جيمي بين التي قصتها شفتا پوليانا الصغيرتين المتلهفتين، فمست قلبًا قد لان مسبقًا لينًا غريبًا. على كل حال، حين عادت پوليانا إلى البيت تلك الليلة حملت معها دعوة لجيمي بين ليزور البيت الكبير مع پوليانا عصر السبت القادم.

«أنا سعيدة جدًا، وأنا واثقة أنك ستحبه»، تنهدت پوليانا وهي تودعه، «إنني أرغب كثيرًا أن يحظى جيمي بين ببيت وأهل يحبونه كما تعلم».

الفصل الثاني والعشرون
الموعظة وصندوق الحطب

عصر اليوم الذي أخبرت به پوليانا جون پندلتن عن جيمي بين، ارتقى الموقر پول فورد التل ودخل غابة پندلتن، آملًا أن تهدئ الطبيعة الهادئة التي خلقها الرب الجلبة التي أثارها أبناؤه.

كان الموقر پول فورد حزين الفؤاد، إذ ساءت أحوال الأبرشية التي يرعاها شهرًا بعد شهر طوال السنوات الماضية، حتى بدا أنه لا يرى إلا الخلاف والنميمة والغيبة والغيرة أينما يمم وجهه. لقد تجادل وتضرع وانتهر وتجاهل، وصلى دومًا بخشوع وأمل. لكنه اليوم اضطر مكرهًا أن يقر أن الأمور لن تتحسن، بل ستسوء. فقد نشب نزاع بين اثنين من شمامسيه على أمر سخيف لم يجدِ التفكير المتواصل بحله. وانسحبت ثلاث من أكثر النساء العاملات نشاطًا من جمعية السيدات المحسنات بسبب شرارة صغيرة من النميمة زادتها الألسن اضطرامًا وحولتها إلى فضيحة متقدة. وانشق أفراد من الجوقة لتوهمهم بتفضيل مغنية وإعطائها الغناء المنفرد. وحتى جمعية الجهاد المسيحي كانت تغلي غضبًا عقب الانتقاد الصريح

الذي طال اثنين من مسؤوليها. أما مدرسة الأحد فقد كانت استقالة مشرفتها واثنتين من معلماتها القشة التي قصمت ظهر البعير، وهذا ما أخذ الكاهن المنهك إلى الغابة الهادئة ليصلي ويتأمل.

واجه الموقر بول فورد الأمر بإنصاف تحت قوس الأشجار الخضراء. فقد رأى أن الأزمة قد وقعت. ولا بد من فعل شيء، وفعله في الحال. إذ توقف عمل الكنيسة بأكملها، قداس أيام الأحد، ولقاءات الصلوات اليومية، وحفلات الشاي التبشيرية، ودعوات العشاء والمناسبات الاجتماعية قد أضحت أقل حضورًا. صحيح أن قليلًا من العاملين ذوي الضمير الحي ما زالوا موجودين، لكنهم يتعارضون عادة، ويظهرون أنفسهم دومًا بأنهم واعون جدًا للعيون من حولهم التي ترقبهم والألسنة التي لا تفعل شيئًا سوى الحديث عما تراه الأعين.

وقد فهم الموقر بول فورد بسبب هذا كله أنه هو (وهو كاهن الرب) والكنيسة والبلدة بل والدين المسيحي نفسها يعانون وسيعانون أكثر ما لم....

لا بد من فعل شيء حتمًا، وفعله في الحال ولكن ما هو؟

أخرج الكاهن من جيبه ببطء الملاحظات التي كتبها من أجل موعظته ليوم الأحد القادم، ونظر إليها عابسًا. وتحول فمه إلى خطوط صارمة بعد قراءته جهرًا وبصوت مؤثر الآيات التي عزم على الحديث عنها.

«ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! لأنكم تغلقون

ملكوت السماوات قدام الناس، فلا تدخلون أنتم، ولا تدعون الداخلين يدخلون!

ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ولعلّةٍ تطيل صلواتكم. لذلك تأخذون دينونة أعظم.

ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمّون، وتركتم أثقل الناموس: الحق والرحمة والإيمان. كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك»[1].

كان هذا تحذيرًا شديدًا. رن صوت الكاهن العميق بنبرة مريرة في الدهاليز الخضراء للغابة، وبدا أن الطيور والسناجب قد سكنت في صمت، وهذا ما جعل الكاهن يدرك إدراكًا جليًا وقع هذه الكلمات الأحد المقبل حين يقولها أمام أهله في السكون المقدس للكنيسة.

أهله! لقد كانوا أهله. هل بوسعه فعلها؟ هل يجرؤ على ذلك؟ وهل يجرؤ على ألا يفعل؟ لقد كان تحذيرًا مخيفًا، حتى دون الكلمات التي ستتلوه، كلماته هو. لقد صلى وصلى، وتضرع بخشوع طلبًا للعون والهدى. لقد تاق، وآه كم تاق بصدق! أن يتخذ الخطوة الصحيحة في هذه الأزمة، ولكن ما الخطوة الصحيحة؟

طوى الكاهن أوراقه بهدوء وأعادها إلى جيبه. ثم ألقى بنفسه على الأرض، بتنهيدة تشبه البكاء، وغطى وجهه بيديه.

---

(١) إنجيل متى، الإصحاح ٢٣، الآيات ١٣-١٤-٢٣.

عندئذ وجدته پوليانا وهي في طريقها إلى البيت عائدة من منزل پندلتن. وجرت إلى الأمام صارخة قليلًا «أوه، أوه. لم تكسر رجلك أو حدث لك شيء من هذا القبيل يا سيد فورد، أليس كذلك؟»، قالت لاهثة.

أنزل الكاهن يديه ورفع نظره وحاول أن يبتسم.

«كلا يا عزيزتي، كلا حقًا، إنني أرتاح فحسب».

«أوه، تنهدت پوليانا متراجعة إلى الوراء قليلًا، «لا بأس إذن، لقد كسرت ساق السيد پندلتن حين وجدته كما تعرف، لكنه كان راقدًا وأنت جالس».

«أجل أنا جالس، ولم يُكسر لي شيء يمكن للأطباء إصلاحه».

كانت الكلمات الأخيرة خفيضة جدًا، لكن پوليانا سمعتها، وطرأ تغير طفيف على وجهها ولمعت عيناها بعطف رقيق.

«أعلم ماذا تعني، أن أمرًا يؤلمك، شعر أبي هكذا كثيرًا، أحسب أن الكهنة يشعرون على هذا النحو غالبًا. إذ يعتمد عليهم الكثيرون بطريقة ما كما تعلم».

«هل كان أبوك كاهنًا يا پوليانا؟».

«أجل يا سيدي، ألم تعلم؟ أظن الجميع يعرفون هذا، لقد تزوج بأخت الخالة پولي، وهي أمي».

«أوه، فهمت. ولكني لست هنا منذ سنوات طويلة، ولا أعرف تاريخ العائلات كلها».

«أجل يا سيدي، أعني كلا يا سيدي»، ابتسمت پوليانا.

ساد صمت طويل، وبدا أن الكاهن، لم يزل جالسًا أسفل شجرة، نسي وجود پوليانا وأخرج أوراقًا من جيبه وفتحها، غير أنه لم يكن ينظر إليها، بل كان يحملق بورقة شجر على الأرض على مبعدة منه، ولم تكن ورقة جميلة. فقد كانت بنية وميتة. شعرت پوليانا، وهي تنظر إليه، بالأسى من أجله كثيرًا.

«إنه، إنه يوم جميل،» قالت مفعمة بالأمل.

لم يصلها جواب للحظة، ثم نظر الكاهن مندهشًا.

«ماذا؟ أوه! أجل، إنه يوم جميل».

«كما أنه ليس باردًا، رغم أننا في أكتوبر»، قالت پوليانا بمزيد من الأمل، «كانت النار مشتعلة في موقد السيد پندلتن لكنه قال إنه لا يحتاجها، بل يحب النظر إليها فحسب، أحب النظر إلى النار، هل تحبه؟».

لم يجب هذه المرة، رغم انتظار پوليانا بصبر قبل أن تجرب ثانية عبر طريق مختلف.

«هل تحب كونك كاهنًا؟».

رفع الموقر پول فورد نظره متعجبًا.

«هل أحب؟ عجبًا يا له من سؤال! لم تسألين عن هذا يا عزيزتي؟».

«لا شيء، سوى هيئتك، لقد جعلتني أتذكر أبي، فقد بدا هكذا أحيانًا».

«حقًا؟»، كان صوت الكاهن مهذبًا، لكن عينيه عادتا إلى ورقة الشجر الجافة على الأرض.

«واعتدت سؤاله كما سألتك إن كان سعيدًا لأنه كاهن».

ابتسم الرجل تحت الشجرة بشيء من الحزن.

«حسن، وماذا قال؟».

«أوه، قال دومًا إنه يحب طبعًا، لكنه يقول دومًا أيضًا إنه لم يكن ليظل كاهنًا لدقيقة لولا نصوص البهجة».

«نصوص ماذا؟»، تركت عينا الموقر بول فورد الورقة وحملقتا متساءلتين بوجه پوليانا الفرح.

«حسن، هذا ما كان أبي يسميها»، ضحكت، «لا يسميها الكتاب المقدس بهذا الاسم طبعًا، غير أنها كل ما يبدأ بـ«افرحوا بالرب، وافرح وتهلل»، وغيرها الكثير كما تعلم. مرة حين شعر أبي بالاستياء أحصاها فوجد أنها ثمانمئة».

«ثمانمئة؟».

«أجل، تلك التي تخبرك بأن تفرح وتبتهج كما تعلم، ولهذا سماها أبي «نصوص البهجة»».

«أوه»، كان على وجه الكاهن نظرة غريبة فقد وقعت عيناه على الكلمات المكتوبة أعلى الورقة بين يديه التي تقول «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون».

«وقد أحب أبوك «نصوص البهجة» تلك»، غمغم.

«أوه، أجل»، هزت پوليانا رأسها مؤكدة، «قال إنه تحسن فورًا في ذلك اليوم الذي خطر له أنه يعدها، وقال إن كان الرب تجشم العناء وأخبرنا ثمانمئة مرة بأن نفرح ونبتهج، فلا بد أنه يريدنا أن نفعل ذلك أحيانًا. وشعر أبي بالخجل أنه لم يفعلها أكثر، ثم صارت ملاذًا له، حين تسوء الأمور كما تعلم، حين تشاجرت النساء المحسنات، أعني عندما لم يتفقن على أمر ما»، صححت پوليانا على عجل، «كما قال أبي إن هذه النصوص جعلته يفكر باللعبة، وبدأها معي حول العكازين، لكنه قال إن نصوص البهجة هي التي ألهمته إياها».

«وأي لعبة هذه؟»، سأل الكاهن.

«إيجاد شيء ما في كل شيء من حولك لتسعد به كما تعلم، وكما قلت فقد بدأها معي حول العكازين»، وقصت پوليانا القصة مرة أخرى، وهذه المرة لرجل أنصت بعينين رقيقتين وأذنين مصغيتين.

نزلت پوليانا والكاهن التلة بعد ذلك يدًا بيد. كان وجه پوليانا مشرقًا، فهي تحب الحديث وكانت تتحدث لبعض الوقت، إذا بدا أن ثم الكثير الكثير من الأمور حول اللعبة والحياة في الديار سابقًا أراد الكاهن معرفتها.

عند سفح التل افترق طريقاهما وأخذت پوليانا طريقًا وأخذ الكاهن طريقًا آخر ومشى وحده.

في مكتب الموقر پول فورد ذلك المساء جلس الكاهن يفكر، وقربه على المكتب بضع أوراق، فيها ملاحظات موعظته. وتحت

قلم الرصاص المعلق بين أصابعه ورقة أخرى بيضاء، للموعظة التي سيكتب. لكن الكاهن لم يكن يفكر بما كتب أو بما أزمع في ذهنه أن يكتبه. كان ذهنه بعيدًا في بلدة الغربية الصغيرة مع كاهن الدعوة الفقير المريض القلق والوحيد تقريبًا في هذا العالم، لكنه انكب على الكتاب المقدس ليعرف عدد المرات التي أخبره فيها ربه أن يفرح ويبتهج.

بعد ذلك تنبه الموقر بول فورد متنهدًا تنهيدة طويلة، وقد عاد من البلدة الغربية البعيدة وعدل الأوراق تحت يده.

«متى ٢٣: ١٣-١٤»، كتب ثم بإيماءة نفاد صبر ألقى بقلم الرصاص، وجذب إليه مجلة تركتها زوجته على مكتبه قبل دقائق. تنقلت عيناه المتعبتان من فقرة لأخرى باضطراب حتى أسرته هذه الكلمات.

ذات يوم، قال أب ابنه توم، وقد علم أنه رفض ملء صندوق الحطب لأمه هذا الصباح، «أنا واثق يا توم أنك ستكون سعيدًا بالذهاب لجلب شيء من الحطب لأمك». وذهب توم دون أي اعتراض. لماذا؟ لأن أباه أظهر له بوضوح أنه ينتظر منه فعل الصواب. لنفترض أنه قال «سمعت ما قلته لأمك هذا الصباح يا توم وأنا مستاء منك. اذهب فورًا واملأ صندوق الحطب! أؤكد لكم أن صندوق الحطب سيظل فارغًا ولم يكن توم ليكترث!».

قرأ الكاهن وقرأ كلمة هنا وسطرًا هنا وفقرة في مكان آخر.

ما يحتاجه الرجال والنساء هو التشجيع، ولا بد من تعزيز

طباعهم المقاومة الفطرية لا إضعافها، وبدلًا من تكرار عيوب الرجل دومًا أخبره بفضائله، حاول إخراجه من حفرة عاداته السيئة وعزز ذاته الفضلى، ذاته الحقيقية التي تجرؤ وتفعل وتفوز! إن تأثير الطباع الجميلة المتفائلة المتعاونة معدٍ ويحرض بلدة كاملة. ويعكس الناس ما في قلوبهم وما في عقولهم، فإن شعر المرء بالعطف وطيب الخلق فسيشعر جيرانه بهذا أيضًا سريعًا. ولكن إن كان يوبخ ويلعن وينتقد، فسيعيد إليه جيرانه التوبيخ واللعن ويضيفون الفائدة! إن تبحث عن السيء وتتوقعه تحصل عليه، وإن تثق أنك ستعثر على الطيب تحصل عليه. أخبر ابنك توم أنك تعلم أنه سيسر بملء صندوق الحطب، ثم راقبه يفعل ذلك نشطًا ومتحمسًا!

ألقى الكاهن المجلة ورفع ذقنه، ثم نهض ذارعًا الغرفة الضيقة جيئة وذهابًا. لاحقًا، بعد مرور بعض الوقت، أخذ نفسًا طويلًا وجلس على الكرسي أمام مكتبه.

«ليساعدني الرب، سأفعلها!»، قال بهدوء، «سأخبر كل أبنائي أنني أعلم أنهم سيسرون لملء صندوق الحطب! سأعطيهم عملًا ينجزونه وسأجعلهم مفعمين بفرح إنجازه حتى لا يتسنى لهم وقت للنظر إلى صندوق حطب جيرانهم!» وحمل ملاحظات موعظته ومزقها ونثرها حوله حتى وقعت عبارة «ويل لكم»، على جانب و«أيها الكتبة والفريسيون المراؤون» على جانب آخر، وقد انساب قلمه على الورقة البيضاء أمامه وقد خط خطًا أسود على متى ٢٣: ١٣ و١٤و٢٣.

وهكذا تبين أن موعظة الموقر پول فورد الأحد التالي كانت صيحة نفير حقيقية لأفضل ما في كل رجل وامرأة وطفل سمعها، وكان نصها واحدًا من نصوص پوليانا البهيجة الثمانمئة «افرحوا بالرب وابتهجوا يا أيها الصديقون واهتفوا يا جميع مستقيمي القلوب!»[1].

---

(١) سفر المزامير ٣٢: ١١.

الفصل الثالث والعشرون
الحادث

ذهبت پوليانا، نزولًا عند طلب السيدة سنو، إلى عيادة الطبيب تشلتن لتحصل على اسم الدواء الذي نسيته السيدة سنو. ولم يسبق لپوليانا أن رأت عيادة الطبيب تشلتن من الداخل قبل هذا.

«لم آت إلى بيتك قبلًا! هذا بيتك أليس كذلك؟»، قالت پوليانا وهي تنظر حولها باهتمام.

«أجل، يا له من بيت»، أجاب وهو يكتب شيئًا على ورقة بين يديه، «لكنه ليس إلا شبيهًا بائسًا بالبيت يا پوليانا. إنها غرف وليست بيتًا».

هزت پوليانا رأسها بتفكر، وقد لمعت عيناها بالتفهم المشفق.

«أعلم أن الدار تحتاج إلى يد امرأة وقلبها ووجود طفل»، قالت.

«ها؟»، استدار الطبيب بغتة.

«أخبرني السيد پندلتن»، هزت پوليانا رأسها ثانية، «عن يد المرأة وقلبها أو حضور الطفل كما تعلم. لماذا لم تحصل على يد امرأة

وقلبها أيها الطبيب تشلتن؟ أو لعلك تأخذ جيمي بين إن لم يرده السيد بندلتن». ضحك الطبيب تشيلتن مكرهًا قليلًا.

«يقول السيد بندلتن إذن إن الدار تحتاج إلى قلب امرأة ويدها، أليس كذلك؟»، سأل متهربًا.

«أجل، إذ يقول إنه مجرد بيت أيضًا، لماذا لا تفعل أيها الطبيب تشلتن؟».

«لماذا لا أفعل ماذا؟»، التفت الطبيب إلى مكتبه.

«أن تحصل على يد امرأة وقلبها، أوه، لقد نسيت»، أظهر وجه بوليانا فجأة احمرار خجل، «أظن أن علي إخبارك أنها لم تكن الخالة بولي من أحبها السيد بندلتن قبل زمن طويل، ولذا فإننا لن نذهب للعيش هناك، كما ترى. لقد أخبرتك بذلك لكنني أخطأت، أرجو أنك لم تخبر أحدًا»، قالت قلقة.

«كلا، لم أخبر أحدًا يا بوليانا»، أجاب الطبيب بشيء من الغرابة.

«أوه، لا بأس إذن»، تنفست بوليانا الصعداء، «إنك الوحيد الذي أخبرته كما تعرف، وأظن السيد بندلتن بدا غريبًا عندما قلت إنني أخبرتك».

«حقًا؟»، ارتعشت شفتا الطبيب.

«أجل، وهو لا يريد أن يعرف بالأمر كثير من الناس طبعًا، وبخاصة أنه ليس صحيحًا. ولكن لماذا لا تحصل على قلب امرأة ويدها أيها الطبيب تشلتن؟».

مرت لحظة صمت، ثم قال الطبيب بحزن شديد:

«لا يمكن الحصول عليها دومًا عند الطلب أيتها الصغيرة».

قطبت بوليانا مفكرة.

«لكني أظن أن بوسعك الحصول عليها»، جادلته، وقد تجلى لطفها في التأكيد.

«شكرًا لك»، ضحك الطبيب بحاجبين مرفوعين دهشة، ثم استعاد جديته وقال «أخشى أن بعض أخواتك الكبيرات لن يكن واثقات مثلك، بل إنهن لم يكنّ كيسات جدًا»، قال.

عبست بوليانا ثانية، ثم اتسعت عيناها دهشة.

«يا إلهي أيها الطبيب تشلتن، أنت لا تقصد... لم تحاول الحصول على يد امرأة وقلبها مرة ولم تنجح مثل السيد بندلتن، أليس كذلك؟».

نهض الطبيب على حين غرة.

«كفى، كفى يا بوليانا، لا عليك من هذا، لا تجعلي متاعب الآخرين تقلق رأسك الصغير. عليك العودة إلى منزل السيدة سنو، فقد كتبت اسم الدواء وتعليمات تناوله، هل ثمة أمر آخر؟».

هزت بوليانا رأسها نفيًا «كلا يا سيدي، شكرًا لك يا سيدي»، غمغمت بجدية وهي تستدير نحو الباب، وقالت من الممر الصغير وقد أشرق وجهها «لكني سعيدة أنها ليست يد أمي وقلبها اللذين لم تستطع الحصول عليهما أيها الطبيب تشلتن. إلى اللقاء».

وقع ذلك الحادث في اليوم الأخير من أكتوبر. عبرت بوليانا،

متعجلة العودة إلى البيت من المدرسة، الشارع فيما بدا مسافة آمنة أمام سيارة تقترب بسرعة.

لم يكن بوسع أحد قول ما حدث بعد ذلك، فلم يكن في المكان أحد يخبر سبب حدوثه أو من الملوم لحدوثه. إلا أن پوليانا حُملت في الساعة الخامسة واهنة فاقدة الوعي إلى غرفة صغيرة محببة إليها. وهناك قرب الآنسة پولي شاحبة الوجه ونانسي الباكية، خُلعت ثيابها برفق لتوضع في الفراش، أما الطبيب وارن فجاء من القرية وقد استدعي بالهاتف، مسرعًا بقدر ما أسعفته السيارة الأخرى.

«ولو نظرت إلى وجه خالتها»، نشجت نانسي مخبرة توم العجوز في الحديقة، بعدما وصل الطبيب واستُقبل في الغرفة الهادئة، «ولو نظرت إلى وجه خالتها، لرأيت أن ما يأكلها لم يكن واجبًا، فلن ترتجف يداك ولن تبدو عيناك كأنها تحاول إبعاد ملك الموت، إن كنت تؤدي واجبك فحسب يا سيد توم، لن تفعل، لن تفعل».

«هل إصابتها بليغة؟»، تهدج صوت توم العجوز.

«لا أدري»، نشجت نانسي، إنها ترقد بيضاء وساكنة كأنها ميتة، «لكن الآنسة پولي قالت إنها ليست كذلك، ولا بد أن الآنسة پولي تعرف، لو كان لأحد أن يعرف. فقد ظلت تستمع إلى نبضات قلبها وأنفاسها وتجسها».

«ألا يمكنك إخباري بشيء نفعله حتى... حتى...»، تشنج وجه توم العجوز.

ارتخت شفتا نانسي قليلًا.

«أتمنى لو استطعت إيجاد شيء ما، بل شيء ما جيد وقوي يا سيد توم. اللعنة حين أتخيلها تدهس فتاتنا الصغير لقد كرهت هذه الأشياء النتنة التي يفوح منها البلاء دومًا، حقًا».

«ولكن أين أصيبت؟».

«لست أدري، لست أدري»، ناحت نانسي، «ثمة جرح صغير في رأسها المبارك الصغير، لكنه ليس عميقًا، ذلك العمق، كما قالت الآنسة پولي. وقالت إنها تخشى أنها أصيبت في داخلتها!».

لمعت عينا توم العجوز.

«أظنك تعنين داخلية يا نانسي»، قال بجفاف، «إن إصابتها داخلية. فليعم البلاء على هذه السيارات! غير أني لا أظن الآنسة پولي تستخدم هذه الكلمة البتة».

«ها؟ لست أدري، لست أدري»، ناحت نانسي بهزة من رأسها وهي تذهب، «يبدو أنني لا أستطيع الوقوف حتى يخرج الطبيب من هناك. أتمنى لو كان عندي غسيل أغسله، أكبر كومة غسيل رأيتها، حقًا!»، بكت وهي تهز رأسها بيأس.

لم يكن لدى نانسي سوى القليل لتخبر به توم العجوز حتى بعد مغادرة الطبيب، إذ تبين أنه ما من عظام مكسورة، وكان للجرح عواقب بسيطة. لكن الطبيب بدا حزينًا جدًا وهز رأسه ببطء وقال إن الوقت وحده من سيحكم. وصار وجه الآنسة پولي بعد رحيله أكثر شحوبا وإنهاكًا من ذي قبل. لم تستعد المريضة وعيها كاملًا،

لكنها بدت مرتاحة في رقودها الآن بقدر ما يمكن توقعه، وأرسل في طلب ممرضة متمرسة، وستأتي تلك الليلة.

هذا كل ما لدى نانسي، التي استدارت باكية وعادت إلى مطبخها.

فتحت بوليانا عينيها في وقت ما من بعد ظهيرة اليوم التالي وأدركت مكانها.

«يا إلهي، ما الأمر يا خالتي بولي؟ ألم يطلع النهار؟ لماذا لا أنهض؟» قالت، «آه يا خالتي بولي، لا أستطيع النهوض»، بكت متهاوية على وسادتها بعد محاولة فاشلة لرفع نفسها.

«كلا يا عزيزتي، لا تحاولي، ليس الآن»، طمأنتها خالتها بسرعة بهدوء.

«ولكن ما الأمر؟ لماذا لا أنهض؟».

سألت عينا الآنسة بولي سؤالًا متوجعًا للمرأة التي تعتمر القبعة البيضاء الواقفة عند النافذة خارج مرمى نظر بوليانا.

هزت المراة رأسها.

«أخبريها»، قالت شفتاها.

تنحنحت الآنسة بولي وحاولت ابتلاع غصة كانت ستمنعها من الحديث.

«لقد دهستك سيارة البارحة يا عزيزتي، ولكن لا تفكري بهذا الآن، تريد منك خالتك أن ترتاحي وتعودي للنوم ثانية».

«دهست؟ أوه، أجل، لقد جربت»، كانت عينا پوليانا محتارتين، فرفعت يدها إلى جبهتها، «أوه، إنها ملفوفة وتؤلم».

«أجل يا عزيزتي ولكن لا عليك، ارتاحي فحسب».

«ولكنني أشعر أنني مضحكة جدًا وقبيحة جدًا يا خالتي بولي، ورجليّ غريبتان جدًا، سوى أنهما لا تشعران بشيء بتاتًا».

بنظرة استعطاف إلى الممرضة، جهدت الآنسة پولي بالنهوض وابتعدت، فتقدمت الممرضة سريعًا.

«دعيني أتحدث إليك الآن»، قالت بمرح، «أنا واثقة أن تعارفنا قد تأخر، وسأعرفك بنفسي؛ أنا الآنسة هنت، وقد جئت لمساعدة خالتك في الاعتناء بك، وأول ما سأفعله أن أطلب منك أن تبتلعي هذه الأقراص البيضاء الصغيرة».

اتسعت عينا پوليانا قليلًا.

«لكني لا أريد أن يُعتنى بي، أعني لوقت طويل. أود النهوض. تعلمين أني أذهب للمدرسة، ألا يمكنني الذهاب إلى المدرسة غدًا؟»، وعلا صوت بكاء مكتوم من عند النافذة حيث وقفت الآنسة پولي.

«غدًا؟»، ابتسمت الممرضة بمرح، «لن أسمح لك بالخروج سريعًا هكذا يا آنسة پوليانا، ابلعي هذه الأقراص الصغيرة من أجلي فحسب، ولنر ما الذي ستفعله».

«حسن»، وافقت پوليانا بشيء من الشك، «ولكن علي الذهاب للمدرسة بعد غد، فلدي امتحانات كما تعلمين».

ثم تحدثت ثانية عن المدرسة وعن السيارة وعن ألم رأسها. غير أن صوتها سرعان ما صار صمتًا بسرعة بفضل التأثير الرائع للأقراص البيضاء التي ابتلعتها.

الفصل الرابع والعشرون
جون پندلتن

لم تذهب پوليانا إلى المدرسة «غدًا»، ولا بعد غد. لم تعِ پوليانا هذا على أية حال، إلا حين تأتي فترةٌ قصيرة من الوعي الكامل أحيانًا بأسئلة ملحة على شفتيها. ولم تدرك أي شيء بوضوح تام حتى مر أسبوع، ثم زالت الحمى، وقل الألم شيئًا ما، وعاد الوعي الكامل إلى عقلها. ثم كان لا بد من قص ما حدث على مسمعيها ثانية.

«أنا مصابة إذن ولست مريضة»، تنهدت في النهاية، «حسن، أنا سعيدة لذلك».

«سعيدة يا پوليانا؟»، سألت خالتها التي تجلس قرب السرير.

«أجل، إنني أؤثر كثيرًا أن تكسر ساقي مثل السيد پندلتن، على أن يصيبني المرض المزمن كالسيدة سنو، فالساق المكسورة تشفى، لكن المرض المزمن لا يفعل».

نهضت الآنسة پولي، التي لم تذكر شيئًا عن كسر الساق البتة، ثم سارت نحو طاولة الزينة الصغيرة في طرف الغرفة. كانت ترفع

غرضًا بعد آخر، ثم تعيده بشرود على غير حزمها المعهود. لم يكن وجهها هائمًا على الإطلاق بل كان منهكًا وشاحبًا.

على السرير، رقدت پوليانا تنظر إلى حزمة الألوان المتراقصة على السقف، التي تعكسها الموشورات الموضوعة على النافذة.

«أنا سعيدة أنني لم أصب بالجدري أيضًا»، غمغمت برضا، «سيكون ذاك أسوأ من النمش. وأنا سعيدة أنه ليس السعال الديكي، فقد أصبت مرة بهذا وهو مريع. وأنا سعيدة أنني لم أصب بالتهاب الزائدة ولا الحصبة، لأنها معدية، أعني الحصبة، ولن يكون بوسعك البقاء هنا».

«تبدين سعيدة بأشياء كثيرة جدًا يا عزيزتي»، تلعثمت الخالة پولي، واضعة يدها على حنجرتها كأن ياقتها تخنقها.

ضحكت پوليانا بهدوء.

«أنا كذلك، لقد فكرت بها، بالكثير منها طوال الوقت الذي قضيته في النظر إلى قوس قزح. أحب قوس قزح، وأنا سعيدة أن السيد پندلتن أعطاني هذه الموشورات! كما أنني سعيدة بأشياء لم أقلها بعد، لست أدري لكنني سعيدة جدًا بإصابتي».

«پوليانا!».

ضحكت پوليانا بهدوء ثانية، وأدارت عينين متلألئتين نحو خالتها «حسن، منذ أن أصبت دعوتني عزيزتي مرارًا كثيرة كما تعرفين، ولم تفعلي هذا قبلًا، وأنا أحب أن يدعوني ناس يخصونني بـ

«عزيزتي». بعض السيدات المحسنات دعونني بهذا وكان هذا لطيفًا جدًا بالطبع، لكنه ليس لطيفًا بقدر ما إن كانت من ناس يخصوني، مثلك. أوه يا خالتي بولي، أنا سعيدة أنك قريبتي!».

لم تجب الخالة بولي، وكانت يدها على حلقها ثانية وعيناها مغرورقتين بالدمع. استدارت وخرجت مسرعة من الغرفة من الباب الذي دخلت منه الممرضة.

ذهبت نانسي بعد ظهر هذا اليوم إلى توم العجوز الذي كان ينظف عدة الخيول في الحظيرة، وكانت عيناها ذاهلتين.

«خمن ما حدث يا سيد توم»، شهقت، «لن تستطيع التخمين ولو بعد ألف سنة، لن تستطيع».

«أحسب أني لن أجرب إذن»، أجاب الرجل عابسًا، «خاصة أن عمري لم يبق فيه عشر سنوات على أية حال، ربما، من الأفضل أن تقولي ذلك أنت يانانسي».

«حسن، أنصت من تظنه يجلس في الحجرة الشمسية مع السيدة؟ من؟».

هز توم العجوز رأسه نفيًا.

«ما من جواب»، قال.

«أجل، ثمة جواب، وسأخبرك. إنه جون پندلتن».

«ويحك! إنك تمزحين يا فتاة!».

«كلا، لا أفعل، لقد أدخلته بنفسي بعكازيه وكل شيء والعربة

التي جاء بها تنتظره عند الباب هذه اللحظة، كأنها ليس هو الشخص العجوز الشكس سريع الغضب الذي لا يتحدث إلى أحد البتة! فكر بالأمر يا سيد توم، في زيارته لها!».

«حسن، ولم لا؟»، سأل الرجل العجوز بشيء من الغضب.

«كأنك لا تعرف أفضل مني»، تهكمت.

«ماذا؟».

«أوه، لا تكن ساذجًا»، أجابت بازدراء ساخر، «ألست من أثار فضولي في المقام الأول؟».

«ماذا تعنين؟».

نظرت نانسي عبر باب الحظيرة المفتوح إلى البيت، واقتربت خطوة من الرجل العجوز.

«اسمع، ألست من أخبرني أن للآنسة پولي عاشقًا في بادئ الأمر؟ حسن، لقد جمعت اثنين مع اثنين يومًا وكان الناتج أربعة، ولكن تبين أنه خمسة وليس أربعة!».

بإيماءة لامبالية استدار توم واستأنف عمله، «إن أردت الحديث معي فعليك أن تتكلمي بمنطق ووضوح»، قال نكدًا، «لم أكن ماهرًا بالأرقام في حياتي».

ضحكت نانسي. «حسن، إليك الأمر»، شرحت، «لقد سمعت شيئًا جعلني أظنه والآنسة پولي عاشقين».

«السيد پندلتن؟!»، اعتدل توم العجوز.

«أجل، عرفت الآن أنه ليس هو. بل كان يحب أم الطفلة المباركة، ولهذا أراد... ولكن لا تهتم لهذا الجزء»، أجابت على عجل متذكرة في الوقت المناسب وعدها لپوليانا بألا تفشي رغبة السيد پندلتن بقدومها للعيش معه، «حسن، كنت أسأل الناس عنه قليلًا، منذئذ، ووجدت أنه والآنسة پولي لم يكونا على وفاق لسنوات، وأنها تكرهه بقدر السم بسبب نميمة سخيفة جمعتهما معًا حين كانت في الثامنة عشرة أو العشرين».

«أجل، أتذكر»، هز توم العجوز رأسه، «حدث ذلك بعد ثلاث سنوات أو أربع من زواج الآنسة جيني وسفرها مع الشاب الآخر. عرفت الآنسة پولي بذلك طبعًا وشعرت بالأسى من أجله، فحاولت أن تكون لطيفة معه، ولعلها بالغت في ذلك قليلًا، فقد كرهت الكاهن الشاب الذي أخذ أختها كرهًا شديدًا. على أية حال أخذ أحدهم يثير المتاعب، فقد قالوا إنها تلاحقه».

«هي تلاحق رجلًا؟»، قالت نانسي مستنكرة.

«أعرف ذلك، لكنهم فعلوا»، قال توم العجوز، «ولن تحتمل فتاة ذلك أيًا كان طبعها. ثم في ذلك الوقت جاء حبيبها والمشكلة معه، وبعد ذلك أغلقت على نفسها مثل محارة ولم تختلط بأحد لبعض الوقت، وبدا أن قلبها تحول في أعماقه إلى المرارة».

«أجل، أعرف. لقد سمعت بهذا الآن»، قالت نانسي، ولهذا ذهلت حين رأيته عند الباب، هو الذي لم تتحدث إليه لسنوات لكني أدخلته وذهبت لأخبرها».

«وماذا قالت؟»، حبس توم العجوز أنفاسه.

«لا شيء في البداية، وظلت هادئة جدًا فظننتها لم تسمع. وأوشكت على أن أكرر قولي عندما تحدثت بهدوء قائلة أخبري السيد بندلتن أنني سأنزل في الحال. وجئت وأخبرته ثم خرجت وأخبرتك»، قالت نانسي ملقية نظرة أخرى نحو المنزل.

«أف!»، نخر توم العجوز وعاد لعمله ثانية.

انتظر السيد جون بندلتن، في الحجرة الشمسية الرسمية لعزبة هارنغتن، حتى نبهته خطوة رشيقة بمقدم الآنسة بولي، وحين حاول النهوض أومت له معترضة، لكنها لم تمد له يدها وكان وجهها متحفظًا باردًا.

«لقد أتيت للسؤال عن بوليانا»، قال من فوره بقليل من الفظاظة.

«شكرًا لك، إنها على الحال نفسه»، قالت الآنسة بولي.

«وما حالها؟ ألن تخبريني بحالها؟»، قال بصوت متهدج هذه المرة.

تشنج وجه المرأة ألمًا.

«لا أستطيع. ليتني أستطيع».

«أتعنين أنك لا تعرفين؟».

«أجل».

«لكن... الطبيب...».

«يبدو الطبيب وارن حائرًا، إنه يراسل مختصًا في نيويورك، وقد رتبا لاستشارة فورية».

«ولكن... ولكن أين إصابتها التي تعرفين؟».

«جرح بسيط في الرأس، وكدمة أو اثنتان، وإصابة في العمود الفقري يبدو أنها تسببت بشلل من الحوض وما أسفله».

صرخ الرجل صرخة خفيضة وساد صمت قصير، ثم سأل بصوت أجش «وكيف تتقبل پوليانا الأمر؟».

«إنها لا تعلم حالها البتة، ولا يمكنني إخبارها».

«لكن لا بد أنها تعلم شيئًا».

رفعت الآنسة پولي يدها إلى ياقتها عند الحنجرة في إيماءة صارت من عاداتها مؤخرًا.

«أوه، أجل إنها تعلم أنها لا تستطيع الحركة، لكنها تظن أن ساقيها مكسورتان، وقد قالت إنها سعيدة أن ساقيها مكسورتين مثلك، بدلًا من إصابتها بالمرض المزمن مثل السيدة سنو. لأن الساق المكسورة تشفى والعلة الأخرى لا تفعل. إنها تتحدث هكذا طوال الوقت حتى أخذت أتمنى الموت».

رأى الرجل من غشاوة الدمع في عينيه الوجه المنهك أمامه، المتألم من الانفعال، فعاد بذاكرته لاإراديًا إلى ما قالته پوليانا حين توسل إليها آخر مرة كي تذهب للعيش معه، «أوه، لا يمكنني ترك الخالة پولي الآن!».

وجعلته هذه الذكرى يسأل بلطف شديد ما إن استطاع التحكم بصوته، «أتساءل إن كنت تعلمين يا آنسة هارنغتن أنني حاولت جاهدًا لأجعل پوليانا تأتي للعيش معي».

«معك؟ پوليانا؟!».

أجفل الرجل قليلًا لنبرة صوتها، لكن صوته ظل باردًا حياديًا حين تحدث ثانية، «أجل، لقد أردت تبنيها قانونيًا كما تعلمين وجعلها وريثتي طبعًا».

استرخت المرأة في الكرسي المقابل قليلًا، فقد تخيلت فجأة المستقبل المشرق الذي يعنيه هذا التبني لپوليانا، وتساءلت لو كانت پوليانا أكبر عمرًا وأكثر جشعًا فيغريها مال هذا الرجل ومكانته.

«إنني مولع بپوليانا» واصل الرجل، «إنني مولع بها لأجلها ولأجل أمها أيضًا، وأنا مستعد لمنح پوليانا الحب الذي ظل مخزونًا خمسًا وعشرين سنة».

«الحب؟»، تذكرت الآنسة پولي فجأة لماذا أخذت هذه الطفلة في بادئ الأمر، ومع هذه الذكرى جاءت ذكرى كلمات پوليانا التي قالتها هذا الصباح «أحب أن يدعوني الناس الذي أنتمي اليهم بعزيزتي». وقد كان حب مخزون خمس وعشرين سنة ما عرض على هذه الفتاة الصغيرة المتعطشة للحب، وهي كبيرة فيغريها الحب! أدركت الآنسة پولي ذلك بقلب مفطور، وبقلب مفطور أيضًا أدركت شيئًا آخر؛ فقد أدركت وحشة مستقبلها دون پوليانا.

«ثم؟»، قالت، وابتسم بحزن الرجل الذي أدرك ضبط الذات الظاهر في قسوة النبرة.

«لن تأتي»، أجاب.

«لماذا؟».

«لن تتركك. لقد قالت إنك كنت عطوفة عليها، وأرادت البقاء معك. وقالت إنها تظنك تريدين منها البقاء»، قال وهو ينهض.

لم ينظر نحو الآنسة پولي بل أدار وجهه بحزم نحو الباب، لكنه سمع سريعًا خطوة رشيقة إلى جانبه ووجد يدًا مرتعشة ممدودة نحوه.

«حين يأتي المختص وأعلم شيئًا أكيدًا حول پوليانا، سأبلغك»، قالت بصوت متهدج «إلى اللقاء، وشكرًا لقدومك، ستكون پوليانا مسرورة».

الفصل الخامس والعشرون

لعبة الانتظار

هيأت الآنسة پولي پوليانا لزيارة المختص، في اليوم الذي أعقب زيارة جون پندلتن لعزبة هارنغتن.

قالت بلطف «عزيزتي پوليانا، لقد قررنا أننا نريد طبيبًا آخر يراك مع الطبيب وارن، طبيبًا قد يخبرنا شيئًا جديدًا نفعله لنساعدك في التعافي أسرع كما تعرفين».

أشرق وجه پوليانا فرحًا.

«الطبيب تشلتن؟! أوه أحب أن أرى الطبيب تشلتن يا خالتي پولي! لقد أردت رؤيته طوال الوقت، لكني خشيت أنك لا تريدين، لأنه رآك في الحجرة الشمسية ذلك اليوم كما تعلمين. لذا لم أرغب بقول شيء، لكني سعيدة جدّ أنك تريدينه».

شحب وجه الخالة پولي، ثم احمر ثم شحب ثانية، لكنها حين ردت أظهرت بوضوح شديد أنها تحاول التحدث بخفة ومرح.

«أوه، لا، يا عزيزتي! لم أعنِ الطبيب تشلتن بتاتًا. إنه طبيب

جديد، طبيب مشهور جدًا من نيويورك يعرف كثيرًا عن إصابات كإصابتك».

عبس وجه بوليانا.

«لا أصدق أنه يعرف نصف ما يعرف الطبيب تشلتن».

«أوه، بلى يعرف، أنا واثقة يا عزيزتي».

«لكن الطبيب تشلتن هو من داوى ساق السيد بندلتن المكسورة، يا خالتي بولي. إن كنت لا تمانعين كثيرًا، أود أن يراني الطبيب تشلتن حقًا، أود ذلك!».

اكفهر وجه الآنسة بولي، ولم تقل شيئًا قط للحظات، ثم قالت بلطف، رغم أنها قالته بلمسة من حزمها الصارم القديم «لكني أمانع يا بوليانا، أمانع كثيرًا. سأفعل أي شيء من أجلك يا عزيزتي، ولكن لأسباب لا أكترث للحديث عنها الآن، لا أرغب بطلب الطبيب تشلتن في هذه الحالة. وصدقيني أنه لا يعرف الكثير عن مشكلتك كما يعرف هذا الطبيب العظيم، الذي سيأتي من نيويورك غدًا».

لم تزل بوليانا غير مقتنعة.

«ولكن يا خالتي بولي، إن أحببت الطبيب تشلتن...».

«ماذا يا بوليانا؟»، كان صوت الخالة بولي، وقد احمرت وجنتاها كثيرًا.

«أعني إن أحببت الطبيب تشلتن ولم تحبي الطبيب الآخر»، تنهدت بوليانا، «فسيحدث فرقًا في ما سيفعله، وأنا أحب الطبيب تشلتن».

دخلت الممرضة الغرفة في تلك اللحظة، فنهضت الخالة بولي بغتة، وعلى وجهها راحة.

«أنا آسفة جدًا يا بوليانا»، قالت بشيء من الجفاف، «لكني أخشى أن عليك أن تتركيني أحكم هذه المرة، كما أن الأمر مرتب سلفًا، فطبيب نيويورك قادم غدًا».

ولكن ما حدث أن الطبيب لم يأت غدًا، فقد وصلت برقية في اللحظة الأخيرة تبلغهم بتأجيل اضطراري راجع لمرض مفاجئ أصاب الأخصائي نفسه. هذا جعل بوليانا تجدد التماسها ليحل الطبيب تشلتن محله «وهو ما سيكون سهلًا كما تعلمين».

لكن الخالة بولي هزت رأسها نفيًا كما من قبل «لا يا عزيزتي» بحزم، ولكن مع تأكيد ولهفة على أنها ستفعل أي شيء، أي شيء عدا هذا لإسعاد بوليانا العزيزة.

وبمرور أيام الانتظار واحدًا إثر آخر، تبين أن الخالة بولي فعلت كل شيء ما في وسعها لأسعاد ابنة أختها إلا ذلك.

«لم أكن لأصدق وما كنت لتجعلني أصدق»، قالت نانسي للعجوز توم ذات صباح، «ما من دقيقة في اليوم لا تتجول الآنسة بولي فيها بانتظار فعل شيء لإسعاد تلك الطفلة المباركة، فقد أدخلت القطة وهي التي لم تسمح بهذا قبل أسبوع، لا مقابل الحب ولا مقابل المال، وها هي تجعلها الآن تتمشى على الفراش لأن هذا يسعد الآنسة بوليانا.

وإن لم تفعل هذا فهي تحرك الزجاجات الصغيرة المتدلية من

نافذة لأخرى في الغرفة، فتصنع الشمس رقصة قوس قزح، كما تسميها الطفلة المباركة. وأرسلت تموثي إلى مشتل كوب ثلاث مرات لإحضار الزهور المنعشة، إلى جانب كل باقات الورود التي ابتيعت من أجلها. ثم ألم أجدها ذلك اليوم جالسة أمام الفراش والممرضة تصفف شعرها، والآنسة پوليانا تراقب وتملي من الفراش وعيناها تشعان سعادة؟ وأقسم بالرب إن الآنسة پولي ستصفف شعرها على هذا النحو كل يوم لإسعاد الطفلة المباركة».

ضحك توم العجوز.

«يدهشني أن الآنسة پولي تبدو جميلة بإنزال هذه الخصل على جبينها»، قال بجدية.

«طبعًا تفعل، فهي تبدو مثل الآخرين الآن. إنها...»، ردت نانسي باستهجان.

«حاذري يا نانسي»، قاطعها الرجل العجوز بتكشيرة، «تعلمين ما قلتِ حين أخبرتك أنها كانت جميلة مرة».

رفعت نانسي كتفيها.

«أوه، إنها جميلة، طبعا لكني أقول إنها ليست المرأة نفسها، مع الشرائط ووشاح الدانتيلا الذي تجبرها الآنسة پوليانا على لفه حول عنقها».

«لقد أخبرتك بذلك»، هز الرجل رأسه، «وأخبرتك أنها ليست مسنة».

ضحكت نانسي.

«أقول إنها لم تكن يومًا بهذا الجمال قبل قدوم پوليانا. قل لي يا سيد توم من كان العاشق؟ لم أعرف هذا بعد، لم أعرفه، لم أعرفه!».

«حقا؟»، سأل الرجل العجوز وعلى وجهه نظرة غريبة، «حسن، أظنك لن تعرفي إذن... مني».

«أوه، هيا يا سيد توم»، توسلت الفتاة، «فليس هنا الكثير من الناس الذين أستطيع سؤالهم كما تعرف».

«ربما، غير أن ثمة واحدًا لن يجيب»، ابتسم توم العجوز ثم انطفأ بريق عينيه بغتة، «كيف حالها اليوم، حال الفتاة الصغيرة؟».

هزت نانسي رأسها وقد اكفهر وجهها أيضًا.

«على الحال نفسها يا سيد توم، ما من فرق بين ما أراه أو يراه غيري كما أظن. إنها لا تفعل شيئًا سوى الاستلقاء فحسب، وتنام وتتكلم وتحاول الابتسام والسرور، لأن الشمس تغيب، ويطلع القمر، أو شيء من هذا القبيل. وهذا كافٍ لجعل قلبك ينفطر ألمًا».

«أعلم، إنها اللعبة بارك الرب قلبها العذب»، هز توم العجوز وهو يطرف بعينيه.

«لقد أخبرتك عن اللعبة إذن؟».

«أجل، أخبرتني منذ زمن بعيد»، تردد الرجل ثم واصل وشفتاه ترتعشان قليلًا، «كنت أتذمر يومًا لأني محني الظهر محدودبه. وماذا تظنين أن الفتاة الصغيرة قالت لي؟».

«ليس بوسعي التخمين، فلست أرى أنها استطاعت العثور على شيء يسرك في هذا».

«بل فعلت. قالت إن علي أن أسر على أية حال بأنني لا أضطر للانحناء كثيرًا لإزالة الأعشاب، إذا كنت محني الظهر سلفًا».

ضحكت نانسي ضحكة حزينة.

«لست مستغربة في النهاية، إذ لك أن تعرف أنها ستجد شيئًا ما. لقد أخذنا نلعب اللعبة منذ البداية لأنه لم يكن ثمة أحد آخر تلعبها معها، رغم أنها أخبرت خالتها عنها».

«الآنسة بولي؟!».

ضحكت نانسي، «ظننت لك رأيًا مختلفًا تمامًا عن رأيي بالسيدة»، حاصرته نانسي.

فتجمد توم العجوز.

«لقد ظننته أمرًا غريبًا عليها فحسب»، قال بشيء من الإباء.

«كانت كذلك حينئذ»، أجابت نانسي، «لكني لن أقول هذا الآن، إذ سأصدق أي شيء من السيدة حتى إن قالت إنها ستلعبها بنفسها».

«ولكن ألم تخبرها الفتاة الصغيرة بالأمر قط؟ لقد أخبرت الآخرين كلهم كما أظن، فقد سمعت باللعبة في كل مكان منذ إصابتها»، قال توم.

«لم تخبر الآنسة بولي»، أجابت نانسي، «أخبرتني الآنسة بوليانا

منذ وقت طويل أنها لم تستطع إخبارها لأن خالتها لم تقبل حديثها عن أبيها، وهذه اللعبة لعبة أبيها وكان عليها الحديث عنه إن أرادت إخبارها، لذا فلم تخبرها قط».

«أوه، لقد فهمت، فهمت»، هز توم العجوز رأسه ببطء، «فقد كانوا كلهم يبغضون الكاهن الشاب، لأنه أبعد جيني عنهم. والآنسة پولي، وقد كانت صغيرة، لم تغفر له قط، إذ كانت تحب الآنسة جيني تلك الأيام. فهمت، فهمت، إنها مشكلة كبيرة»، تنهد وهي تبتعد.

«أجل، لقد كانت حقًا»، تنهدت نانسي بدورها وهي تعود إلى المطبخ.

لم تكن أيام الانتظار هذه هينة على أحد، وحاولت الممرضة أن تبدي المرح لكن عينيها قلقتان، وظهر على الطبيب نفاد الصبر والقلق، والآنسة پولي قالت القليل. ولكن التموجات الرقيقة لشعرها المنسدل حول وجهها والدانتيلا الأنيقة حول عنقها لم تستطع إخفاء حقيقة نحولها وشحوبها. أما پوليانا، فقد ربتت على الكلب ومسدت شعر القطة الصغيرة، وأعجبت بالزهور وأكلت الفاكهة والهلام المرسلة إليها، وردت برسائل مرحة لا تحصى على رسائل الحب التي تجلب إلى سريرها. لكنها صارت نحيلة وشاحبة ولم يفعل نشاط اليدين والذراعين الصغيرة المسكينة وحماسها إلا تأكيد الجمود المحزن للقدمين والساقين، التي كانت نشطة يومًا وترقد الآن بحزن تحت الأغطية.

أما اللعبة فقد أخبرت پوليانا نانسي هذه الأيام أنها ستكون سعيدة للغاية حين تستطيع الذهاب للمدرسة ثانية، وأن تذهب لترى السيدة سنو، ولزيارة السيد پندلتن، وأن تذهب في جولة مع الطبيب تشلتن. ولم يبد أنها تدرك أن هذه السعادة ستكون في المستقبل، لا الحاضر. غير أن نانسي أدركت ذلك وبكت حين كانت وحدها.

الفصل السادس والعشرون

باب موارب

جاء الطبيب ميد، الأخصائي، بعد أسبوع من يوم موعده الأول. كان رجلًا طويلًا عريض المنكبين، له عينان رماديتان رقيقتان وابتسامة مرحة. أحبته پوليانا في الحال وأخبرته بذلك.

«إنك تشبه طبيبي كثيرًا كما ترى»، أضافت بحماس.

«طبيبك؟»، نظر الطبيب ميد بدهشة واضحة إلى الطبيب وارن، الذي وقف يتحدث مع الممرضة على مبعدة منه. كان الطبيب وارن رجلًا قصيرًا بني العينين وله لحية بنية مدببة.

«أوه، هذا ليس طبيبي»، ابتسمت پوليانا وقد حدست ما خطر له، «الطبيب وارن هو طبيب الخالة پولي، وطبيبي هو الطبيب تشلتن».

«أوه»، قال الطبيب ميد بشيء من الغرابة وعيناه تنظران إلى الآنسة پولي التي ذهبت مسرعة وقد احمر وجهها.

«أجل»، ترددت پوليانا ثم واصلت بصدقها المعتاد «لقد أردت الطبيب تشلتن طوال الوقت كما ترى، لكن الخالة پولي أرادتك،

وقالت إنك تعلم أكثر من الطبيب تشلتن، عن كسور الساق مثل حالتي. وإن كنت كذلك فبوسعي طبعًا أن أكون سعيدة، فهل هذا صحيح؟».

مر شيء سريع بوجه الطبيب لم تستطع پوليانا إدراك كنهه تمامًا.

«يمكن للزمن وحده أن ينبئنا بذلك يا فتاتي الصغيرة»، قال بلطف ثم أدار وجهًا حزينًا نحو الطبيب وارن الذي اقترب من الفراش.

قال الجميع بعد ذلك إن القطة من فعل ذلك. لو أن فلَفي لم تقحم برثنًا وأنفًا لجوجين على باب پوليانا المفتوح لما انفتح الباب بهدوء حتى صار مواربًا بقدر قدم، ولولا أن فتح الباب لما سمعت پوليانا كلمات خالتها.

وقف الطبيبان والممرضة والآنسة پولي يتحدثون في الردهة، وفي غرفة پوليانا قفزت فلَفي على السرير بمواء يخرخر سعادة حين سُمعت بوضوح وبقوة كلمات الخالة پولي المتألمة.

«ليس ذلك، ليس ذلك أيها الطبيب. أنت لا تعني أن الطفلة لن تمشي ثانية؟!».

فوقعت البلبلة عندئذ. إذ جاء صوت پوليانا المذعور من غرفة النوم «خالتي پولي، خالتي پولي»، ثم رأت الآنسة پولي باب الغرفة المفتوح وأدركت أن كلامها سُمع فناحت نواحًا خفيضًا قصيرًا، سقطت مغشيًا عليها لأول مرة في حياتها.

قالت الممرضة بغصة «لقد سمعت»، وسارت نحو الباب المفتوح وظل الطبيبان مع الآنسة پولي، واضطر الطبيب ميد للبقاء فهو الذي أمسك بالآنسة بولي عند سقوطها، ووقف قربه الطبيب وارن عاجزًا. وحين صاحت پوليانا بقوة مرة أخرى وأغلقت الممرضة الباب تنبه الطبيبان، متبادلين النظرات اليائسة، إلى الواجب الملح في إعادة الوعي التعس للمرأة بين ذراعي الطبيب نيد.

وجدت الممرضة في غرفة پوليانا قطة رمادية تخرخر على الفراش بلا جدوى محاولة جذب انتباه الفتاة الصغيرة الشاحبة الوجه الذاهلة العينين.

«من فضلك يا آنسة هنت، أريد خالتي پولي، أريدها حالًا، بسرعة من فضلك».

أغلقت الممرضة الباب وتقدمت على عجل، ووجهها شاحب للغاية.

«لا يمكنها القدوم هذه اللحظة يا عزيزتي، لكنها ستفعل لاحقًا، ما الأمر؟ هل يمكنني إحضار شيء لك؟».

هزت پوليانا رأسها نفيًا.

«ولكني أود معرفة ما قالته لتوها، هل سمعتِها؟ أريد خالتي پولي، لقد قالت شيئًا وأريد إخبارها أنه ليس صحيحًا».

حاولت الممرضة أن تتكلم ولكن الكلمات لم تخرج، وشيء في وجهها زاد الذعر في عيني پوليانا.

«لقد سمعتها يا آنسة هنت، إنه صحيح، إنه صحيح. أنت لا تقصدين أنني لن أمشي ثانية».

«اهدئي اهدئي يا عزيزتي. لا، لا»، غصت الممرضة، «لعله لا يعرف، لعله مخطئ. ثمة الكثير من الأمور التي قد تحدث كما تعلمين».

«لكن الخالة بولي قالت إنه يعرف، قالت إنه يعرف أكثر من أي أحد آخر عن كسر الساق مثل كسري».

«أجل، أجل. أعلم يا عزيزتي. لكن كل الأطباء يخطئون أحيانًا. لا تفكري بالأمر أكثر الآن فحسب، أرجوك لا تفعلي يا عزيزتي».

بسطت بوليانا ذراعيها بقوة.

«لكني لا أستطيع إلا أن أفكر به»، نشجت، «فهذا كل ما لدي لأفكر به. يا إلهي يا آنسة هنت، كيف سأذهب إلى المدرسة أو لرؤية السيد بندلتن أو السيدة سنو او أي أحد؟»، حبست نفَسها ونشجت بقوة للحظة، ثم توقفت فجأة ورفعت نظرها وقد ملأ عينيها ذعر جديد، «آه يا آنسة هنت، إن لم أستطع السير ثانية فكيف لي أن أسعد بأي شيء؟».

لم تعلم الآنسة هنت بلعبة السعادة، لكنها عرفت أن عليها تهدئة مريضتها حالًا. ورغم قلقها وانفطار قلبها لم تقف مكتوفة اليدين، فوقفت قرب السرير وقد جلبت المسحوق المهدئ.

«كفى، كفى يا عزيزتي. خذي هذا الآن»، هدأتها، «وسترتاحين

كثيرًا وسنرى ما يمكن عمله عندئذ. كثيرًا ما تكون الأمور ليست بالسوء الذي تبدو عليه كما تعلمين».

أخذت پوليانا الدواء مذعنة ورشفت الماء من الكأس في يد الآنسة هنت.

«أعلم، هذا يبدو شبيهًا بالأمور التي اعتاد أبي قولها»، تلعثمت پوليانا وهي تطرف لتبعد الدموع، «قال إن في كل شيء شيئًا قد يكون أسوأ، لكني أحسبه لم يسمع قط أنه لن يستطيع المشي ثانية. لا أرى كيف يمكن أي شيء أسوأ من هذا، هل تعرفين؟».

لم تجب الآنسة هنت، إذ لم تثق أن بوسعها الحديث عندئذ.

الفصل السابع والعشرون
زيارتان

أرسلت نانسي لإخبار السيد جون بندلتن برأي الطبيب ميد. فقد تذكرت الآنسة بولي وعدها بأن تجعله على اطلاع دائم من المنزل. وبدا لها أن الذهاب بنفسها أو كتابة رسالة ليسا مقبولين، فخطر لها أن ترسل نانسي.

كانت نانسي سترقص طربًا في وقت ما لهذه الفرصة الرائعة لرؤية شيء من البيت الغامض وسيده، لكن قلبها اليوم حزين ولم تطرب لشيء. بل أنها لم تنظر إلى ما حولها أثناء الدقائق القليلة التي انتظرت فيها قدوم السيد جون بندلتن.

«أنا نانسي يا سيدي»، قالت باحترام، ردًا على الدهشة والتساؤل في عينيه، حين دخل الغرفة، «لقد أرسلتني الآنسة هارنغتن لإخبارك حول الآنسة بوليانا».

«حسن؟».

ورغم الاقتضاب الفظ للكلمة، أدركت نانسي تمامًا القلق الذي يتوارى خلف هذه الـ«حسن؟» القصيرة.

«ليس الأمر حسنًا يا سيد بندلتن»، غصت نانسي.

«لا تعنين أن...» صمت فأحنت رأسها بأسى.

«بلى يا سيدي، يقول إنها لن تستطيع المشي ثانية، أبدًا»، وخيم صمت مطبق في الغرفة للحظة، ثم تحدث الرجل بصوت متهدج من الانفعال.

«يا لها من فتاة صغيرة مسكينة! يا لها من فتاة صغيرة مسكينة!».

نظرت نانسي إليه، ثم خفضت بصرها حالًا. لم تحسب أن جون بندلتن النزق الشكس الصارم يمكن أن يبدو هكذا. ثم تحدث ثانية، بصوت لم يزل خفيضًا متهدجًا.

«إن من القسوة ألا ترقص في ضوء الشمس ثانية! فتاتي الصغيرة التي تشبه الموشور!».

خيم الصمت ثانية، ثم سأل الرجل بغتة «إنها لا تعرف بالأمر بعد طبعًا، أليس كذلك؟».

نشجت نانسي «ولكنها تعلم يا سيدي، وهذا ما يجعل الأمر أصعب. لقد عرفت، اللعنة على تلك القطة! أستميحك عذرًا»، اعتذرت الفتاة بسرعة، «لقد فتحت القطة الباب وسمعتهم الآنسة پوليانا يتحدثون، وهكذا عرفت بالأمر».

«يا للفتاة الصغيرة المسكينة!» تنهد الرجل ثانية.

«أجل يا سيدي، لو رأيتها لقلت هذا يا سيدي»، غصت نانسي، «لم أرها إلا مرتين منذ أن عرفت بالأمر، وقد أوجعتني في كلتا المرتين.

إن الأمر جديد وطارئ عليها كما تعرف، وهي تواصل التفكير طوال الوقت بمزيد من الأشياء التي لن تستطيع فعلها راهنًا. كما يقلقها لأنها لا تستطيع أن تكون سعيدة، أو لعلك لا تعلم بأمر لعبتها»، صمتت نانسي معتذرة.

«لعبة السعادة؟» سأل الرجل، «أوه، أجل لقد أخبرتني عنها».

«أوه، هل فعلت؟! حسن، أظنها أخبرت بها معظم الناس. ولكنها لا تستطيع لعبها بنفسها الآن كما تعلم، وهذا يقلقها. تقول إنها لا تستطيع التفكير بشيء، ولا شيء في ألا تمشي مرة أخرى لتشعر بالسعادة به».

«حسن، ولم عليها ذلك؟!»، رد الرجل بفظاظة.

راوحت نانسي بين قدميها بتوتر «هذا ما شعرت به أنا أيضًا حتى صدف أن خطر لي أن الأمر سيكون أسهل عليها إن وجدت شيئًا، كما تعلم. لذا حاولت تذكيرها».

«حاولت تذكيرها؟ بأي شيء؟»، لم يزل صوت جون پندلتن نافد الصبر غاضبًا.

«بأنها أخبرت الآخرين أن يلعبوها، السيدة سنو والبقية كما تعلم وما قالت لهم أن يفعلوا. لكن الطفلة الصغيرة المسكينة بكت فحسب، وقالت إن الأمر ليس نفسه بطريقة ما. إذ قالت إن إخبار المرضى مرضًا مزمنًا بأن يكونوا سعداء أسهل، لكن الأمر ليس نفسه حين تكون أنت المريض مرضًا مزمنًا وتحاول فعلها. قالت

إنها قالت في نفسها مرة بعد أخرى إنها سعيدة للغاية لأن الآخرين ليسوا مثلها، لكنها تقول طوال الوقت إنها لا تفكر حقًا في أي شيء آخر سوى أنها لا تستطيع المشي ثانية».

صمتت نانسي، لكن الرجل لم يتحدث، بل جلس واضعًا يده على عينيه.

«ثم حاولت تذكيرها بقولها دومًا إن اللعبة تكون أجمل حين تكون صعبة»، استأنفت نانسي بصوت كئيب، «لكنها تقول إن هذا مختلف جدًا، فهي صعبة حقًا. وعلي الذهاب الآن يا سيدي»، قطعت حديثها بغتة.

ترددت قرب الباب ثم استدارت وسألت في خوف «أحسب أنني لا أستطيع إخبار الآنسة بوليانا بأنك رأيت جيمي بين ثانية يا سيدي، أليس كذلك؟».

«لست أدري كيف تستطيعين ذلك إن كنت لم أره»، قال الرجل بشيء من الاقتضاب، «لماذا؟».

«لا شيء يا سيدي، إلا أنني... حسن، هذا أحد الأمور التي كانت تشعر بالاستياء حولها كما تعرف، أعني أنها لا تستطيع أخذه لرؤيتك الآن. قالت إنها أخذته مرة، لكنها تظن أنه لم يبل حسنًا ذلك اليوم، وإنها تخشى أنك لن تراه ممثلًا لحضور الطفل جيدًا في النهاية. لعلك تعرف ما تعني بهذا، لكني لا أعلم يا سيدي».

«أجل، أعلم ما تعنيه».

«حسن يا سيدي، لقد أرادت أن تأخذه ثانية، كما قالت، لتريك أنه طفل رائع حقًا. وهي لا تستطيع الآن! اللعنة على تلك السيارة! أستميحك عذرًا يا سيدي، إلى اللقاء»، وفرت نانسي على عجل.

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى عرف سكان بلدنغزڤِل بأن الطبيب الكبير من نيويورك قال إن پوليانا ويتير لن تمشي ثانية، ولم تكن البلدة مضطربة جدًا هكذا من قبل. إذ عرف الجميع الوجه المنمش الجميل للصغير الذي يلقي التحية مبتسمًا دومًا، وعرف الجميع بأمر اللعبة التي اعتادت پوليانا أن تلعبها. وبدا الظن بأن هذا الوجه الباسم لن يُرى في شوارعهم ثانية، ولن يصرح ذلك الصوت المرح الصغير بالسعادة في الشؤون اليومية أمرًا لايصدق ومستحيلًا قاسيًا. تحدثت النسوة عن الأمر في المطابخ وغرف الجلوس ومن فوق أسوار الأفنية الخلفية، وبكين جهرًا. تحدث الرجال أيضًا في زوايا الشارع وأروقة المتاجر، وبكوا وإن كان سرًا. ولم يخفت الحديث ولا البكاء في أعقاب الخبر نفسه حين بلغتهم قصة نانسي المحزنة بأن پوليانا، في مواجهة ما حدث لها، تبكي لعدم قدرتها على لعب اللعبة، أكثر من أي شيء آخر، وأنها لا تستطيع الشعور بالسعادة بأي شيء.

عندئذ خطرت الفكرة لأصدقاء پوليانا بطريقة ما. في كل الأحوال، وعلى الفور، بدأت سيدة عزبة هارنغتن، مندهشة دهشة عظيمة، باستقبال زيارات من أشخاص تعرفهم وآخرون لا تعرفهم، زيارات من رجال ونساء وأطفال، ومعظمهم ممن لم تظن الآنسة پولي أن ابنة أختها تعرفهم قط.

بعضهم يدخل ويجلس لخمس دقائق أو عشر بتحفز، وبعضهم يقف بطريقة غريبة على عتبات السقيفة عابثين بقبعاتهم أو بحقائبهم، تبعًا لجنس كل منهم.

ويعضهم جلب كتابًا، أو باقة ورد أو أطايب تسيل اللعاب. بعضهم بكى جهرًا، وبعضهم أدار ظهره ونفر أنفه بقلق. لكن الجميع تساءل بقلق عن الفتاة الصغيرة المصابة، وكلهم أرسل لها رسالة، وكانت هذه الرسائل هي التي أثارت الآنسة پولي لتتحرك بعد وقت.

جاء السيد جون پندلتن بادئ الأمر، وجاء بلا عكازيه اليوم.

«لست بحاجة لإخبارك بحجم صدمتي»، قال بشيء من الفظاظة، «ولكن هل يمكن فعل شيء؟».

أومت الآنسة پولي يأسًا.

«أوه، إننا نفعل طبعًا، طوال الوقت. وصف الطبيب ميد علاجات وأدوية محددة قد تساعد، والطبيب وارن يتبع التعليمات بحذافيرها طبعًا. لكن الطبيب ميد قال إنه ما من أمل».

نهض جون پندلتن بغتة، رغم أنه أتى توًا. كان وجهه شاحبًا، وفمه مزمومًا في خطوط صارمة. عرفت الآنسة پولي حق المعرفة، وهي تنظر إليه، لم شعر أنه لا يستطيع البقاء أكثر في حضرتها.

ثم استدار عند الباب «لدي رسالة لپوليانا»، قال، «هلا أخبرتها من فضلك أنني رأيت جيمي بين وأنه سيكون ولدي منذ

الآن. أخبريها أنني ظننتها ستكون سعيدة إن عرفت أني سأتبناه». وللحظة قصيرة فقدت الآنسة پولي ضبط الذات المعتاد، «ستتبنى جيمي بين؟!»، شهقت.

رفع الرجل ذقنه قليلًا.

«أجل، أظن پوليانا ستفهم. هلا أخبرتها أنني ظننتها ستكون سعيدة؟».

«حسن، أجل طبعًا»، تلعثمت الآنسة پولي.

«شكرًا لك»، انحنى جون پندلتن وقد استدار للذهاب.

وقفت الآنسة پولي في المنتصف صامتة مذهولة، ولم تزل تنظر إلى الرجل الذي غادرها لتوه. لم تستطع تصديق ما سمعته أذناها، جون پندلتن يتبني جيمي بين؟ جون پندلتن الثري المستقل الشكس المشهور بكونه بخيلًا وأنانيًا للغاية يتبنى ولدًا صغيرًا، وولدًا كهذا؟

صعدت الآنسة پولي بوجه مندهش إلى غرفة پوليانا.

«أحمل رسالة لك من السيد جون پندلتن يا پوليانا. لقد كان هنا توًا، وقال أن أخبرك بأنه أخذ جيمي بين ليكون ولده الصغير. وقال إنه ظنك ستكونين سعيدة إن عرفت ذلك».

اتقد وجه پوليانا الصغير الحزين بشيء من الفرح، «سعيدة؟ سعيدة؟ حسن، أحسب أنني سعيدة! أوه يا خالتي پولي، لقد أردت بشدة أن أعثر على مكان لجيمي، ويا له مكان رائع! كما أنني سعيدة من أجل السيد پندلتن أيضًا. فسيحصل على حضور الطفل كما ترين».

«على ماذا؟».

احمرت بوليانا خجلًا. فقد نسيت أنها لم تخبر خالتها برغبة السيد بندلتن بتبنيها، وهي لا ترغب حتمًا في إخبارها بهذا الآن وأنها لم تفكر للحظة في تركها، ترك الخالة العزيزة بولي!

«حضور الطفل»، تلعثمت بوليانا متعجلة، «أخبرني السيد بندلتن مرة أن ما يجعل البيت دارًا هو يد امرأة وقلبها أو حضور طفل كما تعلمين، وها قد حصل عليه، على حضور الطفل».

«أوه، لقد فهمت»، قالت الآنسة بولي بلطف شديد، وقد فهمت أكثر مما أدركت بوليانا. فقد فهمت شيئًا من الضغط الذي مورس على بوليانا حين طلب منها جون بندلتن أن تكون حضور الطفل، لتحويل بيته الحجري الرمادي إلى دار. «فهمت»، وختمت قولها بعينين مخضلتين بالدمع.

تعجلت بوليانا، التي خشيت من أن تسأل خالتها مزيدًا من الأسئلة المحرجة، في إبعاد الحديث عن منزل بندلتن وسيده.

«يقول الطبيب تشلتن أيضًا إن جعل البيت دارًا يستلزم يد امرأة وقلبها وحضور طفل كما تعرفين»، عقبت.

التفتت الآنسة بولي مندهشة.

«الطبيب تشلتن؟! كيف تعرفين... ذلك؟!».

«لقد أخبرني بهذا، وكان ذاك حين قال إنه يعيش في غرف فحسب لا دار كما تعرفين».

لم تجب الآنسة بولي، وكانت عيناها تنظران خارج النافذة.

«لذا سألته لماذا لم يحصل عليها، على يد المرأة وقلبها لجعله دارًا؟».

«بوليانا!»، استدارت الآنسة بولي بحدة، وقد احمرت وجنتاها فجأة. «لقد فعلت. وبدا حزينًا جدًا جدًا».

«وماذا قال؟»، سألت الآنسة بولي السؤال كأن قوة ما داخلها تحثها على ألا تفعل.

«لم يقل شيئًا للحظة، ثم قال بصوت خفيض إن المرء لا يحصل عليها دومًا عند طلبها».

خيم صمت قصير، وعادت عينا الآنسة بولي نحو النافذة، ولم تزل وجنتاها زهريتين على نحو غريب.

تنهدت بوليانا. «إنه يريد واحدة على أية حال، أعرف هذا، وأتمنى أن يحصل على واحدة».

«عجبًا يا بوليانا، وكيف تعرفين؟».

«لأنه بعد ذلك في يوم آخر قال شيئًا آخر، وقاله بصوت خفيض أيضًا لكني سمعته. قال إنه سيعطي العالم كله لو أنه حصل على يد امرأة وقلبها. ويلي يا خالتي بولي، ما الأمر؟»، نهضت الخالة بولي على عجل وسارت نحو النافذة.

«لا شيء يا عزيزتي، كنت أغير مكان هذا الموشور»، قالت الآنسة بولي التي توهج وجهها كله.

الفصل الثامن والعشرون

اللعبة وصاحبتها

بعد زيارة السيد پندلتن الثانية جاءت ميلي سنو عصر أحد الأيام. لم يسبق لميلي سنو أن زارت عزبة هارنغتن، فاحمر وجهها وبدت محرجة حين دخلت الآنسة پولي الغرفة.

«لقد جئت... جئت أسأل عن الفتاة الصغيرة»، قالت متلعثمة.

«إنك لطيفة جدًا. إنها على الحال نفسها، كيف حال أمك؟»، أجابت الآنسة پولي بوهن.

«هذا ما جئت أخبرك به، أعني، أن أطلب منك أن تخبري الآنسة پوليانا»، عجلت الشابة منقطعة الأنفاس ومضطربة، «فنحن نظن أن عجز تلك الصغيرة عن المشي لهو أمر بغيض، بغيض للغاية، وبعد كل ما فعلته من أجلنا أيضًا، من أجل أمي كما تعرفين وقد علمتها أن تلعب اللعبة، وما إلى ذلك. وحين سمعنا أنها لا تستطيع لعبها، يا لها من فتاة صغيرة مسكينة! أنا أكيدة أنني لا أرى كيف بوسعها ذلك أيضًا في مثل حالها! ولكن بعدما تذكرنا كل الأمور التي أخبرتنا بها، ظننا أن معرفتها بما فعلته لنا قد يساعدها في ذلك

كما تعرفين، في وضعها، في أمر اللعبة، لأن بوسعها أن تكون سعيدة أعني سعيدة قليلًا»، صمتت ميلي بعجز وبدت كأنها تنتظر الآنسة بولي لتتحدث.

جلست الآنسة بولي تصغي بتهذيب، وفي عينيها حيرة وتساؤل. لقد فهمت نصف ما قيل فحسب، وقد أخذت تفكر أنها رأت ميلي سنو غريبة الأطوار دومًا، لكنها لم تظنها مجنونة. وإلا لما سردت هذا السيل من الكلمات المفككة غير المنطقية الفارغة من المعنى.

وحين صمتت ميلي ملأت الفراغ بقولها «لا أظنني فهمت تمام الفهم يا آنسة ميلي. ما الذي تريدين أن أنقله لابنة أختي؟».

«أجل، إنه... أريد منك أن تخبريها»، أجابت الفتاة باضطراب، «اجعليها تر ما فعلت لأجلنا. لقد رأت بعض الأمور طبعًا، لأنها كانت هناك وقد عرفت أن أمي تغيرت. لكني أود أن تعرف كم تغيرت وتغيرت أنا أيضًا. إنني مختلفة فقد حاولت لعب اللعبة قليلًا».

عبست الآنسة بولي. كانت ستسأل عن قصد ميلي باللعبة، ولكنها لم تجد فرصة، إذ أخذت ميلي تتحدث ثانية بثرثرة وتوتر.

«تعلمين أن ما من شيء كان حسنًا من قبل، في عيني أمي. فقد أرادت دومًا أشياء مختلفة، وحقًا أعلم أنه ليس لأحد أن يلومها على ذلك تبعًا لظرفها. لكنها الآن تجعلني أرفع الستائر، وتهتم بالأشياء ومظهرها ومنامتها وكل ذلك. وقد بدأت بحياكة أشياء صغيرة فعلًا، من مثل الرسن وبطانيات الأطفال من أجل المعارض

والمستشفيات. كما أنها مهتمة وسعيدة جدًا بقدرتها على ذلك. وهذا كله صنيع الآنسة پوليانا كما تعلمين، لأنها أخبرت أمي أن بوسعها أن تسعد بأن لديها يدين وذراعين على أية حال، وهذا ما جعل أمي تتساءل في الحال لم لم تفعل شيئًا بيديها وذراعيها. وهكذا أخذت تفعل شيئًا، أن تحيك كما تعرفين. ولك أن تتخيلي كم صارت الغرفة مختلفة بوجود الغزل الصوفي الأحمر والأزرق والأصفر، والموشورات المعلقة على النافذة التي أعطتها لها. إن الدخول هناك فحسب يجعل المرء يشعر شعورًا أفضل، وقد كنت قبلًا أخشاها بقوة، إذ كانت مظلمة وكئيبة، وأمي كانت تعسة للغاية كما تعلمين.

ولذا فإننا نريد منك، إن أذنت، أن تخبري الآنسة پوليانا أننا نعلم أن هذا كله بفضلها. وقولي من فضلك إننا سعيدتان جدًا أننا نعرفها، وظننا أنها ستكون سعيدة قليلًا إن علمت بذلك. وهذا كل شيء»، تنهدت ميلي ناهضة بسرعة «هل ستخبرينها؟».

«أجل، طبعًا»، غمغمت الآنسة پولي محتارة كم ستتذكر من هذا الخطاب اللافت.

كانت هاتان الزيارتان من جون پندلتن وميلي أولى زيارات عديدة، وثمة رسائل دومًا، ورسائل بدت غريبة سببت المزيد من الحيرة للآنسة پولي.

ذات يوم جاءت أرملة بنتن القصيرة، وقد عرفتها الآنسة پولي جيدًا رغم أنهما لم تتزاورا يومًا. فقد عرفت من شهرتها أنها أتعس امرأة قصيرة في البلدة، ترتدي السواد دومًا. لكنها اليوم ارتدت

وشاحًا حول عنقها لونه أزرق فاتح، رغم اخضلال عينيها بالدمع. لقد تحدثت عن حزنها وخوفها من الحادث، ثم سألت بفتور إن كان بوسعها رؤية پوليانا.

هزت الآنسة پولي رأسها نفيًا.

«أنا آسفة، لكنها لا ترى أحدًا. ربما في وقت لاحق».

مسحت السيدة بنتن عينيها ونهضت واستدارت لتذهب. وبعد أن كادت أن تصل إلى باب الردهة عادت على عجل.

قالت متلعثمة «العلك توصلين إليها رسالة يا آنسة هارنغتن».

«حتمًا يا سيدة بنتن، سأكون سعيدة للغاية».

ترددت المرأة القصيرة قليلًا ثم تحدثت «هلا أخبرتها من فضلك أنني ارتديت هذا»، قالت وهي تتحسس العقدة الزرقاء حول عنقها. ثم لدى نظرة الآنسة پولي بادية الدهشة أضافت، «لقد حاولت الفتاة الصغيرة طويلًا أن تجعلني أرتدي بعض الألوان، فظننت أنها ستكون سعيدة إن عرفت أنني فعلت. لقد قالت إن فريدي سيكون سعيدًا جدًا لرؤيتي إن فعلت. تعلمين أن فريدي هو كل ما لدي الآن، أما البقية...» هزت السيدة بنتن رأسها واستدارت «إن أخبرت پوليانا فستفهم» وأغلقت الباب خلفها.

في وقت لاحق من اليوم نفسه جاءت أرملة أخرى، إنها ترتدي ثياب أرملة على الأقل. لم تعرفها الآنسة پولي قط، وتساءلت بحيرة كيف تعرفها پوليانا، وقد قالت السيدة إنها السيدة تاربل.

«إنني غريبة عليك طبعًا» بدأت في الحال، «لكني لست غريبة على ابنة أختك الصغيرة پوليانا. لقد قضيت الصيف كله في الفندق، وكنت أتنزه نزهات طويلة من أجل صحتي. فالتقيت ابنة أختك في واحدة من هذه النزهات، يا لها من فتاة صغيرة محبوبة! أتمنى لو استطعت جعلك تدركين ما تعنيه لي. لقد كنت حزينة جدًا حين أتيت هنا، وقد ذكرتني أساليبها المرحة ووجهها المشرق بابنتي الصغيرة التي فقدتها قبل سنوات. لقد صدمت حين عرفت بالحادث، وجئت إليك حين علمت أن الطفلة المسكينة لن تمشي ثانية، وأنها حزينة جدًا لأنها لا تستطيع أن تشعر بالسعادة، الطفلة المحبوبة!».

«إنك لطيفة جدًا»، همهمت الآنسة پولي.

«لكنك أنت اللطيفة»، اعترضت الأخرى، «أود أن تنقلي لها رسالة مني، هلا فعلت؟».

«بلا شك».

«هلا أخبرتها إذن أن السيدة تاربل سعيدة الآن؟ أجل، أعلم أن الأمر يبدو غريبًا وأنت لا تفهمين. ولكني لن أشرح، وأرجو معذرتي»، واختطت خطوط الحزن على فم السيدة، وغادرت البسمة عينيها، «ستعرف ابنة أختك ما أعنيه تمامًا وشعرت أن علي إخبارها. شكرًا لك واعذريني من فضلك لأي وقاحة في زيارتي»، توسلت وهي تغادر.

ارتقت الآنسة پولي إلى غرفة پوليانا وقد غمرتها الحيرة تمامًا.

«هل تعرفين امرأة تدعى السيدة تاربل يا بوليانا؟».

«أوه، أجل. أحب السيدة تاربل، إنها مريضة، وحزينة للغاية، وتسكن في الفندق وتذهب في نزهات طويلة، نذهب سويًا. أعني اعتدنا ذلك». تغير صوت بوليانا وتدحرجت دمعتان كبيرتان على وجنتيها.

تنحنحت الآنسة بولي بسرعة.

«حسن، لقد كانت هنا لتوها يا عزيزتي. وتركت لك رسالة، لكنها لم تخبرني بمعناها وقالت أن أخبرك إن السيدة تاربل سعيدة الآن».

صفقت بوليانا بهدوء.

«هل قالت هذا حقًا؟ أوه، إنني سعيدة».

«ولكن ماذا قصدت يا بوليانا؟».

«يا إلهي، إنها اللعبة و...»، سرعان ما صمتت بوليانا واضعة أصابعها على شفتيها.

«أي لعبة؟».

«لا شيء يا خالتي بولي، لا أستطيع الحديث عنها ما لم أتحدث عن أمور أخرى لا يجدر بي الحديث عنها».

أوشكت الآنسة بولي أن تسأل ابنة أختها المزيد من الأسئلة، لكن القلق الواضح على وجه الفتاة الصغيرة كبح الكلمات قبل أن تنطق.

وبلغت الأمور ذروتها بعد زيارة السيدة تاربل بوقت قصير، وحدث ذلك بزيارة من امرأة شابة بخدود مصطنعة الحمرة وشعر أشقر مصبوغ، شابة ترتدي كعبًا عاليًا وحليًا رخيصة، شابة عرفتها الآنسة پولي جيدًا من سمعتها، لكنها دهشت وغضبت لرؤيتها تحت سقف عزبة هارنغتن.

لم تمد الآنسة پولي يدها، بل تراجعت حين دخلت الغرفة.

نهضت المرأة على الفور، وكانت عيناها حمراوين جدًا كأنها كانت تبكي. وسألت بشيء من الجرأة إن كان بوسعها رؤية الفتاة الصغيرة پوليانا لدقيقة.

رفضت الآنسة پولي، وحاولت قولها بصرامة لكن شيئًا في عيني المرأة المتضرعتين جعلها تضيف عذرًا مهذبًا بأنه لا يسمح لأحد بعد برؤية پوليانا.

ترددت المرأة، ثم تحدثت بفظاظة قليلًا، وما زال ذقنها مائلًا بتحد.

«اسمي السيدة پايسن، السيدة توم پايسن، أظنك سمعت بي، فقد سمع بي معظم الناس الصالحين في البلدة، ولعل بعض الأمور التي سمعتها عني ليست صحيحة. ولكن لا عليك من هذا. لقد جئت من أجل الفتاة الصغيرة، سمعت بالحادث، وقد فطر قلبي. سمعت الأسبوع الماضي أنها لن تستطيع المشي ثانية، وتمنيت لو كان بوسعي منحها ساقيّ المعافاتين عديمتي الجدوى. فستتمكن من السير بهما جيدًا في ساعة واحدة أفضل مما سأفعل في مئة سنة. ولكن

لا عليك من هذا، لا تمنح الساقان دومًا لمن يحسن استخدامهما كما أرى».

صمتت وتنحنحت ولكن صوتها ظل مبحوحًا حين استأنفت الحديث.

«ربما لا تعلمين بالأمر، لكني رأيت ابنة أختك الصغيرة كثيرًا، فنحن نسكن على طريق تل پندلتن، واعتادت المرور كثيرًا، لكنها لا تمر دومًا. كانت تدخل وتلسب مع الصغار وتتحدث إلي وإلى زوجي حين يكون في البيت. وبدا أنها تحب ذلك وتحبنا. أظنها لم تعلم أن أمثالها لا يزورون أمثالي عادة. ولو أنهم فعلوا أكثر يا آنسة هارنغتن لما وجد الكثير من أمثالي»، أضافت بشيء من المرارة.

«على أية حال، لقد مررنا هذا العام بأوقات عصيبة، على أكثر من صعيد. لقد كنا مكتئبين ومحبطين، أنا وزوجي، ومستعدين لأجل أي شيء تقريبًا. وفكرنا بالطلاق والتخلي عن الأطفال، ولم نعرف ماذا نفعل بالأطفال. ثم وقع الحادث وما سمعناه عن عجز الفتاة الصغيرة عن المشي. وتذكرنا كم اعتادت المجيء والجلوس على عتبة بابنا والجري مع الأطفال والضحك معهم وكم تكون سعيدة فحسب. لقد كانت سعيدة دومًا بشيء ما، وقد أخبرتنا يومًا السبب وبأمر اللعبة كما تعلمين وحاولت حضنا على لعبها.

لقد سمعنا أنها الآن تسخط من حياتها القصيرة لأنها لا تستطيع لعب اللعبة، وأن لا شيء يسعدها. ولهذا أتيت لأخبرها اليوم، بأنها قد تشعر بالسعادة قليلًا من أجلنا لأننا قررنا البقاء مع بعضنا

وأن نلعب اللعبة. أعلم أنها ستكون سعيدة، لأنها شعرت بالحزن لأشياء قلناها أحيانًا. لست أدري حقًا كيف ستساعدنا اللعبة، لكن لعلها تفعل على أية حال، سنحاول. لأنها أرادتنا أن نحاول، هلا أخبرتها؟».

«أجل، سأخبرها، قالت الآنسة پولي بشيء من التردد، ثم باندفاع مفاجئ تقدمت ومدت يدها، «وشكرًا لقدومك يا سيدة پايسن»، قالت ببساطة.

فنزل الذقن المتحدي وارتعشت الشفتان فوقه بجلاء. وأمسكت السيدة پايسن اليد الممدودة بقوة، بعدما غمغمت بشيء غير مفهوم ثم استدارت ورحلت.

ما إن أغلق الباب خلفها حتى واجهت الآنسة پولي نانسي في المطبخ.

«نانسي!».

تحدثت الآنسة پولي بحدة. فقد أرهقت أعصابها حد الجنون سلسلة الزيارات المحيرة المربكة في الأيام القليلة الأخيرة التي توجتها الزيارة الغريبة بعد ظهر اليوم. لم تسمع نانسي سيدتها تتحدث بصرامة منذ حادث الآنسة پوليانا.

«هلا أخبرتني بأمر هذه اللعبة الغريبة التي يبدو أن البلدة بأسرها تثرثر حولها؟ وما علاقة ابنة أختي بها من فضلك؟ لماذا يرسل الجميع رسائل، بدءًا من ميلي سنو حتى السيدة توم پايسن، قائلين إنهم

يلعبونها؟ على حد علمي باتت نصف القرية تضع شرائط زرقًا أو توقف النزاعات العائلية أو تتعلم أن تحب شيئًا لم تحبه من قبل وكل هذا بسبب پوليانا. لقد حاولت أن أسأل الطفلة عنها لكني لم أحصل على جواب، ولم أرد إقلاقها الآن. ولكن من شيء سمعتها تقوله لك الليلة الماضية، أستطيع القول إنك واحدة منهم أيضًا، والآن هلا أخبرتني بمعنى هذا كله؟».

فوجئت الآنسة پولي وذعرت حين رأت نانسي تنفجر بالبكاء.

«إنها تعني أن تلك الطفلة المباركة جعلت كامل البلدة سعيدة منذ يونيو الماضي، والآن هم يردون لها صنيعها ويحاولون إسعادها قليلًا أيضًا».

«سعيدة بماذا؟».

«سعيدة فحسب، هذه هي اللعبة».

خبطت الآنسة پولي بقدمها.

«ها أنت تتحدثين مثل البقية يا نانسي، أية لعبة؟».

رفعت نانسي ذقنها، وواجهت سيدتها ونظرت في عينيها مباشرة.

«سأخبرك يا سيدتي. إنها لعبة علمها والد الآنسة پوليانا لها. فقد حصلت مرة على عكازين في صندوق المعونات، رغم أنها أرادت دمية وبكت طبعًا مثل أي طفلة. أخبرها أبوها عندئذ أنها قد لا تملك كل شيء، ولكن لا بد من وجود شيء ما تشعر بالسعادة به، وأن بوسعها أن تشعر بالسعادة بهذين العكازين».

«سعيدة بالعكازين؟!»، غصت الآنسة بولي بالبكاء، فقد تذكرت تلكما الساقين العاجزتين في الفراش في الطابق العلوي.

«أجل، هذا ما قلته وقالت الآنسة بوليانا إن هذا ما قالته أيضًا. لكنه أخبرها أن تكون سعيدة بأنها لا تحتاجها».

«أوه!»، شهقت الآنسة بولي.

«وبعد ذلك قالت إنه جعلها لعبة دائمة، أي العثور على شيء ما في كل شيء لتكون سعيدة به، وقالت إنها استطاعت فعلها أيضًا، وإنها لا تهتم للحصول على الدمية كثيرًا، لأنها كانت سعيدة بعدم حاجتها للعكازين. ولقد سمياها لعبة السعادة. هذه هي اللعبة يا سيدتي، وقد لعبتها منذئذ».

«ولكن كيف... كيف...»، صمتت الآنسة بولي بعجز.

«وستفاجئين إن عرفت مقدار نجاحها يا سيدتي»، واصلت نانسي بحماس بوليانا نفسه، «ليتني أخبرك بما فعلته لأمي وللناس في الديار، لقد رأتهم مرتين معي كما تعرفين. وجعلتني سعيدة أيضًا بكثير من الأشياء، الأشياء الصغيرة والكبيرة، وجعلتها أسهل بكثير. فمثلًا لست أمانع أن يكون اسمي نانسي كثيرًا منذ أن أخبرتني أن علي أن أسر أن اسمي ليس حفصيبه. كما أن لدي أصباح الاثنين التي أكرهها دومًا، لكنها جعلتني أسر بأصباح الاثنين».

«سعيدة بأصباح الاثنين؟!».

ضحكت نانسي.

«أعلم أن الأمر يبدو جنونًا يا سيدتي، ولكن دعيني أخبرك. لقد عرفت تلك الطفلة المباركة أنني أكره أصباح الاثنين بقوة، وأخبرتني بهذا يومًا «حسن، على أية حال يا نانسي أظن أن بوسعك أن تكوني أسعد صباح الاثنين من أي يوم آخر من أيام الأسبوع، إذ سيمر أسبوع بأكمله قبل أن يأتي يوم الاثنين ثانية»، ويا لسعادتي كلما فكرت بالأمر صباح كل اثنين منذئذ، وقد ساعدني يا سيدتي، فقد جعلتني أضحك كلما فكرت به والضحك يساعد كما تعلمين، حقًا».

«ولكن لماذا لم تخبرني عن اللعبة؟»، تلعثمت الانسة بولي، «لماذا أثارت شيئًا من الغموض حولها حين سألتها؟».

ترددت نانسي.

«أستميحك عذرًا يا سيدتي، لقد أخبرتها ألا تتحدث عن أبيها، لذا لم تستطع إخبارك. لقد كانت لعبة أبيها كما ترين».

عضت الآنسة بولي شفتيها.

«لقد أرادت إخبارك منذ البداية، واصلت نانسي بشيء من القلق، «إذ أرادت أحدًا يلعب معها كما تعرفين، ولهذا بدأت ألعب فيكون لديها أحد».

«و... وهؤلاء الآخرون؟»، تهدج صوت الآنسة بولي.

«أوه، الجميع يعرفها الآن كما أظن، بل أظن ذلك مما سمعته عنها أينما ذهبت. لقد أخبرت الكثيرين طبعًا وهم بدورهم أخبروا

البقية، هكذا تنتقل الأشياء كما تعرفين حين تبدأ. وقد كانت باسمة ومبتهجة دومًا مع الجميع وسعيدة طوال الوقت، فلم يستطيعوا إلا أن يعرفوها. ولكن الجميع يشعر بالحزن منذ أصيبت وبخاصة حين سمعوا بحزنها وأنها لا تستطيع العثور على شيء يسعدها، وهذا ما جعلهم يأتون كل يوم لإخبارها كم جعلتهم سعداء آملين أن يساعدها ذلك قليلًا. كما ترين لقد أرادت الجميع أن يلعبوا اللعبة معها.

«حسن، أعرف أحدًا سيلعبها الآن»، غصت الآنسة پولي وهي تستدير وتسرع في الخروج من باب المطبخ.

«إني أصدق اي شيء، أي شيء الآن»، غمغمت لنفسها، «لا يمكنك أن تفاجئيني بشيء لا أصدقه يا آنسة پولي».

في وقت لاحق تركت الممرضة پوليانا والآنسة پولي وحدهما في غرفة پوليانا.

«وجاءك زائر آخر اليوم يا عزيزتي»، قالت الآنسة پولي بصوت حاولت عبثًا ألا يتهدج، «هل تذكرين السيدة پايسن؟».

«السيدة پايسن؟ أجل، أحسب أني أفعل، إنها تسكن على طريق بيت السيد پندلتن، ولديها أجمل طفلة صغيرة تبلغ من العمر ثلاثة أعوام، وصبي في الخامسة، وهي لطيفة للغاية وزوجها كذلك. عدا أنهما لا يعرفان مقدار لطف كل منهما، فيتشاجران أحيانًا، أعني أنهما لا يتفقان تمامًا، ويقولان إنهما فقراء أيضًا، وليس لديهما صناديق طبعًا لأنه ليس كاهنًا كما تعرفين مثل... إنه ليس كذلك».

احمرت وجنتا بوليانا قليلًا، لكن الحمرة كانت مضاعفة على وجنتي خالتها.

«لكنها ترتدي ثيابًا جميلة أحيانًا رغم فقرها المدقع»، استأنفت بوليانا بعجلة، «ولديها خواتم عليها ماسات وياقوتات وزمردات جميلة. ولكنها قالت إنها ارتدت أحدها طويلًا وإنها ستتخلص منه وتحصل على الطلاق. ما الطلاق يا خالتي بولي؟ أخشى أنه ليس جميلًا لأنها لم تبد سعيدة حين تحدثت عنه، وقالت إنها إن حصلت عليه فلن يعيشوا هناك، وإن السيد بايسن سيرحل، والأطفال أيضًا. ولكني أظن أن من الأفضل لهم الاحتفاظ بالخاتم حتى إن كان عندهم الكثير غيره، ألا تظنين ذلك؟ ما الطلاق يا خالتي بولي؟».

«لكنهم لن يرحلوا يا عزيزتي»، راوغت الخالة بولي بسرعة، «سيبقون معًا هناك».

«أوه، إنني سعيدة جدًا، فسيكونون هناك إذن حين أنهض و... أوه يا إلهي!»، صمتت الفتاة الصغيرة بحزن، «لماذا لا أتذكر أن ساقيّ لن تمشيا ثانية، وأنني لن أذهب لرؤية السيد بندلتن يا خالتي بولي؟».

«اهدئي اهدئي، كلا»، غصت خالتها، «لعلك ستذهبين يومًا. ولكن اسمعي لم أخبرك بعد بكل ما قالته السيدة بايسن، لقد أرادتني أن أخبرك أنهم سيبقون معًا ويلعبون اللعبة كما أردتهم».

ابتسمت بوليانا بعينين مغرورقتين «حقًا؟ أحقًا سيفعلون؟ أنا سعيدة بهذا!».

«أجل، وقالت إنها تتمنى أن تكوني سعيدة، ولهذا أخبرتك لجعلك سعيدة يا بوليانا».

نظرت بوليانا بسرعة.

«عجبًا يا خالتي بولي، تتحدثين كأنك تعلمين.. هل تعلمين بأمر اللعبة يا خالتي بولي؟».

«أجل يا عزيزتي»، أجبرت الآنسة بولي صوتها بحزم ليبدي البهجة، «لقد أخبرتني نانسي وأظنها لعبة جميلة، وسألعبها الآن معك».

«أوه، أنت يا خالتي بولي؟ أنا سعيدة جدًا لقد أردتك حقًا أكثر من أي أحد طوال الوقت كما تعلمين».

حبست الخالة بولي أنفاسها بقوة، وقد كان إبقاء صوتها ثابتًا أصعب هذه المرة لكنها فعلت.

«أجل يا عزيزتي، وكل هؤلاء الآخرين... حسن، يا بوليانا أظن أن كل البلدة تلعب اللعبة معك، حتى الكاهن. لم تتسن لي فرصة لإخبارك، لكني قابلت السيد فورد هذا الصباح حين ذهبت للقرية، وأخبرني أن أقول لك إنه أراد القدوم إليك ما إن يكون بوسعك رؤيته ليخبرك أنه لم يكف عن كونه سعيدًا بنصوص البهجة الثمانمئة تلك التي أخبرته عنها. وها أنت ترين يا عزيزتي، لقد فعلت أنت ذلك. كل البلدة تلعب اللعبة وكل البلدة أسعد بكثير، وكل هذا بفضل فتاة صغيرة علمت الناس لعبة جديدة، وكيف يلعبونها».

صفقت بوليانا.

«أوه، إنني سعيدة جدًا»، قالت ثم أشرق وجهها بنور رائع، «حسن يا خالتي بولي، ثمة شيء يمكنني أن أسعد به في النهاية. أنا سعيدة أن عندي ساقيّ على أية حال، وإلا ما كنت سأعلمها لهم».

الفصل التاسع والعشرون

من النافذة المفتوحة

جاءت أيام الشتاء القصيرة وانقضت واحدًا إثر الآخر، لكنها لم تكن قصيرة على بوليانا. بل كانت طويلة، يملأها الألم أحيانًا. كانت بوليانا في هذه الأيام على أية حال تدير وجهًا مبتهجًا بثبات شديد نحو ما يحدث أيًا كان. ألم تتعهد بلعب اللعبة الآن وقد أخذت الخالة بولي تلعبها أيضًا؟ ووجدت الخالة بولي كثيرًا من الأشياء التي تسر بها! وقد عرفت الخالة بولي أيضًا، قصة يومًا عن متشردين صغيرين فقيرين في عاصفية ثلجية عثرا على باب ساقط اختبأا تحته، وتساءلت عما يفعله الفقراء الذين لا يملكون بابًا! كما كانت الخالة بولي هي من جلبت إلى البيت حكاية أخرى سمعتها عن السيدة الفقيرة المسنة التي ليس لها إلا سنّين، لكنها كانت سعيدة بهاتين السنين!

أخذت بوليانا، مثل السيدة سنو، تحيك أشياء رائعة من غزل زاهي الألوان مد خيوطه البهيجة على الملاءة البيضاء، وجعل بوليانا، مثل السيدة سنو أيضًا، سعيدة بأن عندها يدين وذراعين.

صارت پوليانا تقابل الناس، ودومًا تصلها رسائل محبة من أولئك الذين لا تراهم، وجلبوا لها دومًا شيئًا جديدًا لتفكر به، وكانت پوليانا بحاجة لأشياء جديدة تفكر بها.

لقد قابلت جون پندلتن مرة، وجيمي بين مرتين، وأخبرها جون پندلتن أن جيمي سيصبح ولدًا لائقًا، وأنه يبلي حسنًا. وأخبرها جيمي عن البيت ذي الطراز الرفيع الذي صار له، وأن جون پندلتن يشكل أهلًا رائعين، وكلاهما قالا إن ذلك بفضلها.

«وهذا ما يجعلني أسعد كما تعلمين، بأني حظيت بساقي»، أسرّت پوليانا لخالتها لاحقًا.

انقضى الشتاء وحل الربيع. لاحظ المراقبون القلقون لحالة پوليانا تغيرًا طفيفًا أحدثه العلاج الموصوف. وبدا أن ثمة أسبابًا تدعو لتصديق أن أعظم مخاوف الطبيب ميد قد تحققت، وأن پوليانا لن تمشي ثانية.

ظلت بلدة بلدنغزڤِل مطلعة على أخبار پوليانا طبعًا، ومن بلدنغزڤِل، ثمة رجل واحد استشاط غضبًا وأبلى نفسه من حمى القلق على الأخبار اليومية التي تمكن من الحصول عليها من سرير المريضة. إلا أنه بمرور الأيام ولما لم تتحسن الأخبار بل ازدادت سوءًا، أخذ شيء إلى جانب القلق يظهر على وجه الرجل. كان ذاك يأس وعزم عنيد، وكل منها يجاهد للتغلب على الآخر. فربح العزم العنيد في نهاية المطاف، وعندئذ تلقى السيد جون پندلتن مندهشًا ذات صباح سبت زيارة من الطبيب توماس تشلتن.

بدأ الطبيب حديثه بغتة، «لقد جئت إليك يا بندلتن لأنك تعرف شيئًا عن علاقتي بالآنسة بولي هارنغتن أفضل من أي أحد في البلدة».

كان جون بندلتن مدركًا أن دهشته بادية، فقد عرف شيئًا عن علاقة بولي هارنغتن وتوماس تشلتن، لكن الأمر لم يُتطرق إليه بينهما لخمسة عشر عامًا أو أكثر.

«أجل»، قال محاولًا جعل صوته يبدو متعاطفًا، لا متلهفًا بدافع الفضول. ثم رأى أنه لا داعي لقلقه، إذ كان الطبيب منهمكًا في مهمته ولم يلحظ كيف تلقى هذه المهمة.

«أود رؤية تلك الطفلة يا بندلتن، أود فحصها، لا بد أن أفحصها».

«حسن، ألا تستطيع؟».

«ألا أستطيع؟! تعرف جيدًا يا بندلتن أنني لم أدخل ذلك الباب منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. لعلك لا تدري لكني سأخبرك أن سيدة ذلك البيت أخبرتني أنها إن دعتني للدخول في المرة القادمة فسيعني ذلك أنها تطلب صفحي، وأن كل شيء سيكون مثل السابق، وهذا يعني أنها ستتزوجني. لعلك تظنها ستستدعيني، لكني لا أظن!».

«ولكن أليس بوسعك الذهاب دون استدعاء؟».

عبس الطبيب «حسن، هذا صعب. لدي بعض الكبرياء كما تعلم».

«ولكن إن كنت قلقًا للغاية، أليس بوسعك ابتلاع كبريائك ونسيان الشجار؟!».

«نسيان الشجار؟!» قاطعه الطبيب بفظاظة، «أنا لست أتحدث عن هذا النوع من الكبرياء. لو كان هذا هو الأمر لذهبت زحفًا على ركبتي، أو رأسي، لو كان هذا يجدي نفعًا. لكني أتحدث عن كبرياء المهنة. إنها حالة مرضية وأنا طبيب، لكني لا أستطيع أن أذهب وأقول هيا، استقبلوني! هل أستطيع؟!».

«عم كان الشجار يا تشلتن؟»، سأل بندلتن.

أومأ الطبيب بنفاد صبر ونهض «عم كان؟ ماذا يكون شجار العشاق بعد انتهائه؟»، نخر وهو يذرع الغرفة بغضب، «مشاحنة سخيفة عن حجم القمر أو عنق النهر، ربما، لعلها كذلك، كأن له أهمية حقيقية مقارنة بسنوات البؤس التي أعقبته! لا تكترث للشجار! أنا راغب بالقول إنه ما من شجار. لا بد أن أرى الطفلة يا بندلتن، قد يعني هذا حياة أو موتًا، سيعني، أنا أؤمن بذلك حقًا، تسع فرص من عشر بأن پوليانا ويتير ستمشي ثانية».

قيلت الكلمات بوضوح وبحزم وقيلت حين اقترب من قالها من النافذة المفتوحة قرب كرسي جون بندلتن. وهكذا تبين تمامًا أنها بلغت مسامع صبي صغير يجثم تحت النافذة على الأرض في الخارج.

كان جيمي بين في مهمته الصباحية ليوم السبت في اقتلاع الحشائش الخضراء من حوض الزهور، جلس وعيناه وأذناه مفتوحة على وسعها.

«تمشي؟! بوليانا؟!».

كان جون پندلتن يقول «ماذا تعني؟».

«أعني أنني مما سمعت وعلمت، بعيدًا عن فراشها مسافة ميل، أن حالتها تشبه كثيرًا حالة ساعدها صديق من أيام الدراسة، وقد كان يعد دراسة خاصة لسنوات طويلة، وظللت على اتصال معه ودرست أيضًا بشكل ما. ومما سمعت... لكني أود رؤية الفتاة!».

جلس جون پندلتن معتدلًا في كرسيه.

«عليك أن تراها يا رجل. ألا يمكنك ذلك، ولنقل من خلال الطبيب وارن؟».

هز الآخر رأسه نفيًا.

«أخشى أني لا أستطيع. لقد كان الطبيب وارن مهذبًا جدًا، أخبرني أنه اقترح استشارتي في البدء، لكن الآنسة هارنغتن قالت لا بحزم ولم يجرؤ على اقتراحها ثانية، رغم أنه يعلم رغبتي برؤية الطفلة. جاء إلي بعض أفضل مرضاه مؤخرًا وهذا يقيدني أكثر ولكن يا پندلتن، علي أن أرى تلك الطفلة. فكر بما قد يعنيه هذا لها، لو فعلت».

«أجل، وفكر بما قد يعنيه إن لم تفعل»، رد پندلتن.

«ولكن كيف أفعل دون طلب مباشر منها، وهو ما لن أفعله؟».

«لا بد أن تُدفَع لتطلب منك».

«كيف؟».

«لست أدري».

«كلا، أظنك لا تعلم، ولا أي أحد آخر. إنها شديدة الكبرياء وشديدة الغضب فلن تسألني بعد ما قالته قبل سنوات عن معنى طلبها مني. ولكنني حين أفكر بالطفلة المحكوم عليها بالبؤس مدى الحياة، وحين أفكر أن الفرصة للنجاة قد تكون بين يدي، ولكن من أجل ذلك الهراء اللعين الذي نسميه كبرياء وآداب مهنة أنا،...» لم يكمل جملته ولكنه استدار بعدما دس يديه في جيوبه وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا بغضب.

«ولكنها إن دفعت لترى ولتفهم»، ألح جون پندلتن.

«أجل، من سيفعل ذلك؟»، سأل الطبيب بالتفاتة فظة.

«لست أدري، لست أدري»، تذمر الآخر بائسًا.

تململ جيمي بين فجأة تحت النافذة ولم يتنفس إلا لمامًا حتى الآن، فقد أصغى باهتمام لكل كلمة.

«حسن، أنا أعلم وحق السماء!»، همس جذلًا، «سأفعلها»، ونهض من فوره وتسلل خلسة حول زاوية البيت وجرى بكل قوته نازلًا تلة پندلتن.

الفصل الثلاثون
جيمي يتولى الأمر

«إنه جيمي بين، يود رؤيتك يا سيدتي»، قالت نانسي من الممر.

«رؤيتي أنا؟»، قالت الآنسة پولي بادية الدهشة، «هل أنت واثقة أنه لم يقل الآنسة پوليانا؟ لعله يود رؤيتها لبضع دقائق اليوم، إن شاء».

«أجل يا سيدتي، لقد أخبرته، لكنه قال إنه يود رؤيتك أنت».

«حسن، سأنزل»، ونهضت الآنسة پولي من كرسيها بقليل من التعب.

في غرفة الجلوس وجدت بانتظارها ولدًا مدور العينين محمر الوجه بدأ حديثه من فوره.

«أظن أن ما سأفعله وما سأقوله مخيف يا سيدتي، لكني لا أستطيع، إنه من أجل پوليانا، وسأمشي فوق الجمر من أجلها أو أواجهك او أي شيء آخر من هذا القبيل في أي وقت. وأظنك ستفعلين أيضًا إن ظننت أن ثمة فرصة لها لتمشي ثانية، وهذا سبب

قدومي لإخبارك أنه ما دام الكبرياء وآ... آ... شيء ما هو ما يمنع بوليانا من المشي، فأنا واثق أنك ستستدعين الطبيب تشلتن إن فهمت».

«ماذا؟»، قاطعته الآنسة پولي ونظرة الذهول على وجهها تتغير إلى نظرة ازدراء غاضب.

تنهد جيمي بيأس «حسن، اسمعي لم أقصد إغضابك، ولهذا بدأت بإخبارك عن مشيها ثانية، ظننتك ستصغين لهذا».

«ما الذي تتحدث عنه يا جيمي؟».

تنهد جيمي ثانية، «هذا ما أحاول إخبارك به».

«حسن، أخبرني إذن. ولكن ابدأ من البداية، واحرص على أن أفهم كل شيء وأنت تتحدث، ولا تقفز إلى المنتصف كما فعلت قبلًا فتخلط الأشياء كلها».

بلل جيمي شفتيه بعزم.

«حسن، سأبدأ. لقد جاء الطبيب تشلتن لرؤية السيد پندلتن وتحدثا في المكتبة، هل تفهمين هذا؟».

«أجل يا جيمي»، كان صوت الآنسة پولي فاترًا قليلًا.

«كانت النافذة مفتوحة وكنت أزيل الحشائش من حوض الزهور تحتها وسمعتهما يتحدثان».

«أوه يا جيمي، أتسترق السمع؟».

«لم أفعل ذلك، بل سمعته صدفة»، حوصر جيمي، «وأنا سعيد أنني سمعت، وستكونين أنت أيضًا حين أخبرك، أن پوليانا قد تمشي».

«ماذا تعني يا جيمي؟»، مالت الآنسة پولي إلى الأمام باهتمام.

«اسمعي، لقد أخبرتك»، أومأ جيمي برأسه راضيًا، «يعرف الطبيب تشلتن طبيبًا في مكان ما يمكنه علاج پوليانا، إنه يظن أن بوسعه جعلها تمشي، لكنه ليس متأكدًا حتى يراها وهو يريد رؤيتها بشدة، لكنه أخبر السيد پندلتن أنك لن تسمحي له».

احمر وجه الآنسة پولي.

«ولكن لا أستطيع يا جيمي، لم أستطع. أعني لم أعلم»، كانت الآنسة پولي تلوي أصابعها معًا بعجز.

«أجل، ولهذا أتيت لأخبرك فتعلمين»، أكد جيمي بحماس، «قالا إنك لسبب ما لم أفهمه تمامًا لن تسمحي للطبيب تشلتن بالقدوم، وإنك أخبرت الطبيب وارن بذلك، ولم يستطع الطبيب تشلتن القدوم بنفسه دون طلب منك، نظرًا لكبرياء المهنة وآ... وآ... حسن، شيء ما. وتمنيا لو تمكن أحد من إفهامك، غير أنهما لا يعرفان من بوسعه، وكنت تحت النافذة، وقلت لنفسي فورًا بحق السماء سأفعلها وجئت، وهل جعلتك تفهمين؟».

«أجل يا جيمي، ولكن من أجل الطبيب...»، تضرعت بحرارة، «من هو وماذا يفعل؟ هل هم متأكدون أن بوسعه جعل پوليانا تمشي؟».

«لا أعلم من هو ولم يقولا، يعرفه الطبيب تشلتن وقد عالج أحدًا مثلها كما يظن الطبيب تشلتن، على أية حال لا يبدو أنهما قلقان من ناحيته، بل كانا قلقين من ناحيتك أنت، لأنك لن تسمحي للطبيب تشلتن برؤيتها. والآن، ستسمحين له بالقدوم أليس كذلك؟ أتفهمين الآن؟».

أدارت الآنسة پولي رأسها من جانب لآخر، وصارت أنفاسها لهاثًا مضطربًا قصيرًا.

ظن جيمي وهو يراقبها بعينين قلقتين أنها ستبكي، لكنها لم تفعل، ثم قالت بانكسار، «أجل سأسمح للطبيب تشلتن برؤيتها، والآن اجر إلى البيت يا جيمي، بسرعة. علي أن أتحدث إلى الطبيب وارن وهو في الأعلى الآن، لقد رأيته يدخل قبل بضع دقائق».

فوجئ الطبيب وارن لاحقًا برؤية الآنسة پولي المضطربة محمرة الوجه في الردهة، وفوجئ أكثر بما قالته السيدة منقطعة الأنفاس.

«لقد طلبت مني مرة أن يستدعى الطبيب تشلتن للاستشارة ورفضت أيها الطبيب وارن، لكني أعدت النظر، وأرغب بشدة باستدعاء الطبيب تشلتن، فهلا سألته أن يأتي في الحال من فضلك؟ شكرًا لك».

الفصل الحادي والثلاثون

عم جديد

في المرة التالية التي دخل فيها الطبيب وارن الغرفة التي ترقد فيها پوليانا تراقب الألوان المتلألئة المتراقصة على السقف، تبعه محاذيًا له رجل طويل عريض المنكبين.

«الطبيب تشلتن! أوه يا لسعادتي برؤيتك»، قالت پوليانا ولدى الجذل والمرح في صوتها لمعت الدموع الساخنة في أكثر من زوج من العيون في الغرفة، «ولكن الخالة پولي لا تريد طبعًا...».

«لا بأس يا عزيزتي، لا تقلقي»، هدأتها الآنسة پولي باضطراب وهي تسرع بالتقدم، «لقد أخبرت الطبيب تشلتن أنني أريده أن يلقي نظرة عليك مع الطبيب وارن هذا الصباح».

«أوه، أنت طلبت منه القدوم إذن»، غمغمت پوليانا برضا.

«أجل يا عزيزتي، أنا طلبت منه، أعني...»، لكن استدراكها تأخر، فالسعادة الآسرة التي طفرت من عيني الطبيب تشلتن كانت واضحة، وقد رأتها الآنسة پولي واستدارت وغادرت الغرفة على عجل بوجنتين محمرتين.

تحدثت الممرضة والطبيب وارن عند النافذة بجدية، ومد الطبيب تشلتن كلتا يديه لبوليانا.

«يا فتاتي الصغيرة، أظن أن أحد أسعد الأعمال التي فعلتها فعلته اليوم»، قال بصوت متهدج من الانفعال.

عند الغروب تسللت الخالة بولي وهي مختلفة اختلافًا رائعًا ومضطربة اضطرابًا فائقًا، إلى جانب فراش بوليانا. كانت الممرضة تتناول عشاءها وكانت الغرفة لهما وحدهما.

«سأخبرك بأهم الأخبار يا عزيزتي بوليانا، يومًا ما سأجعل الطبيب تشلتن عمًا لك، وأنت من فعل هذا كله. أوه يا بوليانا، إنني سعيدة جدًا ومسرورة جدًا يا غاليتي».

أخذت بوليانا تصفق، ولكنها توقفت بعد الصفقة الأولى براحتيها الصغيرتين وظلتا معلقتين.

«هل كنت أنت يد المرأة وقلبها اللذين أرادهما منذ سنوات بعيدة يا خالتي بولي؟ هل كنت... أعلم أنها أنت، وهذا ما عناه بقوله أنني فعلت أسعد الأعمال على الإطلاق اليوم. وأنا سعيدة جدًا. يا إلهي يا خالتي بولي، لست أدري لكني سعيدة جدًا حتى أني لا أهتم بساقيّ».

ابتلعت الآنسة بولي نشيجها.

«ربما يومًا ما يا عزيزتي...».

لم تكمل الخالة بولي، ولم تجرؤ على إخبارها بالأمل العظيم الذي

بثه الطبيب تشلتن في قلبها، لكنها قالت هذا، وكان هذا رائعًا حقًا لدى پوليانا «سنذهب في رحلة الأسبوع القادم يا پوليانا وستحملين في سرير مريح صغير في سيارات وعربات إلى طبيب كبير لديه منزل كبير يبعد أميالًا كثيرة عن البلدة، أقيم خصيصًا لأناس مثلك. إنه صديق عزيز على الطبيب تشلتن وسنذهب لرؤية ما يستطيع فعله من أجلك!».

الفصل الثاني والثلاثون
رسالة من پوليانا

عزيزيّ الخالة پولي والعم توم

أوه، أنا استطيع... أنا أستطيع... أنا أستطيع المشي. لقد مشيت اليوم كل المسافة بين سريري والنافذة! وهي ست خطوات. يا إلهي يا له من أمر رائع أن أقف على قدمي ثانية!

وقف الأطباء كلهم حولي وابتسموا وكل الممرضات وقفن قربهم وبكين. واسترقت سيدة من الجناح المجاور مشت أول مرة الأسبوع الماضي، النظر من الباب، وأخرى تأمل أن تتمكن من المشي الشهر القادم، دعيت إلى الحفلة، وهي ترقد على سرير ممرضتي وتصفق بيديها، وحتى تيلي السوداء التي تغسل الأرضيات نظرت عبر نافذة الشرفة وقالت لي «يا حلوتي، يا صغيرة» لما بكت بشدة فعجزت عن تسميتي بشيء آخر.

لست أدري لماذا بكوا، لقد أردت الغناء والصراخ والهتاف! أوه... أوه... أوه! تخيلي فحسب أنني أمشي، أمشي،

أمشي. والآن لست أبالي بالبقاء هنا عشرة أشهر، كما أنني لن أفوت الزفاف على أية حال، أليس هذا طبعك يا خالتي بولي أن تأتيا إلى هنا وتعقدا القران قرب سريري، فأتمكن من رؤيتكما؟ إنك تفكرين دومًا بأسعد الأشياء!

سأعود إلى البيت قريبًا جدًا كما يقولون، ليتني أستطيع مشي الطريق إلى هناك. لا أظنني أرغب بركوب العربة بعد اليوم، بل سيكون المشي رائعًا. أوه، إني سعيدة! إني سعيدة بكل شيء. يا إلهي، إني سعيدة لفقدان ساقيّ لفترة، لأن المرء لا يعرف أبدًا أبدًا روعة الساقين حتى يُحرم منهما. سأمشي ثماني خطوات غدًا.

بأطنان من الحب للجميع
بوليانا

النهاية

الكتاب الثاني

عندما كبرت پوليانا

الفصل الأول

ديلا تفصح عما في نفسها

ارتقت ديلا وذربي العتبات الفخمة الجليلة لمنزل أختها الواقع في جادة كومنولث وضغطت زر الجرس الكهربائي بإصبع رشيقة. وكانت تشع بالصحة والطاقة والعزم والتأهب، من قمة قبعتها المجنحة حتى طرف حذائها قصير الكعب. وتردد في صوتها مرح الحياة وهي تحيي الخادمة التي فتحت الباب.

«صباح الخير يا ماري، هل أختي هنا؟».

«أجل يا سيدتي، السيدة كَرو في الداخل»، قالت الفتاة مترددة، «لكنها لا تود رؤية أحد».

«حقًا؟ حسن، أنا لست بأحد»، ابتسمت الآنسة وذربي، «لذا فإنها ستراني. لا تقلقي، سأتحمل المسؤولية»، أومأت ردًا على الاعتراض والذعر في عيني الفتاة، «أين هي، أفي غرفة الجلوس؟».

«أجل يا سيدتي، ولكن.. أعني أنها قالت...»، غير أن الآنسة وذربي ارتقت نصف الدرج العريض، وذهبت الخادمة تنظر خلفها قانطة.

قطعت ديلا وذربي الممر العلوي بلا إبطاء نحو باب نصف مفتوح وقرعته.

«حسن يا ماري»، أجاب صوت متذمر، «ألم أقل.... أوه ديلا!»، وفجأة أصبح الصوت أكثر حرارة حبًا ودهشة. «تعالي يا فتاتي العزيزة، من أين أتيت؟».

«أجل، هذه أنا ديلا»، ابتسمت الشابة مبتهجة، وقد قطعت نصف الغرفة، «لقد جئت من الشاطئ إذ قضيت إجازة الأحد مع ممرضتين، وأنا في طريق عودتي إلى المصح الآن. أعني، إنني هنا لكني لن أطيل المكوث. لقد مررت من أجل هذا»، أنهت قولها وقبلت صاحبة الصوت المتذمر قبلة حارة.

عبست السيدة كَرو وتراجعت قليلًا بشيء من البرود. وقد امّحى الأثر الطفيف للبهجة والحيوية الذي غمر وجهها، مخلفًا نكدًا وحزنًا بدا جليًا أنه معتاد.

«أوه، طبعًا! علي أن أعرف أنك لن تمكثي هنا أبدًا»، قالت.

«بربك!»، ضحكت ديلا وذربي جذلة ومدت يديها، ثم تغير سلوكها وصوتها فجأة. ونظرت إلى أختها بعينين حزينتين رقيقتين، «لا أستطيع يا عزيزتي روث، لا أستطيع العيش في هذا البيت فحسب، وتعلمين أنني لا أستطيع»، قالت بلطف.

تململت السيدة كَرو بغضب.

«لكني واثقة أني أجهل السبب»، تملصت.

هزت ديلا وذربي رأسها.

«بل تعرفينه يا عزيزتي. تعلمين أنني لم أعد أطيق هذا بتاتًا؛ الحزن والافتقار للهدف والإصرار على البؤس والمرارة».

«ولكني بائسة وأشعر بالمرارة».

«ليس عليك ذلك».

«ولم لا؟ ماذا لدي فيجعلني عكس ذلك؟».

أومأت ديلا وذربي بنفاد صبر.

«أصغي إلي يا روث»، قالت معترضة، «إنك في الثالثة والثلاثين من عمرك، وتتمعين بصحة جيدة، أو ستفعلين إن انتبهت لنفسك جيدًا، كما أن لديك متسعًا من الوقت وفائضًا من المال حتمًا. سيقول أي امرئ بلا شك إن عليك العثور على شيء ما تفعلينه في هذه الأصباح البهيجة عوضًا عن الجلوس غارقة في الكآبة في هذا البيت الشبيه بالقبر وتعطين تعليمات للخادمة ألا تدخل عليك أحدًا».

«لكني لا أود رؤية أي أحد».

«أنا أجبر نفسي على ذلك».

تنهدت السيدة كَرو بحزن وأشاحت برأسها بعيدًا.

«أوه يا ديلا، لماذا لا تفهمين؟ أنا لست مثلك، أنا لا أستطيع... النسيان».

غمر وجه المرأة الأصغر ألم مفاجئ.

«أظنك تقصدين جايمي. لم أنس ذلك يا عزيزتي، ولا أستطيع طبعًا. لكن الحزن لن يساعدنا في العثور عليه».

«كأني لم أحاول العثور عليه لثماني سنين طوال، وبطرق أخرى إلى جانب الحزن»، أجابت السيدة كَرو ساخطة وفي صوتها نشيج.

«لقد حاولت طبعًا يا عزيزتي»، هدأتها الأخرى بسرعة، «وسنظل نحاول ذلك، كلانا، حتى نعثر عليه أو نموت. لكن هذا الشيء لا يساعدنا».

«لكني لا أود فعل أي شيء آخر»، غمغمت روث كَرو بحزن.

خيم الصمت للحظة، وجلست المرأة الأصغر تتفحص أختها بعينين مضطربتين معترضتين.

ثم قالت في نهاية المطاف بشيء من الغيظ «سامحيني يا روث، ولكن، هل ستظلين هكذا على الدوام؟ أعلم أنك أرملة، لكن حياتك الزوجية دامت عامًا واحدًا فحسب، وكان زوجك يكبرك بكثير. لقد كنت مجرد طفلة حينئذ، وليس هذا العام أكثر من حلم الآن. ولا يمكن لهذا حتمًا أن يكدّر حياتك كلها!».

«كلا، أوه، كلا»، غمغمت السيدة كَرو ولم تزل حزينة.

«فهل ستظلين هكذا على الدوام إذن؟».

«حسن، إن أفلحت في العثور على جايمي طبعًا...».

«أجل، أجل، أعلم. ولكن أليس في العالم شيء، عدا جايمي، يسعدك يا عزيزتي روث؟».

«لا يمكنني التفكير بشيء كهذا»، تنهدت السيدة كَرو بفتور.

«روث!»، قالت أختها وقد لدغها شيء كالغضب، ثم ضحكت فجأة «أوه يا روث. أود منحك جرعة من پوليانا يا روث. لست أعرف أحدًا يحتاجها أكثر منك!».

تشنجت السيدة كَرو قليلًا.

«حسن، لست أدري أي شيء هو پوليانا، ولكني لا أريده أيًا يكن»، أجابت بحدّة وقد اغتاظت هي أيضًا، «هذا ليس مصحك الحبيب، وأنا لست مريضتك لتجرعيني الدواء وتأمريني، تذكري هذا من فضلك».

تراقصت عينا ديلا وذربي، لكن شفتيها لم تفترا عن ابتسامة.

«إن پوليانا ليست دواء يا عزيزتي»، قالت معترضة، «رغم أني سمعت بعض الأشخاص يسمونها شرابًا مقويًا. إن پوليانا فتاة صغيرة».

«طفلة؟ حسن، وأنى لي أن أعرف؟!»، أجابت الأخرى ولم تزل مستاءة، «لديكم دواء «بِلادونا»[1]، فلست أرى سببًا يجعل «پوليانا» غير ذلك. كما أنك دائمًا ما تصفين لي شيئًا أتناوله، وقد قلت «جرعة» بوضوح، وكلمة جرعة تعني الدواء عادة، بطريقة ما».

---

(١) البِلادونا أو ست الحسن نبتة عشبية معمرة من العائلة الباذنجانية. استخدمت على مر العصور سمًا ومادة تجميلية، وقد استخدمتها كل من زوجتي الإمبراطور أغسطس وزوجة كلوديوس سمًا للقتل. والبِلادونا من اللغة الإيطالية تعني المرأة الجميلة، ذلك أن العشبة استخدمت قطرة لتوسيع حدقة العين.

«حسن، إن بوليانا دواء بطريقة ما»، ابتسمت ديلا، «على أية حال، فإن أطباء المصح كلهم يقولون إنها أفضل من أي دواء يمكنهم وصفه. إنها فتاة صغيرة يا روث، في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها، وقضت في المصح الصيف الماضي كله ومعظم الشتاء. لم أرها إلا شهرًا أو شهرين لأنها غادرت بعدما جئت. لكن هذا وقت كافٍ لي لتصيبني برُقيتها تمامًا. كما أن نزلاء المصح كلهم ما زالوا يتحدثون عن بوليانا ويلعبون اللعبة».

«اللعبة؟!».

«أجل»، هزت ديلا رأسها بابتسامة غريبة، «لعبة السعادة» لعبتها. لن أنسى ما حييت يوم عرفت اللعبة أول مرة. كان أحد إجراءات علاج بوليانا بغيضًا ومؤلمًا حقًا، ويكون هذا صباح كل ثلاثاء، وما إن وصلت حتى صار دور مجموعتي في إعطائه لها. كنت أخشاه، لأنني عرفت من تجربة سابقة مع أطفال آخرين ما الذي ينتظرنا؛ كدر وبكاء إن لم يكن أسوأ. غير أنني دهشت دهشة عظيمة حين حيتني بابتسامة وقالت إنها سعيدة لرؤيتي، وقد لا تصدقين هذا لكن شفتيها لم تفترا عن آنة طوال التعذيب، رغم أني موقنة أنني آلمتها بقسوة.

أظنني قلت شيئًا فضح دهشتي لأنها شرحت لي بجدية «أوه، نعم، لقد شعرت بهذا أيضًا، كما أنني خشيته أيضًا إلى أن خطر لي أنه مثل أيام غسيل نانسي، وبوسعي أن أكون الأسعد أيام الثلاثاء، لأنه ليس ثمة ثلاثاء آخر لأسبوع كامل».

«عجبًا، يا للغرابة!»، عبست السيدة كَرو دون أن تدرك تمامًا، «لكني لا أرى أية لعبة في هذا».

«كلا، ولا أنا رأيتها إلا في وقت لاحق إذ أخبرتني حينئذ. وتبين أنها ابنة يتيمة الأم لكاهن فقير في الغرب، وربتها السيدات المحسنات وصناديق المعونة. لقد أرادت دمية في طفولتها وتوقعتها واثقة من وصولها في الصندوق التالي، ولكنها لم تعثر على شيء سوى عكازين صغيرين.

بكت الطفلة طبعًا، فعلمها أبوها عندئذ لعبة البحث عن شيء يسعدها في كل ما يحدث. وقال إن بوسعها البدء تلك اللحظة بأن تكون سعيدة أنها ليست بحاجة لعكازين. كانت هذه هي البداية، وقالت پوليانا إنها لعبة رائعة، وأخذت تلعبها منذئذ، وكلما صعب العثور على الجزء السعيد كانت أكثر متعة، إلا إن كان الأمر بالغ الصعوبة، كما حدث أحيانًا».

«عجبًا، يا للغرابة!» غمغمت السيدة كَرو ولم تزل لم تستوعب تمامًا.

«ستظنين ذلك إن رأيت نتائج تلك اللعبة في المصح»، أومأت ديلا، «وقال الطبيب إيمز إنه سمع أنها حفزت كامل البلدة التي جاءت منها بالطريقة نفسها. إنه يعرف الطبيب تشلتن جيدًا؛ الرجل الذي تزوج خالة پوليانا. بالمناسبة، أظن أن هذا الزواج كان أحد صنائعها، فقد سوّت خلاف عشاق قديم بينهما.

لقد مات والد پوليانا قبل عامين أو أكثر، كما ترين، فأرسلت

الفتاة الصغيرة شرقًا إلى هذه الخالة. ودهستها سيارة في أكتوبر، وقيل لها إنها لن تتمكن من المشي ثانية. أرسلها الطبيب تشلتن إلى المصح في أبريل، ومكثت فيه حتى مارس الماضي، لعام تقريبًا. وعادت إلى البيت وقد شفيت تمامًا. كان لا بد لك من رؤية الطفلة! لم يكن ثمة ما يعكر صفو سعادتها إلا غيمة واحدة؛ أنها لن تستطيع المشي طوال طريق العودة. وبحسب ما أذكر خرجت البلدة بأكملها لملاقاتها حاملين اللافتات وآلات النفخ النحاسية.

ولكن لا يمكن للمرء أن يصف بوليانا، بل لا بد من رؤيتها. ولهذا السبب أود لك أن تحظي بجرعة من بوليانا، فهي ستفيدك كثيرًا».

رفعت السيدة كَرو ذقنها قليلًا.

«حقًا، حقًا، علي القول إنني أخالفك الرأي»، أجابت ببرود، «لست أهتم بأن أحفز، وليس عندي شجار عشاق يسوى، وإن كان ثمة أمر لا يحتمل عندي فسيكون الآنسة المثالية الصغيرة الجادة التي تعظني حول الكثير من الأمور التي علي أن أمتن لها. لن أطيق...».

وقاطعتها ضحكة رنانة «أوه، يا روث، يا روث»، غصت أختها جذلة، «إن بوليانا لهي الآنسة المثالية حقًا! أوه، أوه، لو أن بوسعك رؤية تلك الطفلة الآن! ولكن اسمعي، لعلي أعرف. قلت إن المرء لا يمكنه وصف بوليانا، وما من طريقة طبعًا لتريها. ولكن.... الآنسة المثالية حقًا!» وانطلقت تضحك ضحكة مجلجلة أخرى. غير أنها تعقلت من فورها وحلقت بأختها وفي عينيها النظرة القلقة المعتادة.

«ألا يمكن فعل شيء يا عزيزتي، حقًا؟»، توسلت، «ليس عليك إهدار حياتك على هذا النحو. ألن تحاولي الخروج أكثر و... لقاء الناس؟».

«ولماذا علي ذلك إن كنت لا أريده؟ لقد سئمت من الناس. تعلمين أن المجتمع أثار مللي دومًا».

«فلماذا لا تحاولين فعل بعض الأعمال الخيرية؟».

أومأت السيدة كرو بنفاد صبر.

«لقد تحدثنا في هذا كله من قبل يا عزيزتي ديلا. إنني أمنح المال، الكثير منه وهذا كافٍ. في الحقيقة لست متأكدة لكنه كثير. لست مقتنعة بتشجيع الناس على التسول».

«ولكن إن منحت قليلًا منه بنفسك يا عزيزتي»، تجرأت ديلا بلطف، «لو أنك تهتمين بشيء ما خارج إطار حياتك لساعدك هذا كثيرًا، و...».

«حسن يا عزيزتي ديلا»، قاطعتها الأخت الكبرى متململة، «إني أحبك، وأحب مجيئك هنا، إلا أنني لا أطيق الوعظ. جميل منك أن تحولي نفسك إلى ملاك للرحمة وتقدمي كؤوسًا من الماء البارد، وتضمدي الرؤوس المكسورة وما إلى ذلك. لعلك تستطيعين نسيان جايمي بهذه الطريقة. لكني لم أستطع، بل سيجعلني ذلك أفكر فيه أكثر، وأتساءل إن كان عنده من يعطيه ماء ويضمد رأسه. كما أن الأمر كله سيكون بغيضًا إلي للغاية، أعني الاختلاط بالناس باختلاف أنماطهم هكذا».

«هل جربته مرة؟».

«كلا، كلا طبعًا، لم أجربه!»، كان صوت السيدة كرو ساخطًا متهكمًا.

«فكيف لك أن تعرفي إذن؟»، سألت الممرضة الشابة وهي تنهض بوهن. «علي الذهاب يا عزيزتي. علي لقاء الفتيات في المحطة الجنوبية، وسينطلق قطارنا عند الثانية عشرة والنصف. وأنا آسفة إن أغضبتك مني»، أنهت قولها وهي تقبل أختها قبلة الوداع.

«أنا لست غاضبة منك يا ديلا»، تنهدت السيدة كَرو، «ليتك تفهميني فحسب!».

بعد ذلك بقليل شقت ديلا طريقها عبر الردهات الصامتة المعتمة وخرجت إلى الشارع. وقد تغير وجهها وخطواتها وسلوكها مما كانت عليه حين ارتقت العتبات قبل أقل من نصف ساعة. فقد تلاشى كل النشاط والمرونة والحيوية. وجرجرت قدميها بتثاقل لنصف الحي، ثم أرجعت رأسها للوراء فجأة وأخذت نفسًا طويلًا.

«إن قضاء أسبوع واحد في ذلك البيت سيقتلني»، اختلجت، «لست أظن أن پوليانا نفسها بقادرة على صنع نقرة في تلك الكآبة! والأمر الوحيد الذي بوسعها أن تسعد به أنها ليست مضطرة للبقاء».

لم يكن هذا الارتياب الصريح في قدرة پوليانا على إحداث تغيير للأحسن في منزل السيدة كَرو رأي ديلا وذربي الحقيقي، وهذا ما

تبين سريعًا. فما إن وصلت المرضة إلى المصح حتى عرفت شيئًا جعلها تعود سريعًا في رحلة الخمسين ميلًا نحو بوسطن اليوم التالي.

وقد وجدت الأحوال في بيت أختها كما عهدتها، ولكأن السيدة كَرو لم تتحرك منذ أن تركتها.

قالت بصخب وحماس بعد إجابتها على تحية أختها المندهشة «كان علي القدوم يا روث، وعليك هذه المرة أن تذعني لي وتدعيني أحقق رغبتي. أنصتي! أظنك تستطيعين استضافة الصغيرة پوليانا هنا، إن شئت».

«لكني لن أفعل»، أجابت السيدة كَرو بسرعة وبرود.

ولم يبد على ديلا وذربي أنها سمعت، فقد واصلت حديثها بحماس «حين عدت البارحة عرفت أن الطبيب إيمز تلقى رسالة من الطبيب تشلتن، الطبيب الذي تزوج خالة پوليانا كما تعلمين. حسن، لقد قال فيها إنه سيسافر إلى ألمانيا في الشتاء لدراسة خاصة وسيصطحب زوجته معه، إن استطاع إقناعها أن پوليانا ستكون على ما يرام في مدرسة داخلية أثناء ذلك. لكن السيدة تشلتن لم ترغب بترك پوليانا في مدرسة، وإنه يخشى أنها لن تذهب. وهذه فرصتنا الآن يا روث. أود منك أن تستضيفي پوليانا هذا الشتاء، وتجعليها ترتاد مدرسة هنا في الجوار».

«يا لها من فكرة غريبة يا ديلا! كأني أريد طفلة هنا تزعجني!».

«لن تزعجك البتة. لا بد أنها تكاد تبلغ الثالثة عشرة أو أتمتها بحلول ذلك الوقت، كما أنها أكثر الصغار استقلالية».

«لا أحب الأطفال «المستقلين»»، أجابت السيدة كَرو بعناد، لكنها ضحكت ولذا استجمعت أختها شجاعتها وضاعفت جهودها.

ربما كانت مفاجأة الطلب أو حداثته، وربما كانت قصة پوليانا قد لامست قلب روث كَرو شيئًا ما. وربما كان ذلك لعدم رغبتها في رفض التماس أختها الجياش. أيًا يكن ذلك فقد أمال كفة الميزان في نهاية المطاف، وحين غادرت ديلا وذربي على عجل بعد نصف ساعة، حملت معها وعد روث كَرو باستقبال پوليانا في بيتها.

«ولكن تذكري فحسب»، حذرتها السيدة كَرو عند الفراق، «تذكري فحسب أن الطفلة ستعود إليك ما إن تبدأ بوعظي وإخباري أن أحصي نعمي، ولن أبقيها ولك أن تفعلي بها ما شئت حينئذ».

«سأتذكر ذلك، إلا أنني لست قلقة البتة»، هزت المرأة الأصغر رأسها موافقة عند الوداع. وهمست لنفسها وهي تتعجل بالخروج من المنزل «ها قد أنجزت نصف العمل. أما النصف الآخر فإحضار پوليانا. لا بد لها أن تأتي. سأكتب تلك الرسالة فلا يكون عندهم خيار إلا إرسالها».

الفصل الثاني
بعض الأصدقاء القدامى

في بلدنغزفِل في يوم من شهر أغسطس، انتظرت السيدة تشلتن حتى خلدت پوليانا إلى الفراش، ثم تحدثت إلى زوجها عن الرسالة التي وصلت في بريد الصباح. وأما بشأن هذه المسألة، فقد اضطرت للانتظار، لأن ساعات العمل في العيادة المزدحمة وذهاب الطبيب في رحلتين طويلتين خلف التلال لم تدع مجالًا لاجتماع الأسرة.

في الحقيقة، كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف حين دخل الطبيب غرفة جلوس زوجته، وأشرق وجهه المتعب لدى رؤيتها، غير أن الحيرة والتساؤل غمرت عينيه في الحال.

«آه، ما الأمر يا عزيزتي پولي؟»، سأل باهتمام.

ضحكت زوجته ضحكة حزينة.

«حسن، إنها رسالة... رغم أنني لم أقصد أن تعرف الأمر بالنظر إلي فحسب».

«فليس عليك أن تظهري ذلك إذن»، ابتسم، «ولكن ما الأمر؟».

ترددت السيدة تشلتن وضغطت شفتيها ثم رفعت رسالة قربها.

قالت «سأقرأها لك. إنها من الآنسة ديلا وذربي من مصح الطبيب آمِس».

«هات ما لديك»، قال الرجل وقد تمدد على الأريكة القريبة من كرسي زوجته.

لكن زوجته لم «تأت بما لديها» في الحال، بل نهضت أولًا وغطت جسد زوجها المستلقي بغطاء صوفي رمادي. مضى عام على زواج السيدة تشلتن، وقد بلغت الثانية والأربعين. ويبدو أحيانًا أنها حاولت خلال هذا العام القصير حشد كل خدمتها المحبة و«الدلال» اللذين ظلا يتراكمان طوال عشرين عامًا من الوحدة وافتقاد الحب. ولم يكن الطبيب -الذي بلغ عمره الخامسة والأربعين يوم زفافه ولا يذكر شيئًا سوى الوحدة وافتقاد الحب- معارضًا البتة لهذه «العناية» المركزة. بل إنه تصرف كأنه مستمتع بها، رغم حرصه على ألا يظهر ذلك بوضوح شديد؛ إذ تبين أن السيدة بولي ظلت الآنسة بولي لوقت طويل وكانت عرضة للتراجع هلعًا وتسمية رعايتها بـ «السخيفة»، إن تلقاها بكثير من الملاحظة واللهفة. لذا قنع بتربيتة من يدها وهي تسوي الغطاء لآخر مرة، ثم جلست لتقرأ الرسالة جهرًا.

> «عزيزتي السيدة تشلتن، لقد بدأت كتابة الرسالة إليك ست مرات ومزقتها، لذا قررت الآن ألا «أبدأ» مطلقًا، بل أن أخبرك بما أريد في الحال. أريد بوليانا، فهل يمكنني استضافتها؟

لقد التقيتك وزوجك في مارس الماضي حين جئتما لأخذ بوليانا، لكني أظنك لا تذكرين. سألت الطبيب إيمز (الذي يعرفني جيدًا) أن يكتب إلى زوجك، فلا تخافي حينئذ (كما أرجو) أن تبقي ابنة أختك الصغيرة الحبيبة معنا.

عرفت أنك ذاهبة إلى ألمانيا مع زوجك، ولن تأخذا بوليانا، لذا فإني أتجرأ على أن أطلب منك السماح لنا باستضافتها. بل إني أتوسل إليك أن تسمحي لنا باستضافتها يا عزيزتي السيدة تشلتن. وسأخبرك بالسبب الآن.

إن أختي السيدة كَرو امرأة وحيدة مكسورة الفؤاد ناقمة تعسة، وتعيش في عالم معتم لا يخترقه ضياء الشمس. وبت قانعة أنه إن كان على الأرض ما قد يدخل البهجة إلى حياتها، فستكون ابنة أختك بوليانا. ألن تسمحي لها بالمحاولة؟ ليتني أستطيع إخبارك بما فعلته للمصح، ولكن لا يتأتى لأحد أن يفعل. عليك رؤية ذلك. لقد تبين لي منذ وقت طويل أن المرء لا يمكنه وصف بوليانا. فما إن يحاول المرء حتى تبدو متزمتة وواعظة وصعبة. ومع ذلك فأنت وأنا نعلم أنها ليست كذلك. ليس على المرء إلا إحضارها وجعلها تتحدث بنفسها. ولذا أود أخذها إلى أختي وجعلها تتحدث بنفسها. سترتاد المدرسة طبعًا، ولكني شديدة القناعة أنها أثناء ذلك ستفلح في شفاء قلب أختي الجريح.

لست أدري كيف أنهي هذه الرسالة، بل أظن هذا أصعب من محاولة بدئها. أخشى أنني لا أريد إنهاءها مطلقًا، بل أود

أن أتحدث وأتحدث، خشية أن يمنحك توقفي فرصة للرفض. ولذا فإن كنت عازمة على قول تلك الكلمة الرهيبة، فلعلك ترين أنني ما زلت أتحدث وأخبرك أننا بحاجة لپوليانا كثيرًا».

المخلصة المفعمة بالأمل

ديلا وذربي

«حسن!»، قالت السيدة تشلتن وهي تضع الرسالة، «هل قرأت يومًا رسالة غريبة كهذه، أو سمعت طلبًا أكثر استحالة وغرابة من هذا؟».

«لست متأكدًا»، ابتسم الطبيب، «لا أرى طلب پوليانا غريبًا».

«ولكن... ولكن الطريقة التي تطلب بها، شفاء قلب أختها الجريح وما إلى ذلك. حتى ليحسب المرء أن الطفلة نوع من الدواء!».

ضحك الطبيب من فوره ورفع حاجبيه.

«لكني لا أراها إلا كذلك يا پولي. لقد قلت إنني تمنيت دومًا أن أتمكن من التوصية بها وشرائها مثلما أشتري علبة أقراص، ويقول تشارلي إيمز دومًا إنهم اتخذوا قرارًا في المصح بإعطاء مرضاهم جرعة من پوليانا بأقصى سرعة بعد وصولهم، أثناء العام الذي قضته هناك».

«جرعة؟ حقًا؟!»، تهكمت السيدة تشلتن.

«فأنت لا تظنين أنك ستسمحين لها بالذهاب إذن؟».

«الذهاب؟ عجبًا، كلا طبعًا! هل تظنني سأترك طفلة تذهب إلى

غرباء تمامًا هكذا؟ ويا لهم من غرباء! عجبًا يا توماس، أحسب أن تلك الممرضة ستعبئها في زجاجات وتضع عليها ملصقات تكتب عليها تعليمات تناولها، في الوقت الذي سأعود فيه من ألمانيا».

أرجع الطبيب رأسه ثانية وانفجر ضاحكًا لدقيقة فحسب، إذ تغير وجهه تغيرًا واضحًا وهو يضع يده في جيبه ويخرج رسالة.

«لقد وصلتني رسالة أنا أيضًا من الطبيب إيمز هذا الصباح»، قال وفي صوته شيء غريب جعل زوجته تقطب حاجبيها حيرة، أظنني سأقرأ رسالتي الآن:

«عزيزي توم. لقد طلبت مني الآنسة ديلا وذربي أن أكتب تزكية لها ولأختها، وهذا مما يسعدني. لقد عرفت فتيات وذربي منذ الصبا، إذ ينحدرن من عائلة راقية، كما أنهن نساء ذوات نسب عريق، فلا شيء تخشاه من هذه الناحية.

إنهن ثلاث أخوات؛ دورِس وروث وديلا. تزوجت دورِس برجل اسمه جون كنت، مخالفة رأي العائلة. كان جون أصيل النسب، لكنه لم يكن رجلًا صالحًا كما أظن، وقد كان رجلًا غريب الأطوار بغيضًا يصعب التعامل معه. واستشاط غضبًا لموقف آل وذربي منه، ولم يكن بين العائلتين من اتصال إلا قليلًا حتى ولد الطفل. لقد فتن آل وذربي بالصبي الصغير جيمس، جايمي كما يسمونه. ماتت أمه دورِس حين بلغ الصبي عامه الرابع، وحاول آل وذربي جهدهم ليجعلوا الأب يتنازل عن الطفل كليًا، ثم اختفى كِنت فجأة آخذًا معه الصبي، ولم يعثر عليه منذئذ، رغم البحث الحثيث.

لقد قتل الفقدان السيد والسيدة وذربي، فقد مات كلاهما بعد ذلك. وتزوجت روث وأصبحت أرملة، وكان زوجها رجلًا يدعى كرو، شديد الثراء ويكبرها بكثير. ولم يعش بعد الزواج إلا سنة أو نحوها لكنه تركها مع ابن صغير مات أيضًا خلال عام.

منذ أن اختفى جايمي الصغير، لم يعد لدى روث وديلا إلا هدف واحد في الحياة، وهو العثور عليه. لقد أنفقتا مقدارًا هائلًا من الأموال، وبحثتا في السماء والأرض دون جدوى. تعلمت ديلا التمريض أثناء ذلك، وهي تبلي حسنًا وأصبحت امرأة عاقلة مرحة كفؤة كما قُدّر لها، رغم أنها لم تنس أبدًا ابن اختها المفقود، ولم تتجاهل يومًا أي أثر قد يوصل إليه.

لكن الأمر مختلف تمامًا لدى السيدة كَرو. فبعد فقدانها لابنها، بدا أنها كرست كل حب الأم المحبطة لابن أختها. لقد جن جنونها حين اختفى كما لكما أن تتخيلا. وكانت تلك عندها ثماني سنوات طوال من البؤس والحزن والمرارة. إن كل ما يشترى بالمال طوع أمرها طبعًا، ولكن لا شيء يسعدها ولا شيء يثير اهتمامها. وترى ديلا أن الوقت قد حان كي تخرج من كل هذا، رغم المجازفة. وتثق ديلا أن ابنة أخت زوجتك المرحة بوليانا تملك المفتاح السحري الذي سيفتح باب حياة جديدة لها. وما دامت هذه هي الحال، فإني أرجو أن الأمور اتضحت لديك فتمنحها سؤلها. كما أنني سأضيف أنني أيضًا،

شخصيًا، سأقدر صنيعك لأن روث كَرو وأختها صديقتان قديمتان عزيزتان على زوجتي وعلي، وما يمسهم يمسنا».

المخلص أبدًا

تشارلي

انتهت الرسالة، وساد صمت طويل، طويل جدًا جعل الطبيب يقول «ما قولك يا پولي؟».

ما زال الصمت مخيمًا. راقب الطبيب وجه زوجته عن كثب، ورأى الذقن والشفتين الحازمتين عادة ترتعش. فانتظر حينئذ حتى تحدثت زوجته.

«متى سيكونون بانتظارها في ظنك؟»، سألت في نهاية المطاف.

دهش الطبيب تشلتن رغمًا عنه.

«أتعنين أنك ستسمحين لها بالذهاب؟».

استدارت زوجته باستياء «عجبًا يا توماس، يا له من سؤال! هل تظن أن بوسعي فعل شيء إلا السماح لها بالذهاب بعد رسالة كهذه؟ ثم ألم يطلب منا الطبيب إيمز هذا بنفسه؟ هل تظنني سأرفض لهذا الرجل طلبًا مهما كان بعد كل ما فعله لأجل پوليانا؟».

«يا إلهي يا إلهي! أرجو ألا يخطر في بال الطبيب أن يطلبك يا حبيبتي»، همهم الزوج الذي مضى على زواجه عام بابتسامة غريبة.

لكن زوجته نظرت إليه نظرة ساخرة يستحقها وقالت «يمكنك الكتابة للطبيب إيمز أننا سنرسل پوليانا، واطلب منه أن يخبر الآنسة

وذربي لتعطينا التعليمات كاملة. لا بد أن يحدث هذا قبل العاشر من الشهر القادم، موعد إبحارك، وأود التأكد من استقرار الطفلة تمامًا قبل سفري طبعًا».

«متى ستخبرين بوليانا؟».

«غدًا على الأغلب».

«ماذا ستقولين لها؟».

«لست أدري تمامًا، ولكني لن أخبرها بأكثر مما لا أستطيع تجنب ذكره حتمًا. مهما حدث يا توماس، لا نود إفساد بوليانا، ولا شك أن الطفلة ستفسد إن آمنت أنها نوع من... من...».

«من زجاجة دواء عليها ملصق بتعليمات كاملة للتناول؟»، قاطعها الطبيب مبتسمًا.

«أجل»، تنهدت السيدة تشلتن، «إن لاوعيها يخزن كامل الأمر، وأنت تعلم هذا يا عزيزي».

«أجل، أعلم» هز الرجل رأسه موافقًا.

«إنها تعرف طبعًا أننا أنت وأنا ونصف البلدة نلعب اللعبة معها، وأننا أسعد على نحو مذهل لأننا نلعبها»، تهدج صوت السيدة تشلتن قليلًا، ثم واصلت بثبات أكثر، «ولكن إن أخذت تتعمد، على غير طبيعتها المعتادة السعيدة المبتهجة وتلعب اللعبة التي علمها لها والدها، أصبحت كما قالت عنها الممرضة «صعبة». لذا فمهما كان ما سأقوله لها لن أخبرها أنها ذاهبة إلى السيدة

كَرو لإبهاجها»، ختمت السيدة تشلتن ناهضة بحزم ومستعدة لمهمتها.

«وهذا ما أراه حكمة منك»، وافقها الطبيب.

أبلغت پوليانا اليوم التالي، وهكذا جرت الأمور.

«عزيزتي»، بدأت خالتها حين كانتا وحدهما ذلك الصباح، «ما رأيك بقضاء الشتاء القادم في بوسطن؟».

«معك؟».

«كلا، لقد عزمت على الذهاب مع عمك إلى ألمانيا. لكن السيدة كَرو صديقة عزيزة على الطبيب إيمز قد طلبت أن تذهبي وتمكثي معها فصل الشتاء، وأظنني سأسمح لك بالذهاب».

اكفهر وجه پوليانا.

«ولكني لن أرى جيمي أو السيد پندلتن أو السيدة سنو، أو أحدًا ممن أعرف في بوسطن يا خالتي پولي».

«كلا يا عزيزتي، ولكنك لم تعرفيهم حين أتيت هنا، حتى تعرفت عليهم».

ابتسمت پوليانا فجأة.

«صحيح يا خالتي پولي، لم أعرفهم! وهذا يعني أنني سأجد في بوسطن الكثير من جيمي والسيد پندلتن والسيدة سنو الذين لا أعرفهم بانتظاري، أليس كذلك؟».

«بلى يا عزيزتي».

«فسأسعد بذلك إذن. بت قانعة الآن أنك تعرفين كيف تلعب اللعبة أفضل مني يا خالتي پولي. لم أفكر يومًا بالناس الذين ينتظرون أن أتعرف عليهم، كما أنهم كثيرون! لقد رأيت بعضهم حين كنت هناك قبل عامين مع السيدة غراي، وقضينا هناك ساعتين كاملتين في طريقنا من الغرب كما تعرفين.

في المحطة رجل رائع للغاية أخبرني من أين أشرب الماء. هل تظنينه هناك الآن؟ أود التعرف عليه. وكان ثمة سيدة مع فتاة صغيرة، تعيشان في بوسطن، قالتا إنهما تفعلان. كان اسم الفتاة الصغيرة سوزي سميث. لعلي أستطيع التعرف عليهما، هل تظنينني أستطيع؟ كما كان ثمة صبي وسيدة أخرى مع طفل، غير أنهم يعيشون في هونولولو، ومن المحتمل ألا أراهم. غير أن السيدة كَرو ستكون موجودة على أية حال. من هي السيدة كَرو يا خالتي پولي؟ هل هي قريبة لنا؟».

«يا للهول يا پوليانا»، قالت السيدة تشلتن بين الضحك واليأس، «كيف تظنين أحدًا يجاري لسانك، عدا عن أفكارك، إن كان سيذهب إلى هونولولو ويعود في دقيقتين؟ كلا، إن السيدة كَرو ليست قريبة لنا. إنها أخت الآنسة ديلا وذربي، هل تذكرين الآنسة وذربي في المصح؟».

صفقت پوليانا.

«أختها؟ أخت الآنسة وذربي؟ فأنا واثقة أنها ستكون رائعة إذن، فالآنسة وذربي كذلك. وأنا أحب الآنسة وذربي. لديها تجعيدات

ابتسامة حول عينيها وفمها، كما أنها تعرف أجمل القصص. لقد عرفتها لشهرين فقط، لأنها وصلت هناك قبل مغادرتي بوقت قصير. شعرت بالأسف في بادئ الأمر لأنني لم أعرفها طوال الوقت، لكني سررت بعد ذلك لأنني لو عرفتها طوال الوقت، لكان وداعها أصعب مما كان عليه حين لم أعرفها إلا لوقت قصير كما تعلمين. ويبدو الآن أنني سأراها ثانية، لأنني سأتعرف إلى أختها».

أخذت السيدة تشلتن نفسًا وعضت على شفتيها.

«ولكن يجب ألا تظني أنهما متشابهتان يا عزيزتي پوليانا»، تجرأت.

«عجبًا، إنهما أختان يا خالتي پولي»، جادلتها الفتاة الصغيرة وقد اتسعت عيناها، «وأظن أن الأخوات يتشابهن دومًا. لقد كان في جمعية النساء المحسنات زوجان من الأخوات، الزوج الأول كانتا توءمين، وكانتا متشابهتين كثيرًا فلا يستطيع المرء أن يعرف أيهما السيدة پِك وأيهما السيدة جونز، حتى ظهرت ثؤلولة على أنف السيدة جونز، فاستطعنا التمييز بينهما عندئذ لأننا كنا نبحث عن الثؤلولة أولًا. وهذا ما أخبرتها به يومًا حين اشتكت من تسمية الناس لها بالسيدة پِك، فقلت لو أنهم نظروا إلى الثؤلولة كما فعلت لعرفوها في الحال. لكنها كانت نزقة، أعني أنها استاءت وأخشى أن ما قلته لم يعجبها، غير أنني لا أدري لماذا. لأني أرى أن عليها أن تكون سعيدة لوجود شيء يفرق بينهما، وبخاصة أنها الرئيسة، ولم يعجبها أن يتصرف الآخرون كأنها ليست الرئيسة، فلا تحصل

على أفضل المقاعد واللقاءات والدعوات الخاصة في حفلات عشاء الكنيسة كما تعرفين. لكنها لم تفعل، وسمعت لاحقًا السيدة وايت تخبر السيدة راوسن أن السيدة جونز فعلت كل ما بوسعها للتخلص من تلك الثؤلولة، وجربت وضع ملح على ذيل عصفور. لكني لست أرى كيف يجدي ذلك نفعًا. هل وضع الملح على ذيل عصفور يشفي الثآليل على أنوف الناس يا خالتي پولي؟».

«كلا طبعًا يا صغيرتي! يا إلهي كم تتحدثين يا پوليانا، وبخاصة إن بدأت الحديث عن السيدات المحسنات!».

«حقًا يا خالتي پولي؟»، سألت الفتاة الصغيرة بحزن، «وهل يزعجك هذا؟ لست أقصد إزعاجك حقًا يا خالتي پولي. وإن كنت أزعجك بشأن هؤلاء السيدات المحسنات، فيمكنك أن تسري، لأنني أفكر بالمحسنات، وأنا أعرف أنني سعيدة أنني لست معهن بعد اليوم، بل صار لدي خالة حقيقية. يمكنك أن تسري بهذا، أليس كذلك يا خالتي پولي؟».

«أجل، أجل يا عزيزتي، يمكنني ذلك طبعًا»، ضحكت السيدة تشلتن وهي تنهض لمغادرة الغرفة، وقد شعرت بالذنب فجأة لأنها أدركت شعورها أحيانًا بشيء من استيائها القديم من سعادة پوليانا الدائمة.

أثناء الأيام القليلة التالية، حين كانت الرسائل المتعلقة بقضاء پوليانا فصل الشتاء في بوسطن تروح وتغدو، أخذت پوليانا تتأهب لتلك الإقامة بسلسلة من زيارات الوداع لأصدقائها في بلدنغزفِل.

بات الجميع في قرية فيرمونت الصغيرة يعرف پوليانا، والجميع يلعب اللعبة معها. أما القلة الذين لا يفعلون فلم يكونوا عازفين بل جاهلين بلعبة السعادة. لذا أذاعت پوليانا خبر ذهابها إلى بوسطن لقضاء الشتاء، وارتفعت جلبة الاعتراض والأسف عاليًا بدءًا من نانسي في مطبخ الخالة پولي حتى المنزل الكبير الذي يسكنه جون پندلتن.

لم تتردد نانسي في القول -للجميع عدا سيدتها- إنها ترى رحلة بوسطن هذه حماقة، وإنها من جانبها ستسر بأخذ الآنسة پوليانا معها إلى منزلها في ذا كورنرز، حقًا، ويمكن حينئذ للسيدة پولي الذهاب إلى ألمانيا كما تشاء.

وقال جون پندلتن أعلى التلة الأمر نفسه، عدا أنه لم يتردد في قوله للسيدة تشلتن. أما جيمي، الصبي الذي يبلغ من العمر اثني عشر عامًا وأخذه جون پندلتن لأن پوليانا أرادت ذلك، والذي تُبني -لأن هذا ما أراده لنفسه- فقد كان ساخطًا، ولم يتوان في إظهار ذلك.

«ولكنك جئت منذ وقت قريب»، أنب پوليانا بنبرة صوت خليق بصبي صغير أن يتحدث بها إن أراد إخفاء حقيقة أن له قلبًا.

«حسن، لقد كنت هنا منذ مارس الماضي. كما أنني لن أستقر هناك، بل سأقضي الشتاء فحسب».

«لا أبالي، لقد كنتَ بعيدة لعام كامل، ولو علمت أنك تسافرين ثانية، لما جعلت فتى واحدًا يخرج لاستقبالك يوم تعودين من المصح بالأعلام والآلات الموسيقية».

«أفٍ منك يا جيمي بِين!»، قالت پوليانا في امتعاض ودهشة. ثم قالت بشيء من الفوقية ولدتها الكبرياء الجريحة «أعرف أنني لم أطلب منك استقبالي بالآلات وما إلى ذلك... وقد أخطأت خطأين في هذه الجملة. فلا يصح أن تقول كنتَ، وأظن قولك يوم تعودين خطأ، ولا يبدو صحيحًا على أية حال».

«حسن، ومن يبالي إن فعلت؟».

ازداد الامتعاض في عيني پوليانا.

«لقد قلت إنك تبالي؛ حين طلبت مني هذا الصيف أن أنبهك حين تخطئ، لأن السيد پندلتن يحاول تعليمك الكلام اللائق».

«لو نشأتِ في ميتم دون أهل يهتمون، بدلًا من مجموعة كبيرة من النسوة العجائز اللاتي لا يفعلن شيئًا سوى إخبارك أن تتحدثي على نحو لائق، فلربما قلتِ كنتَ، وأشياء أسوأ كثيرًا يا پوليانا ويتير!».

«ويلي منك يا جيمي بِين!»، استشاطت پوليانا غضبًا، «إن السيدات المحسنات لسن عجائز، أعني ليس كلهن عجائز جدًا»، صححت بسرعة، وقد حل محل غضبها نزعتها المعتادة للصدق والدقة. «و...».

«كما أني لست جيمي بِين»، قاطعها الصبي رافعًا ذقنه.

«أنت لست جيمي بيـ... عجبًا، ماذا تعني»؟، سألت الفتاة الصغيرة.

«لقد تُبنيت قانونيًا، لقد قال إنه كان ينوي ذلك طوال الوقت، عدا أنه لم يفعلها. يجب أن أدعى «جيمي پندلتن» وأنا سأناديه العم جون، إلا أنا، أنني، إلا إنني لم أعتد ذلك، لذا لن، لم أبدأ بتسميته كذلك بعد»[1].

لم يزل الصبي يتحدث باستياء وامتعاض، غير أن آثار الاستياء امحت من وجه الفتاة الصغيرة لدى سماع كلماته، وصفقت جذلًا.

«أوه يا للروعة! لقد صار لديك أهل حقًا، أهل يهتمون كما ترى. كما أنك لست مضطرًا للقول إنه ليس من أهلك، لأن اسمك مثل اسمه الآن. إنني سعيدة، سعيدة، سعيدة!».

نهض الصبي فجأة من السور الحجري الذي يجلسان عليه ومشى. كانت وجنتاه ساختتين وعيناه مغرورقتين بالدمع. لقد كان مدينًا بكل هذا لپوليانا، بكل هذا الخير الذي حدث له، وقد علم ذلك. وقد قال لتوه لپوليانا....

ركل حجرًا صغير بقوة ثم آخر فآخر. لقد ظن أن هذه الدموع الحارة في عينيه ستسيل وتتدحرج على وجنتيه رغمًا عنه. فركل حجرًا آخر فآخر، ثم حمل حجرًا ثالثًا ورماه بكل قوته. ثم عاد إلى پوليانا التي لم تزل جالسة على السور الحجري.

«أراهنك على أني أستطيع وصول شجرة الصنوبر تلك قبلك»، تحداها عابثًا.

---

(١) يتلعثم جيمي لأنه يخشى من تخطئة پوليانا له!

«لكنك لا تستطيع»، صاحت پوليانا، وهي تسرع للنزول من مكانها.

لم يكن السباق جريًا، لأن پوليانا تذكرت في الوقت المناسب أن الجري السريع كان أحد الألعاب المحرمة عليها. لكن هذا لا يهم على حد رأي جيمي. لم تعد وجنتاه ساخنتين ولم تعد عيناه تهددان بسيل من الدموع، وعاد جيمي إلى طبيعته ثانية.

الفصل الثالث

جرعة من پوليانا

مع اقتراب يوم الثامن من سبتمبر، يوم وصول پوليانا، غدت السيدة كَرو أكثر سخطًا وحنقًا من نفسها، فقد قالت إنها ندمت على قطعها وعدًا باستضافة الطفلة، وقد حدث هذا منذ أن قطعته. بل كتبت لأختها قبل مضي أربع وعشرين ساعة على ذلك تسألها أن تعفيها من اتفاقهما، لكن ديلا أجابتها أن الأوان فات، فقد كتبت هي والطبيب إيمز رسالتين لآل تشلتن.

وصلت رسالة من ديلا بعد ذلك تقول إن السيدة تشلتن قد وافقت، وإنها ستأتي إلى بوسطن في غضون أيام قليلة لترتيب أمور المدرسة وما إلى ذلك. لذا ما من شيء يُفعل حتمًا سوى ترك الأمور تأخذ مجراها. أدركت السيدة كَرو ذلك وأذعنت لما هو واقع بقليل من البهجة. صحيح أنها حاولت أن تظهر تهذيبًا وكياسة حين حضرت ديلا والسيدة تشلتن في موعدهما المنتظر، لكنها كانت سعيدة للغاية لأن قلة الوقت جعلت زيارة السيدة تشلتن قصيرة جدًا، ومزدحمة بالأعمال.

لعل وصول پوليانا المتوقع في زمن لا يتعدى الثامن من سبتمبر كان أمرًا حسنًا، لأن الوقت الطويل جعل السيدة كَرو غاضبة نافدة الصبر لما آثرت تسميته «إذعانًا غريبًا لخطة ديلا المجنونة» بدلًا من حملها على قبول الضيف الجديد المرتقب في منزلها.

غير أن ديلا أدركت حال أختها تمام الإدراك. وإن بدت صلبة في الظاهر، فقد خافت في داخلها من العواقب، وآمنت بپوليانا، ومن أجل ذلك عزمت على الخطوة الجريئة في ترك الفتاة الصغيرة تبدأ القتال وحيدة بلا عون. لذا تدبرت استقبال السيدة كَرو لهم في المحطة لدى وصولهم، ثم ما إن انتهت التحية والتعارف حتى تذرعت بموعد مسبق ورحلت. لم يتسن للسيدة كَرو وقت كافٍ للنظر إلى عهدتها الجديدة ووجدت نفسها وحدها معها.

«أوه، ولكن يا ديلا، لا يمكنك... لا أستطيع... يا ديلا»، هتفت بانزعاج خلف الممرضة المغادرة.

لكن ديلا لم تلتفت، إن سمعتها، واستدارت السيدة كَرو عائدة إلى الطفلة بادٍ عليها الحنق والغضب.

«خسارة! لم تسمعك، أليس كذلك؟» قالت پوليانا وعيناها تلاحقان الممرضة بحزن، «وأنا لم أردها أن تذهب الآن. ولكن أنت عندي، أليس كذلك؟ يمكنني أن أسر بهذا».

«أوه، أجل أجل، عندك أنا، وعندي أنت»، أجابت السيدة بشيء من الفظاظة، «هلمي سنذهب من هنا»، أشارت بحركة نحو اليمين.

استدارت بوليانا طائعة ومشت قرب السيدة كَرو في المحطة الكبيرة، لكنها نظرت مرة أو مرتين بقلق إلى وجه السيدة العابس.

ثم تحدثت في نهاية المطاف مترددة «أحسب أنك ظننت... أني سأكون جميلة»، تجرأت على القول.

«جـ... جميلة؟» كررت السيدة كَرو.

«أجل، ولي عقص وما إلى ذلك كما تعلمين. ولا شك أنك تساءلت عن مظهري، كما فعلت أنا عن مظهرك. غير أني علمت أنك ستكونين جميلة ولطيفة مثل أختك. وقد عرفتها فيكون عندي لمحة أما أنت فلم يتسن لك ذلك عني. وأنا لست جميلة طبعًا بسبب النمش. وإن كنت تتوقعين فتاة جميلة وتأتي إليك واحدة مثلي فلن يكون بالأمر الحسن، و...».

«كلام فارغ أيتها الطفلة!»، قاطعتها السيدة كَرو بشيء من الحدة، «هلمي، سنبحث عن حقيبتك، ثم سنذهب للبيت. لقد أملت أن تأتي أختي معنا، ولكن يبدو أن هذا لا يلائمها، ولا حتى لليلة واحدة».

ابتسمت بوليانا وهزت رأسها موافقة.

«أعلم، لكنها لم تستطع على الأغلب. أحسب أن أحدًا بحاجتها. كان أحد ما بحاجتها دومًا في المصح. إنه لأمر مزعج طبعًا أن يحتاجك الناس طوال الوقت أليس كذلك؟ لأن المرء عندئذ لا يستطيع أن يحظى بوقت لنفسه حين يحتاج نفسه مرات كثيرة. غير

أن بوسعه أن يسعد بهذا، لأنه أمر لطيف أن يكون المرء مرغوبًا، أليس كذلك؟».

لم يصلها جواب، ولعل السيدة كَرو أخذت تتساءل لأول مرة في حياتها إن كان في العالم أحد أرادها حقًا، وكأنها تود أن تكون مرغوبة، قالت في نفسها بغضب وقد وقفت مرتعشة، ونظرت عابسة إلى الصغيرة قربها.

لم تر پوليانا العبوس، بل كانت عيناها على الجموع المسرعة قربهما.

«يا إلهي! يا لهم من ناس كثيرين»، قالت بسعادة، «إنهم أكثر مما كانوا حين كنت هنا آخر مرة، لكني لم أر أحدًا ممن رأيتهم حينها رغم أنني بحثت عنهم في كل مكان. صحيح أن السيدة والطفل يعيشان في هونولولو، لذا فإنهما ليسا هنا على الأرجح، ولكن ثمة فتاة صغيرة، سوزي سميث، تعيش هنا في بوسطن. لعلك تعرفينها، هل تعرفين سوزي سميث؟».

«كلا، لا أعرف سوزي سميث»، أجابت السيدة كرو بجفاف.

«حقًا؟ إنها لطيفة للغاية، وهي جميلة ولها عقص سوداء كما تعرفين، تلك التي سأحصل عليها حين أذهب إلى الجنة. ولكن لا عليك، لعلي أعثر عليها من أجلك فتعرفينها. أوه يا إلهي! يا لها من سيارة رائعة! وهل سنركبها؟»، سكتت پوليانا حين توقفتا أمام سيارة ليموزين فاخرة، فتح بابها سائق يرتدي بزة.

حاول السائق إخفاء ابتسامة ولم يفلح. ردت عليها السيدة كَرو بقلق امرئ لا يعني له ركوب السيارة إلا وسيلة تنقل من مكان مضجر إلى آخر يماثله إضجارًا.

«أجل، سنركبها»، ثم، «إلى البيت يا بيركنز»، أضافت قائلة للسائق المطيع.

«أوه يا إلهي، أهي لك؟»، سألت بوليانا، وقد أدركت دون خطأ حس الملكية في أسلوب مضيفتها. «يا للروعة! فلا بد أنك ثرية للغاية، أعني فاحشة الثراء، أكثر ممن يملك سجادة في كل غرفة ويخصص أيام الأحد للمثلجات، مثل آل وايت من السيدات المحسنات كما تعرفين. (أعني أن السيدة كانت من السيدات المحسنات). لقد ظننت دومًا أنهن ثريات، غير أنني أدرك الآن أن الثراء حقًا يعني امتلاك المرء لخواتم الماس وخادمات ومعاطف مصنوعة من جلد الفقمة، وفساتين يومية من الحرير والقطيفة، وسيارة. أتملكين هذا كله؟».

«حسن، أ... أجل، أظنني أملكه»، أقرت السيدة كَرو بابتسامة خافتة.

«فأنت ثرية إذن»، هزت بوليانا رأسها بحصافة، «تملك خالتي بولي هذا كله أيضًا، سوى أن سيارتها يجرها حصان. يا إلهي، كم أحب ركوب هذه الأشياء!»، قالت بوليانا نشوى قافزة قفزة صغيرة سعيدة، «لم أفعل ذلك قبلًا كما تعلمين، عدا التي دهستني، وقد وضعوني فيها بعد أن أخرجوني من تحتها، لكني لم أعلم بالأمر

طبعًا، لذا لم أستمتع بها. ولم أركب واحدة منذئذ قط، فخالتي بولي لا تحبها. أما العم توم فيحبها ويرغب بواحدة. ويقول إن عليه شراء واحدة من أجل عمله، فهو طبيب كما تعرفين، وكل الأطباء الآخرين في البلدة يملكون سيارات. ولست أدري إلام سيؤول الأمر، فالخالة بولي تبغضها، لكنها تريد للعم توم أن يحصل على ما يريد كما تعلمين، عدا أنها تريده أن يرغب بما تريد له أن يرغب به، أتفهمين؟».

ضحكت السيدة كَرو فجأة.

«أجل يا عزيزتي، أظنني أفهم»، أجابت بوقار إلا أن في عينيها بريقًا غريبًا.

«حسن»، تنهدت بوليانا راضية، «حسبت أنك ستفهمين، رغم أن الأمر بدا مربكًا حين قلته. أوه، تقول خالتي بولي إنها لن تمانع كثيرًا في امتلاك سيارة، إن استطاعت امتلاك السيارة الوحيدة في العالم فلا يكون ثمة أخرى تدهسها، ولكن... يا للروعة! يا لها من منازل كثيرة!» سكتت بوليانا وهي تنظر حولها بعينين متسعتين دهشة. «أليس لها نهاية؟ غير أنها لا بد أن تكون كثيرة لكل هؤلاء الناس ليسكنوها طبعًا، أولئك الذين رأيتهم في المحطة إلى جانب كل هؤلاء هنا في الشوارع. وحيثما وجد الكثير من الناس، فثمة الكثيرون لأعرفهم طبعًا. أنا أحب الناس، ألا تفعلين؟».

«تحبين الناس؟».

«أجل، الناس، أعني أي أحد، الجميع».

«حسن، كلا يا پوليانا. لا يمكنني القول إنني أفعل»، أجابت السيدة كَرو ببرود وقد عقدت حاجبيها.

تلاشى البريق من عيني السيدة كَرو، وحل محله شيء من الريبة من پوليانا. وقالت السيدة كَرو في نفسها «أظنها ستبدأ الموعظة الأولى بضرورة اختلاطي بالناس، على طريقة أختي ديلا».

«ألا تحبينهم؟ أوه، أنا أفعل»، تنهدت پوليانا، «فهم جميعًا لطيفون ومختلفون كما تعلمين. ولا بد أن الكثيرين هنا لطيفون ومختلفون. أوه، لست تدرين بقدر سعادتي لمجيئي هنا بسرعة! علمت أنني سأفعل على أية حال ما إن عرفت أنك أنت، أعني أخت الآنسة وذربي. أنا أحب الآنسة وذربي، فعرفت أنني سأحبك أيضًا، لأنكما متشابهتان طبعًا، لكونكما أختين، حتى إن لم تكونا توءمين كالسيدة جونز والسيدة پِك، وهما لم تكونا متشابهتين تمامًا بسبب ثؤلولتها. لكني أحسبك لا تعرفين ما أعني، لذا سأخبرك».

وهكذا وجدت السيدة كَرو التي أعدّت نفسها لموعظة حول الأخلاقيات الاجتماعية، أنها تصغي، بدهشة وحيرة، إلى قصة ثؤلولة على أنف السيدة پِك من السيدات المحسنات.

انعطفت السيارة إلى جادة كومنولث حين انتهت القصة، وأخذت پوليانا من فورها تتعجب لجمال الشارع الذي كان فيه فناء رائع كبير طويل يمتد على طوله ومنتصفه، وقد كان أجمل كما قالت بعد كل هذه الشوارع الصغيرة الضيقة.

«أظن أن الجميع يود العيش فيه»، علقت بحماس.

«هذا صحيح، ولكن هذا ليس ممكنًا»، أجابت السيدة كرو بحاجبين مرفوعين.

وأسرعت بوليانا في إصلاح الأمور، فقد أخطأت في فهم التعبير على وجه السيدة بأنها غير راضية لأن بيتها لا يقع في الجانب الجميل.

«أوه، كلا، كلا طبعًا»، وافقتها، «ولم أقصد أن الشوارع الضيقة ليست بجميلة»، وتعجلت في المتابعة، «بل لعلها أفضل، إذ بوسعك أن تسعدي أنك لن تضطري للمشي طويلًا لاقتراض بيض أو صودا و... أوه، هل تسكنين هنا؟»، قاطعت نفسها حين توقفت السيارة أمام مدخل منزل كَرو الفخم، «أتسكنين هنا يا سيدة كرو؟».

«أف! أجل طبعًا إني أسكن هنا»، أجابت السيدة بشيء من الحنق.

«أوه، لا بد أنك سعيدة سعيدة لأنك تسكنين في مكان رائع للغاية!»، قالت الفتاة الصغيرة جذلة وهي تقفز إلى الرصيف وتنظر حولها بلهفة، «ألست سعيدة؟».

لم تجب السيدة كَرو، بل ترجلت من الليموزين بشفتين مزمومتين وحاجبين معقودين.

وأسرعت بوليانا لإصلاح الأمور مرة أخرى خلال خمس دقائق.

«لم أعن بقولي سعيدة أن تكوني متكبرة»، فسرت وهي تتفحص وجه السيدة كرو بعينين قلقتين، «لعلك ظننت أن هذا ما قصدته كما

تظن خالتي پولي أحيانًا. لست أقصد أن تكوني سعيدة لأنك تملكين أشياء لا يستطيع آخرون امتلاكها، بل قصدت أن تكوني سعيدة بأن ترغبي بالصراخ والابتهاج وصفق الأبواب كما تعلمين، وإن لم يكن ذلك لائقًا»، أنهت قولها وهي ترقص على أطراف أصابعها.

أدار السائق ظهره على عجل وأشغل نفسه بالسيارة. وارتقت السيدة كرو العتبات الحجرية العريضة، ولم تزل شفتاها مزمومتين وحاجبها معقودين.

«هلمي يا پوليانا»، كان كل ما قالته بتحفظ.

تلقت ديلا وذربي رسالة من أختها بعد خمسة أيام، وفتحتها بلهفة. فهذه أول رسالة منذ قدوم پوليانا.

أختي العزيزة ديلا

حبًا بالله يا ديلا، لماذا لم تلمّحي لي عما ينتظرني من هذه الطفلة التي أصررت على استضافتي لها؟ إنني غاضبة جدًا، لكنني لا أستطيع إبعادها. لقد حاولت ثلاث مرات، وفي كل مرة قبل أن أنطق الكلمات، توقفها بإخباري أنها تقضي وقتًا رائعًا للغاية، وأنها سعيدة لوجودها هنا، وأنني كريمة لسماحي لها بالإقامة معي أثناء سفر خالتها پولي إلى ألمانيا. والآن أنى لي مقابل هذا أن أقف وأقول «هلا عدت إلى ديارك من فضلك لأني لا أريدك؟» وأما الجزء الغريب فإني لا أظن أنها تبادر إلى ذهنها أنني لا أريدها هنا، ولا أظنني أستطيع إقناعها بذلك أيضًا.

إن بدأت بالوعظ أو بإخباري أن علي تعداد النعم التي لدي فسأعيدها إلى ديارها حتمًا. تعلمين أنني أخبرتك قبلًا أنني لا أسمح بهذا، ولن أسمح به. لقد ظننت مرتين أو ثلاثًا أنها ستبدأ (أعني تبدأ الوعظ)، غير أنها أنهت ذلك كل مرة بقصة سخيفة عن أولئك السيدات المحسنات، فينحرف مسار الموعظة، وذلك لحسن حظها إن أرادت البقاء.

ولكنها صعبة حقًا يا ديلا. اسمعي. لقد ضجت من البهجة لرؤية المنزل بادئ ذي بدء، فقد توسلتني في أول يوم لها هنا أن أفتح لها كل غرفة، ولم ترض حتى رُفعت كل الستائر، حتى «ترى كل الأشياء البالغة الروعة»، التي قالت إنها أجمل مما لدى السيد جون پندلتن، الذي أظنه رجلًا من بلدنغزڤِل. إنه ليس من السيدات المحسنات على أية حال، هذا ما تبين لي حتى الآن.

وكأنها لم تكتفِ بجعلي أركض من غرفة لأخرى (كأنني مرشدة في رحلة شخصية)، فقد عثرت على ثوب مسائي من الطيلسان الأبيض لم ألبسه منذ سنوات، وتوسلت إلي لأرتديه. فارتديته، ولكني لست أدري لماذا، إلا أنني وجدت نفسي عاجزة بين يديها.

غير أن هذه هي البداية فحسب. لقد توسلت إلي أن ترى كل ما أملكه، وقد كانت مضحكة جدًا في قصصها عن صناديق المعونة التي اعتادت أن تلبس منها، فاضطررت للضحك رغم أني بكيت أيضًا عند التفكير بالأشياء الرثة التي

اضطرت الصغيرة لارتدائها. وقد أخذتنا الثياب إلى الحلي طبعًا، وأحدثت جلبة لدى رؤية الخاتمين أو ثلاثة الخواتم التي أملكها. ففتحت لها الخزنة بطيش كي أرى عينيها تجحظان فحسب. وظننت أن الطفلة جنت يا ديلا، فقد جعلتني أضع خاتمًا ومشبكًا وسوارًا وقلادة أملكها، وألحت على تثبيت التاجين الماسيين في شعري (حين عرفت ما هما)، فجلست حينئذ تتدلى مني اللآلئ والماسات والزمردات، وأشعر أني إلهة وثنية في معبد هندوسي، وبخاصة حين أخذت الطفلة المستحيلة ترقص حولي وتصفق وتغني «أوه يا للروعة! يا للروعة! كم أود أن أعلقك على خيط على النافذة، إذ ستكونين موشورًا رائعًا».

كنت على وشك سؤالها عما تعنيه بحق السماء حين جلست في المنتصف على الأرض وأخذت تبكي. ولماذا تبكي برأيك؟ لأنها سعيدة أن لها عينين ترى بهما! فما رأيك بهذا؟

هذا ليس كل شيء طبعًا. إنها البداية فحسب. لقد مر على وجود پوليانا أربعة أيام، وقد ملأت كل واحد منها. إنها تعد منظف المداخن والشرطي في دوريته والفتى بائع الصحف، ناهيك عن كل خادم من خدمي، أصدقاء لها: إنهم جميعًا مسحورون بها، كل واحد منهم. ولكن لا تظني أني كذلك أرجوك لأني لست كذلك. سأعيد الطفلة إليك في الحال إن شعرت أني لست ملزمة بإيفاء وعدي بإبقائها طوال الشتاء. أما عن جعلي أنسى جايمي وحزني الكبير فهذا محال. إنها تجعلني

أشعر بخسارتي أكثر، لأنها معي عوضًا عنه. ولكني سأبقيها كما قلت حتى تبدأ بالوعظ، ثم ستعود إليك، لكنها لم تعظني بعد.

المخلصة لك بحب وحيرة

روث

«لم تبدأ الوعظ بعد، حقًا!»، ضحكت ديلا وذربي في نفسها وهي تطوي الصفحات المكتوبة بعناية لرسالة أختها. «أوه يا روث، يا روث! وها أنت تقرّين أنك فتحت كل غرفة ورفعت الستائر وارتديت الطيلسان والحلي، ولم يمض على وجود پوليانا أسبوع بعد. لكنها لم تعظ، أوه، كلا، لم تعظ!».

الفصل الرابع
اللعبة والسيدة كَرو

كانت بوسطن تجربة جديدة في عين پوليانا، ولا شك أن پوليانا كانت تجربة جديدة لبوسطن؛ في جزئها الذي حظي بمعرفتها.

قالت پوليانا إنها أحبت بوسطن، غير أنها تمنت لو لم تكن كبيرة جدًا.

وفسرت ذلك للسيدة كَرو بجدية في اليوم الثاني من وصولها «أود أن أراها وأعرفها كلها، لكني لا أستطيع كما ترين. إنها مثل حفلات عشاء الخالة پولي، ففيها الكثير مما يؤكل -أعني يُرى- لكنك لا تأكلين، أعني لا ترين شيئًا، لأنك تحاولين دومًا أن تحددي ما تأكلين، أعني ما ترين».

«يمكنك أن تسري بهذا طبعًا»، استأنفت پوليانا بعد أن أخذت نفسًا، «لأن الكثير من أي شيء أمر جميل، وأعني بذلك الأشياء الجميلة، لا أشياء من قبيل الدواء والجنازات طبعًا! لكني في الآن نفسه لا أستطيع إلا أن أتمنى أن تتوزع حفلات عشاء الخالة پولي على الأيام التي لا يقدم فيها كعك أو فطائر، ويراودني الإحساس

نفسه بشأن بوسطن. أتمنى لو استطعت أخذ جزء منها معي إلى بلدنغزفِل فيكون عندي شيء ما للصيف القادم. لكني لا أستطيع طبعًا. فالمدن ليست مثل الكعك المغطى بالسكر، بل حتى الكعكة لا تبقى طازجة لوقت طويل طويلًا. لقد جربت ذلك ويبست؛ وبخاصة عجينة السكر. أحسب أن أفضل وقت للاستمتاع بعجينة السكر واللحظات السعيدة هو أثناء حدوثها، لذا فإني أود أن أرى كل ما أستطيع ما دمت هنا».

على عكس من يظنون أن رؤية العالم تبدأ من النقطة الأبعد، بدأت بوليانا «رؤيتها لبوسطن» باستكشاف شامل لمحيطها المباشر، مسكن جادة كومنولث الجميل الذي كان بيتها في الوقت الراهن. وقد شغل هذا، إلى جانب عملها المدرسي، كل وقتها واهتمامها لبضعة أيام.

ثمة الكثير مما يرى والكثير مما يتعلم، وكل شيء بديع وجميل للغاية، بدءًا من الأزرار الصغيرة على الجدران التي تغمر الغرف بالنور، وحتى قاعة الرقص الصامتة التي عُلقت فيها المرايا واللوحات. وكان ثمة الكثير من الناس اللطيفين لتتعرف إليهم أيضًا، فإلى جانب السيدة كَرو كانت ماري التي تنظف غرفة الجلوس وتجيب الجرس وتصحب بوليانا إلى المدرسة ومنها كل يوم، وبريجيت التي تعيش في المطبخ وتطهو، وجيني التي تقدم الطعام، وبيركنز الذي يقود السيارة، وكانوا جميعًا مبهجين جدًا ومختلفين!

وصلت بوليانا يوم اثنين، لذا فقد مر أسبوع كامل قبل الأحد الأول. فنزلت ذلك الصباح بهيئة مشرقة.

«أحب أيام الأحد»، تنهدت سعيدة.

«حقًا؟»، وشى صوت السيدة كَرو بفتور امرئ لا يحب أي يوم.

«أجل، من أجل الكنيسة ومدرسة الأحد كما تعلمين. أيهما تفضلين أكثر الكنيسة أم مدرسة الأحد؟».

«حسن، في الحقيقة أنا...»، ترددت السيدة كَرو التي لم تذهب إلى الكنيسة إلا نادرًا، ولم ترتد مدرسة الأحد قط.

«يصعب الاختيار أليس كذلك؟»، قاطعتها پوليانا بعينين مضيئتين جادتين، «لكني أفضل الكنيسة أكثر كما تعرفين من أجل أبي. لقد كان كاهنًا، وهو الآن في السماء عاليًا مع أمي والبقية منا، لكني أحاول تخيله هنا على الأرض مرات كثيرة، ويكون ذاك أسهل في الكنيسة حين يتحدث القس. فأغمض عينيّ وأتخيل أن أبي هناك، وهذا يساعدني كثيرًا. أنا سعيدة أن بوسعنا تخيل الأشياء، ألست كذلك؟».

«لست واثقة من هذا يا پوليانا».

«أوه، ولكن فكري بأن أشياءنا المتخيلة أجمل بكثير من الحقيقية، ولا أعني أشياءك طبعًا، فأشياؤك الحقيقية جميلة جدًا». حاولت السيدة كَرو التحدث غاضبة، لكن پوليانا أسرعت بالمتابعة «كما أن أشيائي الحقيقية أجمل بكثير مما كانت عليه. ولكن طوال وقت إصابتي، عندما لم تتحرك ساقاي، اضطررت لمواصلة التخيل طوال

الوقت بقدر ما استطعت. أما الآن فإني أتخيل أشياء مرات كثيرة، كتخيلي لأبي وما إلى ذلك. لذا فإني سأتخيل اليوم أن أبي من يقف على المنبر، متى سنذهب؟».

«نذهب؟».

«أعني إلى الكنيسة».

«ولكن يا بوليانا، أنا لا... أعني أفضّل ألا...»، تنحنحت السيدة كَرو وحاولت ثانية أن تقول إنها ليست ذاهبة إلى الكنيسة مطلقًا، وإنها لم تذهب إلا قليلًا. لكنها لم تستطع فعل ذلك وأمامها وجه بوليانا الواثق الصغير وعينيها السعيدتين.

«حسن، أظننا سنذهب في العاشرة والربع إن مشينا»، ثم قالت بامتعاض، «إنها مسافة قصيرة».

وهكذا حدث أن السيدة كَرو في صباح مشرق من سبتمبر شغلت مقصورة آل كرو لأول مرة منذ سنوات في الكنيسة الفاخرة الأنيقة التي ترددت عليها في صباها، ولم تزل تدعمها بالمال بسخاء.

كان قداس يوم الأحد فرحة ومتعة عظيمتين لدى بوليانا. وقد غمرتها بنشوة أسكتتها لبعض الوقت كل من الموسيقى البديعة من أعضاء الجوقة ذوي الثياب الإكليركية والأشعة القادمة من النوافذ المزينة وصوت الواعظ الجياش والصمت الوقور لجموع المصلين.

ولم تتنفس بحرارة حتى كادتا أن تصلا البيت «أوه يا سيدة كَرو، لقد خطر لي أنني سعيدة فليس لي إلا أن أعيش يومًا واحدًا في كل مرة!».

عبست السيدة كرو ونظرت بحدة، ولم تكن السيدة كرو بمزاج مناسب للوعظ. فقد اضطرت لاحتماله من فوق المنبر، قالت في نفسها غاضبة، ولن تصغي إليه من هذه الطفلة السخيفة. وعلاوة على ذلك فإن نظرية «عيش يوم واحد في كل مرة» هي مذهب ديلا الأثير. ألم تقل لها ديلا دومًا «عليك أن تعيشي كل دقيقة في حينها يا روث، ويمكن لأي أحد احتمال أي شيء يدوم دقيقة!».

«حقًا؟»، قالت السيدة كَرو باقتضاب.

«أجل. فكري فحسب بما سأفعل إن كان علي أن أعيش البارحة واليوم وغدًا دفعة واحدة»، تنهدت بوليانا، «كثير من الأمور الرائعة كما تعلمين. لكني عشت البارحة، وها أنا أعيش اليوم، وما زال لدي يوم غدٍ والأحد القادم أيضًا. صدقًا يا سيدة كَرو، لو لم يكن اليوم يوم أحد، وفي هذا الشارع الهادئ، لرقصت وصحت وهللت، ولا أستطيع كبح نفسي. لكنه الأحد، لذا علي الانتظار حتى أصل البيت وأتلو ترنيمة، سأتلو أكثر الترانيم ابتهاجًا مما أذكر. ما أكثر الترانيم فرحًا؟ أتعرفين يا سيدة كَرو؟».

«كلا، لا يمكنني القول إني أعرف»، أجابت السيدة كَرو بتردد وهي تبدو كأنما تبحث عن شيء أضاعته. ستهدأ أي امرأة تتوقع أن يقال لها أن تحتمل يومًا واحدًا في كل مرة عندما تكون الأمور بالغة

السوء. فما بالك إن قيل لها إن من حسن الحظ أنها ليست مضطرة لاحتمال إلا يوم واحد عندما تكون الأمور رائعة؟!

ذهبت پوليانا صباح اليوم التالي يوم الاثنين، إلى المدرسة وحدها لأول مرة. لقد باتت تعرف الطريق جيدًا، والمسافة قصيرة. أحبت پوليانا مدرستها كثيرًا، فقد كانت مدرسة خاصة صغيرة للفتيات، وهذه تجربة جديدة بطريقة ما، وپوليانا تحب التجارب الجديدة.

غير أن السيدة كرو لم تحب التجارب الجديدة، وكانت تحظى بالكثير منها هذه الأيام. فلا بد أن ينجم الضيق، على الأقل، عن صحبة حميمة لامرئ ضجر من كل شيء مع امرئ يرى كل شيء متعة جديدة وآسرة. وشعرت السيدة كرو بشعور أكثر من الاستياء، إذ كانت غاضبة والسبب الوحيد الذي ذكرته «أن پوليانا سعيدة جدًا»، ولا يمكن لأحد حتى السيدة كرو أن يحب أن يجيب جوابًا كهذا.

كتبت السيدة كرو إلى ديلا على أية حال قائلة إن كلمة «سعيدة» تثير غضبها، وأنها تتمنى أحيانًا ألا تسمعها ثانية. غير أنها أقرت أن پوليانا لم تعظ، وأنها لم تحاول مرة أن تجعلها تلعب اللعبة. ولكن ما فعلته الطفلة أن تأخذ «سعادة» السيدة كرو دومًا على أنها حقيقة وكان هذا يثير غيظ امرئ لا يعرف السعادة.

تحول استياء السيدة كرو خلال الأسبوع الثاني من إقامة پوليانا إلى اعتراض نزق، وكان السبب المباشر لهذا هو الخاتمة المبهجة لواحدة من قصص پوليانا عن السيدات المحسنات.

«كانت تلعب اللعبة يا سيدة كرو. ولكن لعلك لا تعرفين ما اللعبة. سأخبرك بها، إنها لعبة رائعة».

لكن السيدة كرو رفعت يدها، «لا عليك يا پوليانا»، قالت برزانة، «أعرف كل شيء عن اللعبة. لقد أخبرتني أختي و... وعلي القول إنني لست مهتمة بها».

«كلا، كلا طبعًا يا سيدة كرو!»، قالت پوليانا باعتذار سريع، «لم أقصدك باللعبة، فلست تستطيعين لعبها طبعًا».

«لا أستطيع لعبها؟!»، قالت السيدة كرو، التي لم تكن لتقبل أنها لا تستطيع لعب اللعبة السخيفة وإن لم تلعبها.

«كلا، ألا ترين؟»، ضحكت پوليانا جذلة، «إن اللعبة تعني العثور على شيء ما يسعد في كل شيء، ولا يمكنك البدء بالبحث، فما من شيء حولك إلا ويسعدك. لذا لن تكون في الأمر أي لعبة، أتفهمين؟».

احمر وجه السيدة كرو غضبًا، وفي امتعاضها قالت أكثر مما نوت أن تقول. «كلا يا پوليانا، لا يمكنني القول إني أفعل»، اعترضت ببرود، «يحدث أنني لا أعثر على شيء يسعدني كما ترين».

حملقت پوليانا بانشداه، ثم تراجعت متعجبة.

«يا للهول يا سيدة كرو!»، لهثت.

«وماذا عندي؟»، تحدتها المرأة ناسية للحظة عزمها على ألا تسمح لپوليانا أن تعظها.

«حسن، عندك... عندك كل شيء»، غمغمت بوليانا وهي لم تزل غير مصدقة متعجبة، «عندك هذا البيت الجميل».

«إنه ليس سوى مكان للأكل والنوم، ولا أريد أن آكل وأنام».

«ولكن لديك هذه الأشياء الجميلة للغاية»، تلعثمت بوليانا.

«لقد سئمتها».

«وسيارتك التي تأخذك إلى كل مكان».

«لا أريد الذهاب إلى أي مكان».

شهقت بوليانا عاليًا.

«ولكن تذكري الناس والأشياء التي يمكنك رؤيتها يا سيدة كرو».

«لا أهتم بهم يا بوليانا».

حملقت بوليانا في دهشة مرة أخرى، وقد ازدادت تقطيبة الحيرة على وجهها.

«ولكني لا أفهم يا سيدة كرو»، ألحت، «دائمًا، في الماضي لعب الناس اللعبة على كثير من الأمور السيئة، وكلما كانت أسوأ زادت متعة العثور عليها، أعني العثور على الأمور التي تسعد. ولكن ما دام ليس لدينا أمور سيئة فلست أدري كيف نلعب اللعبة».

لم يأت جواب لبعض الوقت. جلست السيدة كرو وعيناها تنظران خارج النافذة. وتغير الاعتراض الغاضب على وجهها شيئًا

فشيئًا فصار نظرة حزن بلا أمل، ثم استدارت ببطء شديد وقالت: «لقد ظننت أني لن أخبرك بهذا يا پوليانا، لكني عزمت على أن أفعل. سأخبرك لم لا يمكن لشيء مما أملك أن يسعدني». ثم بدأت قصة جايمي الصبي الصغير ذي الأعوام الأربعة الذي دخل عالمًا آخر قبل ثماني سنوات، تاركًا الباب مغلقًا بإحكام بينهما.

«ولم تريه منذئذ في أي مكان؟!»، تلعثمت پوليانا بعينين مخضلتين حين انتهت القصة.

«لم أره قط».

«ولكننا سنعثر عليه يا سيدة كرو، أنا واثقة أننا سنعثر عليه».

«ولكني لا أستطيع، لقد بحثت في كل مكان حتى في البلدان الأجنبية».

«لا بد أنه في مكان ما».

«وقد يكون ميتًا يا پوليانا».

صرخت پوليانا صرخة حادة.

«أوه كلا يا سيدة كرو، لا تقولي ذلك أرجوك! لنتخيل أنه على قيد الحياة. يمكننا فعل ذلك، وهذا ينفع، وحين نتخيله حيًا يمكننا أيضًا أن نتخيل أن بوسعنا العثور عليه، وهذا سيفيد أكثر».

«ولكني أخشى أنه ميت يا پوليانا»، غصت السيدة كرو.

«أمتأكدة أنت من ذلك؟»، سألت الفتاة الصغيرة متضرعة بقلق.

«كلا».

«حسن إذن، إنك تتخيلين ذلك فحسب»، تابعت پوليانا منتصرة، «وإن استطعت تخيله ميتًا، فيمكنك تخيله حيًا، وسيكون الأمر أجمل بكثير إن فعلت. أتفهمين؟ وأنا واثقة أنك ستعثرين عليه يومًا ما. حسن يا سيدة كرو، يمكنك أن تلعبي اللعبة الآن. يمكنك أن تلعبيها من أجل جايمي، ويمكنك أن تسعدي كل يوم، لأن كل يوم يجعل وقت عثورك عليه أقرب، أترين؟».

لكن السيدة كرو لم «تر»، بل نهضت بخوف وقالت «كلا، كلا أيتها الصغيرة! إنك لا تفهمين، إنك لا تفهمين. والآن اذهبي من فضلك واقرأي أو افعلي ما يحلو لك. رأسي يؤلمني، وسأذهب للاستلقاء».

وغادرت پوليانا الغرفة بوجه حزين محتار.

الفصل الخامس

پوليانا تذهب في نزهة

خرجت پوليانا في نزهتها المشهودة بعد ظهر يوم السبت الثاني. لم تخرج پوليانا وحدها حتى الآن إلا حين تذهب إلى المدرسة. ولم يخطر ببال السيدة كرو أنها ستذهب وحدها لاستكشاف شوارع بوسطن، ولذا لم تمنعها من ذلك طبعًا. وجدت پوليانا في بلدنغزڤِل، على أية حال، وبخاصة في البداية تسليتها الكبرى في التجوال والتسكع في شوارع القرية القديمة بحثًا عن أصدقاء جدد ومغامرات جديدة.

عصر يوم السبت هذا قالت السيدة كرو، كما تقول دومًا، «حسن حسن يا صغيرة، اذهبي من فضلك. اذهبي حيث شئت وافعلي ما يحلو لك ولكن لا تسأليني مزيدًا من الأسئلة اليوم من فضلك!».

وجدت پوليانا حتى الآن كلما تركت وحيدة الكثير مما يثير اهتمامها داخل الجدران الأربعة للبيت، فإن أخفقت الجمادات في ذلك لم يزل لديها ماري وجيني وبريجيت وپيركنز. غير أن ماري اليوم تشكو الصداع، وجيني تزين قبعة جديدة، وبريجيت تعد

فطائر التفاح وپيركنز لم يعثر له على أثر. كما أنه يوم جميل من سبتمبر، ولم يكن في البيت شيء شديد الإغراء بقدر ضوء الشمس الساطع والهواء العليل في الخارج. لذا خرجت پوليانا ونزلت العتبات.

راقبت پوليانا صامتة لبعض الوقت الرجال المهندمين، والنساء والأطفال يمرون بسرعة قرب البيت، أو يسيرون الهوينى عبر درب المتنزه الذي امتد وسط الجادة. ثم نهضت، وقفزت العتبات ووقفت تنظر يمنة ثم يسرة.

عزمت پوليانا عندئذ على الذهاب في نزهة. لقد كان يومًا جميلًا للتنزه، وهي لم تذهب في نزهة حقيقية حتى الآن. إن الذهاب إلى المدرسة والعودة منها لا يحتسب نزهة، لذا فإنها ستذهب اليوم، ولن تمانع السيدة كرو. ألم تخبرها أن تفعل ما يحلو لها ما دامت لن تسأل مزيدًا من الأسئلة؟ وها هي العصرية الطويلة كلها أمامها! وقد كان يومًا جميلًا حقًا. ستذهب من هذا الاتجاه! وبدورة قصيرة وقفزة من الفرح الخالص استدارت پوليانا ومشت بابتهاج عبر الجادة.

ابتسمت پوليانا بفرح في عيون من صادفتهم. وقد خاب أملها لكنها لم تفاجأ، لأنها لم تتلق منهم ابتسامة في المقابل. لقد اعتادت هذا في بوسطن، غير أنها ظلت باسمة مفعمة بالأمل؛ فلا بد من وجود أحد ما، في وقت ما سيبتسم لها.

كان بيت السيدة كرو قريبًا من أول جادة كومنولث، لذا لم يمض وقت طويل حتى وجدت پوليانا نفسها على طرف شارع

يقطع طريقها على الزاوية اليمنى. وعبر الشارع، بكل بهائه الخريفي يقع ما بدا لپوليانا أجمل فناء رأته، حديقة بوسطن العامة.

ترددت پوليانا للحظة، وقد ركزت نظرها بلهفة على الجمال الوفير أمامها. لقد كانت أراض خاصة لرجل أو امرأة ثرية، ولم يساورها شك في ذلك. فمرة أخذت مع الطبيب إيمز في المصح في زيارة لسيدة تعيش في منزل جميل محاط بالجدران والأشجار وأحواض الزهور كهذه تمامًا.

أرادت پوليانا كثيرًا أن تعبر الشارع وتمشي في تلك الأراضي، غير أنها شكت في أن لها الحق في ذلك. صحيح أن آخرين يمشون هناك ولكنهم ضيوف مدعوون حتمًا. وبعد أن رأت امرأتين ورجلًا وفتاة صغيرة يدخلون البوابة بلا تردد ويسيرون الدرب بسرعة، خلصت پوليانا أن بوسعها الذهاب هي أيضًا. وانتهزت فرصتها وسارت برشاقة عبر الشارع ودخلت الحديقة.

لقد كانت أجمل عن قرب مما كانت عليه من بعيد. وزقزقت الطيور فوق رأسها، وقفز سنجاب أمامها على الدرب. على المقاعد هنا وهناك جلس رجال ونساء وأطفال، وخلال الأشجار لمع بريق الشمس على الماء، ومن مكان ما جاءت صيحات أطفال وصوت موسيقى.

ترددت پوليانا مرة أخرى، ثم بادرت بالكلام بخوف شابة حسنة الثياب قادمة نحوها.

«أهذه حفلة من فضلك؟»، سألت.

حملقت بها الشابة.

«حفلة؟!»، رددت بذهول.

«أجل، أعني هل يحق لي أن أكون هنا؟».

«أن تكوني هنا؟ عجبًا، طبعًا، إنها للجميع!»، قالت الشابة متعجبة.

«أوه، هذا جيد إذن، أنا سعيدة أنني أتيت»، ابتسمت پوليانا بابتهاج.

لم تقل الشابة شيئًا، لكنها أدارت ظهرها ونظرت إلى پوليانا باستغراب وهي تسرع في سيرها.

تابعت پوليانا طريقها، ولم تدهش من أن مالك هذا المكان الجميل كريم للغاية فيقيم حفلة للجميع. صادفت فتاة صغيرة ودمية وعربة عند انعطاف الدرب، فتوقفت بصرخة فرح قصيرة لكنها لم تقل بضع كلمات بعد فجاءت شابة من مكان ما بخطى مسرعة وصوت مستنكر، شابة مدت يدها للفتاة الصغيرة وقالت بحدة «هيا يا غلادس، تعالي معي. ألم تخبرك ماما ألا تتحدثي إلى أطفال غرباء يا غلادس؟».

«ولكني لست أطفالًا غرباء»، قالت پوليانا في دفاع حماسي، «إنني أعيش هنا في بوسطن الآن، و...»، لكن الشابة والفتاة الصغيرة جارة عربة الدمية ابتعدتا على الدرب، ونكصت پوليانا بتنهيدة مكتومة. ووقفت صامتة للحظة، بادٍ عليها خيبة الرجاء، ثم

رفعت ذقنها بعزم ومضت قدمًا. «حسن، يمكنني أن أسر بهذا على أية حال»، أومأت لنفسها، «لأنني قد أعثر الآن على شخص ألطف؛ ربما سوزي سميث، أو حتى جايمي قريب السيدة كرو. يمكنني بكل الأحوال أن أتخيل أنني سأجدها، وإن لم أفعل فيمكنني العثور على أحد ما!»، ختمت قولها وعيناها الحزينتان على الناس المنشغلين بذواتهم من حولها.

لا شك أن بوليانا كانت وحيدة. فقد رباها أبوها والسيدات المحسنات في بلدة صغيرة في الغرب، لذا عدت كل بيت في القرية بيتها، وكل رجل وامرأة وطفل أصدقاءها. وحين أتت إلى خالتها في فيرمونت بعمر الحادية عشرة، عرفت سريعًا أن الأحوال ستختلف لأن المنازل والأصدقاء سيكونون جددًا، وهذا سيكون أكثر إبهاجًا لأنهم مختلفون، وبوليانا تحب الأشياء والناس المختلفين كثيرًا! كانت بهجتها الأولى والدائمة في بلدنغزفِل في جولاتها الطويلة في البلدة والزيارات السارة إلى الأصدقاء الجدد الذين تعرفت إليهم. ونظرًا لذلك بدت بوسطن لبوليانا حين رأتها أول مرة، واعدة في احتمالياتها على نحو أكثر إبهاجًا.

وبعد هذا، كان على بوليانا أن تقر أنها مخيبة للأمل، في جانب واحد على الأقل. لقد مضى على وجودها هنا أسبوعان تقريبًا ولم تتعرف بعد على الناس الذين يسكنون في الطرف المقابل من الشارع، أو حتى في المنزل المجاور. أما الأمر الذي يتعذر تفسيره فإن السيدة كرو نفسها لم تعرف كثيرًا منهم، ولم تعرف أحدًا معرفة

جيدة. بل بدت غير مكترثة بجيرانها، وكان هذا يثير العجب كثيرًا برأي پوليانا، وما من شيء قالته غيّر موقف السيدة كرو من هذا الأمر البتة.

«إنهم لا يثيرون اهتمامي يا پوليانا»، هذا كل ما قالته، واضطرت پوليانا -التي أثاروا اهتمامها كثيرًا- أن تقنع بهذا.

غير أن پوليانا اليوم انطلقت في نزهتها بآمال كبيرة، ومع ذلك حكم عليها بخيبة الأمل. كان الناس من حولها مبهجين حتمًا، لو أنها عرفتهم فحسب، لكنها لم تعرفهم. والأسوأ أنه لم يبد أن ثمة أمل في تعرفها عليهم، لأنهم لا يودون معرفتها كما هو واضح، ولم تزل پوليانا تتألم من تحذير المربية القاسي عن «الأطفال الغرباء».

«أحسب أن علي أن أظهر لهم أنني لست أطفالًا غرباء»، قالت لنفسها في نهاية المطاف وهي تتقدم بثقة مرة أخرى.

ابتسمت پوليانا وقد اقتنعت بهذه الفكرة بعذوبة لعيني الشخص التالي الذي صادفته وقالت مبتهجة «إنه يوم جميل، أليس كذلك؟».

«امم، ماذا؟ أوه، بلى إنه كذلك»، غمغمت السيدة المخاطبة، وهي تسرع أكثر.

جربت پوليانا الأمر نفسه مرتين أخريين، غير أنها لم تحصد إلا الخيبة. وسرعان ما وصلت البركة الصغيرة التي رأتها تتلألأ في ضوء الشمس خلال الأشجار. كانت بركة جميلة، وفيها عدد من القوارب الصغيرة الجميلة تغص بأطفال ضاحكين. شعرت پوليانا

وهي تراقبهم بالاستياء أكثر وأكثر لأنها ظلت وحيدة. عندئذ، وبعد أن استرقت النظر إلى رجل يجلس وحيدًا على مقربة منها، تقدمت نحوه ببطء وجلست على الطرف الآخر من المقعد. لم تكن پوليانا لتتردد في الاقتراب من الرجل والتعرف إليه بثقة ومرح ستلقى ترحيبًا منه حتمًا، لكن الصدود الأخير قد غمرها بخجل على غير طبعها، فنظرت إلى الرجل خلسة.

لم يكن حسن الطلعة، فثيابه مغبرة -رغم أنها جديدة- وتوحي بقلة العناية. لقد كانت ثيابه من الطراز الذي تمنحه الولاية للسجناء على أنه بدلة الحرية (غير أن پوليانا لم تعلم هذا طبعًا)، وكان وجهه أبيض شاحب، تزينه لحية عمرها أسبوع، وقد أنزل قبعته على عينيه، وجلس واضعًا يديه في جيوبه خاملًا يحدق بالأرض.

لم تقل پوليانا شيئًا لوقت طويل، ثم قالت مفعمة بالأمل «إنه ليوم جميل، أليس كذلك؟».

أدار الرجل رأسه مذهولًا.

«إه؟ أوه، ماذا قلت؟»، سأل بنظرة مذعورة ذعرًا غريبًا حوله ليتأكد أن التعليق موجه إليه.

«قلت إنه يوم جميل»، قالت پوليانا بجدية وسرعة، «لكني لا أهتم بهذا تحديدًا. صحيح أنني سعيدة بأنه يوم جميل، لكني قلت ذلك بداية، وسأتحدث سريعًا عن شيء آخر، أي شيء آخر. لقد أردت الحديث فحسب... عن شيء ما كما ترى».

ضحك الرجل ضحكة خفيضة، وبدت الضحكة غريبة قليلا

لپوليانا، رغم أنها لم تعلم (كما علم الرجل) أن الضحكة كانت غريبة عن شفتيه لأشهر.

«وتريدين مني أن أتحدث إذن؟»، قال بشيء من الحزن، «لست أرى إلا أن علي فعل ذلك. غير أني أظن أن سيدة صغيرة لطيفة مثلك قد تجد ناسًا كثيرين تتحدث إليهم ألطف من أخرق عجوز مثلي».

«أوه، لكني أحب الخُرق المسنين»، قالت پوليانا سريعًا، «أعني أنني أحب كبار السن، لكني لا أعلم ما معنى أخرق، لذا لا يمكنني ألا أحبه. ثم إن كنت أخرق فأحسب أني أحب الخرق. لكني أحبك على أية حال»، ختمت قولها وجلست جلسة مريحة راضية في مقعدها أظهرت القناعة.

«أف! حسن، شكرًا على الإطراء»، ابتسم الرجل ساخرًا. ورغم أن وجهه وكلامه نمّا عن تهذيب زائف إلا أنه جلس على المقعد أكثر اعتدالًا، «والآن، عم ستتحدث من فضلك؟».

«إنه أمر لامتناهٍ في الصغر عندي، ومعنى هذا أني لا أهتم، أليس كذلك؟»، سألت پوليانا بابتسامة مشرقة، «تقول الخالة پولي إنني أتطرق دومًا للسيدات المحسنات أيًا كان ما أتحدث عنه. لكني أظن هذا لأنهن ربينني في البدء، ألا ترى هذا؟ يمكننا الحديث عن الحفلة. أظنها حفلة جميلة للغاية، وقد تعرفت إلى أحد الآن».

«حـ... حفلة؟».

«أجل، هذه، وكل الناس هنا اليوم كما ترى. إنها حفلة، أليست كذلك؟ قالت السيدة إنها للجميع، لذا بقيت، رغم أنني لم أعرف أين المنزل الذي يقيم الحفلة».

ارتعشت شفتا الرجل.

«حسن أيتها السيدة الصغيرة، لعلها حفلة بصورة ما»، ابتسم، «لكن المنزل الذي يقيمها هو مدينة بوسطن. هذه حديقة عامة، متنزه عام للجميع كما تعلمين».

«حقًا؟ دائمًا؟ ويمكنني القدوم هنا في أي وقت أشاء؟ أوه يا للروعة! هذا أجمل مما ظننت. لقد خشيت ألا أستطيع القدوم ثانية بعد اليوم كما ترى. غير أنني سعيدة أنني لم أعرف هذا في البدء، لأن الأمر أجمل الآن. تغدو الأشياء الجميلة أجمل حين تخشى ألا تكون جميلة، أليس صحيحًا؟».

«ربما كانت كذلك، إن كانت جميلة أصلًا»، أقر الرجل بكآبة بعض الشيء.

«أجل، أظن ذلك»، أومأت پوليانا دون أن تلاحظ الكآبة. «ولكن أليس المكان جميلًا هنا؟»، ابتهجت، «أتساءل إن كانت السيدة كرو تعرف بأمره، أعني أنه للجميع. حسن، أظن الجميع يودون القدوم إلى هنا طوال الوقت وأن يكتفوا بالجلوس والنظر حولهم».

تشنج وجه الرجل.

«ولكنّ في العالم أناسًا قليلين لديهم أعمال، لديهم ما يفعلونه عوضًا عن الاكتفاء بالقدوم هنا والجلوس والنظر من حولهم، لكني لست واحدًا منهم».

«ألست كذلك؟ إذن يمكنك أن تسعد بهذا، أليس صحيحًا؟»، تنهدت پوليانا وعيناها تتابعان زورقًا عابرًا بفرح.

انفرجت شفتا الرجل بسخط، لكنه لم ينطق. ولم تزل پوليانا تتحدث.

«ليتني لم يكن عندي شيء أفعله سوى هذا، ولكن علي الذهاب للمدرسة. أوه، إنني أحب المدرسة، غير أن ثمة الكثير من الأشياء التي أحبها أكثر. وأنا سعيدة أن بوسعي الذهاب إلى المدرسة، وأكون سعيدة على وجه الخصوص حين أتذكر أنني لم أتخيل أنني سأمشي ثانية الشتاء الماضي. لقد فقدت ساقيّ لفترة كما ترى، أعني أنهما لم تتحركا، ولا يعلم المرء قدر اعتياده بعض الأمور حتى يفقدها. والعينان أيضًا. هل خطر لك يومًا مقدار ما يمكنك فعله بالعينين؟ أنا لم يخطر لي حتى ذهبت إلى المصح، وكان فيه سيدة أصيبت بالعمى قبل عام. حاولت جعلها تلعب اللعبة، أعني العثور على شيء يسعد كما تعلم، لكنها قالت إنها لا تستطيع، وإن أردتُ معرفة السبب فعلي عقد منديل حول عيني لساعة واحدة فحسب. وفعلت، لقد كان أمرًا بغيضًا، هل جربت ذلك يومًا؟».

«كلا، كلا، لم أفعل»، خيم على وجه الرجل تعبير بين الدهشة والحنق.

«لاتفعل إذن. إنه بغيض. فلن تستطيع فعل شيء، أي شيء مما تريد، لكني أبقيته لساعة كاملة. ومنذئذ بت سعيدة جدًا، حين أرى أشياء رائعة الجمال كهذا المتنزه كما تعلم فإني أسعد للغاية حد البكاء، لأن بوسعي رؤيته كما تعلم. إنها تلعب اللعبة الآن، أعني السيدة العمياء، أخبرتني الآنسة وذربي بذلك».

«اللعبة؟».

«أجل، لعبة السعادة. ألم أخبرك بها؟ إنها العثور على شيء ما يسعدك في كل شيء. وقد وجدته الآن، بخصوص عينيها كما تعلم. إن زوجها رجل من أولئك الذين يذهبون للمساعدة في وضع القوانين، وقد طلبت منه قانونًا يساعد العميان، وبخاصة الأطفال الصغار. وذهبت بنفسها وتحدثت وأخبرت أولئك الرجال عن شعور العمى. وقد سنوا قانونًا. وقالوا إنها ساعدت في سنّه أكثر من أي شخص آخر حتى زوجها، ولا يظنون أن قانونًا كان سيسن لولاها. لذا فإنها تقول إنها سعيدة لأنها خسرت نظرها، لأنها منعت إصابة الكثير من الأطفال الصغار بالعمى مثلها. وها أنت ترى أنها تلعب اللعبة. غير أني أحسب أنك لا تعلم بأمر اللعبة بعد لذا سأخبرك. لقد بدأت على هذا النحو...» وأخبرته پوليانا، وعيناها تنظران إلى الجمال الآسر من حولها، بقصة العكازين الصغيرين في الماضي اللذين كان لا بد أن يكونا دمية.

ساد صمت طويل بعد أن انتهت القصة، ثم نهض الرجل على حين غرة.

«أوه، أأنت ذاهب الآن؟»، سألت بخيبة أمل واضحة.

«أجل إنني ذاهب الآن»، ابتسم بغرابة قليلًا.

«ولكن هل ستعود في وقت ما؟».

هز رأسه نفيًا، غير أنه ابتسم ثانية.

«أرجو ألا أفعل، وأوقن أني لن أفعل أيتها الفتاة الصغيرة. لقد اكتشفت اكتشافًا عظيمًا اليوم كما ترين. لقد ظننت أني مفلس، وظننت أن لا مكان عندي أذهب إليه. غير أني تبينت أن عندي عينين وذراعين وساقين، وأنا ذاهب لاستخدامها، وسأذهب لجعل شخص ما يدرك أنني أعرف كيف أستخدمها!».

ثم رحل.

«عجبًا، يا له من رجل غريب»، ضحكت پوليانا، «غير أنه لطيف كما أنه مختلف أيضًا»، ختمت قولها وقد نهضت واستأنفت نزهتها.

استعادت پوليانا طبعها المرح المعتاد، ومشت باطمئنان وثقة من لا يساوره شك. ألم يقل الرجل إن هذا متنزه عام، وأن لها الحق تمامًا أن تكون هنا بقدر أي شخص آخر؟ مشت قرب البركة وعبرت الجسر إلى مكان انطلاق الزوارق الصغيرة. وراقبت الأطفال لبعض الوقت بسعادة، وهي تولي انتباهًا كثيرًا لشعر سوزي بلاك الأسود المحتمل. كانت تود أن تركب الزوارق الصغيرة، لكن اللافتة تقول «الرحلة بخمسة سنتات»، ولم يكن بحوزتها مال. فابتسمت

مفعمة بالأمل في وجوه عدة نساء، وتحدثت مرتين مترددة. ولكن لم يبادرها أحد بالكلام، وقد نظر إليها الذين خاطبتهم ببرود، وأجابوا إجابات مقتضبة.

دارت پوليانا على عقبيها نحو درب آخر بعد وقت، وقد عثرت فيه على صبي شاحب الوجه يجلس على كرسي متحرك. كانت ستتحدث إليه لولا أنه منهمك للغاية في كتابه فابتعدت بعد أن حملقت به حزينة للحظة. ثم صادفت فتاة صغيرة حزينة المظهر تجلس وحدها، لا تنظر إلى شيء كما جلس الرجل من قبل. تقدمت پوليانا نحوها بصرخة فرح قصيرة.

«أوه، كيف حالك؟»، ابتهجت، «أنا سعيدة لأني وجدتك! لقد بحثت عنك منذ وقت طويل»، أقرت وهي تلقي بنفسها على الطرف الشاغر من المقعد.

استدارت الفتاة الجميلة مندهشة، وفي عينيها نظرة ترقب ولهفة.

«أوه»، قالت وقد تراجعت في خيبة واضحة، «لقد ظننت... حسن، ماذا تعنين؟»، سألت بحزن، «لم يسبق لي أن رأيتك في حياتي».

«كلا، ولا أنا»، ابتسمت پوليانا، «لقد كنت أبحث عنك هكذا. أعني صحيح أنني لم أعرف أنك ستكونين أنت تمامًا. لقد أردت أن أجد أحدًا يبدو وحيدًا وليس لديه أحد، مثلي كما تعلمين. فالكثير هنا لديهم آخرون، أتفهمين؟».

«أجل أفهم»، هزت الفتاة رأسها وقد نكصت إلى فتورها

السابق، «ولكن يا طفلتي الصغيرة المسكينة، إنه لأمر سيء أن تعرفي ذلك في عمرك هذا».

«أعرف ماذا؟».

«أن الجموع في مدينة كبيرة لهي أكثر الأماكن وحدة».

عبست پوليانا وفكرت.

«حقًا؟ لست أرى كيف يمكن ذلك. لست أرى كيف يمكن أن تكوني وحيدة والناس حولك. ولكن...»، ترددت وازداد عبوسها، «لقد كنت وحيدة بعد ظهر اليوم، والناس حولي، إلا أنهم لا يرون أو يلاحظون».

ابتسمت الفتاة الجميلة بمرارة.

«هذا هو الأمر، إنهم لا يرون أو يلاحظون، الجموع لا تفعل».

«ولكن بعض الناس يفعلون، يمكننا أن نسعد لأن بعضهم يفعلون»، ألحت پوليانا، «حين...».

«أوه أجل، بعضهم يفعلون»، قاطعتها الأخرى، وارتعشت وهي تتحدث ونظرت بخوف إلى الدرب خلف پوليانا، «وبعضهم يلاحظون كثيرًا».

انكمشت پوليانا خائفة، فقد منحها الصد المتكرر عصر اليوم حساسية جديدة.

«هل تقصديني؟»، تلعثمت، «أتتمنين لو أني لم ألحظك؟».

«كلا، كلا يا صغيرتي! قصدت شخصًا آخر مختلفًا، شخصًا يجب ألا يلاحظ. لقد سررت بالحديث إليك، غير أني ظننتك في البدء أحدًا من الديار».

«أوه، فأنت لا تعيشين هنا إذن أكثر مما أفعل، أعني عيشًا دائمًا».

«أوه، نعم أنا أعيش هنا الآن، إن أمكن تسمية ما أفعله عيشًا».

«وماذا تفعلين؟»، سألت بوليانا باهتمام.

«أفعل؟ سأخبرك بما أفعل»، قالت الأخرى بحزن مفاجئ، «أبيع الدانتيلا الناعمة والشرائط الأنيقة من الصباح حتى المساء للفتيات اللاتي يضحكن ويتحدثن ويعرفن بعضهن بعضًا. ثم أعود إلى غرفة خلفية صغيرة تعلو ثلاث طبقات، تكفي سريرًا صغيرًا ومغسلة وإبريقًا مثلمًا، وكرسيًا مخلعًا وأنا. إنها كالفرن في الصيف وكصندوق الثلج شتاء، ولكنها كل ما أملك، ولا بد لي من البقاء فيها في غير أوقات العمل. لكني خرجت اليوم. لن أبقى في تلك الغرفة، ولن أذهب إلى المكتبة القديمة للقراءة أيضًا. إنها آخر إجازة نصفية لنا هذا العام، وهي إضافية، وسأستمتع بوقتي لمرة واحدة. إنني شابة وأحب الضحك والمزاح بقدر أولئك الفتيات اللاتي أبيعهن الشرائط طوال اليوم. حسن سأضحك اليوم وأمرح».

ابتسمت بوليانا وهزت رأسها موافقة.

«أنا سعيدة لأنك تشعرين على هذا النحو. إنني أفعل أيضًا، والأمر أكثر متعة حين يكون المرء سعيدًا أليس كذلك؟ ثم إن الكتاب

المقدس يقول لنا أن نفرح ونبتهج، أعني أنه يقول لنا ذلك ثمانمئة مرة، لعلك تعرفين نصوص البهجة».

هزت الفتاة الجميلة رأسها نفيًا، وقد كست وجهها نظرة غريبة.

«حسن، كلا»، قالت بجفاف، «لا يمكنني القول إنني فكرت بالكتاب المقدس».

«حقًا؟ ربما لم تفعلي، ولكن أبي كان كاهنًا كما تعلمين و...».

«كاهنًا؟».

«أجل، هل كان أبوك كذلك؟»، صاحت پوليانا ردًا على شيء رأته في وجه الأخرى.

«أجل»، تسلل لون باهت إلى جبين الفتاة.

«أوه، وهل ذهب مثل أبي ليكون مع الرب والملائكة؟».

أشاحت الفتاة بوجهها.

«كلا، إنه على قيد الحياة، في الديار»، أجابت بصوت خفيض.

«أوه، لا بد أنك سعيدة»، تنهدت پوليانا غبطة، «يخطر لي أحيانًا لو أن بوسعي رؤية وجه أبي، ولكنك ترين أباك، أليس كذلك؟».

«ليس كثيرًا، فأنا هنا كما ترين».

«ولكنك تستطيعين رؤيته، وأنا لا أستطيع. لقد ذهب ليكون مع أمي والبقية منا عاليًا في السماء، ألك أم، أمّ على الأرض؟».

«أجل» تململت الفتاة بضيق وتحركت كأنها تود الذهاب.

«أوه، يمكنك رؤيتها إذن»، شهقت پوليانا وعلى وجهها لهفة لا توصف. «أوه يا لسعادتك! فما من أحد يهتم ويلاحظ كثيرًا كالآباء والأمهات. أنا أعرف كما ترين لأن أبي كان معي حتى بلغت الحادية عشرة، أما الأم، فقد حظيت بالسيدات المحسنات طوال حياتي، إلى أن تعهدتني الخالة پولي. إن السيدات المحسنات رائعات طبعًا، لكنهن لسن كالأمهات أو الخالة پولي، و...».

تحدثت پوليانا وتحدثت، وقد غدت سعيدة، فهي تحب الحديث. ولم يخطر لپوليانا لحظة أن هذا السرد الحميم لأفكارها وقصتها لغريبة تمامًا على مقعد متنزه في بوسطن هو أمر غريب أو غير لائق أو غبي. فقد كان كل الرجال والنساء والأطفال عندها أصدقاء، سواء أعرفتهم أم لم تعرفهم، وقد وجدت الذين لم تعرفهم مبهجين بقدر من تعرف، فمعهم ثمة إثارة من الغموض والمغامرة، وهم يتحولون من المجهولين إلى المعروفين.

تحدثت پوليانا إلى الفتاة اليافعة قربها بلا تحفظ عن أبيها وعن خالتها پولي، وبيتها في الغرب ورحلتها إلى ڤيرمونت شرقًا. كما تحدثت عن الأصدقاء الجدد والقدامى، وأخبرتها أيضًا عن اللعبة. اعتادت پوليانا إخبار الجميع عن اللعبة عاجلًا أم آجلًا. لقد كان ذاك جزءًا من ذاتها يصعب عليها ألا تتحدث عنه.

أما الفتاة فتحدثت قليلًا، ولم تعد تجلس جلستها المتململة، فقد طرأ عليها تغير ملحوظ. وقد كانت الوجنتان المحمرتان والحاجبان المعقودان والعينان القلقتان والأصابع التي تتحرك بتوتر أمارات

جلية لصراع داخلي. وظلت بين الفينة والأخرى تنظر إلى الدرب خلف پوليانا بتوجس، وبعد إحدى هذه النظرات تشبثت بذراع الفتاة الصغيرة.

«اسمعي يا صغيرتي، لا تتركيني لدقيقة، أتسمعين؟ ابقي حيث أنت. ثمة رجل قادم أعرفه، ولكن لا تلقي له بالًا مهما قال، ولا تذهبي، سأبقى هنا معك، أتفهمين؟».

وقبل أن تلتقط پوليانا أنفاسها من الدهشة والاستغراب وجدت نفسها تنظر في وجه شاب حسن الطلعة وقف أمامها.

«أوه، ها أنت»، ابتسم بسرور رافعًا قبعته لرفيقة پوليانا، «أخشى أن علي أن أبادر بالاعتذار، فقد تأخرت قليلًا».

«لا يهم يا سيدي»، قالت الشابة متحدثة على عجل، «لقد عزمت على ألا أذهب».

ضحك الشاب ضحكة خفيفة.

«أوه هيا يا عزيزتي، لا تكوني قاسية على شاب لأنه تأخر قليلًا!».

«ليس هذا السبب حقًا»، دافعت الفتاة وقد احمرت وجنتاها بسرعة، «أعني أنني لست ذاهبة».

«هراء!» كف الرجل عن الابتسام وتكلم بحدة، «قلت البارحة إنك ستذهبين».

«أعلم، ولكني غيرت رأيي، لقد أخبرت صديقتي الصغيرة هنا أني سأبقى معها».

«أوه، ولكنك قد تفضلين الذهاب مع هذا الشاب المحترم اللطيف»، بدأت پوليانا لكنها صمتت سريعًا بعد نظرة الفتاة لها.

«أخبرتك أنني أؤثر ألا أذهب، ولست بذاهبة».

«وما سبب هذا التغير المفاجئ من فضلك؟»، سأل الشاب بتعبير جعله يبدو بغيضًا في عين پوليانا، «لقد قلت البارحة...».

«أعلم أني فعلت»، قاطعته الفتاة بانفعال، «لكني علمت عندئذ أنني يجب ألا أفعل، لنقل إنني أعلم أفضل الآن، وهذا كل ما في الأمر»، وأشاحت بوجهها بحزم.

لم يكن هذا كل شيء فقد تحدث الرجل مرتين. وتملقها ثم نخر بنظرة كريهة في عينيه. وفي النهاية قال شيئًا بصوت خفيض وغاضب لم تفهمه پوليانا، ومن ثم استدار وسار مبتعدًا.

راقبته الفتاة بقلق حتى اختفى عن ناظرها ثم وبعد أن ارتاحت وضعت يدًا مرتعشة على ذراع پوليانا.

«شكرًا يا صغيرة، أحسب أني مدينة لك أكثر مما تعرفين، إلى اللقاء».

«ولكنك لست ذاهبة الآن!»، تذمرت پوليانا.

تنهدت الفتاة بوهن. «علي ذلك، فقد يعود، وقد لا أستطيع المرة القادمة أن...» قطعت كلامها ونهضت. وترددت للحظة ثم غصت بمرارة «إنه من أولئك الذين يلاحظون كثيرًا، ولم يكن عليه ملاحظتي قط!»، ثم رحلت بعد قولها هذا.

«عجبًا، يا لها من سيدة غريبة»، غمغمت پوليانا، وهي تنظر بحزن إلى الفتاة المغادرة. «لقد كانت لطيفة، لكنها مختلفة أيضًا»، عقبت وهي تنهض وتسير بخمول على الدرب.

الفصل السادس

جيري المنقذ

سرعان ما وصلت بوليانا إلى طرف الحديقة عند ناصية يلتقي فيها شارعان، وكانت ناصية مثيرة للاهتمام، بعرباتها وسياراتها وحافلاتها ومارتها المستعجلين. ولفت نظرها زجاجة حمراء كبيرة في متجر، وجاء من أدنى الشارع صوت أرغن متنقل. اندفعت بوليانا بعد ترددها للحظة عابرة الناصية ومشت في الشارع بخفة نحو الموسيقى الأخاذة.

وجدت بوليانا الكثير مما يثير اهتمامها، فقد رأت في واجهات المتاجر متاعًا بديعًا، وحين وصلت إلى حيث الأرغن المتنقل وجدت عددًا من الأطفال يرقصون فتنت بمراقبتهم. وتبين من هذا الوقت الممتع المبهج أن بوليانا تبعت الأرغن المتنقل بعيدًا لترى هؤلاء الأطفال الراقصين فحسب. ثم وجدت نفسها على ناصية مزدحمة عندها رجل ضخم يرتدي معطفًا أزرق له حزام يساعد الناس على عبور الشارع. وراقبته في صمت للحظة تأمل، ثم عبرت الشارع بنفسها بقليل من الخوف.

لقد كانت تجربة رائعة، وقد رآها الرجل الضخم ذو المعطف الأزرق في الحال وأشار إليها بسرعة، بل إنه سار لملاقاتها. ثم مشت سالمة إلى حافة الرصيف عبر مجاز عريض بين السيارات النافخة والجياد المتململة على كلا الجانبين. وقد منحها هذا شعورًا جميلًا جميلًا للغاية، حتى أنها عادت بعد دقيقة. ومرتين أخريين وبعد استراحات قصيرة قطعت الطريق الأخاذ الذي ينفتح انفتاحًا سحريًا لدى رفع الرجل الضخم يده. ولكن مرشدها تركها عند حافة الرصيف، وقطب محتارًا.

«أصغي إلي أيتها الفتاة الصغيرة، ألست الفتاة نفسها التي عبرت قبل دقيقة؟ ومرة أخرى قبل ذلك؟» سألها.

«بلى يا سيدي»، ابتسمت بوليانا، «لقد عبرته أربع مرات!».

«حسن!»، قال الشرطي متوعدًا، لكن بوليانا واصلت حديثها.

«والأمر أجمل في كل مرة!».

«أوه، أجمل، حقًا؟»، همهم الرجل الضخم على استحياء، ثم انفجر بمزيد من الحيوية «فيم تظنين وقوفي هنا، حتى أحملك جيئة وذهابًا؟».

«أوه، كلا يا سيدي»، ابتسمت بوليانا، «إنك لست لي وحدي طبعًا! فثمة الكثير من الآخرين. إنني أعلم ما تكون، إنك شرطي. لدينا واحد منكم حيث أعيش في منزل السيدة كَرو، عدا أنه يمشي على الرصيف فحسب كما تعلم. كنت أظنكما جنديين، نظرًا لأزراركما الذهبية وقبعتيكما الزرقاوين، ولكني أعلم جيدًا الآن.

غير أنني أحسبك جنديًا بطريقة ما، فأنت شجاع للغاية وأنت تقف هنا هكذا، في وسط كل هذه السيارات والجياد وتساعد الناس على العبور».

«هو.. هو! بررر!»، دمدم الرجل الضخم وقد احمر مثل تلميذ في المدرسة وأرجع رأسه إلى الوراء بضحكة عالية. «هو هو، كأنما...»، وسكت ورفع يده رفعة سريعة. ثم رافق سيدة قصيرة مسنة بادٍ عليها الذعر من حافة الرصيف إلى الحافة الأخرى. وإن كانت خطواته أكثر اختيالًا وصدره أكثر امتلاء، فذلك تكريمًا عفويًا لمراقبة عيني الفتاة الصغيرة الواقفة عند نقطة الانطلاق. وبعد أن لوّح بيده بغطرسة سامحًا للسائقين والحوذيين بالسير، عاد إلى پوليانا.

«أوه، كان ذلك رائعًا!»، حيته بعينين لامعتين، «أحب رؤيتك تفعل ذاك، وهذا يشبه عبور بني إسرائيل للبحر الأحمر، أليس كذلك؟ وأنت توقف الأمواج ليعبر الناس، ولا بد أنك سعيد طوال الوقت لأنك تستطيع فعل ذلك! كنت أظن أن مهنة الطبيب هي أسعد المهن، غير أني أحسب الآن أن الشرطي أسعد، فهو يساعد الخائفين هكذا، كما تعلم. و...»، ولكن الرجل ذو المعطف الأزرق قاطعها بـ «بررر» أخرى وضحكة محرجة، وعاد إلى وسط الشارع، وظلت پوليانا وحدها عند حافة الرصيف.

نظرت پوليانا إلى «بحرها الأحمر» الأخاذ لدقيقة أخرى، ثم استدارت لتذهب مولية إياه نظرة آسفة.

«أحسب أنه يجدر بي العودة إلى البيت الآن»، فكرت، «لا بد أنه موعد العشاء»، وأخذت تمشي بخفة للعودة من حيث أتت.

لم تدرك پوليانا أن «العودة إلى البيت» ليست بسهلة كما ظنتها، فقد ترددت عند عدد من النواصي وأخذت منعطفين خاطئين دون أن تدري. ولم تدرك تمامًا أنها أضاعت طريقها حتى وصلت إلى مبنى تعرف حق المعرفة أنها لم تره قبلًا.

كانت في شارع ضيق قذر سيء الأرصفة، وعلى الجانبين بضع متاجر قبيحة ودور غبراء. وفي كل مكان منه رجال يهذرون ونساء يثرثرن، رغم أن پوليانا لم تفقه كلمة مما قالوه. بل إنها لاحظت أن الناس ينظرون إليها نظرات غريبة، كأنهم يعلمون أنها لا تسكن هنا.

فسألت عن الطريق عدة مرات دون جدوى، فلا يبدو أن أحدًا يعلم أين تسكن السيدة كَرو، وفي آخر مرتين أجابها من سألتهم بإيماءة ومزيج كلمات ظنتها پوليانا بعد تفكير أنها «ألمانية»، مثل تلك التي يستخدمها آل هاغرمانز، الأسرة الأجنبية الوحيدة في بلدنغزڤِل.

مشت پوليانا ومشت من شارع لآخر، وقد شعرت بالخوف تمامًا. كما أنها جائعة ومتعبة للغاية. فآلمتها قدماها واغرورقت عيناها بالدموع التي حاولت حبسها، وما زاد الأمر سوءًا أن الظلام بدأ يخيم.

«حسن، على أية حال»، قالت لنفسها بغصة، «أنا سعيدة لأني

تائهة، لأن الأمر سيكون جميلًا حين يُعثر علي، يمكنني أن أسعد بذلك!».

كانت ناصية صاخبة حيث تقاطع شارعان عريضان فوقفت بوليانا وقفة حائرة. وانهمرت الدموع هذه المرة، ولأنها لا تملك منديلًا فقد اضطرت إلى استخدام ظهر كلتا يديها لمسحها.

«مرحبًا يا طفلة، لماذا تبكين؟»، سأل صوت مرح، «ما الأمر؟».

استدارت بوليانا بصرخة راحة قصيرة لتواجه صبيًا صغيرًا يتأبط حزمة من الصحف.

«أوه، إنني سعيدة لرؤيتك!»، قالت، «لقد أردت رؤية أحد لا يتحدث الألمانية!».

ابتسم الصبي.

«ليست ألمانية!»، قال ساخرًا، «أراهن أنك تعنين الإيطالية».

قطبت بوليانا قليلًا.

«حسن، إنها ليست بإنجليزية على أية حال»، قالت بشك، «ولم يستطيعوا الرد على أسئلتي، ولكن لعلك تستطيع. أتعلم أين أجد السيدة كَرو؟».

«لا، يمكنك تفتيشي».

«ماذا؟»، سألت بوليانا وقد زاد شكها.

ابتسم الصبي ثانية.

«أظنني لا أعرف السيدة».

«ولكن أما من أحد يعرفها في أي مكان؟»، اعترضت پوليانا. «لقد خرجت في نزهة وتهت كما ترى، لقد ابتعدت ولكني لا أستطيع العثور على البيت، وقد حان موعد الغداء، أعني العشاء والظلام يخيم. أود العودة إلى البيت، لا بد أن أعود إلى البيت».

«يا إلهي! حسن، هذا يثير القلق!»، أشفق عليها الصبي.

«أجل، أخشى أن السيدة كَرو قلقة أيضًا»، تنهدت پوليانا.

«يا ربي! يا لك من خرافة!»، ضحك الفتى على نحو مفاجئ، «ولكن اسمعي، ألست تعرفين اسم الشارع الذي تريدين؟».

«كلا، لا أعرف سوى أنه جادة»، أحبطت پوليانا.

«جادة، أليس كذلك؟ إنه في حي راقٍ! إننا نبلي حسنًا. ما رقم المنزل؟ هل يمكنك إخباري؟ حكي رأسك فحسب!».

«أحك رأسي؟»، قطبت پوليانا متسائلة ورفعت يدًا مترددة إلى شعرها.

نظر إليها الصبي بازدراء. «أوه، هيا أيتها السخيفة! لا يمكن أن تكوني بهذه الحماقة. أقول ألا تذكرين رقم المنزل الذي تريدين؟».

«كلا، عدا أن فيه سبعة»، أجابت پوليانا بهيئة مفعمة بالأمل.

«أتسمعون؟»، تهكم الولد الساخر، «فيه سبعة، وتتوقع مني أن أعرفه حين أراه!».

«أوه، أعرف المنزل حين أراه»، أجابت پوليانا بحماس، «وأظنني سأعرف الشارع أيضًا من الفناء الكبير الرائع الذي يمتد يمنة ويسرة في وسطه».

قطب الصبي تقطيبة حيرة هذه المرة.

«فناء؟ في وسط الشارع»، سأل.

«أجل، أشجار وعشب كما تعلم، وفيه ممشى وسطه ومقاعد و...»، لكن الصبي قاطعها بصيحة فرح.

«يا إلهي! إنها جادة كومنولث التي تسكنين فيها! أوجدت ضالتك الآن؟».

«أوه، أتعرفها، أتعرفها حقًا؟»، تضرعت پوليانا، «أظنها هي، غير أنني لا أدري ما تعني بالضالة. ليس في المكان ماعز ضال، ولا أظنهم يسمحون...».

«لا شيء!»، سخر الصبي، «إني أراهنك بحياتك الحلوة إنني أعرف أين تقع! ألا أحمل السير جيمس هناك إلى الحديقة كل يوم؟ وسآخذك، ابقي هنا حتى أعود إلى أعملي وأبيع ما لدي. ثم سنمشي إلى تلك الجادة قبل أن يرتد إليك طرفك».

«تعني أنك ستعيدني إلى البيت؟»، سألت پوليانا متوسلة ولم تزل لم تفهم تمامًا.

«طبعًا! هذا سهل إن كنت تعرفين البيت».

«أوه، أجل إنني أعرف البيت»، أجابت پوليانا شديدة الالتزام

بالنص بقلق، «غير أنني لا أعلم إن كان سهلًا أم، فإن لم يكن، أيمكنك....».

لكن الصبي اكتفى بالنظر نظرة ازدراء أخرى وانطلق كالسهم مخترقًا الجموع. ثم سمعت پوليانا نداءه العالي «صحف، صحف! هيرالد، غلوب، أتريد صحيفة يا سيدي؟».

وعادت پوليانا إلى مدخل وانتظرت وهي تتنفس الصعداء، وكانت متعبة لكنها سعيدة. ورغم مظاهر الأمر المحيرة العديدة فقد وثقت بالصبي وآمنت بقناعة تامة أنه سيأخذها إلى البيت.

«إنه لطيف، ويعجبني»، قالت في نفسها وهي تلاحق بعينيها الصبي النشط السريع، «لكنه يتحدث بغرابة. تبدو كلماته إنجليزية، غير أن بعضها لا تنسجم مع باقي ما يقول. ولكني سعيدة أنه وجدني على أية حال»، ختمت قولها بتنهيدة رضا قصيرة.

عاد الصبي بعد وقت قصير خاوي الوفاض.

«هيا يا صغيرة. هلمي»، صاح مرحًا، «والآن سنشق الطريق نحو الجادة. لو كنت ثريًا لأخذتك إلى البيت في عربة أنيقة سريعة، ولكني لا أملك شروى نقير، لذا فعلينا أن نمشي».

كانت نزهة صامتة في جلها، وقد تعبت پوليانا لأول مرة في حياتها من الكلام حتى عن السيدات المحسنات، وكان الصبي عازمًا على اختيار أقصر الطرق إلى مبتغاه.

قالت پوليانا جذلة حين وصلا الحديقة العامة «أوه، لقد كدت

أن أصل! أذكر هذا المكان. لقد قضيت وقتًا ممتعًا للغاية هنا بعد ظهر اليوم، إنه يبعد قليلًا عن البيت».

«هذا صحيح! لقد كدنا أن نصل»، زعق الصبي، «ألم أقل لك؟ سنعبر من هنا نحو الجادة، ثم سيتعين عليك إيجاد البيت».

«أوه، يمكنني العثور على البيت»، طربت پوليانا بثقة من وصل أرضًا يعرفها.

لقد خيم الظلام تمامًا حين ارتقت پوليانا عتبات منزل السيدة كرو، وسرعان ما أجيب قرع الصبي للجرس، ووجدت پوليانا نفسها أمام ماري والسيدة كرو وبريجيت وجيني أيضًا، وكانت النسوة الأربعة كلهن شاحبات الوجوه قلقات العيون.

«يا صغيرة، أين كنت أيتها الصغيرة؟»، سألت السيدة كرو وهي تسرع بالتقدم.

«لقد... لقد خرجت في نزهة فحسب»، قالت پوليانا، «وقد تهت وهذا الصبي...».

«أين عثرت عليها؟»، قاطعتها السيدة كرو ملتفتة بعجرفة نحو مرافق پوليانا الذي حملق في تلك اللحظة بإعجاب صريح بالعجائب من حوله في القاعة المضاءة اللامعة.

«أين عثرت عليها يا فتى؟»، كررت سؤالها بحدة.

واجه الصبي نظرتها بلا وجل للحظة، ثم مر في عينيه شيء يشبه البريق، رغم أن صوته كان رصينًا حين تحدث.

«حسن، لقد وجدتها قرب ميدان بودوين، لكني أحسب أنها كانت تود الذهاب نحو الطرف الشمالي، غير أنها لم تفهم حديث الإيطاليين، لذا لا أظنها ألقت لهم بالًا يا سيدتي».

«الطرف الشمالي؟! تلك الطفلة وحدها؟!»، ارتجفت السيدة كرو.

«أوه، لم أكن وحدي يا سيدة كرو»، تداركت بوليانا، «فقد كان فيه الكثير والكثير من الناس، أليس كذلك يا فتى؟».

لكن الصبي بابتسامة شيطانية خرج من الباب. عرفت بوليانا الكثير من الأمور خلال نصف الساعة التالية، فقد عرفت أن الفتيات المهذبات لا يخرجن في نزهات طويلة وحدهن في مدن غريبة، ولا يجلسن على مقاعد المتنزه ويتحدثن إلى الغرباء. كما علمت أنها وصلت إلى البيت تلك الليلة بمعجزة رائعة فحسب، وأنها نجت من الكثير الكثير من عواقب حماقتها. وعرفت أن بوسطن ليست بلدنغزفِل، وأن عليها ألا تظنها كذلك.

«ولكن يا سيدة كرو»، جادلت بيأس في نهاية الأمر، «أنا هنا، ولم أضع للأبد. وأظن أن علي أن أسعد من أجل هذا بدلًا من التفكير طوال الوقت بالأمور التعسة التي كانت ستحدث».

«أجل أجل يا صغيرة، أظن ذلك، أظن ذلك»، تنهدت السيدة كرو، «ولكنك أخفتني، وأريد منك أن تعديني وعدًا ألا تفعلي ذلك ثانية. والآن تعالي يا عزيزتي، لا بد أنك جائعة».

حين خلدت بوليانا إلى النوم تلك الليلة غمغمت ناعسة لنفسها

«أكثر ما ندمت عليه من أي أمر آخر أنني لم أسأل الصبي عن اسمه ولا أين يعيش، فكيف لي أن أشكره؟!».

الفصل السابع

صديق جديد

روقبت تحركات پوليانا بعناية بعد نزهتها الجريئة، ولم يسمح لها بالخروج من البيت -إلا للمدرسة- ما لم تصحبها ماري أو السيدة كرو نفسها. ولم يزعج هذا پوليانا، لأنها أحبت كلًا من السيدة كرو وماري، وسرت بصحبتهما. وكانتا كريمتين بوقتهما أيضًا لبعض الوقت. بل إن السيدة كرو جهدت لتسلية الطفلة، بعد خوفها مما كان سيحدث وارتياحها أنه لم يحدث.

وهكذا حدث أن حضرت پوليانا مع السيدة كرو، حفلات موسيقية وحفلات غداء، وزارت المكتبة العامة ومتحف الفنون، ومع ماري ذهبت في جولات لرؤية بوسطن، وزارت مبنى الولاية وكنيسة الجنوب القديمة.

واستمتعت پوليانا بركوب الحافلات بقدر ما استمتعت بركوب السيارة، كما عرفت السيدة كرو ذات يوم مندهشة.

«هل سنستقل الحافلة؟»، سألت پوليانا بحماس.

«كلا، سيأخذنا پيركنز»، أجابت السيدة كرو، ثم حين رأت

الخيبة الواضحة على وجه پوليانا أضافت متعجبة «عجبًا، ظننتك تحبين السيارة يا صغيرة!».

«أوه، أنا أحبها»، أقرت پوليانا بسرعة، «ولن أقول شيئًا على أية حال، لأني أعلم أنها أرخص من الحافلة و...».

«أرخص من الحافلة؟»، قاطعتها السيدة كرو متعجبة.

«حسن، نعم»، فسرت پوليانا بعينين واسعتين، «إن الحافلة تكلف خمسة سنتات للشخص كما تعلمين، لكن السيارة لا تكلف شيئًا، لأنها ملكك. وأنا أحب السيارة طبعًا على أية حال»، ثم واصلت مسرعة قبل أن تتحدث السيدة كرو «غير أن في الحافلة أناسًا كثيرين، ومن الممتع مراقبتهم! ألا تظنين ذلك؟».

«كلا، كلا يا پوليانا، لا يمكنني القول إنني أفعل»، أجابت السيدة كرو بجفاء وهي تبتعد.

وصدف بعد يومين أن سمعت السيدة كرو أمورًا أكثر عن پوليانا والحافلة، وهذه المرة من ماري.

«أعني أن هذا غريب يا سيدتي»، قالت ماري بجدية مجيبة عن سؤال سألته سيدتها، «غريب أن الآنسة پوليانا تسحر الجميع، دون أدنى جهد. ولا أقول إنها تفعل شيئًا، فهي لا تفعل. إنها تبدو سعيدة فحسب كما أظن وهذا كل ما في الأمر. لكنني رأيتها تستقل حافلة مزدحمة بالرجال والنساء النكدين، والأطفال المتذمرين، ثم إن المرء لن يعرف المكان بعد مضي خمس دقائق. فقد كف الرجال والنساء عن التجهم ونسي الأطفال ما بكوا من أجله.

قد يكون ذاك عائدًا أحيانًا إلى شيء ما قالته لي الآنسة پوليانا وسمعه الآخرون. وأحيانًا يكون ذاك بفضل «شكرًا لك» التي تقولها حين يصر أحد على إعطائنا مقعده، وهم يفعلون هذا دومًا، أعني إخلاء المقاعد لنا. وأحيانًا تكون الطريقة التي تبتسم بها لطفل أوكلب. كل الكلاب في كل مكان تهز ذيولها لها، وكل الأطفال صغارًا وكبارًا يتسمون ويمسكون بيدها. إن تأخرنا فهي متعة، وإن أخذنا الحافلة الخطأ فهذا أمتع شيء حدث. وهذه هي طريقتها في كل شيء. لا يمكن لامرئ أن يظل شكسًا مع الآنسة پوليانا، حتى إن كان وحيدًا في حافلة مزدحمة بأناس لا يعرفهم».

«امم، صحيح»، غمغمت السيدة كرو وهي تذهب.

تبين أن شهر أكتوبر من ذاك العام كان شهرًا دافئًا وبهيجًا تمامًا، وبمجيء الأيام الذهبية وذهابها تجلى سريعًا أن مواكبة قدمي پوليانا الصغيرتين النشطتين مهمة تستنزف الكثير من وقت المرء وصبره. وإن كانت السيدة كرو تملك الأول، فإنها تفتقر للثاني، ولم تكن راغبة في السماح لماري في قضاء الكثير من وقتها (مهما يكن صبرها) في الاستجابة لأهواء پوليانا وخيالاتها.

وكان إبقاء الفتاة الصغيرة في المنزل في أيام أكتوبر البهيجة هذه أمرًا متعذرًا. وسرعان ما وجدت پوليانا نفسها في «الفناء الكبير الرائع» مرة أخرى، في حديقة بوسطن العامة وحدها. لقد كانت حرة كما السابق ظاهريًا، غير أنها في الواقع أحيطت بجدار حجري من الضوابط.

يجب ألا تتحدث إلى الغرباء رجالًا أو نساء، وألا تلعب مع الأطفال الغرباء، ولا يتعين عليها أبدًا بأي حال أن تخطو خطوة خارج الحديقة إلا لتعود إلى البيت. كما أن ماري التي أخذتها إلى الحديقة وتركتها حرصت على أن تتأكد أنها تعرف طريق العودة إلى البيت، وأنها تعرف أن جادة كومنولث تتصل بشارع أرلنغتن مقابل الحديقة. وعليها دومًا العودة إلى البيت حين تدق ساعة برج الكنيسة معلنة أن الساعة الرابعة والنصف.

ترددت پوليانا على الحديقة بعد هذا، وذهبت أحيانًا برفقة فتيات من المدرسة، لكنها ذهبت وحدها معظم الأحيان. ورغم الضوابط المضجرة بعض الشيء فإنها استمتعت كثيرًا. فقد كان بوسعها مراقبة الناس وإن لم تتحدث إليهم، وبوسعها التحدث إلى السناجب والحمامات وطيور السنونو التي تأتي إليها متلهفة من أجل الحبوب والثمار التي تعلمت حملها معها في كل مرة تاتي فيها.

بحثت پوليانا كثيرًا عن أصدقائها القدامى الذي عرفتهم أول مرة، الرجل الذي كان سعيدًا للغاية بأن لديه عينيه وذراعيه وساقيه، والشابة الجميلة التي لم تذهب مع الرجل الوسيم، لكنها لم ترهما قط. وكثيرًا ما رأت الصبي على الكرسي المتحرك، وتمنت لو استطاعت الحديث إليه. كان الصبي يطعم الطيور والسناجب أيضًا، وكانت أليفة معه حتى أن الحمام يجثم على رأسه وكتفيه، وتحفر السناجب في جيوبه بحثًا عن الثمار. لكن پوليانا التي تراقب من بعيد لاحظت أمرًا غريبًا؛ رغم سرور الصبي الجلي بتقديم مأدبته، غير أن مؤونته

من الطعام تنفد سريعًا، ورغم أنه يبدو دائمًا خائبًا بقدر السنجاب بعد خروجه بخفي حنين، فإنه لم يصلح الأمر يومًا بإحضار المزيد من الطعام اليوم التالي، وهذا ما بدا لپوليانا قصر نظر وقلة تدبير.

كان الصبي يقرأ إن لم يكن يلعب مع الطيور والسناجب، يقرأ دومًا. وفي كرسيه كان عادة كتابان أو ثلاثة كتب مهترئة، ومجلة أو اثنتان أحيانًا. وكان دومًا في مكان واحد، وظلت پوليانا تتساءل كيف وصل إلى هناك. ثم عرفت في يوم لا ينسى. كان يوم إجازة مدرسية، وجاءت إلى الحديقة ضحىً، وما إن وصلت المكان حتى رأته على أحد الدروب يدفعه صبي أخنس الأنف شعره بلون الرمل، ونظرت إلى وجه الصبي ذي الشعر الرملي نظرة ثاقبة، ثم ركضت نحوه وهي تصرخ سعادة.

«أوه، أنت... أنت! أعرفك وإن لم أعرف اسمك. لقد وجدتني! ألا تذكر؟ أوه، إنني سعيدة لأني رأيتك! لقد أردت أن أشكرك كثيرًا!».

«يا إلهي! إنها الفتاة الصغيرة الرائعة التائهة من الجادة!»، ابتسم الصبي، «حسن، وما الأمر الآن، هل تهت ثانية؟».

«أوه، كلا!»، قالت پوليانا وهي ترقص على أطراف أصابعها في فرح لا يمكن كبحه، «لا يمكنني أن أتوه ثانية، علي البقاء هنا. وليس علي أن أتحدث، كما تعلم. ولكني أستطيع الحديث معك لأني أعرفك ويمكنني الحديث معه، بعد أن تعرفني عليه»، قالت وهي تنظر إلى الصبي المقعد نظرة سعيدة وصمتت مفعمة بالأمل.

ضحك الصبي ذو الشعر الرملي بهدوء، وربت على كتف الصبي الجالس على الكرسي.

«أنصت إلى هذا، أتفعل؟ أليس هذا أمرًا طريفًا؟ انتظر حتى أعرفك عليها!»، ووقف وقفة فيها أبهة، «سيدتي هذا صديقي السير جيمس، سيد زقاق ميرفي، و...» لكن الصبي على الكرسي قاطعه.

«كف عن قول الكلام الفارغ يا جيري!»، صاح حانقًا، ثم أدار نحو پوليانا وجهًا مشرقًا، «لقد رأيتك هنا مرارًا من قبل، ورأيتك تطعمين الطيور والسناجب، وحولك دومًا الكثير منها! وأظنك تحبين السير لانسلوت كثيرًا أيضًا. صحيح أن لدينا الليدي روينا، ولكن ألم تكن وقحة مع غوِنڤير البارحة، وهي تسلبها عشاءها هكذا؟».

طرفت پوليانا بعينيها وقطبت، وهي تنقل ناظريها بين الصبيين في حيرة واضحة. ضحك جيري ثانية، ثم دفع الكرسي دفعة واحدة إلى وضعه المعتاد واستدار للذهاب.

ونادى پوليانا من خلف ظهره «اسمعي يا صغيرة، دعيني أوضح لك أمرًا. هذا الفتى ليس مخمورًا ولا مجنونًا، أتفهمين؟ هذه أسماء أطلقها على أصدقائه الصغار هنا». ويتلويحة من ذراعيه نحو الحيوانات ذوات الريش وذوات الفراء التي تجمعت من كل حدب وصوب، «وهي ليست بأسماء لناس، إنها أسماء لشخصيات من الكتب، أتفهمين؟ وهو يفضل إطعامها على إطعام نفسه، أليس بأحمق؟ مرحى للسير جيمس»، أضاف بابتسامة للصبي الجالس

على الكرسي «ابتهجي الآن، فما من أحد وضيع حولك! أراك لاحقًا»، ورحل.

لم تزل پوليانا تطرف وتقطب حين استدار إليها الصبي المقعد مبتسمًا.

«لا تهتمي لجيري، هذه طريقته. إنه سيقطع يده اليمنى من أجلي، سيفعل حقًا لكنه يحب أن يغيظني. أين رأيته؟ هل يعرفك؟ لم يخبرني باسمك».

«أنا پوليانا ويتير، كنت تائهة ووجدني وأخذني إلى البيت»، أجابت پوليانا ولم تزل مندهشة.

«فهمت، هذا طبعه»، هز الصبي رأسه موافقة، «ألا يحملني إلى هنا كل يوم؟».

وغمرت عيني پوليانا شفقة سريعة.

«ألا يمكنك أن تمشي يا سير جيمس؟».

ضحك الصبي جذلًا.

«سير جيمس حقًا! هذا شيء من هراء جيري أيضًا، فأنا لست سير».

بدت الخيبة على وجه پوليانا.

«ألست كذلك؟ ولست لوردًا كما قال؟».

«كلا طبعًا».

«أوه، تمنيت لو كنت، مثل الفتى النبيل كما تعلم»، أجابت بوليانا، «و...».

لكن الصبي قاطعها متلهفًا «هل تعرفين الفتى النبيل؟ وهل تعرفين السير لانسلوت، والكأس المقدسة، والملك آرثر وطاولته المستديرة، والليدي روينا، وإيفانهو، وكل هؤلاء؟ أتعرفينهم؟».

هزت بوليانا رأسها هزة ارتياب.

«حسن، أخشى أنني لا أعرف كل هؤلاء»، أقرت، «أكلّهم من الكتب؟».

هز الصبي رأسه موافقة.

«وقد جلبت بعضها معي»، قال، «أحب قراءتها مرة بعد أخرى، ففيها شيء جديد في كل مرة. كما أن ليس لدي غيرها على أية حال، هذه كانت لأبي. أنت أيها المحتال الصغير كف عن ذلك!». قطع كلامه بضحكة مستنكرة حين قفز سنجاب كث الذيل إلى حجره وأخذ يحفر في جيبه. «يا إلهي! أحسب أن علينا تقديم الغذاء لها وإلا حاولت أكلنا»، ضحك الصبي. «هذا السير لانسلوت، إنه أول من يأتي دومًا كما تعرفين».

وأخرج الصبي من مكان ما صندوقًا من الورق المقوى فتحه شيئًا فشيئًا، متنبهًا للأعين الصغيرة البراقة الكثيرة التي تراقب كل حركة. وتعالت من حوله أصوات تدويم الأجنحة ورفرفتها، وهديل الحمام وزقزقة السنونوات الصاخبة. احتل السير

لانسلوت، يقظًا ومتلهفًا، أحد مسندي الكرسي المتحرك، وجلس سنجاب آخر كث الذيل، أقل جرأة، على ردفيه على مبعدة خمس أقدام. وهذر سنجاب ثالث بصخب على غصن شجرة قريبة.

أخرج الصبي من الصندوق بضع ثمرات، ولفافة صغيرة وكعكة محلاة، ونظر إلى هذه بشوق وتردد.

«هل جلبت أي شيء؟»، سأل عندئذ.

«الكثير، هنا»، هزت بوليانا رأسها مربتة على الكيس الورقي الذي تحمله.

«أوه، لعلي آكلها أنا اليوم إذن»، تنهد الصبي معيدًا الكعكة المحلاة إلى الصندوق بشيء من الارتياح.

أما بوليانا التي لم تفهم أهمية هذا الفعل، فقد مدت يدها داخل حقيبتها، وبدأت المأدبة.

لقد كانت ساعة رائعة، وكانت عند بوليانا، بطريقة ما، أروع ساعة قضتها، لأنها وجدت أحدًا يتحدث أطول وأسرع مما تفعل. وبدا أن هذا الصبي لديه معين لا ينضب من الحكايات المدهشة عن الفرسان الشجعان والسيدات الجميلات، والمبارزات والمعارك. كما أنه يرسم لوحاته بحماس ورأتها بوليانا بعينيها أفعالًا باسلة، وفرسانًا يحملون دروعًا وسيدات جميلات يرتدين ثيابًا ولهن عقص مزينة، رغم أنها كانت تنظر إلى سرب من الحمام والسنونو المرفرف ومجموعة من السناجب المرحة على مدى واسع من العشب الذي تغطيه الشمس.

نسيت پوليانا أمر السيدات المحسنات، ولم تفكر بلعبة السعادة. وسارت، بوجنتين محمرتين وعينين لامعتين، في دروب العصور الذهبية يقودها صبي يحب الحكايات وحاولت -رغم أنها لم تدرك ذلك- أن تحشد في هذه الساعة القصيرة من الرفقة الأنيسة أيامًا لا حصر لها من الوحشة والوحدة والشوق.

ولم تتذكر پوليانا أنها لم تعرف اسم الصبي، إلا بعد أن دقت أجراس الظهيرة وجعلتها تسرع في العودة إلى البيت.

«لا أعرف إلا إنه ليس السير جيمس»، تنهدت پوليانا عابسة حانقة، «ولكن لا بأس، يمكنني سؤاله غدًا».

الفصل الثامن
جايمي

لم تر بوليانا الصبي «غدًا»، فقد أمطرت السماء ولم تستطع الذهاب إلى الحديقة. وقد أمطرت اليوم التالي أيضًا، ولم تره في اليوم الثالث، رغم أن الشمس ساطعة ودافئة، ورغم أنها ذهبت باكرًا جدًا بعد الظهر إلى الحديقة وانتظرت طويلًا، فإنه لم يأتِ قط. ولكنه كان في مكانه في اليوم الرابع، وهرعت بوليانا نحوه بتحية مرحة.

«أوه، إنني سعيدة للغاية، سعيدة برؤيتك! ولكن أين كنت؟ لم تأت هنا البارحة».

«لم أستطع، فلم يدعني الوجع آتي البارحة»، شرح الفتى الذي بدا شديد الشحوب.

«الوجع؟! أوه، هل تؤلمك ساقاك؟»، تلعثمت بوليانا وقد غمرتها الشفقة.

«أوه، أجل. على الدوام»، هز الصبي رأسه بتسليم رضا، «يمكنني احتماله جل الوقت فآتي إلى هنا، إلا حين يغدو الألم قويًا، كما حدث البارحة، فلا أستطيع حينئذ».

«ولكن كيف تحتمل الألم طوال الوقت؟»، شهقت پوليانا.

«حسن، على ذلك»، أجاب الصبي فاتحًا عينيه باتساع أكثر، «فالأمور على هذا الشكل، ولا يمكنها أن تكون بشكل آخر. فما الجدوى إذن من التفكير بما قد تكون عليه؟ ثم إن اشتد الألم يومًا، غدا شعوري أجمل عندما تقل شدته في المرة القادمة».

«أعلم، إنه هذا مثل اللعـ...»، قالت پوليانا لكن الصبي قاطعها.

«هل أحضرت الكثير هذه المرة؟»، سأل قلقًا، «أرجو أنك فعلت! لم أستطع جلب شيء معي اليوم كما ترين. لم يستطع جيري ادخار پنس واحد لشراء الفول السوداني هذا الصباح ولم يكن معي طعام كافٍ لي في الصندوق لهذه الظهيرة».

بدت پوليانا مذهولة.

«أتعني أنك ليس لديك طعام كافٍ لنفسك؟ لغدائك؟».

«أجل!»، ابتسم الصبي، «ولكن لا تقلقي، فهذه ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة. لقد اعتدت ذلك. أهلًا بك! ها قد جاء السير لانسلوت».

غير أن پوليانا لم تفكر بالسناجب.

«وليس لديك المزيد في البيت؟».

«أوه، كلا، ليس في البيت شيء البتة»، ضحك الصبي، «تعمل أميمتي خارجًا، في تنظيف الأدراج والنوافذ، فتحصل على الطعام

في تلك الأماكن، وجيري يحصل على طعامه أينما استطاع، إلا صباحًا ومساء إذ يتناول طعامه معنا، إن كان لدينا أي منه».

وبدت پوليانا أكثر ذهولًا.

«ولكن ماذا تفعل إن لم يكن لديك ما تأكله؟».

«أظل جائعًا طبعًا».

«لكني لم أسمع بأحد يومًا ليس عنده شيء يأكله»، لهثت پوليانا. «كنا أنا وأبي فقيرين طبعًا، واضطررنا لتناول الفاصولياء وكرات السمك حين نشتهي لحم الديك الرومي. ولكن كان عندنا شيء ما، لماذا لا تخبر الناس، كل هؤلاء الناس في كل مكان الذين يعيشون في هذه البيوت؟».

«وما جدوى ذلك؟».

«ويحي، سيعطونك شيئًا طبعًا!».

ضحك الصبي مرة أخرى، ضحكة غريبة هذه المرة.

«فكري ثانية يا صغيرة. إنك مخطئة تمامًا. ما من أحد أعرفه سيوزع أطباقًا من اللحم المحمر والكعك المغطى بعجينة السكر عند الطلب. ثم إنك ما لم تجوعي بين الحين والآخر فلن تتلذذي بالحليب والبطاطا، ولن يكون عندك الكثير مما تكتبينه في كتاب السعادة».

«كتاب ماذا؟».

ضحك الصبي محرجًا واحمر فجأة.

«لا تلقي بالًا! لم أحسبك إلا أميمتي أو جيري».

«ولكن ما كتاب السعادة؟»، توسلت پوليانا، «أخبرني أرجوك، أفيه فرسان وسيدات وسادة؟».

هز الصبي رأسه نفيًا، وغدت عيناه مظلمتين لا يسبر غورهما.

«كلا، ليتهم هناك»، تنهد الصبي بحزن، «ولكن إن كان المرء عاجزًا عن المشي، فليس بوسعه القتال في معارك والفوز بجوائز، وأن تحيط به سيدات جميلات يناولنه سيفه، ويمنحنه جائزة الذهب»، واتقدت في عيني الصبي نار مفاجئة، وارتفع ذقنه كأنما تلبية لنداء النفير. ثم خمدت النار فجأة أيضًا، وعاد الصبي إلى فتوره السابق.

«لا يمكنك فعل شيء»، استأنف الصبي بوهن بعد لحظة صمت، «ليس عليك سوى الجلوس والتفكير، وفي هذه الأوقات يغدو تفكيرك بغيضًا، هكذا غدا تفكيري على أية حال. فقد أردت الذهاب إلى المدرسة والتعلم، أشياء أكثر مما يمكن لأميمتي أن تعلمها لي، وفكرت بذلك. أردت أن أجري وألعب الكرة مع الصبيان الآخرين، وفكرت بذلك. أردت الخروج لبيع الصحف مع جيري، وفكرت بذلك. لم أرد أن يُعتنى بي طوال حياتي، وفكرت بذلك».

«أعلم، أوه، أعلم»، تنهدت پوليانا بعينين لامعتين، «ألم أخسر ساقيّ لفترة؟».

«حقًا؟ فأنت تفهمين نوعًا ما. لكنك استعدت ساقيك ثانية، وأنا لم أفعل كما ترين»، تنهد الصبي وقد ازدادت عيناه ظلامًا.

«ولكنك لم تخبرني عن... عن كتاب السعادة»، ألحت پوليانا بعد دقيقة.

تململ الصبي وضحك خجلًا.

«حسن، سترين أنه ليس بأمر ذي بال إلا لدي. لن تري فيه الكثير، فقد بدأته منذ عام. كنت أشعر بالضيق كثيرًا يومئذ، ولم يكن شيء على ما يرام. وقد تذمرت لفترة مكتفيًا بالتفكير، ثم أخذت واحدًا من كتب أبي وحاولت قراءته. وكان أول ما رأيته هذه الأسطر، وقد حفظتها لاحقًا فيمكنني قولها لك:

إن المسرات تكون أكبر حيث لا تظنها موجودة
فما من ورقة شجر تسقط على الأرض
إلا وتحمل بعض الفرح، في صمتها أو في صخبها».

«لقد كنت غاضبًا، وتمنيت لو وضعت الرجل الذي كتب هذا في مكاني، ولنر أي فرح يجده في «أوراقي». وكنت شديد الغضب فعزمت على إثبات أنه لا يعرف عم يتحدث. فأخذت دفترًا قديمًا فارغًا صغيرًا أعطاه لي جيري، وقلت لنفسي إني سأكتبها. سأكتب في هذا الدفتر أي أمر فيه شيء يعجبني، ثم سأرى كم لدي من «مسرات»».

«أجل، أجل!»، هتفت پوليانا بحماس حين صمت الصبي ليأخذ نفسًا.

«حسن، لم أتوقع أن أحصي الكثير، ولكن أتعلمين؟ أحصيت

الكثير. فقد كان في كل شيء شيءٌ يسرني قليلًا، ولذا كتبته. وكان أول شيء الدفتر نفسه الذي حصلت عليه لأكتب فيه كما تعلمين. ثم أعطاني أحدهم زهرة في أصيص، ووجد جيري كتابًا أنيقًا في قطار الأنفاق. ومن بعد ذلك غدا البحث عن المسرات متعة حقيقية، وأنا أجدها في أماكن غريبة أحيانًا. ثم حمل جيري الدفتر الصغير يومًا وعرف محتواه، فمنحه الاسم، كتاب السعادة، وهذه هي الحكاية».

«يا سلام، يا سلام!»، هتفت پوليانا والدهشة والفرحة تغمران وجهها المشرق الصغير «عجبًا، هذه هي اللعبة! إنك تلعب لعبة السعادة دون أن تعرفها، غير أنك تلعبها أفضل مني بكثير! أخشى أنني لن أستطع لعبها إن لم يكن عندي ما آكله أو إن لم أستطع المشي أو أي شيء»، قالت بغصة.

«اللعبة؟ أية لعبة؟ لست أعرف شيئًا عن أي لعبة»، قطب الصبي.

صفقت پوليانا.

«أعلم أنك لا تعرفها، أعلم أنك لا تعرفها، ولهذا فإن الأمر رائع للغاية، وبديع جدًا جدًا! ولكن اسمع، سأخبرك ما اللعبة».

وأخبرته. «يا إلهي!»، تنهد الصبي بإعجاب حين فرغت، «وما قولك في هذا؟!».

«ها أنت تلعب لعبتي أفضل من أي أحد آخر، وأنا لا أعرف اسمك بعد ولا أي شيء!»، قالت پوليانا بصوت رهيب، «ولكني أود معرفة كل شيء».

«أف! ما من شيء لتعرفيه»، أجاب الصبي رافعًا كتفيه، «ثم انظري، هذا السير لانسلوت المسكين والبقية ينتظرون العشاء»، ختم قائلًا.

«يا إلهي، إنهم كذلك»، تنهدت پوليانا ناظرة بنفاد صبر إلى الحيوانات المرفرفة الهاذرة قربهما. ثم قلبت الكيس رأسًا على عقب بلا مبالاة ونثرت كل ما معها أدراج الرياح، «حسن، ها قد انتهينا من هذا، يمكننا الحديث ثانية»، ابتسمت «وثمة الكثير مما أود معرفته. أولًا ما اسمك من فضلك؟ فأنا لا أعرف إلا أنه ليس سير جيمس».

ابتسم الصبي.

«كلا، إنه ليس كذلك. لكن هذا ما يناديني به جيري غالبًا، أما أميمتي والبقية فينادونني جايمي».

«جايمي؟!»، حبست پوليانا أنفاسها، وقد غمر عينيها الأمل، ثم تبعه شك وخوف.

«هل تعني بأميمتي أمك؟».

«طبعًا».

بدا الارتياح على پوليانا، واكفهر وجهها. إن كان لجايمي هذا أم، فلن يكون جايمي قريب السيدة كرو طبعًا، الذي ماتت أمه قبل سنوات طويلة. ومع ذلك، وحتى على ما هو عليه فقد كان مثيرًا للاهتمام للغاية.

واستجوبته بحماس «ولكن أين تعيش؟ هل في عائلتك أفراد آخرون عدا أمك وجيري؟ هل تأتي هنا كل يوم؟ أين كتاب السعادة؟ ألا يمكنني رؤيته؟ ألم يقل الأطباء إن بوسعك المشي ثانية؟ ومن أين حصلت عليه؟ أعني هذا الكرسي المتحرك».

ضحك الصبي.

«يا للهول! كم من هذه الأسئلة تتوقعين أن أجيبك عنها دفعة واحدة؟ سأبدأ من السؤال الأخير على أية حال، وأعود القهقرى إن لم أنسها. حصلت على هذا الكرسي قبل عام. يعرف جيري أحد الرجال الذين يكتبون في الصحف كما تعرفين، وقد أخبره بأمري وأنني لا أستطيع المشي وغير ذلك، وكتاب السعادة كما ترين. وأول ما حدث أن جاء جمع من الرجال والنساء يومًا يحملون هذا الكرسي وقالوا إنه لي. فقد قرؤوا عني، وأرادوني أن أحصل عليه لأتذكرهم به».

«يا سلام! لا بد أنك كنت سعيدًا!».

«أجل. لقد احتجت صفحة كاملة في كتاب السعادة لأتحدث عن الكرسي».

«ولكن، ألا يمكنك المشي ثانية أبدًا؟»، اغرورقت عينا بوليانا بالدمع.

«لا يبدو ذلك، يقولون إني لا أستطيع».

«أوه، ولكن هذا ما قالوه لي، ثم أرسلوني إلى الطبيب آمس،

ومكثت سنة تقريبًا، وجعلني أمشي ثانية. لعله يستطيع جعلك كذلك».

هز الصبي رأسه نفيًا.

«لن يستطيع، ولا أستطيع الذهاب إليه كما تعلمين. فذلك سيكلف كثيرًا، علي التسليم أنني لن أستطيع المشي فحسب. ولكن لا تهتمي»، أرجع الصبي رأسه بنفاد صبر «أحاول ألا أفكر بذلك. تعلمين كيف هو الأمر حين يستمر المرء في التفكير».

«أجل، أجل طبعًا، وها أنا أتحدث عنه!»، قالت بوليانا آسفة، «لقد قلت إنك تلعب لعبة السعادة أفضل مني. ولكن أكمل، فأنت لم تجب عن نصف الأسئلة بعد. أين تعيش؟ وهل جيري كل ما لديك من إخوة وأخوات؟».

طرأ تغير سريع على وجه الصبي، ولمعت عيناه.

«أجل، وهو ليس بأخي حقًا. فهو ليس بقريبي ولا أميمتي أيضًا. وانظري كم هما طيبان معي!».

«وما معنى هذا؟»، سألت بوليانا وقد تنبهت بسرعة، «أليست الأم أمك؟».

«نعم، وهذا ما يجعل...».

«وليس عندك أم؟»، قاطعته بوليانا وقد زاد حماسها.

«كلا، لا أذكر أمي البتة، ومات أبي قبل ست سنوات».

«كم كان عمرك؟».

«لست أدري، كنت صغيرًا. تقول أميمتي إنها تظنني كنت في السادسة. وكان هذا عندما تعهداني كما تعلمين».

«واسمك جايمي؟»، حبست پوليانا نفسها.

«عجبًا، لقد أخبرتك بهذا!».

«وما اسمك الأخير؟»، سألت پوليانا هذا السؤال بلهفة وخوف.

«لا أدري».

«ألا تدري؟!».

«لا أذكر. كنت صغيرًا جدًا كما أظن. حتى آل ميرفي لا يعلمون، ولم يعرفوا عني إلا أنني جايمي».

خيمت خيبة عظيمة على وجه پوليانا، غير أن بارق فكرة أزاح الظلال في الحال.

«حسن، على أية حال، إن لم تعرف اسمك فلن تعرف أنه ليس كنت!»، قالت.

«كنت؟» احتار الصبي.

«أجل»، قالت پوليانا بحماس، «ثمة صبي اسمه جايمي كنت...»، ثم توقفت بغتة وعضت شفتها. فقد خطر لپوليانا أن من الأحسن ألا تدع هذا الصبي يعلم بأملها بأن يكون جايمي المفقود. سيكون من الأفضل أن تتأكد من الأمر قبل رفع توقعاته، وإلا فقد تسبب له حزنًا بدلًا من الفرح. فلم تنس خيبة جيمي بين حين اضطرت لإخباره بأن السيدات المحسنات لن يتعهدنه، وحين

لم يرده السيد بندلتن في بادئ الأمر. وعزمت ألا ترتكب الخطأ نفسه مرة ثالثة، ثم سرعان ما أتقنت التظاهر باللامبالاة بهذا الموضوع الخطر، «ولكن لا عليك من جايمي كنت. أخبرني عن نفسك، فأنا مهتمة للغاية!».

«ما من شيء أقوله، لست أعرف شيئًا جميلًا»، تردد الصبي، «يقولون إن أبي كان غريب الأطوار ولا يتحدث أبدًا، فهم لم يعرفوا اسمه. وكان الجميع يسمونه «الأستاذ». تقول أميمتي إننا أنا وهو عشنا في غرفة خلفية صغيرة في الطابق العلوي لبيت في لوِل حيث كانوا يسكنون. لقد كانوا فقراء حينئذ، لكنهم لم يكونوا بمثل فقرهم الآن. وكان أبو جيري على قيد الحياة ويعمل تلك الأيام».

«أجل، أجل، أكمل».

«تقول أميمتي إن أبي كان مريضًا للغاية، فغدا أغرب وأغرب، فكانوا يجلبوني إليهم في الأسفل معظم الوقت. وكان بوسعي المشي قليلًا حينئذ، ولكن ساقيّ ليستا على ما يرام، كنت ألعب مع جيري والبنت الصغيرة التي ماتت. ثم حين مات أبي لم يكن ثمة من يتعهدني، وعزم بعض الرجال على أخذي إلى ملجأ الأيتام، لكن أميمتي قالت إنها ستتعهدني، ووافقها جيري. كانت البنت الصغيرة قد ماتت منذ فترة قصيرة، وقالوا إن بوسعي أن أحل محلها، وتعهدوا بي منذئذ. ووقعت وازدادت حالتي سوءًا، وكانوا فقراء للغاية بعد موت والد جيري. لكنهما تعهداني، أليس هذا ما تسمينه ناسًا رائعين؟».

«أجل، أجل»، صاحت پوليانا، «ولكنهما سيحصلان على مكافأتهما، أعلم أنهما سيحصلان على مكافأتهما!»، ارتجفت پوليانا فرحًا، فقد زال آخر الشكوك. وقد عثرت على جيمي المفقود، كانت واثقة من هذا، غير أنها يجب ألا تقول. لا بد أن تراه السيدة كرو أولًا، ثم، ثم...! حتى خيال پوليانا يعجز عن تصور النعمة التي تنتظر السيدة كرو وجايمي في هذا اللقاء السعيد.

نهضت بخفة دون أن تبالي البتة بالسير لانسلوت الذي عاد وأخذ ينقب في حجرها عن مزيد من الثمار.

«علي الذهاب الآن، لكني سأعود غدًا. وقد تأتي معي سيدة ستحب معرفتها. ستكون هنا غدًا، أليس كذلك؟»، قالت بقلق.

«طبعًا، إن كان الجو رائقًا. يحملني جيري إلى هنا كل صباح. لقد منحوني الكرسي حتى يتمكن من ذلك كما تعلمين، وأحضر معي غدائي وأبقى حتى الرابعة. إن جيري طيب معي، إنه حقًا!».

«أعلم، أعلم»، هزت پوليانا رأسها موافقة، «ولعلك تجد أحدًا آخر يكون طيبًا معك أيضًا»، ابتهجت. وغادرت بعد هذا القول الغامض والابتسامة المشرقة.

الفصل التاسع

خطط وتدابير

أعدت پوليانا خططًا سعيدة في طريق عودتها إلى البيت. لا بد أن تقنع السيدة كرو بشكل أو بآخر أن تذهب معها في نزهة إلى الحديقة العامة غدًا. غير أن پوليانا لم تعرف بعد كيف يحدث هذا، ولكنه يجب أن يحدث.

كان إخبارها السيدة كرو صراحة أنها وجدت جايمي وأنها تريد منها الذهاب لرؤيته أمرًا متعذرًا. فثمة احتمال بيّن ألا يكون جايمي ابن أختها. وإن لم يكن كذلك، وقد جعلت هي السيدة كرو تبني آمالًا كاذبة، فقد تكون العاقبة وخيمة. عرفت پوليانا مما أخبرتها به ماري أن السيدة كرو مرضت مرضًا قويًا مرتين من خيبة الأمل الكبيرة بعد ملاحقة آثار مضللة أخذتها إلى صبي مختلف عن ابن أختها الراحلة. ولذا أيقنت پوليانا أنها لن تستطيع إخبار السيدة كرو بسبب رغبتها بذهابها معها إلى الحديقة العامة. غير أن پوليانا وهي تسرع بالعودة إلى البيت سعيدة قالت في نفسها إن لديها خطة.

ولكن صادف أن تدخل القدر ثانية في هيئة عاصفة مطرية شديدة، ولم تحتج پوليانا أن تطل من الباب الصباح التالي حتى تدرك أنها لن تذهب في نزهة الحديقة العامة هذا اليوم. والأسوأ أنها لم تر الغيوم تتفرق في اليوم التالي ولا الذي يليه، وقضت العصريات الثلاث تتنقل من نافذة لأخرى، وتحملق في السماء وتسأل الجميع بقلق «ألا تظن أن السماء تبدو أصفى قليلًا؟».

كان هذا السلوك غريبًا جدًا عن طبع الفتاة الصغيرة المرح، وكانت الأسئلة المستمرة مزعجة جدًا، أفقدت السيدة كرو صبرها في النهاية.

«حبًا بالسماء أيتها الصغيرة، ما خطبك؟»، صاحت، «لم أعرفك قط تقلقين بشأن الطقس. أين لعبتك لعبة السعادة اليوم؟».

احمرت پوليانا وبدت خجلة.

«يا إلهي، أحسب أنني نسيت اللعبة هذه المرة»، أقرت، «وثمة أمر يمكنني أن أسعد به طبعًا، إن بحثت عنه فحسب. يمكنني أن أسعد بأن المطر سيتوقف في وقت ما لأن الرب قال إنه لن يرسل طوفانًا آخر. ولكني أردت كثيرًا أن يكون يومًا رائقًا كما ترين».

«لماذا بالتحديد؟».

«أوه، لقد أردت الذهاب إلى الحديقة العامة فحسب»، حاولت پوليانا جهدها ألا تتحدث دون انتباه، «وظننتك تودين الذهاب معي أيضًا»، أبدت پوليانا فتورًا، غير أنها ارتجفت داخلها من الحماس والإثارة.

«أنا أذهب إلى الحديقة العامة؟»، سألت السيدة كرو وقد رفعت حاجبيها قليلًا، «شكرًا لك، كلا، أخشى أنني لن أفعل»، ابتسمت.

«أوه، ولكنك... ولكنك لن ترفضي»، تلعثمت پوليانا بهلع واضح.

«لقد رفضت».

ابتلعت پوليانا ريقها بتشنج، وقد شحبت حقًا.

«ولكن أرجوك يا سيدة كرو، أرجو ألا تقولي إنك لست بذاهبة حين يصفو الجو»، توسلت، «لأنني أريد منك الذهاب معي لسبب خاص، لهذه المرة فحسب».

قطبت السيدة كرو، وفتحت فمها لتقول «لا» أكثر حسمًا، غير أن شيئًا في عيني پوليانا المتضرعتين بدّل الكلمات، لأنها حين خرجت كانت انصياعًا على مضض.

«حسن، حسن أيتها الصغيرة، لك ما تريدين، ولكن إن وعدتك بالذهاب فعليك أن تعديني ألا تقتربي من النافذة لساعة، ولا تسألي اليوم مرة أخرى إن كنت أظن أن السماء ستصفو».

«أجل، سأفعل، أعني لن أفعل»، ارتجفت پوليانا. بعدئذ دخل عبر النافذة خط أبيض من الضوء كان شعاع مائلًا من أشعة الشمس، فصاحت بفرح «ولكن أتظنين أن السماء... أوه!»، صمتت خائفة وخرجت من الغرفة.

لقد صفت السماء بجلاء الصباح التالي. ولكنّ في الجو بردًا

قارسًا رغم الشمس الساطعة بقوة، وعند العصر بعدما عادت پوليانا من المدرسة، هبت ريح قوية. وأصرت رغم الاعتراضات أنه يوم جميل وأنها ستكون تعسة للغاية إن لم تأت معها السيدة كرو للتنزه في الحديقة العامة. فذهبت السيدة كرو رغم احتجاجها.

لقد كانت رحلة عقيمة كما هو متوقع. وقد أسرعت كل من المرأة نافدة الصبر والفتاة الصغيرة قلقة العينين تذرعان الدرب تلو الآخر مرتجفتين. (فتشت پوليانا كل زاوية وركن من الحديقة تفتيشًا محمومًا لأنها لم تجد الصبي في مكانه المعتاد. ولاح لپوليانا أنها لن تنجح. فها هي في الحديقة ومعها السيدة كرو، غير أنها لم تعثر على جايمي في أي مكان، ولم تستطع قول كلمة واحدة للسيدة كرو). في نهاية المطاف أصرت السيدة كرو على العودة إلى البيت، بعد شعورها بالبرد والغضب الشديد، وذهبت پوليانا قانطة.

كانت أيامًا حزينة لپوليانا، فما بدا لها طوفانًا ثانيًا على نحو خطر، كان لدى السيدة كرو «أمطار خريفية معتادة»، جلبت سلسلة من الأيام البليلة الضبابية الباردة المملة، مفعمة إما بالرذاذ الكئيب وإما بالوابل المتواصل. وإن جاء يوم مشرق صدفة، هرعت پوليانا إلى الحديقة، ولكن دون جدوى إذ لم يكن جايمي هناك قط. وحل منتصف نوفمبر، وغدت الحديقة نفسها ناضحة بالكآبة. فقد كانت الأشجار عارية، والمقاعد خالية، وما من قارب واحد في البركة الصغيرة. صحيح أن السناجب والحمائم لم تزل فيها، وطيور السنونو نشطة كعادتها، غير إن إطعامها مدعاة للحزن أكثر من الفرح، لأن كل حركة شقية من الذيل الخفيف للسير لانسلوت

استحضرت ذكريات حزينة عن الفتى الذي منحه اسمه، ولم يكن موجودًا.

«وحين أتذكر أنني لم أعرف أين يسكن!»، تشكت بوليانا لنفسها مرة بعد مرة بمرور الأيام، «وقد كان جايمي، أعلم أنه جايمي. وسيتعين علي الانتظار والانتظار حتى يحل الربيع ويغدو الجو دافئًا عليه فيأتي إلى هنا ثانية. وقد لا أكون هنا حينئذ. أوه يا إلهي، يا إلهي، وهو جايمي، أعلم أنه جايمي!».

ثم حدث غير المتوقع ذات عصرية كئيبة. سمعت بوليانا وهي تمر بالممر العلوي أصواتًا غاضبة في الردهة السفلى، وقد ميزت بينها صوت ماري، أما الآخر، الآخر...

كان الصوت الآخر يقول «لا تحلمي بذلك! إنه ليس من شأنك، أتفهمين؟ أود رؤية الصغيرة بوليانا. أحمل رسالة إليها من، من السير جيمس. والآن اذهبي وهاتي الصغيرة إن لم يكن لديك مانع».

فاستدارت بوليانا بصرخة فرح قصيرة ونزلت الدرج بسرعة كبيرة. «أوه، إنني هنا، إنني هنا. لقد جئت!»، لهثت وهي تخطو للأمام، «ما الأمر؟ أجايمي من أرسلك؟».

وفي غمرة حماسها تقدمت بذراعين مفتوحتين إلى الصبي حين اعترضتها ماري بيد ذاهلة مانعة.

«آنسة بوليانا، هل تقولين إنك تعرفين هذا، هذا الولد المتسول يا آنسة بوليانا؟».

احمر الصبي غضبًا، ولكن پوليانا تدخلت بدفاع جريء قبل أن يتحدث.

«إنه ليس ولدًا متسولًا. إنه قريب لواحد من أعز أصدقائي. ثم إنه من وجدني وأعادني للبيت في المرة التي تهت فيها»، ثم التفتت نحو الصبي بتساؤل مندفع «ما الأمر؟ هل أرسلك جايمي؟».

«لقد فعل. لقد أصابته المطبقة[1] منذ شهر، ولم يتعاف منذئذ».

«ماذا أصابه؟»، احتارت پوليانا.

«أصابته المطبقة، الحمّى. أعني أنه مريض، ويود رؤيتك؟ هلا أتيت؟».

«مريض؟ أوه إنني آسفة للغاية!»، تحسرت پوليانا، «سآتي طبعًا. سأذهب لإحضار قبعتي ومعطفي حالًا».

«آنسة پوليانا»، قالت ماري في استنكار صارم، «وهل تسمح لك السيدة كرو بالذهاب إلى أي مكان مع ولد غريب كهذا؟!».

«لكنه ليس ولدًا غريبًا»، اعترضت پوليانا، «أنا أعرفه منذ وقت طويل. لا بد أن أذهب. أنا...».

«ما معنى هذا بحق السماء؟»، سألت السيدة كرو ببرود من باب غرفة الجلوس، «من هذا الصبي يا پوليانا، ومذا يفعل هنا؟».

التفت پوليانا بصرخة سريعة.

---

(١) الحمى إذا دامت وأقلقت ولم تقلع.

«أوه، ستسمحين لي بالذهاب يا سيدة كرو، أليس كذلك؟».

«إلى أين؟».

«لرؤية أخي يا سيدتي»، قاطعها الصبي متعجلًا وباذلًا جهدًا واضحًا ليكون مهذبًا، «إنه ليس بصحة جيدة كما تعلمين، ولم يتركني بسلام حتى أتيت لإحضارها»، بإيماءة خرقاء باتجاه پوليانا، «فهو يود رؤيتها».

«يمكنني الذهاب، أليس كذلك؟»، توسلت پوليانا.

قطبت السيدة كرو.

«تذهبين مع هذا الصبي؟ كلا قطعًا يا پوليانا! أتساءل إن كنت مجنونة لتفكري بالأمر للحظة».

«أوه، ولكني أريد منك القدوم أيضًا»، قالت پوليانا.

«أنا؟ أيتها الطفلة الغريبة! هذا محال. يمكنك إعطاء هذا الصبي بعضًا من المال إن شئت، ولكن...».

«شكرًا لك يا سيدتي، لم آت من أجل المال»، امتعض الصبي وقد اتقدت عيناه غضبًا، «بل جئت من أجلها».

«أجل، وهذا جيري، جيري ميرفي يا سيدة كرو، الصبي الذي وجدني حين تهت وأعادني إلى البيت»، توسلت پوليانا، «والآن ألن تسمحي لي بالذهاب؟».

هزت السيدة كرو رأسها نفيًا.

«هذا محال يا بوليانا».

«لكنه يقول إن جا... الولد الآخر مريض ويريدني!».

«لا يمكنني ذلك».

«وأنا أعرفه جيدًا يا سيدة كرو. أنا أعرفه حقًا. إنه يقرأ كتبًا، كتبًا جميلة كلها مليئة بالفرسان والسيدات والسادة، ويطعم العصافير والسناجب ويمنحها أسماء وما إلى ذلك. ولا يمكنه المشي، وليس لديه ما يكفي من طعام أيامًا كثيرة»، لهثت بوليانا، «وقد كان يلعب لعبة السعادة لعام دون أن يعرفها، وهو يلعبها أفضل مما أفعل أنا بكثير. ولقد بحثت عنه وبحثت أيامًا عديدة. حقًا وصدقًا يا سيدة كرو، لا بد لي أن أراه»، نشجت بوليانا «لا يمكنني أن أفقده ثانية».

احمرت وجنتا السيدة كرو بحمرة الغضب.

«هذا كلام فارغ فحسب يا بوليانا. أنا متفاجئة، ومندهشة من إصرارك على فعل شيء تعرفين أني لا أوافق عليه. لا يمكنني السماح لك بالذهاب مع هذا الصبي. والآن كفي عن الحديث عن هذا من فضلك».

كسا وجه بوليانا تعبير جديد، ورفعت ذقنها بهيئة بين الخوف والجذل وواجهت السيدة كرو مباشرة. وتحدثت بارتجاف وإصرار، «علي إخبارك إذن. لم أنو ذلك حتى أتأكد، وقد أردت رؤيته أولًا. ولكني يتوجب علي القول. لا يمكنني فقدانه ثانية. أظنه جايمي يا سيدة كرو».

«جايمي؟! ليس جايمي قريبي؟!»، شحب وجه السيدة كرو للغاية.

«بلى».

«مستحيل!».

«أعلم، ولكن أرجو عفوك؛ إن اسمه جايمي ولا يعرف اسمه الآخر. مات أبوه وهو في السادسة، ولا يستطيع تذكر أمه. ويظن أن عمره اثنتا عشرة سنة. لقد تعهده هؤلاء الناس عندما مات أبوه، وقد كان أبوه غريب الأطوار ولم يخبر الناس باسمه، و...».

لكن السيدة كرو أوقفتها بإيماءة، وقد غدت أكثر شحوبًا، لكن عينيها اتقدتا بنار مفاجئة.

«سنذهب في الحال»، قالت، «أخبري بيركنز أن يحضر السيارة بأسرع ما يمكنه يا ماري. أحضري قبعتك ومعطفك يا بوليانا. انتظر هنا من فضلك يا فتى، سنكون جاهزتين للذهاب معك في الحال»، ثم ارتقت الدرج مسرعة.

أخذ الصبي نفسًا عميقًا في الردهة.

«يا ربي!»، قال بهدوء، «سنذهب في سيارة سريعة! هذا شيء فخم! ماذا سيقول السير جيمس؟».

الفصل العاشر

في زقاق ميرفي

درجت سيارة السيدة كرو قاطعة جادة كومنولث وعبرت من شارع أرلنغتن حتى تشارلز، بكثير من الخرخرة بدت غريبة على سيارات الليموزين الفاخرة. وفي الداخل جلست فتاة صغيرة لامعة العينين وامرأة متوترة شاحبة الوجه، وجلس خارجها جيري ميرفي، مزهوًا على نحو مغالى فيه، ومتكبرًا على نحو لا يحتمل، ليرشد السائق البادي عليه الاستهجان.

حين وقفت الليموزين أمام ممر متداع في زقاق ضيق قذر، قفز الصبي إلى الأرض، وبتقليد للسائقين المغرورين مرتدي البزات الذين يراهم كثيرًا، فتح باب السيارة ووقف منتظرًا ترجل السيدتين.

قفزت پوليانا في الحال، وقد اتسعت عيناها عجبًا وضيقًا وهي تنظر حولها. وخلفها جاءت السيدة كرو التي ارتعشت ارتعاشًا واضحًا حين مرت بناظريها على القذارة والوساخة والأطفال مرتدي الأسمال الذين تجمعوا يزعقون ويثرثرون خارجين من البيوت الكئيبة وتحلقوا حول السيارة في لحظة.

لوح جيري بذراعيه غاضبًا.

«أنتم، اسمعوا، اذهبوا من هنا!»، صاح بالجمع المرقع الأسمال، «هذا ليس فيلمًا مجانيًا! كفوا عن هذا اللغو وانصرفوا. بسرعة، الآن! علينا الدخول، فجايمي عنده ضيوف».

ارتجفت السيدة كرو ثانية، ووضعت يدًا مرتعشة على كتف جيري.

«ليس هنا؟!»، نكصت.

لكن الصبي لم يسمعها، فقد شق الطريق لضيوفه بلكمات قوية ودفعات بالمرفق، وقبل أن تدرك السيدة كرو حدوث ذلك وجدت نفسها مع الصبي وپوليانا أسفل درج سلم متقلقل في ممر معتم كريه الرائحة.

ووضعت يدها المرتعشة مرة أخرى.

«انتظر»، أمرت بصوت أجش، «تذكرا! لا يقل أحد منكما شيئًا عن... عن احتمال كونه الصبي الذي أبحث عنه. علي رؤيته أولًا وسؤاله».

«بلا شك!»، وافقت پوليانا.

«طبعًا! وأنا كذلك»، هز الصبي رأسه، «فليس لي الحق على أية حال، ولن أغضبك. والآن اصعدا الدرج برفق. إذ توجد حفر دومًا، وعادة ينام أحد الأطفال في مكان ما. والمصعد لا يعمل اليوم»، هذر بمرح، «علينا الصعود إلى أعلى طابق أيضًا».

وجدت السيدة كرو الحفر، فهي ألواح مكسورة تصر وتميل ميلًا مخيفًا تحت قدميها المرتجفتين، ووجدت صغيرًا؛ طفلًا في الثانية من عمره يلعب بعلبة فارغة لها خيط ويخبط بها على القلبة الثانية من الدرج. فُتحت الأبواب من كل جانب، مرة بجرأة ومرة على استحياء، يطل منها في كل مرة نساء حاسرات مشعثات الشعر أو أطفال يحدقون لهم وجوه قذرة. ثمة طفل يبكي بحرقة في مكان ما، ورجل يشتم في مكان آخر، وفي كل مكان فاحت رائحة ويسكي رخيص وملفوف بائت وبشر لم يغتسلوا.

في أعلى القلبة الثالثة والأخيرة من الدرج وقف الصبي أمام باب مغلق.

«أفكر فيما سيقوله السير جيمس حين يرى الجائزة التي جلبتها له»، همس بصوت أجش، «أعرف ما ستفعله أميمتي، ستفيض الدموع من عينيها حين ترى سعادة جايمي!»، ثم فتح الباب قائلًا بمرح «ها قد وصلنا، وقد جئنا في سيارة سريعة! أليس هذا برائع يا سير جيمس؟».

كانت غرفة صغيرة باردة كئيبة وجرداء على نحو يثير الإشفاق، لكنها شديدة النظافة. فلم يكن هنا رؤوس مشعثة ولا أطفال يحدقون ولا رائحة ويسكي وملفوف وبشر قذرون. بل فيها سريران وثلاثة كراسي مكسورة وطاولة من صندوق سلع جافة وموقد فيه نار خافتة موحٍ بأن النار لا تكفي لتدفئة الغرفة الصغيرة. رقد على أحد السريرين فتى محمر الوجنتين ومتقد العينين من

الحمى. وجلست قربه امرأة نحيلة شاحبة، محنية الظهر محدودبة من الروماتزم.

دخلت السيدة كرو إلى الغرفة ووقفت للحظة مسندة ظهرها للجدار، كأنها تثبت نفسها. وتقدمت بوليانا بسرعة بصيحة خفيضة حين انطلق جيري كالسهم خارجًا وهو يقول معتذرًا «علي الذهاب الآن، إلى اللقاء!».

«أوه يا جايمي. إنني سعيدة لأني وجدتك»، قالت بوليانا، «لست تدري كم بحثت عنك وبحثت كل يوم، لكنني حزينة لمرضك».

ابتسم جايمي بألق ومد يدًا نحيلة بيضاء.

«لكني لست حزينًا، إنني سعيد»، أكد بجدية، «لأنه جلبك إلي لتريني. ثم إنني أفضل الآن. هذه الفتاة الصغيرة يا أميمتي، التي أخبرتني عن لعبة السعادة كما تعلمين. إن أمي تلعبها أيضًا». قال مبتهجًا، والتفت إلى بوليانا «لقد بكت في بادئ الأمر لأن ظهرها يؤلمها للغاية ويمنعها من العمل، ثم حين مرضتُ سرت أنها لا تستطيع العمل، لأن بوسعها البقاء معي والاعتناء بي كما تعلمين».

تقدمت السيدة كرو عندئذ، وعيناها الخائفتان المتلهفتان على وجه الصبي العليل الراقد في الفراش.

«هذه السيدة كرو، لقد جلبتها لتراك يا جايمي»، عرفتها بوليانا بصوت متهدج.

جهدت السيدة المنحنية القصيرة قرب الفراش لتنهض حينئذ، وقدمت كرسيًا بحرارة. قبلته السيدة كرو دون أن تنظر، إذ لم تزل عيناها على الصبي في الفراش.

«أجايمي هو اسمك؟»، سألت بجهد واضح.

«أجل يا سيدتي»، نظرت عينا الصبي اللامعتين في عينيها.

«وما اسمك الأخير؟».

«لست أدري».

«إنه ليس ابنك، صحيح؟»، والتفتت السيدة كرو لأول مرة نحو المرأة المنحنية القصيرة التي لم تزل واقفة قرب الفراش.

«نعم يا سيدتي».

«ألا تعرفين اسمه الأخير؟».

«كلا يا سيدتي، لم أعرفه قط».

واستدارت السيدة كرو نحو الصبي بإيماءة يائسة.

«ولكن تذكر، تذكر... أتذكر شيئًا من اسمك عدا جايمي؟».

هز الصبي رأسه نفيًا، وفي عينيه عجب وحيرة.

«كلا، لا شيء».

«ألا تملك شيئًا يعود لأبيك قد يكون اسمه مكتوبًا عليه؟».

«لم يكن ثمة ما يستحق الاحتفاظ به سوى الكتب»، تدخلت السيدة ميرفي، «إنها كتبه، لعلك تودين إلقاء نظرة عليها». اقترحت

مشيرة إلى صف من المجلدات المهترئة على رف في طرف الغرفة. ثم سألت بفضول لم تستطع كبحه «هل تظنين أنك تعرفينه يا سيدتي؟».

«لست أدري»، همهمت السيدة كرو بصوت مكتوم وهي تنهض وتذرع الغرفة نحو رف الكتب.

لم تكن كثيرة، ربما عشرة أو اثني عشر. ومن بينها مجلد لمسرحيات شكسبير، وإيفانهو، وسيدة البحيرة قُلبت صفحاته كثيرًا، وكتاب قصائد منوعة، وكتاب شعر لتنسن بلا غلاف، ونسخة بالية من الفتى النبيل، وكتابان أو ثلاثة عن التاريخ القديم والعصور الوسطى. وقلبت السيدة كرو بحرص كل واحد منها، لكنها لم تجد كلمة مكتوبة في أي مكان. ثم عادت إلى الصبي والمرأة بتنهيدة يأس، وكل منهما يراقبها بعيون متسائلة متعجبة.

«أود أن تخبراني كلاكما كل ما تعرفانه عن نفسيكما»، قالت بانكسار وقد ألقت بنفسها مرة أخرى على الكرسي القريب من الفراش.

وأخبراها، وكانت القصة نفسها التي أخبرها جايمي لبوليانا في الحديقة العامة. وكان قليل منها جديد، غير أنه ليس بذي أهمية، رغم سلسلة الأسئلة التي سألتها السيدة كرو، وفي ختامها أدار جايمي عينين متلهفتين إلى وجه السيدة كرو.

«هل تظنين أنك تعرفين أبي؟»، سأل متوسلًا.

أغمضت السيدة كرو عينيها وعصرت يديها.

«لا أدري»، أجابت، «ولكن أظنني لا أعرفه».

صرخت بوليانا صرخة قصيرة من الخيبة الشديدة، لكنها كتمتها سريعًا إذعانًا لنظرة السيدة كرو. ونظرت في الغرفة بخوف جديد.

وبعد أن أشاح جايمي بنظره عن وجه السيدة كرو تذكر فجأة واجبات المضيف.

«لطيف منك أن تأتي!»، قال لبوليانا ممتنًا، «كيف حال السير لانسلوت؟ هل تذهبين لإطعامه؟»، ولما لم تجبه بوليانا واصل كلامه بسرعة وهو ينقل نظره من وجهها إلى الوردة الذابلة قليلًا الموضوعة في زجاجة مكسورة العنق عند النافذة. «أرأيت زهرتي؟ وجدها جيري وقطفها لي. أليست جميلة؟ كما أن لها شيئًا من الشذى».

لكن لم يبد أن بوليانا سمعته، بل لم تزل تحملق متسعة العينين في الغرفة وهي تقبض يديها وتبسطهما بقلق.

«لكني لا أفهم كيف يمكنك أن تلعب اللعبة هنا يا جايمي»، تلعثمت، «لم أحسب أنه يمكن وجود مكان تعس للعيش بقدر هذا»، تهدج صوتها.

«هوا»، تهكم جايمي بجرأة، «عليك أن تري بيت آل بايك في الأسفل، فبيتهم أسوأ من هذا بكثير. لست تعرفين الأشياء الجميلة في هذه الغرفة. حسن، تدخل عندنا الشمس من تلك النافذة هناك لساعتين كل يوم، حين تشرق. وإن اقتربت منها يمكنك أن

تري كثيرًا من السماء. لو كان بوسعنا الاحتفاظ بالغرفة فحسب! ولكننا مضطرون للمغادرة كما ترين، ونحن خائفون، وهذا ما يقلقنا».

«تغادرون؟!».

«أجل. لقد تخلفنا عند دفع الإيجار، فأميمتي مريضة ولا تجني شيئًا»، وتهدج صوت جايمي رغم ابتسامته الشجاعة المرحة، «الآنسة دولن في الطابق السفلي -المرأة التي تحتفظ بكرسيي المتحرك كما تعلمين- تساعدنا هذا الأسبوع. ولكنها لا تستطيع فعل ذلك دومًا، وعندئذ علينا الرحيل، ما لم يحصل جيري على ثروة أو شيء ما».

«أوه، ولكن ألا يمكننا...»، قالت پوليانا.

لكنها توقفت سريعًا، فقد نهضت السيدة كرو بغتة قائلة بسرعة «هيا يا پوليانا، علينا الذهاب»، ثم استدارت نحو المرأة بفتور «ليس عليكم الرحيل، سأرسل لكم المال والطعام في الحال، وسأذكر حالتكم لإحدى الجمعيات الخيرية التي أسهم فيها، وهم سـ...».

وكفت عن الكلام، فقد اعتدلت المرأة القصيرة المحدودبة أمامها. وكانت وجنتا السيدة ميرفي محمرتين وأظهرت عيناها نارًا بلا لهب.

«شكرًا لك. لا يا سيدة كرو»، قالت بصوت متهدج وكبرياء «يعلم الله أننا فقراء، لكننا لا نقبل الإحسان».

«كلام فارغ!»، صاحت السيدة كرو بحدة، «إنك تسمحين للمرأة في الطابق السفلي بمساعدتك. هذا ما قاله الصبي».

«أعلم، ولكن هذا ليس إحسانًا»، أصرت المرأة ولم يزل صوتها متهدجًا، «السيدة دولن صديقتي، وهي تعلم أنني سأرد صنيعها سريعًا. لقد فعلت ذلك في مرات سابقة، والمساعدة من الأصدقاء ليست إحسانًا. إنهم يهتمون، وهذا هو الفرق. لم نكن دومًا كما نحن الآن كما ترين، وهذا يجعل الأمر أكثر إيلامًا. شكرًا لك، ولكننا لا نستطيع أخذ مالك».

قطبت السيدة كرو غاضبة، فقد كانت ساعة مخيبة ومنهكة وموجعة للقلب. ولما لم تكن يومًا امرأة صبورة، فقد اغتاظت، وأرهقت.

«حسن جدًا، كما تشائين»، قالت ببرود، ثم بضيق غامض أضافت، «ولكن لماذا لا تذهبين إلى مالك المبنى وتصرين على أن يجري تعديلات مريحة مدة إقامتكم؟ لا بد أنكم ستحصلون على شيء بدلًا من النوافذ المكسورة التي حشرت فيها الصحف والخرق. ثم إن الدرج الذي ارتقيته خطر للغاية».

تنهدت السيدة ميرفي تنهيدة يائسة، وقد عاد جسدها المنحني القصير إلى عجزه المعتاد.

«لقد حاولنا أن نفعل شيئًا، ولكنه بلا جدوى. إننا لا نرى أحدًا سوى الوكيل، وهو يقول إن الإيجارات قليلة جدًا للمالك لينفق مزيدًا من المال في الترميم».

«كلام فارغ!»، أجابت السيدة كرو بكل حدة المرأة المتوترة المنفعلة التي وجدت أخيرًا منفذًا لحنقها «هذا مخجل! كما أظنها حالة صريحة لخرق القانون، أعني هذا الدرج حتمًا. سأحرص على أن يغرم. ما اسم ذلك الوكيل، ومن المالك لهذا المبنى الجميل؟».

«لا أعرف اسم المالك يا سيدتي، لكن الوكيل هو السيد دوج».

«دوج؟!»، استدارت السيدة كرو بحدة وعلى وجهها نظرة غريبة، «أتعنين هنري دوج؟».

«أجل يا سيدتي، أظن اسمه هنري».

احمر وجه السيدة كرو ثم امتقع تاركًا إياه أكثر شحوبًا من ذي قبل. «حسن جدًا، سأتولى الأمر»، همهمت بصوت مكتوم قليلًا وابتعدت، «هيا يا بوليانا، علينا الذهاب الآن».

كانت بوليانا قرب الفراش تودع جايمي وداعًا دامعًا.

«لكني سآتي ثانية، سآتي قريبًا جدًا»، وعدت بمرح وهي تسرع خارجة خلف السيدة كرو.

لم تتحدث بوليانا ثانية إلا بعد أن قطعتا طريقهما عبر الطبقات الثلاث من الدرج المتقلقل، وعبر الجموع المثرثرة الملوحة من الرجال والنساء والأطفال الذين تحلقوا حول بيركنز المتجهم والليموزين. غير أنها لم تنتظر حتى يغلق السائق الحانق الباب فتوسلت «أرجوك يا عزيزتي السيدة كرو، قولي إن هذا جايمي أرجوك! أوه، سيكون رائعًا له أن يكون جايمي».

«لكنه ليس جايمي!».

«أوه يا إلهي! أمتأكدة أنت؟».

ساد الصمت للحظة، ثم غطت السيدة كرو وجهها بيديها.

«كلا، لست متأكدة، وهذه هي المأساة»، بكت، «لا أظنه هو، بل إنني أكاد أكون واثقة من ذلك. غير أن ثمة احتمالًا طبعًا، وهذا ما يقتلني».

«ألا يمكنك أن تظنيه جايمي وتتظاهري أنه كذلك وحسب؟ فيكون بوسعك عندئذ أخذه إلى البيت و...»، تضرعت پوليانا لكن السيدة كرو استدارت بقوة.

«آخذ ذاك الصبي إلى البيت وهو ليس بجايمي؟ أبدًا يا پوليانا! لا أستطيع».

«ولكن إن لم يكن بمقدورك مساعدة جايمي، فإني أحسب أنك ستكونين سعيدة للغاية أن بوسعك مساعدة أحد يشبهه»، ألحت پوليانا بصوت متهدج، «ماذا لو كان جايمي قريبك مثل جايمي هذا، فقيرًا ومريضًا، ألن ترغبي أن يتعهده أحد ويريحه، و...».

«لا تفعلي، لا تفعلي يا پوليانا»، بكت السيدة كرو محركة رأسها من جانب لآخر في هياج من الحزن «حين يخطر لي أن جايمي قريبنا في مكان ما كهذا...»، ولم ينه الجملة إلا نشيج وغصة.

«هذا ما أعنيه تمامًا، هذا ما أعنيه تمامًا!»، ابتهجت پوليانا بحماس، «ألا ترين؟ إن كان هذا جايمي قريبك فستريدينه طبعًا.

وإن لم يكن فلن تؤذي جايمي قريبك بتعهدك هذا، بل ستفعلين الخير الكثير لأنك ستسعدين هذا الفتى كثيرًا كثيرًا! ثم، بعد ذلك إن وجدت جايمي الحقيقي، فلن تكوني قد خسرت شيئًا، غير أنك ستسعدين صبيين صغيرين عوضًا عن واحد، و...».

لكن السيدة كرو قاطعتها ثانية «لا تفعلي يا پوليانا، لا تفعلي! أريد أن أفكر، أريد أن أفكر».

جلست پوليانا في مقعدها دامعة، وقد حاولت جاهدة أن تبقى هادئة لدقيقة كاملة. ثم كأنما الكلمات بقبقت من تلقاء نفسها قالت «أوه، يا له من مكان تعس بغيض! أتمنى أن يعيش فيه مالك المكان ثم لنر ما لديه ليسعد به!».

اعتدلت السيدة كرو فجأة، وقد طرأ تغير غريب على وجهها، ثم لوحت بيديها نحو پوليانا كأنها تتوسل وصاحت «لا تفعلي. لعلها لم تعلم يا پوليانا، لعلها لم تعلم. أنا واثقة أنها لا تعلم أنها تملك مكانًا كهذا. لكن الأمور ستسوى الآن، ستسوى».

«هي؟! أتملك المكان امرأة وأنت تعرفينها؟ وهل تعرفين الوكيل أيضًا؟».

عضت السيدة كرو على شفتيها «أجل، أعرفها وأعرف الوكيل».

«أوه، إنني سعيدة»، تنهدت پوليانا، «ستكون الأمور على ما يرام إذن».

«حسن، ستكون أفضل قطعًا»، وعدت السيدة كرو مؤكدة حين

توقفت السيارة أمام باب بيتها. تحدثت السيدة كرو كأنها تعرف ما تتحدث عنه، ولعلها تعرف أكثر مما اهتمت لإخبار بوليانا. في تلك الليلة قبل أن تنام حتمًا، أرسلت رسالة موجهة إلى هنري دوج تستدعيه لاجتماع عاجل لإجراء تغييرات وإصلاحات في الحال في المباني التي تملكها. وكان في الرسالة عدد من الجمل الموبخة تتعلق بالنوافذ المحشورة بالخرق والدرج المتداعي، التي جعلت هنري دوج نفسه يتهكم بغضب ويقول كلمات لاذعة في سره، رغم أنه شحب في الوقت نفسه من شيء يشبه الخوف.

الفصل الحادي عشر
مفاجأة للسيدة كرو

قالت السيدة كرو لنفسها إنها أدت واجبها، بعد أن اعتنت بمسألة الترميم والإصلاحات جيدًا، وإن هذا الموضوع قد أغلق، وإنها ستنساه. فالصبي ليس بجايمي، ولا يمكن أن يكون جايمي. أيكون هذا الفتى المقعد العليل الجاهل ابن أختها الميتة؟ مستحيل! ستبعد الأمر كله من تفكيرها.

غير أن السيدة كرو وجدت نفسها عندئذ أمام عقبة كأداء لا تتزحزح، إذ لم يبتعد الأمر برمته عن تفكيرها. فقد رأت أمام عينيها دومًا الغرفة الجرداء والفتى ذا الوجه الحزين. وفي مسمعيها رنت دومًا العبارة الموجعة «ماذا لو كان جايمي؟». كما أن بوليانا موجودة دائمًا، فحتى لو أسكتت السيدة كرو توسلات لسان الفتاة الصغيرة وتساؤلاته (وقد فعلت)، فما من مناص من تضرعات عيني الفتاة الصغيرة واستنكارهما.

ذهبت السيدة كرو يائسة لرؤية الصبي مرتين أخريين، وهي تقول لنفسها في كل مرة إنها بحاجة لزيارة أخرى لإقناعها أن

الصبي ليس من تبحث عنه. وكلما قالت لنفسها في حضرة الصبي إنها موقنة تمامًا، عاد إليها التساؤل القديم. في نهاية المطاف وقد حارت حيرة عظيمة كتبت لأختها وأخبرتها بالأمر برمته. وقالت بعد أن بينت الحقائق الواضحة:

لم أنو إخبارك، فقد خشيت إثارة خوفك ومنحك آمالًا كاذبة بلا طائل. أنا واثقة للغاية أنه ليس هو، غير أنني أعلم أنني لست بواثقة، حتى وأنا أكتب هذه الكلمات. ومن أجل هذا أود منك القدوم، عليك أن تأتي. لا بد أن تريه.

أتساءل... أوه، إني أتساءل ماذا ستقولين! نحن لم نر جايمي قريبنا منذ أن كان في الرابعة، وقد يكون في الثانية عشرة من العمر، وهذا الفتى عمره اثنا عشر عامًا، كما أحسب (إنه لا يعرف عمره). شعره وعيناه ليست مثل شعر جايمي قريبنا وعينيه. كما أنه مقعد، لكن هذا حدث له بعد سقوطه في السادسة من عمره، وازداد الأمر سوءًا بعد سقطة أخرى تلت تلك بأربع سنوات. يبدو من المحال معرفة وصف كامل لمظهر أبيه، إلا أن ما عرفته لا يؤكد أنه زوج المسكينة دورس ولا ينفيه. كان يدعى «بالأستاذ»، وهو غريب الأطوار جدًا ولم يترك شيئًا إلا كتبًا قليلة. قد يدل هذا على شيء وقد لا يفعل، فقد كان جون كنت غريب الأطوار، وفوضوي في ذوقه بعض الشيء، ولست أذكر إن كان مهتمًا بالكتب أم لا، أتذكرين؟ ولا بد أن لقب الأستاذ سهل اكتسابه إن أراد، أو لعل الآخرين منحوه له فحسب.

أما عن هذا الصبي فلست أدري، لست أدري... غير أني آمل أن تعرفي أنت!

أختك المحتارة

روث

جاءت ديلا في الحال، وذهبت من فورها لرؤية الصبي، لكنها لم تعرف. لقد قالت إنها لا تظنه جايمي قريبها (كما قالت أختها)، غير أن ثمة احتمالًا لذلك في الآن نفسه، فقد يكون هو في نهاية الأمر. غير أنها كان لها أسلوبها، مثل پوليانا، في النظر إلى الجانب المشرق من الأزمة.

«ولم لا تتعهدينه يا عزيزتي؟»، عرضت على أختها، «لم لا تأخذينه وتتبنينه؟ سيكون ذلك رائعًا له.. الفتى المسكين الصغير، و...»، لكن السيدة كرو ارتعشت ولم تدعها تكمل.

«كلا، كلا، لا أستطيع، لا أستطيع!»، بكت، «أريد جايمي، جايمي قريبي أو لا أحد»، واستسلمت ديلا متنهدة وعادت أدراجها إلى التمريض.

إن ظنت السيدة كرو أن هذا أغلق الموضوع، فقد كانت مخطئة للمرة الثانية. إذ كانت أيامها قلقة ولياليها أرقة أو مكتظة بأحلام من «ربما» و«لعل» التي تبدو بمظهر الحقائق كما أنها مرت بوقت عصيب مع پوليانا.

كانت پوليانا محتارة، يملؤها التساؤل والشك. واجهت پوليانا الفقر لأول مرة في حياتها؛ لقد عرفت أناسًا ليس لديهم ما يكفي

من طعام أو يرتدون الأسمال ويعيشون في غرف مظلمة قذرة صغيرة جدًا. وكانت رغبتها الأولى أن تساعد طبعًا. زارت جايمي مرتين بصحبة السيدة كرو، وقد فرحت للغاية لرؤية تغير الأحوال هناك بعد أن تولى الأمور ذلك الرجل المدعو هنري. غير أن هذا كان عند پوليانا غيض من فيض، فما زال هناك كل أولئك الرجال المرضى والنسوة التعسات والأطفال الذين يرتدون الأسمال خارجًا في الشارع من جيران جايمي. وطلبت من السيدة كرو بثقة أن تساعدهم أيضًا.

«حقًا؟!»، قالت السيدة كرو بعد أن عرفت ما ينتظر منها، «أنت تريدين أن تعطى لمباني الشارع كله ورق جدران وطلاء وسلالم جديدة، أليس كذلك؟ وهل تريدين شيئًا آخر من فضلك؟».

«أوه، أجل. الكثير من الأشياء»، تنهدت پوليانا سعيدة، «إنهم يحتاجون أشياء كثيرة كما تعرفين، كلهم! ويا لها من متعة حين يحصلون عليها! ليتني كنت ثرية فيكون بوسعي المساعدة أيضًا، لكنني سعيدة أن أكون معك حين تحضرينها».

شهقت السيدة كرو بصوت عال من دهشتها. ولم تضع وقتها، رغم أنها فقدت صبرها، في بيان أنها لا نية لها في فعل أشياء أكثر في زقاق ميرفي، وما من سبب يدعوها لذلك. لا أحد يتوقع منها ذلك، فقد أسقطت كل الإيجارات المتأخرة، وبوسع أي امرئ أن يقول إنها كريمة للغاية فيما فعلت في المبنى الذي يسكنه جايمي وآل ميرفي. (لم تر ضرورة الإفصاح عن ملكيتها للمبنى السكني).

وشرحت لبوليانا ببعض التفصيل وجود مؤسسات خيرية عديدة وكفؤة، عملها تقديم العون للفقراء المحتاجين، وأنها تقدم مالًا لهذه المؤسسات دائمًا وبسخاء.

ولم تقتنع بوليانا أيضًا.

ألحت «لكني لا أفهم لم يكون أفضل أو حتى أجمل أن يجتمع أشخاص كثر ويفعلوا ما يود الجميع فعله بأنفسهم. إنني أفضل كثيرًا أن أعطي جايمي كتابًا ظريفًا على أن أجعل جمعية كبيرة تفعل ذلك، وأعلم أنه يود أن أفعل أنا ذلك أيضًا».

«ربما»، أجابت السيدة كرو بشيء من الفتور وقليل من الحنق، «ولكن من المحتمل ألا يكون هذا كتابًا جيدًا لجايمي، مثل كتاب تقدمه له لجنة من الناس تعرف أي نوع تختار».

وهذا جعلها تقول الكثير أيضًا عن «تشجيع الفقراء على التسول» و«شرور المنح العشوائي» و«العواقب الوخيمة للإحسان غير المنظم» (ولم تفهم بوليانا شيئًا منه البتة).

وأضافت ردًا على التعبير الحائر على وجه بوليانا القلق الصغير «ثم إنني إن عرضت أن أساعد هؤلاء الناس فمن المحتمل ألا يقبلوها. وتذكرين أن السيدة ميرفي رفضت في بادئ الأمر أن تسمح لي بإرسال الطعام والثياب، لكنهم يقبلونها بسرعة من جيرانهم في الطابق الأول كما يبدو».

«أجل، أعرف»، تنهدت بوليانا وهي تخرج، «ثمة أمر لا أفهمه.

غير أنه ليس من الصواب أن يكون عندنا الكثير من الأشياء الجميلة وليس عندهم شيء».

تعاظم هذا الشعور لدى پوليانا بمرور الأيام أكثر من كونه تلاشى، والأسئلة التي تسألها والتعليقات التي تقولها لم تكن مريحة لذهن السيدة كرو. وأما اختبار لعبة السعادة في هذه الحالة، فقد وجدته پوليانا صعبًا، كما أفصحت «لست أرى كيف يمكن العثور على شيء يسعد في أمر هؤلاء الفقراء. يمكننا أن نسعد لأنفسنا طبعًا بأننا لسنا فقراء مثلهم، ولكن كلما فكرت بسعادتي بذلك حزنت عليهم وتلاشت سعادتي. ويمكن لنا أن نسعد بوجود الفقراء لأننا نستطيع مساعدتهم، ولكن إن لم نساعدهم فأين يكمن الجزء السعيد؟»، ولم تعثر پوليانا على أحد يمنحها أجوبة مقنعة عن هذه الأسئلة.

لقد سألت هذه الأسئلة للسيدة كرو تحديدًا، وهي لم تزل مسكونة برؤى عن جايمي الذي كان، وجايمي الذي صار، وغدت أكثر قلقًا وأكثر بؤسًا ومستسلمة لليأس تمامًا. ولم يساعدها اقتراب عيد الميلاد، فما من بريق لأوراق البهشية أو وميض للزينة لم يسبب لها غصة، لأنها تجسد دومًا لدى السيدة كرو الجورب الخالي للطفل، الجورب الذي يمكن أن يكون جورب جايمي.

أخيرًا وقبل عيد الميلاد بأسبوع، قاتلت فيما ظنته المعركة الأخيرة مع نفسها. لقد أعطت ماري أوامر صارمة بحزم دون فرح على وجهها واستدعت پوليانا.

قالت بفظاظة بعض الشيء «لقد قررت أن أتعهد جايمي يا بوليانا. ستصل السيارة في الحال، وسأذهب إليه الآن، لإحضاره إلى البيت. يمكنك القدوم معي إن شئت».

أشرق وجه بوليانا إشراقًا عظيمًا.

«أوه، أوه، أوه، كم أنا سعيدة!»، لهثت، «أنا سعيدة للغاية وأود أن أبكي! لماذا يود المرء البكاء كلما كان أسعد الناس يا سيدة كرو؟».

«من المؤكد أني لا أعلم يا بوليانا»، ردت السيدة كرو شاردة، ولم يزل وجهها خليًا من الفرح.

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا من السيدة كرو حتى تشرح فيم جاءت، ما إن وصلت إلى شقة آل ميرفي الصغيرة ذات الغرفة الواحدة. لقد حكت قصة جايمي المفقود ببضع جمل قصار، وعن آمالها الأولى بأن يكون جايمي هذا هو نفسه. لم تخف شكوكها بأنه هو، غير أنها في الوقت نفسه قالت إنها عزمت على أخذه إلى البيت معها ومنحه كل امتياز ممكن. ثم ذكرت بقليل من البرود الخطط التي أعدتها من أجله.

أصغت السيدة ميرفي عند طرف السرير وبكت بهدوء. وقال جيري ميرفي من طرف الغرفة وقد جحظت عيناه، عبارة عفوية بصوت خفيض «يا إلهي! هل تصدق هذا؟» أما جايمي الراقد على الفراش فقد أنصت بادئ الأمر بهيئة من فتح له باب النعيم المنتظر، غير أن نظرة أخرى احتلت عينيه شيئًا فشيئًا مع حديث السيدة كرو، ثم أغمضهما ببطء وأشاح بوجهه.

وساد صمت طويل بعد أن فرغت السيدة كرو من الحديث قبل أن يدير جايمي رأسه ويجيب. فرأوا عندئذ أن وجهه شديد الشحوب، وأن عينيه مغرورقتين دمعًا.

«شكرًا لك يا سيدة كرو، لكني لا أستطيع الذهاب»، قال ببساطة.

«ماذا؟»، صاحت السيدة كرو كأنها شكت بما سمعه أذناها.

«جايمي!»، شهقت پوليانا.

«أوه، هيا أيها الصغير، ماذا حدث لك؟»، تهكم جيري وهو يتقدم بسرعة، «ألا تعرف الجيد من الأشياء حين تراه؟».

«بلى، لكني لا أستطيع الذهاب»، قال الفتى المقعد ثانية.

«ولكن فكر يا جايمي، فكر يا جايمي بما قد يعنيه لك!»، ارتعشت السيدة ميرفي عند طرف السرير.

غص جايمي «إنني أفكر. ألا تظنون أنني أعرف ما أفعل، وما أتخلى عنه؟» ثم التفت نحو السيدة كرو بعينين دامعتين وقال متلعثمًا «لا أستطيع، لا يمكنني جعلك تفعلين كل هذا من أجلي. لو أنك تهتمين لأمري لاختلف الأمر. لكنك لا تهتمين، ليس حقًا. إنك لا تريدينني، لا تريدينني أنا، بل تريدين جايمي الحقيقي، وأنا لست جايمي الحقيقي. لا تظنين أنني هو، يمكنني أن أرى ذلك في وجهك».

«أعلم، ولكن... لكن...»، قالت السيدة كرو بيأس.

«ثم إنني لست مثل الفتية الآخرين ولا أستطيع المشي»، قاطعها الصبي المقعد بانفعال، «ستضجرين مني في وقت قصير، وإني أرى ذلك. ولا أطيق أن أكون عبئًا هكذا. لو أنك تهتمين مثلما تفعل أميمتي...» ومد يده وكتم بكاءه ثم أدار رأسه ثانية، وقال «أنا لست جايمي الذي تريدين. لا أستطيع الذهاب». وبهذه الكلمات أنزل يده وقبضها حتى ابيضت براجمه على الوشاح المهترئ القديم الذي غطى الفراش.

مرت لحظة صمت حبست فيها الأنفاس، ثم نهضت السيدة كرو بهدوء شديد. كان وجهها شاحبًا، ولكن فيه شيئًا أسكت البكاء على شفتي پوليانا.

«هيا يا پوليانا»، كل ما قالته.

«حسن، إنك فتى أحمق!»، بقبق جيري ميرفي للصبي الراقد على الفراش بعد أن أغلق الباب.

لكن الصبي الراقد بكى بحرقة كأنما ذاك الباب الذي يفضي إلى النعيم، وقد أغلقه الآن إلى الأبد.

الفصل الثاني عشر

من خلف المنضدة

كانت السيدة كرو غاضبة جدًا، فقد أقنعت نفسها بأنها مستعدة لأخذ هذا الصبي المقعد في بيتها، وبهدوء رفض ذلك الفتى المجيء، وذاك لا يطاق. لم تعتد السيدة كرو أن ترفض دعواتها، أو أن يستخف برغباتها. والأدهى أنها، وبعد فشلها في أخذ الصبي، أدركت بخوف محموم بأنه قد يكون جايمي الحقيقي في نهاية المطاف. وأدركت عندئذ أن السبب الحقيقي برغبتها بأخذه، لم يكن لاهتمامها به، ولا لأنها رغبت في مساعدته وإسعاده، بل لأنها أملت أن تريح ضميرها بأخذه، وأن تخرس إلى الأبد ذلك السؤال البغيض «ماذا لو كان هو جايمي قريبها؟».

ولم تتحسن الأمور قطعًا بعد أن حدس الصبي بحالها، وبين أن سبب رفضه أنها «لم تهتم». قالت السيدة كرو لنفسها بكثير من الكبر إنها لا تهتم حقًا، وإنه ليس بابن أختها، وإنها ستنسى الأمر برمته.

غير أنها لم تنسه. وكلما أصرت على إنكار القرابة والمسؤولية،

ألقت القرابة والمسؤولية بنفسيهما عليها على هيئة شكوك وهلع. وكلما حولت تفكيرها إلى أمور أخرى بحزم، لاح خيال الصبي الحزين العينين في الغرفة المتداعية بإصرار أمام عينيها دومًا.

ثم إن پوليانا موجودة أيضًا، ومن الواضح أنها لم تكن على سجيتها قط. بل تجولت في البيت بمشاعر كئيبة، ومن الواضح أنها لا تهتم بشيء.

«أوه، كلا، لست بمريضة»، أجابت كلما اعترضت وسئلت.

«ولكن ما الخطب؟».

«لا شيء. لقد كنت أفكر بجايمي فحسب كما تعلمين، وأنه لم يحصل على كل هذه الأشياء الجميلة، السجاد واللوحات والستائر».

وفعلت پوليانا الأمر نفسه بطعامها، ففقدت شهيتها، لكنها أنكرت أن تكون مريضة مرة أخرى.

«أوه، كلا»، وتنهدت بحرقة، «لكني لا أشعر بالجوع. ما إن أبدأ الأكل حتى أفكر بجايمي، وأنه ليس لديه إلا كعكة محلاة قديمة ولفافات جافة، ثم لا أشتهي شيئًا».

عزمت السيدة كرو بسرعة، مدفوعة بإحساس أنها لم تفهم إلا قليلًا، على أن تفعل شيئًا من أجل پوليانا مهما كلف الأمر، فطلبت شجرة ضخمة وأربعة وعشرين إكليلًا، وكثير من زهر البهشية ودمى عيد الميلاد. وغدا البيت للمرة الأولى منذ سنين طويلة متلألئًا وبراقًا بالقرمزي والزينة. بل ستقام حفلة لعيد الميلاد، لأن

السيدة كرو أخبرت پوليانا أن تدعو ستة من صديقاتها في المدرسة لتزيين الشجرة ليلة عيد الميلاد.

غير أن السيدة كرو لم تلق إلا الخيبة أيضًا، وكانت پوليانا دائمة الامتنان ومهتمة ومتحمسة أحيانًا، لكن وجهها الصغير لم يزل واجمًا. ولم تضف حفلة عيد الميلاد بعد هذا إلا مزيدًا من الحزن بدلًا من الفرح، لأنها أجهشت باكية حين رأت الشجرة البراقة.

«عجبًا يا پوليانا! ما خطبك الآن بحق السماء؟»، قالت السيدة كرو.

«لا، لا شيء. إنها جميلة للغاية وأبكتني. فكرت بأن جايمي يود رؤيتها».

وعيل صبر السيدة كرو عندئذ.

قالت «جايمي، جايمي، جايمي! ألا يمكنك الكف عن ذكر الصبي يا پوليانا؟ إنك لتعرفين حق المعرفة أن عدم وجوده ليس خطئي. لقد طلبت منه القدوم للعيش هنا. ثم أين هي لعبة السعادة؟ أظنها ستكون فكرة رائعة إن لعبتها حول هذا الأمر».

«إنني ألعبها»، ارتعشت پوليانا، «وهذا ما لا أفهمه، فلم أعهدها غريبة للغاية من قبل. لقد كنت سعيدة حين أسر بالأشياء قبلًا، ولكني الآن، حول أمر جايمي... إنني سعيدة للغاية لأن لدي سجاد ولوحات وأشياء لذيذة آكلها، وأنني أستطيع المشي والجري والذهاب إلى المدرسة وما إلى ذلك. ولكني كلما سعدت لنفسي أكثر

أسفت لحاله. لم أعهد اللعبة غريبة هكذا، ولست أدري ما يشوشها، هل تعرفين؟».

لكن السيدة كرو استدارت ذاهبة بحركة يائسة دون أن تنطق بحرف.

حدث شيء رائع للغاية في اليوم الذي تلا عيد الميلاد، وكادت پوليانا أن تنسى جايمي. فقد أخذتها السيدة كرو للتسوق. وحين كانت السيدة كرو تحاول الاختيار بين ياقتين من الدانتيلا، تمكنت پوليانا من اختلاس النظر إلى ما وراء المنضدة ورأت وجهًا بدا مألوفًا على نحو غامض. فتفحصته مقطبة للحظة، ثم قطعت الممر بصرخة قصيرة.

«أوه، إنها أنت... إنها أنت!»، قالت فرحة لفتاة تضع في واجهة العرض صينية من الشرائط الوردية، «يا لسعادتي برؤيتك!».

رفعت الفتاة خلف المنضدة رأسها ونظرت إلى پوليانا في دهشة. غير أن وجهها الواجم المكفهر قد أشرق في الحال بابتسامة إدراك سعيد.

«أهلًا أهلًا بفتاة الحديقة العامة!»، قالت.

«أجل. أنا سعيدة أنك تذكرتني»، تهلل وجه پوليانا، «لكنك لم تعودي ثانية، لقد بحثت عنك مرات كثيرة».

«لم أستطع، فعلي أن أعمل. كانت تلك آخر إجازة نصفية لنا و...، خمسون سنتًا يا سيدتي»، قطعت حديثها لتجيب عن سؤال

سيدة مسنة جميلة الوجه عن سعر شريطة باللونين الأبيض والأسود على المنضدة.

«خمسون سنتًا؟ هممم!»، تفحصت السيدة الشريطة وترددت ثم وضعتها متنهدة «أمم، أجل. حسن إنها جميلة جدًا يا عزيزتي»، قالت وهي تذهب.

وتبعتها فتاتان مشرقتا الوجه اختارتا، وهما تضحكان وتتمازحان، شريطة محلاة من القطيفة القرمزية، وقماشًا من التول والبراعم الزهرية. وتنهدت پوليانا تنهيدة غبطة، بعد ذهاب الفتاة وهما تثرثران.

«أهذا ما تفعلينه كل يوم؟ يا إلهي، لا بد أنك سعيدة لاختيارك هذا!».

«سعيدة؟!».

«أجل، فلا بد أن الأمر ممتع، فهنا الكثير من الناس وكلهم مختلفون كما ترين! أحب هذا، وأظنني سأفعل هذا حين أكبر. لا بد أنها متعة أن تري ما يشترون!».

«متعة؟ سعيدة؟!»، غضبت الفتاة خلف المنضدة، «حسن يا صغيرة، أظنك لو عرفت نصف... هذه بدولار يا سيدتي»، قاطعت نفسها بسرعة لتجيب عن سؤال شابة عن شريطة من القطيفة المطرزة لونها أصفر فاقع في واجهة العرض.

«أظن الوقت حان لتخبريني، اضطررت لسؤالك مرتين»، قرّعت الشابة.

«لم أسمعك يا سيدتي».

«لا أقبل هذا، فعملك أن تسمعي. يدفع لك لذلك، أليس كذلك؟ ما سعر هذه السوداء؟».

«خمسون سنتًا».

«وتلك الزرقاء؟».

«بدولار».

«لا داعي للوقاحة يا آنسة! ليس عليك أن تردي بإيجاز، أم علي أن أبلغ عنك؟ دعيني أر صينية الشرائط الوردية».

انفرجت شفتا البائعة، ثم زمتهما في خط رفيع مستقيم. فمدت يدها إلى واجهة العرض وأخرجت صينية الشرائط الوردية، ولكن عينيها لمعتا وارتعشت يداها بجلاء وهي تضع الصينية على المنضدة. واستدارت المرأة التي كانت تخدمها قائلة بإيجاز «لا أرى شيئًا يهمني».

«حسن»، قالت الفتاة خلف المنضدة بصوت متهدج لپوليانا الواسعة العينين، «ما رأيك بعملي الآن؟ أمن شيء يسعد فيه؟».

ضحكت پوليانا بشيء من الانفعال.

«يا للهول، أليست نزقة؟ لكنها مضحكة أيضًا، ألا ترين ذلك؟ بوسعك أن تسرّي أن الزبائن ليسوا كلهم مثلها على أية حال، أليس كذلك؟».

«أظن ذلك»، قالت الفتاة بابتسامة شاحبة، «غير أن بوسعي

أن أخبرك الآن يا صغيرتي عن لعبة السعادة التي أخبرتني بها في الحديقة قد تكون مناسبة لك تمامًا، لكنها...»، ومرة أخرى توقفت عن الحديث لتقول بتعب «خمسون سنتًا يا سيدتي»، ردًا على سؤال من الطرف الآخر من المنضدة.

«أتشعرين بالوحدة دومًا؟»، سألت پوليانا حزينة حين صارت البائعة متفرغة.

«لا يمكنني القول إنني أقمت خمس حفلات وذهبت إلى سبع منذ أن رأيتك»، أجابت الفتاة بمرارة شديدة جعلت پوليانا تفهم السخرية.

«أوه، ولكنك فعلت شيئًا جميلًا في عيد الميلاد، أليس كذلك؟».

«أوه، بلى. لقد مكثت في الفراش طوال اليوم وقدماي ملفوفتان بالخرق وقرأت أربع صحف ومجلة واحدة، ثم خرجت إلى المطعم ليلًا ودفعت خمسة وثلاثين سنتًا بدلًا من ربع الدولار ثمنًا لفطيرة دجاج».

«وماذا حدث لقدميك؟».

«تورمتا من الوقوف عليهما، في ازدحام عيد الميلاد».

ارتجفت پوليانا مشفقة «أوه! ولم يكن عندك شجرة أو حفلة أو أي شيء؟»، قالت بذهول وأسى.

«حسن، كلا!».

«أوه يا إلهي! ليتك رأيت شجرتي!»، تنهدت الفتاة الصغيرة،

«فقد كانت رائعة، و... لكن، أوه اسمعي!» قالت بفرح. «يمكنك رؤيتها، فلم نزلها بعد. ألا يمكنك القدوم الليلة أو ليلة غد و...».

قاطعتها السيدة كرو بنبرتها الباردة «ما معنى هذا كله بحق السماء يا پوليانا؟ أين كنت؟ لقد بحثت عنك في كل مكان، بل إنني عدت إلى متجر البدلات».

التفتت پوليانا بصيحة فرح وسعادة.

«أوه، إنني سعيدة لقدومك يا سيدة كرو»، هللت، «هذه...، حسن لست أعرف اسمها بعد، لكني أعرفها وهذا يكفي. لقد التقيتها في الحديقة العامة منذ وقت بعيد. وهي وحيدة ولا تعرف أحدًا، وأبوها كاهن مثل أبي عدا أنه على قيد الحياة. ولم تحصل على شجرة عيد الميلاد بل قدمين متورمتين وفطيرة دجاج، وأريدها أن ترى ما عندي، أعني الشجرة كما تعرفين»، واصلت پوليانا لاهثة، «لقد طلبت منها أن تأتي الليلة أو ليلة غد، وستسمحين لي بإنارتها، أليس كذلك؟».

«حسن، حقًا يا پوليانا»، قالت السيدة كرو في استنكار بارد. لكن الفتاة خلف المنضدة قاطعتها بصوت بارد تمامًا وأكثر استنكارًا.

«لا تقلقي يا سيدتي، ليست لدي نية في الذهاب».

«أوه، ولكن أرجوك. لست تعرفين كم أريد..»، توسلت پوليانا.

«أرى أن السيدة لن تطلب مني»، قاطعتها البائعة بشيء من الخبث.

احمرت السيدة كرو غضبًا، واستدارت للذهاب لكن پوليانا أمسكت بذراعها ومنعتها، وهي تتحدث بانفعال إلى الفتاة خلف المنضدة التي صدف أنها لا زبائن عندها عندئذ.

قالت پوليانا «لكنها ستفعل، ستفعل. إنها تود منك المجيء، أعرف ذلك. لست تعلمين طيبها والمال الذي تمنحه للمؤسسات الخيرية وما إلى ذلك».

«پوليانا!»، احتجت السيدة كرو بحدة، وأرادت الذهاب مرة أخرى، وأوقفها هذه المرة وقد أصابها بالدوار الازدراء الرنان في الصوت الخفيض المتوتر للبائعة.

«أوه، أجل، أعلم! الكثير من الأثرياء يعطي المال لدور الرعاية. ثمة الكثير دومًا من الأيادي البيضاء تمد لمن أخطؤوا، وهذا لا بأس به. لست أجد خطأ في هذا، غير أني أرى أنهم لا يفكرون في مساعدة الفتيات قبل أن يخطئن. لماذا لا يقدمون للفتيات الصالحات بيوتًا جميلة فيها كتب ولوحات وسجاد ناعم وموسيقى وأحد يهتم بهن؟ لن نرى الكثير منهن عندئذ، يا رب السماوات ما الذي أقوله؟»، صمتت بهدوء. ثم التفتت بتعبها السابق إلى الشابة التي وقفت أمامها وانتقت شريطة زرقاء.

«هذه بخمسين سنتًا يا سيدتي»، سمعتها السيدة كرو وهي تتعجل بأخذ پوليانا.

الفصل الثالث عشر

صبر وظفر

كانت فكرة مبهجة، أعدتها پوليانا كلها في خمس دقائق، ثم أخبرت السيدة كرو، التي لم ترها فكرة مبهجة، وقالت ذلك بوضوح شديد.

«أوه، لكني واثقة أنهم سيرونها كذلك»، جادلت پوليانا ردًا على اعتراضات السيدة كرو. «وفكري بسهولة تنفيذنا لها! إن الشجرة على حالها، عدا الهدايا ويمكننا الحصول على مزيد من هذه. إن ليلة رأس السنة قريبة، وفكري كم سيسعدها القدوم! ألن تسعدي إن لم يكن عندك لعيد الميلاد سوى قدمين متورمتين وفطيرة دجاج؟».

«يا إلهي يا إلهي، يا لك من طفلة صعبة!»، عبست السيدة كرو، «ولم يخطر لك أننا لا نعرف اسم هذه الشابة».

«صحيح! ولكن أليس غريبًا أنني أشعر أنني أعرفها جيدًا؟» ابتسمت پوليانا، «لقد تحدثنا مطولًا في الحديقة ذلك اليوم كما تعلمين، وقد أخبرتني عن وحدتها، وأنها تظن أن أكثر الأماكن وحدة أن تكون في حشد في مدينة كبيرة، لأن الناس لا يفكرون

بها ولا يهتمون لها. غير أن أحدهم فعل، لكنه انتبه لها كثيرًا، كما قالت، ولم يجدر به الانتباه لها، وهذا غريب حين أفكر به، أليس كذلك؟ كما أنه جاء إلى الحديقة من أجلها لتذهب معه إلى مكان ما، ولكنها لم تفعل وقد كان رجلًا أنيقًا وسيمًا حقًا، ثم بدا نكِدًا للغاية في النهاية. لا يكون الشخص جميلًا حال نكده، صحيح؟ ثم إن سيدة كانت تعاين الشرائط اليوم وقالت الكثير من الأمور البغيضة كما تعلمين، ولم تبد جميلة أيضًا بعد أن تحدثت. لكنك ستسمحين لي بتزيين الشجرة ليلة رأس السنة، أليس كذلك يا سيدة كرو؟ وأن أدعو تلك الفتاة بائعة الشرائط وجايمي؟ لقد تحسن الآن كما تعلمين ويمكنه القدوم. صحيح أن جيري سيدفع كرسيه ولكننا نريد جيري أيضًا».

«أوه طبعًا، جيري؟!»، قالت السيدة كرو ساخرة متهكمة، «ولكن لم نكتفي بجيري، فلا بد أن جيري عنده جموع من الأصحاب يودون المجيء و...».

«أوه، هل يمكنني يا سيدة كرو؟»، قاطعتها بوليانا في بهجة مفرطة، «أوه يا لك من كريمة، كريمة كريمة! لقد أردت...».

لكن السيدة كرو شهقت خوفًا وعجبًا «كلا، كلا يا بوليانا، أنا...» قالت معترضة.

غير أن بوليانا، التي أخطأت تمامًا في فهم اعتراضها، واصلت ثانية في حماس هائل.

«إنك طيبة حقًا بل إنك الأفضل، ولن أسمح لك بقول عكس

ذلك. أحسب أنني سأقيم حفلة كبيرة! لدينا تومي دولن وأخته جيني، وطفلا مكدونالد، وثلاث بنات لا أعرف أسماءهن يسكن تحت بيت آل ميرفي، وغيرهم الكثير، إن كان عندنا ما يكفي لهم. يا لسعادتهم حين أخبرهم! يا للروعة يا سيدة كرو، يهيأ لي أنني لم أخبر أمرًا رائعًا للغاية هكذا في حياتي، وهذا كله بفضلك! والآن أليس علي البدء بدعوتهم، فيعرفون ما ينتظرهم؟».

وسمعت السيدة كرو، وهي التي لم تصدق إمكان حدوث هذا، نفسها وهي تهمهم «أجل» بصوت خافت، عرفت أنها ألزمتها بإقامة حفل شجرة عيد الميلاد ليلة رأس السنة لكثير من أطفال زقاق ميرفي والبائعة التي لا تعرف اسمها.

لعل في ذاكرة السيدة كرو لم يزل يرن قول الشابة «أتساءل أحيانًا لم لا يفكر بعضهم بمساعدة الفتيات قبل أن يخطئن». ولعل في أذنيها لم تزل ترن قصة پوليانا عن الفتاة نفسها التي ترى أن حشدًا في مدينة كبيرة لهو أكثر الأماكن وحدة في العالم، غير أنها رفضت الذهاب مع الرجل الوسيم الذي «اهتم كثيرًا». ولعل في قلب السيدة كرو كان الأمل المبهم بأن السلام الذي تاقت إليه طويلًا يكمن في مكان ما. ولعل الأمر كان شيئًا من ذلك كله يصحبه عجزها المطلق في مواجهة تحويل پوليانا العجيب لسخريتها واستيائها إلى ضيافة هائلة من مضيفة راغبة. أيًا يكن السبب، فقد قضي الأمر، ووجدت السيدة كرو نفسها في الحال ضالعة في دوامة حقيقية من الأفكار والتخطيط، كان مركزها دومًا پوليانا والحفلة.

كتبت السيدة كرو بتشتت إلى أختها عن الأمر كله خاتمة رسالتها بقولها «لست أدري ما سأفعل، ولكن أظنني سأظل أفعل ما أفعله، فما من طريقة أخرى. إلا إن بدأت پوليانا بالوعظ طبعًا.... لكنها لم تفعل بعد، لذا لا يمكنني إعادتها إليك بضمير مرتاح».

ضحكت ديلا بصوت عالٍ لقراءة الختام وهي تقرأ الرسالة في المصح.

«لم تعظ بعد حقًا!»، ضحكت خلسة، «بورك قلبها الحبيب الصغير! وها أنت يا روث كرو تقيمين حفلتين لشجرة الميلاد في غضون أسبوع، ومما عرفت أن بيتك الذي ظلت العتمة تغلفه كالموت، سيشتعل بالقرمزي والأخضر من أعلاه حتى أسفله. لكنها لم تعظ بعد، أوه كلا لم تعظ بعد!».

نجحت الحفلة نجاحًا عظيمًا، وأقرت بذلك السيدة كرو. وتنافس جايمي بكرسيه المتحرك وجيري بمفرداته الغريبة والمعبرة والفتاة (التي تبين أن اسمها سادي دين) مع بعضهم بعضًا لتسلية الضيوف الخجلين. كشفت سادي دين عن معرفتها الدقيقة بأكثر الألعاب سحرًا مما فاجأ الآخرين وفاجأها أكثر، وهذه الألعاب إلى جانب قصص جايمي ومزاح جيري البريء جعل الجميع يضحكون حتى أرسل العشاء والتوزيع السخي للهدايا من الشجرة المثقلة بها الضيوفَ السعداء إلى بيوتهم، وقد تعبوا من تنهيدات الرضا.

لم يبد أن أحدًا رأى إن كان جايمي (الذي كان آخر من غادر هو وجيري) قد نظر من حوله بحزن. غير أن السيدة كرو حين

ودعته همست له في أذنه بشيء من نفاد الصبر والحرج «حسن يا جايمي، هل غيرت رأيك حيال المجيء؟».

تردد الصبي، وقد احمرت وجنتاه قليلًا، والتفت ونظر في عينيها بحزن. ثم هز رأسه نفيًا بحزن.

«لو كان الأمر دائمًا كالليلة، لجئت»، تنهد، «لكنه لن يكون. سيكون ثمة غد وأسبوع قادم وشهر قادم، وسنة قادمة، وسأعرف قبل مرور الأسبوع بأنه ما كان يجب علي القدوم».

إن ظنت السيدة كرو أن حفلة ليلة رأس السنة ستوقف محاولات پوليانا حيال سادي دين، فقد تبينت خطأها سريعًا، إذ بدأت پوليانا بالحديث عنها الصباح التالي.

«أوه، إنني سعيدة للغاية لأنني عثرت عليها ثانية»، هذرت برضا، «وإن لم أستطع العثور على جايمي من أجلك، فقد وجدت شخصًا آخر لتحبيه، وستحبين أن تحبيها طبعًا، لأنها طريقة أخرى لحب جايمي».

أخذت السيدة كرو نفسًا وشهقت حنقًا. فقد كان إيمان پوليانا المطلق بطيبة قلب السيدة كرو، وتصديقها الراسخ برغبتها بمساعدة الجميع محرجًا بعض الشيء ومزعجًا أحيانًا. لكنه في الآن نفسه أمر يصعب إنكاره في هذه الظروف وبخاصة أن عيني پوليانا السعيدتين الواثقتين تركزان على وجهها.

فاعترضت اعتراضًا عاجزًا في نهاية الأمر كأنما تصارع خيوطًا

حريرية خفية «ولكن يا پوليانا... أنا... أنت... هذه الفتاة ليست بجايمي كما تعلمين».

«أعرف ذلك»، أشفقت پوليانا بسرعة، «وإنني آسفة أنها ليست بجايمي، لكنها جايمي لدى أحد ما. أعني أنها ليس عندها من يحبها ويهتم لها كما تعرفين، وكلما تذكرت جايمي سررت لوجود أحد تساعدينه، كما تودين من الناس مساعدة جايمي حيثما كان».

ارتجفت السيدة كرو وبكت.

«لكني أريد جايمي قريبي»، بكت.

هزت پوليانا رأسها بعينين متفهمتين.

«أعلم، وجود الطفل. لقد أخبرني السيد پندلتن عن الأمر، وأنت ليس عندك إلا يد المرأة».

«يد المرأة؟».

«أجل لجعل البيت دارًا كما تعرفين. لقد قال إن الأمر يحتاج إلى يد امرأة أو وجود طفل لجعل البيت دارًا. كان هذا عندما أرادني وعثرت له على جيمي وتبناه بدلًا مني».

«جيمي؟»، رفعت السيدة كرو نظرها والدهشة في عينيها التي تصيبها كلما ذكر الاسم وتنويعاته.

«أجل، جيمي بِين».

«أوه، بِين»، قالت السيدة كرو وقد ارتاحت.

«أجل. كان من ملجأ الأيتام وهرب، وعثرت عليه. قال إنه يريد بيتًا آخر فيه أم بدلًا من المشرفة، ولم أستطع أن أعثر له على أم، لكني وجدت له السيد پندلتن وقد تبناه. إن اسمه جيمي پندلتن الآن».

«لكن اسمه كان بِين؟».

«أجل، كان بِين».

«أوه!»، قالت السيدة كرو بزفرة طويلة هذه المرة.

رأت السيدة كرو سادي دين كثيرًا في الأيام التي تلت حفلة ليلة رأس السنة، ورأت جايمي كثيرًا أيضًا. فقد تمكنت پوليانا من دعوتهما إلى المنزل كثيرًا، ولم تمانع أن السيدة كرو في ذلك، وهذا ما أدهشها وأحنقها. فقد رأت پوليانا أن إذنها وبهجتها أمر مفروغ منه فوجدت نفسها عاجزة عن إقناع الطفلة أنها لم توافق على هذا الأمر ولم تسعد به على حد علمها.

لكن السيدة كرو تعلمت أمورًا كثيرة، سواء أأدركت ذلك أم لا، أشياء لم تتعلمها قط في الأيام الخوالي وهي تحبس نفسها في غرفتها، آمرة ماري ألا تسمح بدخول أحد. فقد بدأت تعرف معنى أن تكون فتاة وحيدة في مدينة كبيرة تكسب عيشها بنفسها ولا أحد يهتم بها، عدا أولئك الذين يهتمون كثيرًا وقليلًا أيضًا.

«ولكن ماذا قصدت؟»، سألت سادي دين بتوتر ذات مساء، «ماذا قصدت في ذلك اليوم في المتجر بما قلته عن مساعدة الفتيات؟».

احمرت سادي دين بارتباك.

«أخشى أنني كنت وقحة»، اعتذرت.

«لا تهتمي بهذا. أخبريني بقصدك، لقد فكرت بقولك مرات عديدة منذئذ».

صمتت الفتاة للحظة، ثم قالت بشيء من المرارة «كان هذا لأني عرفت فتاة يومًا، وكنت أفكر بها. لقد جاءت من بلدتي، وكانت جميلة وطيبة، لكنها ليست قوية. لقد كنا معًا لعام واحد نتقاسم الغرفة نفسها، ونسلق البيض على موقد الغاز نفسه ونأكل اللحم المفروم وكرات السمك على العشاء في المطعم الرخيص نفسه. لم يكن عندنا شيء نفعله في الأماسي سوى التنزه في كومون أو الذهاب إلى السينما، إن كان عندنا فائض من نقود، أو نبقى في غرفتنا فحسب. لم تكن غرفتنا غرفة بهيجة جدًا، فقد كانت حارة صيفًا وباردة شتاء وكان موقد الغاز ضئيل وناره خافتة للغاية فلا يمكننا القراءة ولا الحياكة إن لم نكن متعبتين للغاية لفعل ذلك، وهذا ما نكون عليه دومًا. ثم إن فوقنا ألواحًا تصر وأحد يتحرك عليها دومًا، وتحتنا رجل يتعلم عزف البوق. هل سمعت يومًا أحدًا يتعلم عزف البوق؟».

«كلا، لا أظن ذلك»، همهت السيدة كرو.

«حسن، لقد فاتك الكثير»، قالت الفتاة بجفاف. ثم استأنفت قصتها.

«كنا أحيانًا وبخاصة في أيام عيد الميلاد والإجازات، نتنزه

هنا في الجادة وشوارع أخرى نبحث عن نوافذ ستائرها مرفوعة ويمكننا النظر عبرها. لقد كنا وحيدتين للغاية كما ترين، في تلك الأيام تحديدًا، وقلنا إن رؤية البيوت بناسها ومصابيحها وطاولاتها وأطفالها اللاهين تسعدنا، غير أن كلينا عرفت أن هذا يشعرنا بشعور أسوأ من ذي قبل، لأننا كنا خارجها يائستين. وكانت رؤية السيارات أصعب، والشبان داخلها يضحكون ويتحادثون. لقد كنا مخطئتين، وأظننا أردنا أن نضحك ونتحدث. لقد أردنا وقتًا طيبًا أيضًا، وشيئًا فشيئًا أخذت رفيقتي تحظى بالوقت الطيب.

اختصارًا للحكاية أقول إننا فككنا شراكتنا يومًا، ومضت كل منا في طريقها. لم تعجبني المجموعة التي ترافقها وقلت لها ذلك. لكنها لم تتركهم لذا انفصلنا. ولم أرها ثانية طوال سنتين، ثم وصلتني رسالة منها وذهبت. حدث هذا الشهر الماضي، وكانت في إحدى دور. لقد كان مكانًا جميلًا، فيه بسط ناعمة ولوحات جميلة ونبتات وزهور وكتب وبيانو، وغرفة جميلة وكل شيء مؤمن لها. وتأتي نساء ثريات بسياراتهن وعرباتهن لاصطحابها، فيأخذنها إلى الحفلات الموسيقية والحفلات النهارية. كانت تتعلم الاختزال وسيساعدنها في الحصول على وظيفة ما إن تتعلمه. وقالت إن الجميع لطيفون معها للغاية، وأبدوا رغبتهم في مساعدتها بشتى الطرق، لكنها قالت أمرًا آخر أيضًا.

قالت «لو أنهم تجشموا نصف العناء وأظهروا لي اهتمامهم ورغبتهم في المساعدة قبل وقت طويل، حين كنت فتاة نزيهة محترمة

تعمل بجد وتحن للديار، لما كنت هنا اليوم ليساعدوني الآن». وأنا لم أنس ذلك، هذا كل الأمر. وهذا لا يعني أنني أعترض على دور الرعاية، فهذا أمر حسن ولا بد أن يفعلوه. لكنني أظنها لن تكون كثيرة جدًا لو أنهم أبدوا قليلًا من اهتمامهم قبلًا».

«لكني ظننت أن ثمة بيوتًا للفتيات العاملات ودورًا تفعل هذا»، تلعثمت السيدة كرو بصوت يميزه قليل من أصدقائها.

«إنها موجودة. هل رأيت أحدها من الداخل؟».

«كلا رغم أنني أتبرع لها بالمال»، وصار صوت السيدة كرو متوسلًا معتذرًا في نبرته هذه المرة.

ابتسمت سادي دين ابتسامة غريبة.

«أجل أعرف. الكثير من النساء الصالحات يقدمن المال لها، ولم يرين واحدًا منها من الداخل. أرجو ألا تفهمي أنني أنتقد هذه الدور، فأنا لا أفعل. إنها جيدة، فهي الشيء الوحيد الذي يقدم المساعدة. غير أنها غيض من فيض مما تتطلبه الحاجة الحقيقية. لقد جربت السكن في أحدها مرة، لكن فيها سمة ما... شعرت نوعًا ما...، ولكن ما الفائدة؟ لعلها ليست كلها على هذه الشاكلة، ولعل العيب فيّ. لو حاولت أن أشرح لك لما فهمت، بل سيتعين عليك أن تسكنيه، وأنت لم تري واحدًا من الداخل. لكني لا أستطيع إلا أتساءل لم كثير من هؤلاء النساء الطيبات لا يجهدن ولا يكترثن بالوقاية بدلًا من بذل الجهد في المساعدة. ولكن كفى! لم أقصد أن أتحدث كثيرًا هكذا، غير أنك سألتني».

«أجل لقد سألتك»، قالت السيدة كرو بصوت مكتوم وهي تبتعد.

لم تعرف السيدة كرو أمورًا لم تعرفها من قبل من سادي دين فحسب، بل من جايمي أيضًا.

ذهب جايمي إلى هناك كثيرًا. فقد أحبت پوليانا استضافته، وأحب ذهابه. صحيح أنه تردد في بادئ الأمر، غير أنه سرعان ما هدأ شكوكه وانصاع لرغباته بقوله لنفسه (ولپوليانا) إن الزيارة ليست إقامة دائمة.

كثيرًا ما وجدت السيدة كرو الفتى وپوليانا جالسين في المكتبة على مقعد النافذة، والكرسي المتحرك الخالي قريب منهما. كانا يتصفحان كتابًا أحيانًا. (سمعت جايمي يقول لپوليانا يومًا إنه لا يظن أنه سيهتم لكونه مقعدًا، إن كان عنده كتب كثيرة بقدر السيدة كرو، وإنه يظن أنه سعيد للغاية ويطير فرحًا لو كان عنده كتب وساقان). كان الصبي يقص القصص أحيانًا وپوليانا تصغي مشغولة واسعة العينين.

تعجبت السيدة كرو من اهتمام پوليانا، حتى وقفت يومًا واستمعت. ولم تعد تتعجب بعدها بل استمعت لمدة أطول. وكان كثير من لغة الصبي خشنًا وخطأً لكنها حية ومفعمة بالصور الكثيرة، فوجدت السيدة كرو نفسها يدًا بيد پوليانا تسير في العصور الذهبية بإشارة من عيني الفتى اللامعتين.

أخذت السيدة كرو تدرك ببطء أيضًا شيئًا مما يعنيه كون الطموح

والأمل مركز الأفعال الشجاعة والمغامرات الرائعة، لكن الفتى لم يكن في الحقيقة إلا مقعدًا على كرسي متحرك. غير أن ما لم تدركه السيدة كرو الدور الذي أخذ يمارسه هذا الفتى المقعد في حياتها. ولم تدرك كم غدا حضوره مهمًا، ولا قدر اهتمامها للعثور على شيء جديد ليراه جايمي. ولم تدرك كيف غدا يومًا بعد يوم جايمي المفقود، ابن أختها الراحلة.

بعد انقضاء شهر فبراير ومارس وأبريل، جاء شهر مايو جالبًا معه اقتراب الموعد المحدد لعودة پوليانا، وتنبهت السيدة كرو فجأة لمعنى هذه العودة عندها.

كانت مذهولة ومذعورة، فقد تطلعت في سرها حتى الآن بسعادة إلى رحيل پوليانا. وقالت إن البيت عندئذ سيعود لهدوئه والشمس الساطعة خارجه. سيعود لها السلام ثانية، وستتمكن من إخفاء نفسها عن العالم المزعج المضجر. وإنها ستغدو حرة في أن تستحضر إلى ضميرها المتألم كل الذكريات العزيزة عن الفتى المفقود الذي خرج إلى المجهول الواسع قبل زمن بعيد وأغلق الباب خلفه. لقد قنعت أن هذه ستكون الحال بعد عودة پوليانا.

لكن الصورة مختلفة اختلافًا كبيرًا الآن وپوليانا تستعد حقًا للعودة. فالبيت الهادئ الذي لا تدخله الشمس سيغدو بيتًا كئيبًا ولا يطاق، والسلام الذي تاقت إليه سيكون وحدة تعسة، وأما كونها قادرة على إخفاء نفسها عن العالم المزعج المضجر وحريتها في أن تستحضر إلى ذهنها المعذب ذكريات عزيزة الفتى الصغير

المفقود... كأنها يمكن لشيء أن يحل محل هذه الذكريات المؤلمة عن جايمي الجديد (الذي قد يكون هو نفسه القديم) بعينيه المتوسلتين المثيرتين للشفقة!

عرفت السيدة كرو الآن تمام المعرفة أن البيت سيكون خاليًا بلا پوليانا، ولكنه سيكون أسوأ دون الفتى جايمي. ولم تكن هذه المعرفة مرضية لكبريائها، بل كانت عذابًا لقلبها فقد قال الصبي مرتين إنه لن يأتي. كان الصراع قويًا لبعض الوقت أثناء الأيام القليلة الباقية من إقامة پوليانا، رغم أن الكبرياء كانت لها اليد العليا دومًا. ثم، فيما عرفت السيدة كرو أنها ستكون زيارة جايمي الأخيرة انتصر قلبها وسألت جايمي مرة أخرى أن يأتي ليكون جايمي قريبها المفقود.

لم تستطع تذكر ما قالته بعدئذ، غير أنها لم تنس قط ما قاله الصبي. فقد أوجزه في ست كلمات قصيرة.

تفحصت عيناه وجهها فيما بدا لحظة طويلة طويلة، ثم أشرق وجهه وهو يقول «أوه، أجل! حسن، إنك تهتمين الآن!».

الفصل الرابع عشر
الغيرة تأكل جيمي

لم ترحب بلدنغزفِل بپوليانا بالرايات والفرقة الموسيقية هذه المرة، ولعل سبب هذا أن ساعة وصولها المنتظر كانت معلومة لقليل من أهل البلدة. غير أن الجميع رحب بها بفرح منذ اللحظة التي ترجلت بها من القطار مع خالتها پولي والطبيب تشلتن. ولم تُضِع پوليانا لحظة بل بدأت في جولة من الزيارات الخاطفة لكل أصدقائها القدامى. بل إنها في الأيام التالية وفقًا لنانسي «لم يكن للمرء أن يضع إصبعًا عليها، فما إن يلمسها حتى تذهب».

وأينما ذهبت پوليانا قوبلت بالسؤال «حسن، هل أحببت بوسطن؟»، ولعلها لم تجب عن هذا السؤال باستفاضة إلا للسيد پندلتن، فكلما سئلت هذا السؤال بدأت جوابها بتقطيبة حيرة دومًا.

«أوه، لقد أعجبتني، بل أحببتها، بعضًا منها».

«ليس كلها؟»، ابتسم السيد پندلتن.

«كلا، فقد كان أجزاء منها... أوه، لقد كنت سعيدة بوجودي هناك»، شرحت على عجل، «لقد قضيت وقتًا رائعًا للغاية، وكان

كثير من الأشياء غريبًا ومختلفًا، كما تعلم، مثل تناول الغداء ليلًا بدلًا من الظهر حين يفترض تناوله[1]. غير أن الجميع كانوا لطيفين معي، ورأيت الكثير من الأشياء الرائعة، بنكر هل والحديقة العامة، وحافلات الجولات في بوسطن، وأميال من اللوحات والتماثيل وواجهات المتاجر والشوارع التي لا نهاية لها. والناس، لم أر ناسًا كثرًا هكذا قط».

«أجل، أنا متأكد... ظننتك تحبين الناس»، عقب الرجل.

«صحيح»، وقطبت پوليانا ثانية وفكرت، «ولكن ما فائدة وجود الكثير منهم إن كنت لا تعرفهم؟ ولم تكن السيدة كرو لتسمح لي، فهي لم تعرفهم. وقالت إن الناس هناك لا يعرفونها».

صمتت پوليانا قليلًا ثم تابعت متنهدة «أحسب أن هذا الجزء الذي لم أحبه، أعني أن لا يعرف الناس بعضهم بعضًا. ولو أنهم فعلوا لكان الأمر أجمل بكثير! تخيل يا سيد پندلتن فحسب أن كثيرًا من الناس يعيشون في شوارع ضيقة قذرة، وليس عندهم كرات السمك والفاصولياء ليأكلوها، ولا عندهم شيء جيد بقدر صناديق المعونة ليحصلوا على ثيابهم. ثم إن لديك ناسًا آخرين؛ السيدة كرو -والكثير من أمثالها- يعيشون في بيوت جميلة للغاية، ولديهم طعام ولباس أكثر مما يعرفون ما يفعلون به. ولو عرف هؤلاء الناسَ الآخرين...»، لكن السيد پندلتن قاطعها ضاحكًا.

---

(١) اعتادت الفتاة تناول الوجبة الرئيسة في وقت الظهر لذا فهو الغداء عندها، أما في بوسطن فالوجبة الرئيسة هي العشاء!

«هل خطر لك يا صغيرتي العزيزة أن هؤلاء الناس لا يهتمون بمعرفة بعضهم بعضًا؟»، سألها ممتحنًا.

«أوه، ولكن بعضهم يهتمون»، واصلت پوليانا بدفاع حماسي، «فلديك سادي دين؛ إنها تبيع الشرائط، شرائط جميلة، في متجر كبير، وتريد أن تعرف الناس فعرفتها على السيدة كرو، ودعوناها إلى البيت، ودعونا جايمي وآخرين كثرًا، وكانت سعيدة للغاية بمعرفتهم! وهذا ما جعلني أفكر أنه لو عرف كثير من أمثال السيدة كرو الآخرين... لكني لم أستطع تعريفهم ببعض، إذ إنني لا أعرف كثيرًا منهم. ولكن إذا عرفوا بعضهم بعضًا، فيعطي الأثرياء قسمًا من مالهم للفقراء...».

لكن السيد پندلتن قاطعها ثانية ضاحكًا.

«أوه يا پوليانا، يا پوليانا»، ضحك، «أخشى أنك في مأزق عظيم، وستصبحين اشتراكية شرسة صغيرة قبل أن تدركي ذلك».

«أصبح ماذا؟»، سألت الفتاة الصغيرة بارتياب، «أوه، لا أظنني أعرف معنى اشتراكية، ولكني أعلم معنى المشاركة، وأحب الناس الذين يفعلون ذلك. إن كانت تعني شيئًا كهذا، فلست أمانع أن أكون اشتراكية البتة، بل أحب أن أكون كذلك».

ابتسم الرجل «لا شك عندي في هذا يا پوليانا. ولكن حين يتعلق الأمر بخطتك لتوزيع كلي للثروات، فإنك ستواجهين مشكلة عويصة يصعب حلها».

زفرت پوليانا زفرة طويلة وهزت رأسها «أعلم. هكذا تتحدث

السيدة كرو، وتقول إنني لا أفهم، وإن هذا سـ... سيفقرها وإنه سيكون عشوائيًا ومؤذيًا، و... شيء من هذا القبيل على أية حال»، سكتت الفتاة بغبن، حين أخذ الرجل يضحك. «ولست أفهم على أية حال لماذا يملك بعض الناس الكثير، ولا يملك الآخرون شيئًا، ولا يعجبني ذلك. ولو ملكت الكثير يومًا لأعطيت بعضه لناس لا يملكون شيئًا، وإن جعلني ذلك فقيرة وسيئة، و...» لكن السيد بندلتن ضحك بقوة حتى استسلمت پوليانا، بعد مقاومة دامت لحظة، وضحكت معه.

ثم كررت بعد أن التقطت أنفاسها «حسن إذن، إنني لا أفهم ذلك بتاتًا».

«كلا يا عزيزتي، أخشى أنك لا تفهمين»، وافقها الرجل وقد غدا فجأة وقورًا رقيق العينين، «ولا أحد من بقيتنا في هذا الشأن»، ثم أضاف، «ولكن أخبريني، من جايمي الذي تتحدثين عنه كثيرًا منذ مجيئك؟».

وأخبرته پوليانا.

وتخلت پوليانا عن هيئتها القلقة الحائرة في حديثها عن جايمي، فقد أحبت الحديث عنه. فهذا أمر تفهمه، ولم تواجه فيه مشكلة فهم كلمات كبيرة وقعها مخيف. ثم إن السيد بندلتن كان مهتمًا على وجه الخصوص في هذه الحادثة بأخذ السيدة كرو الصبي إلى بيتها، ومن أفضل منه يفهم الحاجة إلى وجود الطفل؟

تحدثت پوليانا عن جايمي للجميع في هذا الأمر، فقد ظنت

الجميع مهتمين بقدرها. ولم يخب أملها في الاهتمام الذي يبدونه غالبًا، غير أنها فوجئت بالخيبة يومًا، وكان ذلك من جيمي بندلتن

«أصغي إلي»، قال ذات عصرية بحنق، «ألم يكن في بوسطن أحد آخر سوى جايمي الخالد هذا؟».

«ويحك يا جيمي بِين، ماذا تعني؟»، قالت بوليانا.

«أنا لست جيمي بِين، بل جيمي بندلتن. وأعني أنني أرى من حديثك أن بوسطن لم يكن فيها أحد سوى ذلك الصبي المخبول الذي يسمي الطيور والسناجب بـ«الليدي لانسلوت»، وكل ذلك الهراء».

«عجبًا لك يا جيمي بِيـ... بندلتن!»، شهقت بوليانا، ثم قالت بشيء من الحماس «جايمي ليس مخبولًا! إنه فتى لطيف للغاية، وهو يعرف الكثير من القصص والكتب! بل إنه يبتكر قصصًا من رأسه! ثم إنه ليس «الليدي لانسلوت»، بل «السير لانسلوت». لو عرفت نصف ما يعرفه لعرفت هذا أيضًا!»، ختمت قولها بعينين براقتين.

احمر وجه جيمي بندلتن للغاية وبدا بائسًا تمامًا. وازداد غيرة لحظة بعد أخرى، ولكنه لم يستسلم.

«حسن، أيًا يكن»، تهكم، «لست أحب اسمه جايمي! أف! يبدو متأنثًا! وأعرف أحدًا قال هذا أيضًا».

«من هو؟».

ما من جواب.

«من هو؟»، سألت پوليانا بمزيد من الحسم.

«أبي»، كان صوت الصبي كئيبًا.

«أبوك؟»، كررت پوليانا في دهشة، «عجبًا، وهل عرف جايمي؟».

«كلا، ليس الأمر عن جايمي، بل عني»، لم يزل الصبي يتكلم بحزن وقد أشاح بنظره. ولكن في صوته لينًا غريبًا لوحظ دومًا كلما تحدث عن أبيه.

«عنك؟!».

«أجل. كان هذا قبل موته بوقت قصير. لقد أقمنا أسبوعًا لدى مزارع، وساعده أبي في تعبئة التبن، وفعلت أنا أيضًا قليلًا. كانت زوجة الفلاح طيبة للغاية معي، وسرعان ما أخذت تناديني «جايمي»، ولست أدري لماذا لكنها فعلت. فسمعها أبي يومًا، واستشاط غضبًا، غضبًا شديدًا وما زلت أذكر ما قاله. فقد قال إن جايمي ليس اسمًا لصبي، ولا ينبغي أن يدعى به ابن له، وقال إنه اسم متأنث وكرهه. لم أره يومًا غاضبًا بقدر تلك الليلة. بل إنه لم يبق لإنهاء العمل، ورحلنا أنا وهو تلك الليلة. لقد شعرت بشيء من الأسى لأني أحببت زوجة الفلاح، إذ كانت عطوفة علي».

هزت پوليانا رأسها اهتمامًا وشفقة. لم يتحدث جيمي كثيرًا عن حياته الماضية الغامضة، أي قبل معرفتها به.

«وماذا حدث بعدئذ؟»، ألحت پوليانا وقد نسيت للحظة موضوع الخلاف الأصلي؛ اسم جايمي الذي دعي بالمتأنث.

تنهد الصبي.

«ظللنا نسير حتى عثرنا على مكان آخر، ومات أبي هناك. ثم وضعوني في الملجأ».

«وهربت ووجدتك ذلك اليوم قرب منزل السيدة سنو»، فرحت پوليانا بهدوء «وعرفتك منذئذ».

«أوه أجل، وعرفتني منذئذ»، كرر جيمي بصوت مختلف كليًا، فقد عاد جيمي إلى الحاضر وإلى حزنه «لكني لست جايمي كما تعرفين»، ختم قوله بتأكيد متهكم وهو يرحل بتعالٍ تاركًا پوليانا الحائرة الغاضبة خلفه.

«حسن، على أية حال يمكنني أن أسر لأنه لا يتصرف على هذا النحو دومًا»، تنهدت الفتاة الصغيرة، وهي تراقب حزينة الفتى الطائش الحازم يتبختر تبخترًا بغيضًا عجيبًا.

الفصل الخامس عشر

الخالة پولي تشعر بالخوف

مضى على عودة پوليانا أسبوع حين وصلت رسالة من ديلا وذربي إلى السيدة تشلتن، فكتبت:

ليتني أستطيع أن أريك ما فعلته ابنة أختك الصغيرة لأختي، ولكني لا أستطيع. عليك أن تعرفي ما كانت عليه قبلًا. صحيح أنك رأيتها، ولعلك رأيت شيئًا من العتمة والصمت اللذين لفت نفسها فيهما لسنوات عديدة. غير أنك لن تعرفي شيئًا من وجع قلبها وفقدانها للهدف والرغبة وإصرارها على الحزن الدائم.

ثم جاءت پوليانا. لعلي لم أخبرك، لكن أختي ندمت على وعدها باستقبال الطفلة، في اللحظة نفسها التي قطعته فيها، ثم وضعت شرطًا صارمًا بأن تعود پوليانا إلي في اللحظة التي تبدأ فيها بالوعظ. لكنها لم تعظ، هذا ما تقوله أختي على الأقل، وأختي تعرف أفضل. ودعيني أخبرك فحسب بما وجدت حين ذهبت لرؤيتها البارحة. فلا شيء آخر سيمنحك تصورًا أفضل عما فعلته پوليانا الرائعة.

دعيني أبدأ بقولي إنني رأيت وأنا أقترب من البيت أن كل الستائر مرفوعة، وقد كانت مسدلة حتى أسكفّة النافذة دومًا. وما إن وطئت الردهة حتى سمعت موسيقى، البارسيفال[1]، وكانت غرف الجلوس مفتوحة والهواء يضوع بشذى الزهور.

«السيدة كرو والسيد جايمي في غرفة الموسيقي»، قالت الخادمة. ووجدتهما هناك؛ أختي والفتى الذي تعهدته، يستمعان إلى واحد من الأجهزة الحديثة التي يمكنها احتواء فرقة أوبرا كاملة، ومعها الأوركسترا.

كان الصبي على كرسي متحرك، شاحبًا لكنه سعيد سعادة مبهجة. وبدت أختي أصغر بعشر سنوات، وأظهرت وجنتاها الشاحبتان في العادة توردًا خفيفًا، ولمعت عيناها وبرقتا. وبعد ذلك بقليل بعد أن تحدثت مع الفتى لبضع دقائق، صعدنا أنا وأختي إلى غرفتها في الطابق العلوي، وتحدثت إلي عن جايمي. لم تتحدث عن جايمي القديم، كما اعتادت بعينين مغرورقتين دمعًا وتنهيدات يائسة، بل عن جايمي الجديد، ودون دموع أو تنهيدات. بل عوضًا عنهما رأيت اللهفة والحماس والاهتمام.

قالت «إنه رائع يا ديلا. يبدو أن أفضل ما في الموسيقى والفن والأدب يجذبه على نحو مدهش للغاية، غير أنه يحتاج إلى تطوير وتدريب طبعًا، وهذا ما سأحرص على أن يناله. سيأتي

---

(١) أوبرا من ثلاثة فصول لفاغنر، قدمت أول مرة في بايرويت عام ١٨٨٢، وضع نصها المأخوذ عن فولفرام فون إيشنباخ، المؤلف نفسه. (معجم الأوبرا، محمد حنانا، الطبعة الأولى، ٢٠١٨، المدى، ص٤٤٢).

مدرس خاص غدًا. صحيح أن لغته سيئة بعض الشيء، غير أنه في الوقت نفسه قرأ عديدًا من الكتب الجيدة ومفرداته مدهشة، وعليك الاستماع إلى القصص التي يبتكرها! وهو في التعليم العام ضعيف طبعًا، غير أنه راغب في التعلم، وهذا سيسوى قريبًا. إنه يحب الموسيقى، وسأمنحه التمرين الذي يحتاجه. لقد وضعت عددًا من الأسطوانات المنتقاة بعناية. ليتك رأيت وجهه حين سمع موسيقى الكأس المقدسة أول مرة. إنه يعرف كل شيء عن الملك آرثر وطاولته المستديرة، ويهذر بالفرسان والسيدات والسادة كما نفعل أنا وأنت عن أفراد عائلتنا، غير أنني لا أعرف أحيانًا إن كان يعني بالسير لانسلوت الفارس القديم أم السنجاب في الحديقة العامة. وأرى أن بوسعه المشي ثانية يا ديلا، سأعمل على أن يراه الطبيب إيمز على أية حال و...».

وتحدثت وتحدثت وأنا جالسة مذهولة معقودة اللسان ولكني سعيدة للغاية! إنني أخبرك بكل هذا يا عزيزتي السيدة تشلتن حتى تري بنفسك كم غدت مهتمة، وكم تراقب نمو الصبي وتطوره بلهفة، وكم غيّر هذا موقفها من الحياة، رغمًا عنها. إذ لا يمكنها فعل كل ما تفعله للفتى جايمي دون أن تتغير هي نفسها في الوقت نفسه. وأظنها لن تعود تلك المرأة الضجرة النكدة التي كانتها قبلًا، والفضل كله لپوليانا.

پوليانا! الطفلة العزيزة، وأفضل جزء من الأمر أنها غير مدركة لذلك. لا أظن أن أختي تدرك تمامًا ما يحدث في قلبها

وحياتها، كما أن پوليانا لا تدرك البتة الدور الذي مارسته في التغيير.

والآن، كيف لي أن أشكرك يا عزيزتي السيدة تشلتن؟ أعلم أني لا أستطيع، لذا فلن أحاول. غير أني أعلم أنك تعرفين في قلبك مدى امتناني لك ولپوليانا.

ديلا وذربي

«يبدو أن پوليانا كانت دواء»، ابتسم الطبيب تشلتن بعد أن فرغت زوجته من قراءة الرسالة له.

وقد دهش لرؤيتها ترفع يدًا سريعة معترضة.

«لا تفعل يا توماس أرجوك!»، توسلت إليه.

«عجبًا يا پولي، ما خطبك؟ ألست سعيدة أن الدواء ناجع؟».

تراجعت السيدة تشلتن في كرسيها بيأس.

«ها أنت تقولها مرة أخرى يا توماس»، تنهدت، «من المؤكد أنني سعيدة أن تلك المرأة التائهة قد نبذت أخطاءها ووجدت أنها يمكن أن تكون ذات جدوى لأحد ما. كما أنني سعيدة أن پوليانا فعلت ذلك طبعًا. ولكن ما لا يسعدني أن توصف تلك الطفلة دومًا كأنها زجاجة دواء، أو علاج. ألا ترى؟».

«كلام فارغ! فما ضر ذلك؟ لقد سميت پوليانا شرابًا مقويًا مرتين منذ أن عرفتها».

«ما ضر؟! هذه الطفلة تكبر كل يوم يا توماس تشلتن، هل تود

إفسادها؟ إنها لا تدرك حتى الآن قواها الخارقة، وهنا يكمن سر نجاحها. وفي اللحظة التي ستعزم فيها واعية على إصلاح امرئ ما، فإنك تعرف كما أعرف أنها ستغدو صعبة للغاية. ثم إن السماء تحرّم أن يُغرس في عقلها أنها ليست إلا دواءً شافيًا لكل البشر المرضى والمتألمين والفقراء».

«كلام فارغ! لن أقلق من هذا»، ضحك الطبيب.

«لكني أقلق يا توماس».

«فكري فيما فعلته يا پولي»، جادلها الطبيب، «تذكري السيدة سنو والسيد پندلتن، والكثير غيرهما. إنهم ليسوا كما كانوا من قبل مطلقًا، مثل السيدة كرو. وپوليانا فعلت هذا، بورك قلبها!».

«أعلم أنها فعلت»، هزت السيدة پولي تشلتن رأسها مؤكدة، «لكني لا أود أن تعلم پوليانا أنها فعلته! إنها تعرف طبعًا بطريقة ما، فهي تعرف أنها علمتهم أن يلعبوا لعبة السعادة معها، وأنهم صاروا أسعد بكثير. ولا بأس بهذا، فهذه لعبة؛ لعبتها، وهم يلعبونها سويًا. وعلي الاعتراف أمامك أن پوليانا قد وعظتنا بأقوى موعظة سمعتها، ولكنها ما إن تعرف بذلك... حسن، لا أريدها أن تعرف، هذا كل ما في الأمر. والآن دعني أخبرك أنني قررت الذهاب إلى ألمانيا هذا الخريف. ظننت بادئ الأمر أنني لن أفعل، فلم أرغب بترك پوليانا، ولن أتركها الآن، بل سآخذها معي».

«نأخذها معنا؟ جيد! ولم لا؟».

«علي ذلك، وهذا نهائي. كما أن أود أن أخطط للبقاء لبضع

سنوات، كما قلت إنك تنوي. أريد أن أبعد پوليانا، بعيدًا عن بلدنغزڤِل لوهلة. أود أن أبقيها عذبة وغير مدللة إن استطعت. ولا تضع أفكارًا سخيفة في رأسها إن استطعت إلى ذلك سبيلًا. عجبًا لك يا توماس تشلتن، أنريد لهذه الطفلة أن تصبح صغيرة صلفة لا تطاق؟».

«لا نريد قطعًا»، ضحك الطبيب، «ولكن من أجل هذا لا أظن شيئًا أو أحدًا يمكنه جعلها كذلك. غير أن فكرة ألمانيا هذه تعجبني للغاية. تعلمين أنني لم أرغب بالعودة لولا پوليانا. لذا كلما أسرعنا بالعودة كنت أسعد. كما أنني أود البقاء للممارسة قليلًا إلى جانب الدراسة».

«فقد قضي الأمر إذن»، تنفست الخالة پولي الصعداء.

الفصل السادس عشر

بانتظار پوليانا

اهتزت بلدنغزڤِل بأسرها حماسًا. فلم يحدث أن ضجت سياج الفناءات الخلفية، وكل ناصية وشارع بالأحاديث منذ عادت پوليانا من المصح، تمشي. كانت پوليانا اليوم أيضًا محط الاهتمام، فهاهي تعود للديار ثانية، ولكن يا لها من پوليانا مختلفة، ويا لها من عودة مختلفة!

بلغت پوليانا العشرين من عمرها، وقد قضت ستة أشتية في ألمانيا، وأما فصول الصيف فقد سافرت فيها للاستجمام مع الطبيب تشلتن وزوجته. ولم تزر بلدنغزڤِل أثناء ذلك إلا مرة واحدة، وكانت عندئذ زيارة قصيرة لأربعة أسابيع في الصيف الذي بلغت فيه السادسة عشرة. غير أن الأخبار تقول إنها عائدة الآن لتبقى هي وخالتها پولي.

لن يعود معهما الطبيب، فقد فجعت البلدة قبل ستة أشهر بنبأ موت الطبيب فجأة وحزنت عليه. وتوقعت بلدنغزڤِل يومئذ أن تعود السيدة تشلتن وپوليانا في الحال، لكنهما لم تعودا. بل وصلت أخبار تقول إن الأرملة وابنة أختها سيبقيان في الخارج

لبعض الوقت. وقالت الأخبار إن السيدة تشلتن بحثت عن العزاء والسلوان من حزنها الكبير في محيط جديد تمامًا.

ثم سرعان ما انتشرت أقاويل غامضة وأخرى واضحة بأن الأمور لم تجر جريًا حسنًا مع السيدة تشلتن ماليًا. فقد تذبذبت قيمة أسهم السكك الحديد، التي عرف الاستثمار الكبير لعائلة هارنغتن فيها، ثم آلت إلى خسارة وكارثة. ووفقًا للأنباء فإن الاستثمارات الأخرى كانت في حال متقلقلة. ولا يمكن توقع الكثير من أملاك الطبيب، إذ لم يكن رجلًا ثريًا، وكانت مصاريفه كثيرة في السنوات الست الأخيرة. ولم تفاجأ بلدنغزفِل حين جاءت أنباء عودة السيدة تشلتن وپوليانا بعد ستة أشهر من موت الطبيب.

فتحت النوافذ والأبواب على مصاريعها في عزبة هارنغتن مرة أخرى بعد أن ظلت مغلقة وصامتة لوقت طويل. ومرة أخرى كنست نانسي، التي صارت السيدة تموثي دورغن، وفركت ونفضت الغبار حتى بات البيت القديم لامعًا نظيفًا.

«كلا، لم تصلني تعليمات بفعل ذلك حقًا»، شرحت نانسي للأصدقاء والجيران الفضوليين الذين توقفوا عند البوابة، أو كانوا أكثر جرأة وجاؤوا إلى المدخل، «المفتاح لدى الأم دورغن طبعًا، وكانت تأتي بانتظام لتهوية البيت وتتأكد أن كل شيء على ما يرام؛ وقد كتبت السيدة تشلتن قائلة إنها والآنسة پوليانا ستعودان الجمعة من هذا الأسبوع، وأن نتأكد من تهوية الملاءات والغرف وأن نترك المفتاح تحت ممسحة الأقدام عند الباب الأمامي ذلك اليوم.

تحت ممسحة الباب، حقًا! كأني سأترك المسكينتين تدخلان هذا البيت وحيدتين، وهما بائستان هكذا، وأنا أسكن على مبعدة ميل فحسب، وأجلس في ردهتي كأني سيدة راقية قاسية القلب! كأن المسكينتين ليس عندهما ما يكفي، وهما تعودان إلى هذا البيت والطبيب رحل -بورك قلبه الرحيم!- ولن يعود ثانية. ولا مال عندهما أيضًا. هل سمعت بهذا؟ أليس مشينًا؟! فكر بالآنسة پولي، أعني السيدة تشلتن وقد صارت فقيرة! يا للهول لا أستطيع تصور ذلك لا أستطيع!».

لعل نانسي لم تتحدث بهذا الاهتمام إلى أحد كما فعلت مع شاب طويل حسن الطلعة له عينان جريئتان وابتسامة آسرة، خبّ إلى الباب الجانبي على جواد أصيل نشط عند الساعة العاشرة من صباح الخميس. غير أنها في الآن نفسه لم تتحدث مع أحد بكثير من الحرج الواضح كلما تطلب الأمر تسمية المخاطب، فقد تلعثم لسانها وخلط بين «السيد جيمي، إه... السيد بِن... أعني السيد پندلتن، السيد جيمي!» بعجلة وتوتر جعلت الشاب نفسه يضحك ضحكة رنانة مرحة.

«لا عليك يا نانسي! قولي أيها أقرب إليك!»، ضحك، «لقد عرفت ما وددت معرفته، فوصول السيدة تشلتن وابنة أختها متوقع غدًا».

«أجل يا سيدي، هذا صحيح»، انحنت نانسي، «يا لها من خسارة! أعني أنني سعيدة بقدومهما كما تعرف، لكنني أعني الحال التي عادتا بها».

«أجل، أعرف. فهمتك»، هز الشاب رأسه بحزن، وعيناه ترمقان البيت الجميل القديم أمامه. «حسن، أحسب أن هذا الجزء لا يمكن تفاديه. لكني سعيد بقيامك... بما تفعلين فحسب. فهذا سيساعد كثيرًا»، ختم قوله بابتسامة مشرقة وهو يدور ويمضي بسرعة في المدخل المسقوف.

هزت نانسي رأسها بتفكر وهي على العتبة «لست متفاجئة يا سيد جيمي»، قالت بصوت عالٍ بعينين معجبتين تتبعان كل من الحصان والرجل الأنيقين، «لست متفاجئة أنك لن تجعل العشب ينمو تحت قدميك دون أن تسأل عن الآنسة بوليانا. فقد قلت منذ زمن بعيد إنه هذا سيحدث، وهذا لأنك... ها قد أصبحت طويلًا ووسيمًا جدًا. وأتمنى أن يحدث، حقًا. سيبدو الأمر مثل كتاب، فقد عثرت عليك وجعلتك تسكن البيت الكبير مع السيد بندلتن. يا إلهي، ومن يحسبك الآن جيمي بين الصغير ذاك الذي كنته يومًا؟! لم أر أحدًا تغير تغيرًا كهذا، لم أفعل حقًا!»، قال وهي تلقي نظرة أخيرة على الشاب الذي اختفى سريعًا في الطريق.

لا بد أن فكرة مماثلة طرأت لجون بندلتن في وقت لاحق من ذلك الصباح، فقد راقب، من شرفة بيته الرمادي الكبير الواقع على تلة بندلتن، الاقتراب السريع للحصان والراكب نفسيهما، وفي عينيه نظرة تشبه كثيرًا نظرة السيدة نانسي دورغن. وعبر عن إعجابه أيضًا «يا للروعة! يا له من ثنائي أنيق!»، لما انطلق الاثنان كالسهم إلى الإسطبل.

لف الشاب بعد خمس دقائق حول ناصية البيت وصعد عتبات الشرفة ببطء.

«حسن يا ولدي، هل الخبر صحيح؟ هل هما آتيتان؟»، سأل الرجل بلهفة جلية.

«أجل».

«متى؟».

«غدًا»، ألقى الشاب بنفسه على كرسي.

قطب جون پندلتن لدى سماع الإجابة المقتضبة الواضحة، فنظر إلى وجه الشاب نظرة سريعة. وتردد للحظة ثم قال بغتة «عجبًا يا بني، ما خطبك؟».

«خطبي؟ لا شيء يا سيدي».

«كلام فارغ! أنا واثق. لقد غادرت قبل ساعة شديد اللهفة للحد الذي لن يعيقك فيه حصان جامح. لكنك تجلس الآن محدودبًا في ذلك الكرسي وتبدو كأن الحصان الجامح جرى بك بطيئًا. لولا أني أعلم لقلت إنك لست سعيدًا لعودة صديقتينا».

ثم صمت منتظرًا إجابة، لكنه لم يتلقها.

«ويحك يا جيم، ألست سعيدًا بعودتها؟».

ضحك الشاب وتململ بضيق.

«بلى طبعًا».

«أف! إنك تتصرف كأنك لست سعيدًا».

ضحك الشاب ثانية، وقد احمر وجهه احمرارًا صبيانيًا.

«حسن، لقد كنت أفكر في پوليانا فحسب».

«پوليانا؟! يا إلهي! لكنك لم تفعل شيئًا سوى التفكير بپوليانا منذ عودتك من بوسطن ومعرفتك بقدومها. ظننتك تتحرق شوقًا لرؤية پوليانا».

مال الشاب إلى الأمام بعزم غريب.

«هذا هو الأمر تمامًا! ألا ترى؟ لقد قلت قبل قليل، إنني البارحة لم يكن الحصان الجامح ليمنعني من رؤية پوليانا، واليوم حين علمت أنها قادمة لم يكن بوسعه أخذي لرؤيتها».

«واه لك يا جيم!».

اعتدل الشاب في كرسيه بضحكة حرج بعد رؤيته الشك والذهول على وجه جون پندلتن.

«أجل أعلم أن الأمر يبدو غريبًا، ولا أظنني أستطيع الشرح لك. غير أنني لم أرد يومًا أن تكبر پوليانا، فقد كانت محبوبة بالهيئة التي كانت عليها. أحب تذكرها كما رأيتها آخر مرة؛ بوجهها الجاد المنمش وضفيرتيها الشقراوين وعبارتها الدامعة «أوه، أجل. إنني سعيدة لذهابي، لكني أظنني سأكون أسعد عندما أعود». هذه آخر مرة رأيتها فيها. وأنت تذكر أننا كنا في مصر حين جاءت هنا قبل أربع سنوات».

«أعرف، إنني أفهم تمامًا ما تعنيه أيضًا. أظنني راودني الشعور نفسه، حتى رأيتها الشتاء الماضي في روما».

فالتفت الآخر متلهفًا.

«أجل صحيح! لقد رأيتها، فأخبرني عنها».

لمعت عينا جون پندلتن لمعان ذكاء.

«أوه، ولكني ظننتك لا تريد أن تعرف پوليانا الشابة».

تجاهل الشاب هذا وابتسم. «أهي جميلة؟».

«أوه، ويلي منكم أيها الشباب!»، رفع جون پندلتن كتفيه في يأس ساخر، «أول سؤال عندكم دومًا: أهي جميلة؟».

«حسن، أهي كذلك؟»، ألح الشاب.

«سأدعك تحكم بنفسك. إن كنت... بعد إعادة التفكير أظنني لن أفعل، فقد يخيب رجاؤك كثيرًا. ليست پوليانا جميلة، بل ملامحها عادية ولها عقص وغمازتان. وعلى حد علمي فإن أعظم المشكلات في حياة پوليانا حتى الآن هي إيمانها بأنها ليست جميلة. لقد أخبرتني منذ زمن بعيد أن الشعر الأسود أحد الأشياء التي ستحصل عليها عندما تدخل الجنة، وقالت شيئًا آخر الشتاء الماضي في روما. لم يكن بالشيء الكثير بحسب كلماتها، لكني أحسست باللهفة خلفها. قالت إنها تتمنى أحيانًا أن يكتب أحدهم رواية عن بطلة لها شعر سبط ونمش على أنفها، ولكنها تظن أن عليها أن تسعد لأن الفتيات في الكتب لا يملكنها».

«تبدو مثل پوليانا القديمة».

«أوه أجل، ما زلت ستجدها پوليانا»، ابتسم الرجل مداعبًا، «ثم إنني أراها جميلة. إن عينيها جميلتان، وهي صورة للعافية. إنها تتحرك بكل مرح الشباب، ويشرق وجهها كله إشراقًا رائعًا عندما تحدثك فتنسى إن كانت ملامحها عادية أم لا».

«أما زالت تلعب اللعبة؟».

ابتسم جون پندلتن بولع.

«أحسب أنها تلعبها، لكنها لا تتحدث عنها كثيرًا كما أظن. لم تتحدث إلي عنها على أية حال في المرتين أو الثلاث التي رأيتها فيها».

خيم صمت قصير، ثم قال پندلتن الشاب بشيء من البطء «أظن هذا أحد الأمور التي تقلقني، فقد عنت تلك اللعبة كثيرًا لعديد من الناس. بل إنها عنت كثيرًا في كل مكان في البلدة بأسرها! لا أطيق تخيل پوليانا تتخلى عنها ولا تلعبها. إلا أنني في الوقت نفسه لا أتصور پوليانا الشابة تعظ الناس دومًا أن يسعدوا بشيء ما. فأنا بشكل ما... كما قلت، لست... لا أريد لپوليانا أن تكبر».

«لن أقلق لهذا»، رفع الرجل الأكبر كتفيه بابتسامة مميزة، «فقد كان الأمر مع پوليانا دومًا مثل «العصفة»[1]، حرفيًا ومجازيًا، وأظنك ستجدها تعيش على المبدأ نفسه وإن لم يكن بالطريقة نفسها تمامًا. يا

---

(١) ريح شديدة مصحوبة عادة بمطر أو ثلج.

للطفلة المسكينة! أخشى أنها بحاجة إلى لعبة ما لتجعل الحياة محتملة لوهلة على الأقل».

«ألأن السيدة تشلتن خسرت أموالها؟ أهما فقيرتان إذن؟».

«أظنهما كذلك. بل إنهما في حال سيئة في الحقيقة حتى تتحسن الأمور المالية كما عرفت. لقد تقلصت ثروة السيدة تشلتن لحد لا يصدق، وأملاك توم المسكين صغيرة جدًا ومثقلة بالديون، وقد قدم خدمات مهنية لم يتلق أجرًا عليها ولن يفعل. لم يستطع توم رفض تقديم المساعدة لمن يحتاجها، وكل المدينين في البلدة يعرفون ذلك واستغلوه. لقد كانت نفقاته كثيرة في الآونة الأخيرة، ثم إنه توقع أنه سيجني الكثير بعد أن ينهي عمله الخاص في ألمانيا. ولا بد أنه حسب أن زوجته وپوليانا مكتفيتان بفضل عزبة هارنغتن، فلم يساوره القلق من هذه الجهة».

«امم، فهمت. سيء جدًا، سيء جدًا».

«لكن هذا ليس كل شيء. لقد رأيت السيدة تشلتن وپوليانا في روما بعد شهرين من موت توم، وكانت السيدة تشلتن في حال سيئة عندئذ. فإلى جانب حزنها بدأت تتلقى أنباء عن مشاكل مالية، فكانت مضطربة. ورفضت العودة، وقالت إنها لا تود رؤية بلدنغزڤِل ثانية أو أي أحد فيها. لقد كانت دومًا امرأة أبية إباء واضحًا، وقد أثر فيها هذا كله بطريقة غريبة. قالت پوليانا إن خالتها بدت مسكونة بفكرة أن أهل بلدنغزڤِل لم يستحسنوا زواجها بالطبيب تشلتن وهي بهذا العمر في المقام الأول، وبعد أن

مات شعرت أنهم لن يبدوا أي تعاطف مع حزنها. كما كرهت كثيرًا معرفتهم أنها فقيرة وأرملة. باختصار لقد أغرقت نفسها في حالة سقيمة تعسة، مغالى فيها وفظيعة. يا لپوليانا الصغيرة المسكينة! لقد أبهرني احتمالها لذلك. أعني إن ظلت السيدة تشلتن على هذه الحال، وستظل عليه فإن الصغيرة ستنهار. ولهذا قلت إن پوليانا بحاجة إلى لعبة ما أكثر من أي أحد آخر».

«يا للأسى! أوَ يحدث هذا لپوليانا؟!»، قال الشاب بصوت متهدج قليلًا.

«أجل، وها أنت ترى أن الأمور ليست على ما يرام وها هما تعودان بهدوء، دون قول كلمة لأي أحد. أؤكد أن هذا صنيع پولي تشلتن. فهي لا تريد لقاء أحد، وأفهم أنها لم تكتب لأحد إلا لزوجة توم العجوز، السيدة دورغن، التي تحتفظ بالمفاتيح».

«أجل، هذا ما قالته لي نانسي، يا لها من طيبة! لقد فتحت كل البيت وجهدت لتجعله لا يبدو قبرًا للآمال الميتة والسعادة الضائعة. تبدو الأرض بحال جيدة، فقد اعتنى بها توم العجوز جيدًا. لكن هذا يؤلم قلبي، كل الأمر».

ساد صمت طويل ثم اقترح جون پندلتن باقتضاب.

«لا بد من استقبالهما».

«سيحدث».

«أأنت ذاهب إلى المحطة؟».

«أجل».

«أنت تعرف قطارهما إذن».

«أوه، كلا، ولا نانسي تعرف».

«فكيف سنستقبلهما؟».

«سأذهب في الصباح وأتفقد كل قطار حتى تصلا»، ضحك الشاب بقليل من الكدر، «سيذهب تموثي بعربة العائلة أيضًا. ليست القطارات التي يمكنهما المجيء بها كثيرة على أية حال، كما تعلم».

«امم، أعرف»، قال جون بندلتن، «إنني أُكبر حماسك يا جيم ولكن رأيك لا يعجبني. يسعدني أن تتبع حماسك لا رأيك، وأرجو لك حظًا طيبًا».

«شكرًا لك يا سيدي»، ابتسم الشاب ابتسامة كئيبة، «إنني بحاجة لأمنياتك الطيبة، حسن، حسن، كما تقول نانسي».

الفصل السابع عشر
وصول پوليانا

راقبت پوليانا خالتها بقلق مع اقتراب القطار من بلدنغزڤِل، فقد ازداد حزن السيدة تشلتن وكآبتها طوال النهار، وخشيت پوليانا من وقت وصولهما إلى المحطة المألوفة.

انفطر قلب پوليانا وهي تنظر إلى خالتها. فتبادر إلى ذهنها أنها لم تكن لتصدق إمكانية تغير أحد ما وهرمه كثيرًا في ستة أشهر. إذ انطفأ بريق عيني السيدة تشلتن، وامتقعت وجنتاها وتجعدتا، واختطت جبهتها بخطوط الكدر، وتهدلت زاويتا فمها، وشُد شعرها بقوة إلى الخلف ولم يُصفف على الطراز الذي كان لها حين رأتها پوليانا أول مرة قبل سنوات. وقد سقطت عنها مثل عباءة كل العذوبة والنعومة التي تحلت بها في زواجها، مخلفة القسوة والحزن القديمين اللذين كانا من طباعها عندما كانت الآنسة پولي هارنغتن، التي لا تحِب ولا تُحَب.

«پوليانا!»، كان صوت السيدة تشلتن حادًا. التفتت پوليانا شاعرة بالذنب، فقد راودها إحساس سيء أن خالتها قرأت أفكارها.

«نعم يا خالتي».

«أين تلك الحقيبة السوداء الصغيرة؟».

«ها هي».

«حسن، أرجو أن تخرجي لي خماري الأسود، لقد كدنا أن نصل».

«لكنه حار وسميك جدًا يا خالتي!».

«لقد طلبت منك الخمار الأسود يا پوليانا، وأرجو أن تتعلمي القيام بما أطلبه دون جدل، إذ سيكون هذا أسهل كثيرًا علي. أريد ذلك الخمار، أم تظنين أنني سأسمح لكل أهل بلدنغزفِل أن يروا «تقبلي للأمور»؟».

«أوه يا خالتي. لكنهم لن يكونوا هكذا أبدًا»، اعترضت پوليانا، وهي تفتش الحقيبة السوداء على عجل بحثًا عن الخمار المطلوب. «ثم إنه ما من أحد يستقبلنا على أية حال، فنحن لم نخبر أحدًا أننا قادمتان كما تعلمين».

«أجل أعلم، لم نخبر أحد لملاقاتنا. لكننا أعطينا تعليمات للسيدة دورغن لتهوية الغرف وترك المفتاح تحت ممسحة الأقدام اليوم. هل تظنين أن ماري دورغن قد احتفظت بالخبر لنفسها؟ لا أظن! نصف البلدة تعرف أننا عائدتان اليوم، واثنا عشر شخصًا أو أكثر سيكونون في المحطة «صدفة» في وقت وصول القطار. إنني أعرفهم! يريدون أن يروا كيف تبدو المسكينة پولي هارنغتن، إنهم...».

«أوه خالتي، خالتي»، توسلت پوليانا بعيني دامعتين.

«لو لم أكن وحيدة للغاية. لو أن الطبيب هنا»، فتوقفت عن الكلام وأدارت رأسها، ونطق فمها مختلجًا «أين ذلك الخمار؟»، غصت بصوت مبحوح.

«أجل يا عزيزتي، ها هو، إليك»، هدأتها پوليانا التي ليس لها هدف الآن إلا أن تضع الخمار في يد خالتها بسرعة، «وها قد وصلنا. أوه يا خالتي، ليتك أخبرت توم العجوز أو تموثي لملاقاتنا!».

«ونعود للبيت بأبهة كأننا بوسعنا الاحتفاظ بالخيول والعربات؟ كلا، شكرًا لك يا پوليانا. أفضل استخدام الحافلة العامة في مثل هذه الظروف».

«أعلم ولكن...»، توقف القطار بصريف وارتجاج، ولم تنه جملة پوليانا إلا تنهيدة مرتعشة.

حين نزلت المرأتان إلى رصيف المحطة، لم تلتفت السيدة تشلتن في خمارها الأسود يمنة أو يسرة. غير أن پوليانا أومأت وابتسمت دامعة إلى كل الجهات، قبل أن تخطو خطوتين. ثم وجدت نفسها فجأة أمام وجه مألوف وغريب في الآن نفسه.

«عجبًا أليس هذا... هذا جيمي!»، تهلل وجهها وهي تمد يدًا ودودة. «أعني، أظنني يجب أن أقول «السيد پندلتن»»، صححت لنفسها بابتسامة خجولة وقالت بصراحة «لقد كبرت وصرت طويلًا ووسيمًا!».

«أود رؤيتك تحاولين قولها»، تحداها الشاب، وهو يميل ذقنه كعادة جيمي. ثم التفت ليتحدث إلى السيدة تشلتن، غير أن هذه السيدة تقدمتهم مسرعة وقد أشاحت بوجهها.

فالتفت ثانية إلى پوليانا وعيناه قلقتان ومشفقتان «أرجو أن تأتي كلتاكما من هنا، فتموثي ينتظر في العربة»، حثهما متعجلًا.

«أوه، هذا لطف منه»، صاحت پوليانا، بنظرة قلقة إلى المرأة المتجهمة التي ترتدي الخمار أمامهما، وأمسكت بذراع خالتها خائفة «إن تموثي هنا يا خالتي. لقد جاء بالعربة، إنه واقف هناك. وهذا جيمي بِين يا خالتي، أتذكرين جيمي بِين؟!».

لم تلحظ پوليانا لاضطرابها وحرجها أنها قالت الاسم القديم للشاب في صباه. إلا أن السيدة تشلتن لاحظت ذلك بجلاء، فالتفتت بنفور صريح وأمالت رأسها قليلًا.

«أعلم أن هذا لطف من السيد پندلتن، ولكني أخشى أنه وتموثي قد تجشما العناء»، قالت ببرود.

«ما من عناء البتة، أؤكد لك ذلك»، ضحك الشاب محاولًا إخفاء حرجه، «هلا أعطيتماني بطاقات أمتعتكما، فأهتم بجلبها؟».

قالت السيدة تشلتن «شكرًا لك، ولكني واثقة أن بوسعنا...».

لكن پوليانا مدت البطاقات وهي تشكره بارتياح، ومنعت الكبرياء السيدة تشلتن من قول شيء آخر.

كانت الرحلة إلى البيت صامتة. إذ جلس تموثي، الذي جرح

بشدة لاستقبال سيدته السابقة له، في الأمام معتدلًا ومتشنجًا، بشفتين مزمومتين. أما السيدة تشلتن فقد ارتدت إلى الكآبة والتجهم بعد قولها بوهن «حسن حسن يا صغيرة. كما تمنيت، أظننا سنذهب إلى البيت بالعربة اليوم!». وأما پوليانا فلم تكن متجهمة ولا متوترة ولا كئيبة، بل حيت كل مشهد حبيب مروا به بعينين متلهفتين دامعتين.

ولم تتحدث إلا مرة واحدة لتقول «أليس جيمي وسيمًا؟ لقد تغير كثيرًا! أليست عيناه وابتسامته الأجمل؟».

وانتظرت آملة، وما من رد على هذا، فأبهجت نفسها بقول «أظنه كذلك».

كان تموثي حزينًا وخائفًا للغاية فلم يخبر السيدة تشلتن بما ينتظرها في البيت، فالأبواب المفتوحة والغرف المزينة بالزهور، وانحناء نانسي احترامًا في الرواق كانت مفاجأة كاملة للسيدة تشلتن وپوليانا.

«يا إلهي يا نانسي، هذا رائع للغاية!»، صاحت پوليانا وهي تقفز إلى الأرض بخفة، «ها هي نانسي ترحب بنا يا خالتي، وانظري كم جعلت كل شيء يبدو فاتنًا!».

تصنع صوت پوليانا الفرح رغم تهدجه الواضح. فهذه العودة إلى البيت دون الطبيب الغالي الذي أحبته كثيرًا لم تكن هينة عليها، وإن كانت قاسية عليها فقد شعرت بوقعها على خالتها نوعًا ما. كما علمت أيضًا أن الأمر الوحيد الذي تخشاه خالتها هو الانهيار أمام نانسي، الذي لا يفوقه أي شيء سوءًا في نظرها.

وعرفت پوليانا أن العينين تطرفان والشفتين ترتعشان من خلف الخمار السميك. كما عرفت أن خالتها ستنتهز أول فرصة لتسقّط الأخطاء، بغية إخفاء هذه الحقائق، وستجعل غضبها ستارًا تخفي تحته انفطار قلبها. ولذا لم تفاجأ پوليانا أن تسمع كلمات خالتها القليلة الباردة للسلام على نانسي متبوعة بقولها بحدة «كل هذا لطف منك طبعًا يا نانسي، غير أنني أوثر حقًا أنك لم تفعليه».

انسل الفرح كله من وجه نانسي، وبدت مجروحة وخائفة.

«أوه ولكن يا آنسة پولي، أعني يا سيدة تشلتن...»، ناشدتها، «لم أستطع ترككما....».

«حسن، حسن، لا عليك يا نانسي»، قاطعتها السيدة تشلتن، «لست أود الحديث عن الأمر»، وخرجت من المكان ورأسها مرفوع بتعال، ثم سمعوا صوت باب غرفتها ينغلق في الأعلى.

التفتت نانسي مذعورة. «أوه، ما الخطب يا آنسة پوليانا؟ ماذا فعلت؟ ظننتها ستحب ذلك، وكان قصدي حسنًا!».

«طبعًا»، بكت پوليانا وهي تبحث في حقيبتها عن منديلها، «وكان فعلك ذلك رائعًا أيضًا».

«لكنه لم يعجبها».

«بلى، لكنها لا تود إظهار ذلك. لقد خشيت إن فعلت... أمورًا أخرى و... أوه يا نانسي، يا نانسي، إنني سعيدة ببكائي فحسب!»، أخذت پوليانا تنشج على كتف نانسي.

«كفى، كفى يا عزيزتي. ستهدأ، ستهدأ»، هدأتها نانسي وهي تربت على الكتفين المهتزتين بيد، وتحاول بالأخرى جعل طرف مئزرها منديلًا لتمسح دموعها هي.

«يجب ألا أبكي أمامها كما ترين»، تلعثمت پوليانا، «وقد كانت العودة قاسية، فهي المرة الأولى وما إلى ذلك كما تعرفين. وأعرف شعورها».

«طبعًا طبعًا يا صغيرتي»، ترنمت نانسي، «وها هي تظن أن ما فعلته كان لإغضابها، و...».

«أوه، لكنها لم تغضب لذلك»، صححت پوليانا بحماس، «إنها طريقتها فحسب يا نانسي. إنها لا تود إظهار حزنها على الطبيب كما تعرفين. وتخشى من إظهارها له فـ... إنها تتخذ من أي شيء عذرًا لتتحدث عنه. إنها تفعل هذا معي أيضًا، فأعرفه تمامًا، أتفهمين؟».

«أوه، أجل، أجل. أفعل، أفعل»، انطبقت شفتا نانسي بقوة، وصارت تربيتاتها المشفقة محبة أكثر إن أمكن «أوه يا صغيرتي المسكينة، إنني سعيدة لقدومي من أجل خاطرك».

«أجل، وأنا كذلك»، تنهدت پوليانا وهي تبعد نفسها بلطف وتمسح عينيها، «إنني أفضل، وإنني لأشكركِ حقًا على الدوام يا نانسي، وأقدر لك كثيرًا. والآن لن أؤخرك وقد حان موعد ذهابك».

«هو! إنني أفكر بالبقاء لفترة»، نخرت نانسي.

«البقاء؟ ويحك يا نانسي، ظننتك تزوجت، ألست زوجة تموثي؟».

«طبعًا! لكنه لن يمانع من أجل خاطرك، بل أراد مني البقاء من أجلك».

«أوه، ولكننا لن نسمح لك يا نانسي»، ردت پوليانا برزانة، «لا يمكننا إبقاء أحد الآن كما تعلمين. سأقوم أنا بالعمل، حتى نرى مآل الأمور، ويجب أن نعيش بتقتير كما تقول الخالة پولي».

«هو! وكأني سآخذ المال منـ...»، قالت نانسي في غضب كظيم، لكن التعبير على الوجه الآخر أوقفها وجعل كلماتها ترتد إلى تمتمة اعتراض وهي تسرع بالخروج من الغرفة لتراقب طبق الدجاج بالكريمة على الموقد.

لم تسمح السيدة تموثي دورغن لنفسها بالعودة مع زوجها حتى انتهى العشاء ورتب كل شيء، وقد ذهبت عندئذ بنفور واضح وبتوسلات عديدة ليسمح لها بالقدوم للمساعدة قليلًا في أي وقت.

دخلت پوليانا بعد ذهاب نانسي إلى غرفة المعيشة حيث تجلس السيدة تشلتن وحيدة ويدها فوق عينيها.

«حسن يا عزيزتي، هل أشعل الأنوار؟».

«أوه، أظن ذلك».

«أليس لطفًا من نانسي أن ترتب المكان بهذا الجمال؟».

ما من جواب.

«لست أدري من أين جاءت بهذه الزهور بحق السماء، فقد وضعتها في كل غرفة في الأسفل وفي غرفتي النوم أيضًا».

ما من جواب أيضًا.

تنهدت بوليانا تنهيدة شبه مكتومة ونظرت بحزن إلى وجه خالتها الملتفت بعيدًا. ثم قالت ثانية مفعمة بالأمل.

«لقد رأيت العجوز توم في الحديقة. يا له من رجل مسكين، لقد صار الروماتزم أسوأ من ذي قبل، إنه محدودب ضعفين، وقد سأل عنك على وجه الخصوص، و...».

التفتت السيدة تشلتن في مقاطعة حادة.

«ما الذي سنفعله يا بوليانا؟».

«نفعله؟ أفضل ما بوسعنا يا غالية».

أومأت السيدة تشلتن إيماءة نافدة الصبر.

«هيا هيا يا بوليانا، كوني جادة لمرة. سترين الأمر جادًا بسرعة كافية. ما الذي سنفعله؟ إن دخلي يوشك أن يتوقف كما تعلمين. وأظن أن بعض الأملاك تساوي شيئًا، ولكن السيد هارت يقول إننا لن نتلقى منها إيرادًا في الوقت الراهن. لدينا شيء في المصرف وقليل سيودع طبعًا، ولدينا هذا البيت، ولكن ما فائدة هذا البيت؟ لا يمكننا أكله أو ارتداؤه. إنه كبير جدًا علينا، وعلى طريقتنا الجديدة في العيش، ولا يمكننا بيعه بنصف قيمته الحقيقية ما لم نعثر على الشخص الذي يريده حقًا».

«نبيعه؟! أوه يا خالتي، لن تفعلي. إن هذا البيت الجميل مليء بالأشياء الجميلة!».

«قد أضطر يا پوليانا، علينا أن نأكل لسوء الحظ».

«أعلم ذلك، وأنا جائعة جدًا دائمًا»، تذمرت پوليانا بضحكة حزينة، «إلا أنني علي أن أسر بأن قابليتي للطعام جيدة جدًا».

«كالعادة. ستجدين شيئًا تسعدين به طبعًا، ولكن ماذا سنفعل يا صغيرة؟ ليتك تكونين جادة لدقيقة».

طرأ تغير سريع على وجه پوليانا.

«إنني جادة يا خالتي پولي. لقد كنت أفكر، وأتمنى أن أجني بعض المال».

«أوه يا صغيرتي، يا صغيرتي، لقد امتد بي العمر لأسمعك تقولين هذا!»، بكت المرأة «ابنة آل هارنغتن تضطر لكسب قوتها!».

«أوه، لكن الأمر ليس كما يبدو»، ضحكت پوليانا، «عليك أن تسري أن ابنة آل هارنغتن ذكية بما يكفي لكسب قوتها! هذا ليس عارًا يا خالتي پولي».

«لعله ليس كذلك، لكنه ليس ملائمًا لكبريائنا، بعد المكانة التي كانت لنا دومًا في بلدنغزڤِل يا پوليانا».

لا يبدو أن پوليانا سمعت، فقد نظرت عيناها إلى الفراغ بفرح.

«لو كان عندي موهبة ما! ليتني أستطيع فعل شيء ما أفضل من أي أحد آخر في العالم»، تنهدت في نهاية المطاف، «يمكنني الغناء قليلًا والعزف قليلًا، والتطريز والرفو، لكني لا أستطيع فعل أي شيء منها جيدًا فأتلقى أجرًا عليها».

«أظنني أحب الطبخ أكثر!»، استأنفت بعد لحظة صمت، «وتدبير المنزل. تعلمين أنني أحببت ذلك في أشتية ألمانيا حين أزعجتنا غرتشن كثيرًا بعدم حضورها عند حاجتنا إليها. لكنني لا أود الذهاب والعمل في مطابخ الآخرين».

«كأنني سأسمح لك! بوليانا!»، ارتعشت السيدة تشلتن ثانية.

«والعمل في مطبخنا فحسب لا يجلب شيئًا طبعًا»، تذمرت بوليانا، «أعني لن يجلب مالًا، والمال ما نحتاج».

«إنه المال قطعًا»، تنهدت الخالة بولي.

ساد صمت طويل قطعته بوليانا أخيرًا.

«حين أتذكر كل ما فعلته من أجلي يا خالتي، حين أتذكره الآن، أود أن يكون عندي الفرصة للمساعدة! ولكنني لا أستطيع. أوه، لمَ لم أولد بشيء يجلب المال؟».

«كفى، كفى يا صغيرة، لا تفعلي، لا تفعلي! لو أن الطبيب...»، اختنقت الكلمات إلى صمت.

نظرت بوليانا بسرعة ونهضت.

«يا عزيزتي، هذا لن يجدي نفعًا أبدًا يا عزيزتي!»، قالت وقد تغير سلوكها تمامًا، «لا تحزني يا خالتي. أتراهنين أنني سأجيد أروع المواهب، موهبة من مواهب هذه الأيام؟ ثم إنني أظن الأمر مثير، وفيه الكثير من الغموض. ثمة الكثير من المتعة في الرغبة في الأشياء ثم انتظار تحققها. أن يعيش المرء ويعرف أنه سيحصل على كل ما

أراد لهو أمر... مضجر للغاية كما تعلمين»، ختمت قولها بضحكة جذلة قصيرة.

غير أن السيدة تشلتن لم تضحك، بل زفرت وقالت:

«يا إلهي، يا لك من طفلة يا پوليانا!».

الفصل الثامن عشر
مسألة تأقلم

لم تكن الأيام الأولى في بلدنغزفِل سهلة على السيدة تشلتن ولا على پوليانا. فقد كانت أيامًا للتأقلم، ونادرًا ما تكون هذه الأيام هينة.

بعد السفر والإثارة، لم يكن هينًا على المرء التفكير بسعر الزبدة أو الحساب المتأخر للجزار، وبعد أن كان المرء يحظى بوقته كاملًا لنفسه، لم يكن سهلًا الاهتمام بالمهمة التالية التي تنتظر إنجازها. كما أن الأصدقاء والجيران قدموا للزيارة، واستقبلتهم پوليانا بحب وسعادة، لكن السيدة تشلتن كانت تنصرف كلما سنح الوقت وتقول لپوليانا بمرارة دومًا «أحسبه فضولًا، ليروا كيف تبدو پولي هارنغتن في فقرها».

قليلًا ما تحدثت السيدة تشلتن عن الطبيب، لكن پوليانا موقنة أنه لم يغب عن تفكيرها قط، وأن أكثر من نصف تكتمها كان ستارها المعتاد لعواطفها الأكبر التي لم تبال بإظهارها.

رأت پوليانا جيمي پندلتن مرات عديدة في الشهر الأول.

فقد جاء أول مرة مع جون پندلتن في زيارة متحفظة رسمية، ولم تكن كذلك حتى دخلت الخالة پولي الغرفة. لم تطلب الخالة پولي الانصراف في هذه الزيارة. وجاء جيمي بعد ذلك وحده، مرة حاملًا الزهور ومرة حاملًا كتابًا للخالة پولي، دون سبب في المرتين. رحبت به پوليانا بسعادة صريحة دومًا، ولم تره الخالة پولي بعد تلك المرة الأولى.

لم تبح پوليانا لمعظم أصدقائها ومعارفها عن التغير في ظروفها، غير أنها تحدثت مع جيمي بحرية وكانت تردد دومًا «ليتني أستطيع فعل شيء لكسب المال!».

«إنني أغدو أجشع الناس»، ضحكت بحزن، «لقد صرت أقيس كل شيء بورقة الدولار، بل إنني أفكر بالربع والستات العشرة. إن الخالة پولي تشعر أننا فقراء للغاية كما ترى!».

«هذا مؤسف!»، غضب جيمي.

«أعلم ذلك. ولكني أظنها حقيقة تشعر أنها أفقر مما هي عليه، وتفكر بالأمر كثيرًا. غير أني أتمنى أن أساعد!».

نظر جيمي إلى الوجه الحزين المتلهف بعينيه البراقتين، واخضلت عيناه.

«ما الذي تودين فعله، إن استطعت؟»، سأل.

«أوه، أريد الطبخ والاعتناء بالمنزل»، ابتسمت پوليانا بتنهيدة حالمة، «أحب خفق البيض والسكر، وسماع بقبقة الصودا في كوب

من الحليب الحامض. أكون سعيدة لو خبزت اليوم بطوله، ولكن هذا لا يدر المال، إلا إن فعلته في مطبخ أحد آخر طبعًا. ولست أحبه بما يكفي لفعل هذا!».

«كلا، طبعًا!»، قال الشاب.

ونظر مرة أخرى إلى الوجه المعبر القريب منه جدًا، وقد بدت زاويتا فمه غريبتين هذه المرة. فقد أطبق شفتيه ثم تحدث واحمر جبينه ببطء.

«حسن، يمكنك الزواج طبعًا، هل فكرت بهذا يا آنسة پوليانا؟».

ضحكت پوليانا ضحكة مرحة، وكان الصوت والأسلوب بجلاء لفتاة لم يمسها سهم كيوبيد الذي يصل إلى أبعد مدى.

«أوه كلا، لن أتزوج أبدًا»، قالت بابتهاج، «فأنا لست جميلة أولًا، وسأعيش مع خالتي پولي وأعتني بها ثانيًا».

«لست بجميلة، إه؟»، ابتسم پندلتن ممتحنًا، «هل خطر لك يومًا أن ثمة رأيًا مختلفًا في هذا يا پوليانا؟».

هزت پوليانا رأسها نفيًا.

«لا يمكن، فلدي مرآة كما تعرف»، اعترضت بنظرة فرحة.

بدا ذلك غنجًا، وسيكون كذلك لدى أي فتاة أخرى كما رأى پندلتن. ولكنه عرف، بالنظر إلى الوجه أمامه، أنه ليس غنجًا. كما عرف أيضًا، فجأة، لم بدت پوليانا مختلفة جدًا عن أي فتاة أخرى عرفها. إذ لم تزل طريقتها القديمة الحرفية بالنظر إلى الأمور عالقة بها.

«ولم لست جميلة؟»، سأل.

وحتى بعد أن نطق السؤال، ورغم ثقته من تخمينه لشخصية پوليانا، حبس پندلتن نفَسه لوقاحته. ولم يستطع إلا أن يفكر أن أي فتاة أخرى يعرفها ستستاء من هذا القبول الضمني لادعائها بالافتقار للجمال. لكن كلمات پوليانا الأولى بينت له أن خوفه الخفي هذا لا مبرر لها تمامًا.

«حسن، إنني لست كذلك فحسب»، ضحكت بشيء من الحزن «لم أخلق هكذا. لعلك لا تتذكر ولكن حين كنت فتاة صغيرة قبل سنوات طويلة، بدا لي أن أحد أجمل الأمور التي ستمنحها السماء لي حين أصعد إليها هو الشعر الأسود».

«وهل هذه رغبتك الأساسية الآن؟».

«كلا، ربما لا»، ترددت پوليانا، «لكن أظنني سأحبها. ثم إن أهدابي ليست طويلة، وأنفي ليس رومانيًا ولا يونانيًا أو أي من تلك الأنوف الجميلة المحبوبة ذات النمط. إنه أنف فحسب. ووجهي طويل جدًا أو قصير جدًا، لقد نسيت أيهما، لكني قسته مرة بواحد من اختبارات مقاييس الجمال، ولم يكن مطابقًا على أية حال. وقالوا إن عرض الوجه يجب أن يكون بمقدار خمس عيون، واتساع العينين بمقدار... شيء آخر. لقد نسيت هذا أيضًا، لكن عيني لا تطابقانه».

«يا لها من صورة كئيبة!»، ضحك پندلتن. ثم سأل وعيناه تتفحصان بإعجاب وجه الفتاة المنتعش وعينيها المعبرتين «هل نظرت يومًا في المرآة وأنت تتحدثين يا پوليانا؟».

«أوه، كلا، لا طبعًا!».

«حسن، عليك أن تجربي في وقت ما».

«يا لها من فكرة مضحكة! تخيل أن أفعلها!»، ضحكت الفتاة، «وماذا سأقول؟ أأقول هذا؟» حسن يا پوليانا، وما ضر لو لم تكن أهدابك طويلة وأنفك ليس بأنف روماني، عليك أن تسعدي لأن عندك أهدابًا وأنفًا!».

ضحك پندلتن معها، غير أن تعبيرًا قديمًا علا وجهه.

«ما زلت تلعبين اللعبة إذن»، قال على استحياء.

نظرت پوليانا بعينين رقيقتين عجبًا منه.

«عجبًا، طبعًا! لا أظن يا جيمي أنني عشت الشهور الستة الماضية، لولا تلك اللعبة المباركة»، تهدج صوتها قليلًا.

«لم أسمعك تتحدثين عنها كثيرًا»، عقب.

امتقع لونها.

«أعلم، أظنني خائفة من قول الكثير للغرباء الذين لا يهتمون كما تعرف. لن يكون الأمر لدي الآن وأنا في العشرين مثلما هو حين كنت في العاشرة. أدرك طبعًا أن الناس لا يحبون المواعظ كما تعلم»، ختمت قولها بابتسامة حزينة.

«أعلم»، هز الشاب رأسه بوقار، «لكني أتساءل أحيانًا إن كنت تدركين معنى اللعبة، وما فعلته لأولئك الذين يلعبونها يا پوليانا».

«أعرف ما فعلته لي»، كان صوتها خفيضًا وعيناها بعيدتين.

«إنها تجدي نفعًا إن لعبتها كما ترين»، قال بصوت عال بعد صمت قصير. «قال أحدهم مرة إنها ستحفز العالم لو لعبها الجميع حقًا، وأنا مؤمن بذلك».

«أجل، لكن بعض الناس لا يريدون أن يتغيروا»، ابتسمت پوليانا، فقد صادفت رجلًا في ألمانيا العام الماضي، خسر أمواله وكان في كرب عظيم. يا إلهي لقد كان كئيبًا! حاول أحدهم إبهاجه يومًا بقوله «هيا هيا، أنت تعلم أن الأمور قد تكون أسوأ!»، يا إلهي لو أنك سمعت ذاك الرجل عندئذ!

«إن كان على الأرض شيء يثير جنوني تمامًا»، دمدم، «فهو أن يقال لي إن الأمور قد تكون أسوأ، وإن علي أن أكون شكورًا على ما بقي لي. هؤلاء الناس الذين يسيرون بابتسامة دائمة على وجوههم ويتغنون بأنهم شاكرون لأن بوسعهم التنفس أو الأكل أو المشي أو الاضطجاع، تلك الأمور التي لا تجديني نفعًا. فلا أريد التنفس أو الأكل أو المشي إن كانت الأمور في مثل حالي الآن. وحين يقال لي إن علي أن أكون شكورًا على حماقات كهذه، فهذا يجعلني أرغب بالخروج وقتل أحدهم! تخيل ما سيحدث لي لو شرحت لذلك الرجل لعبة السعادة!»، ضحكت پوليانا.

«لا أبالي، فهو بحاجتها»، أجاب جيمي.

«يحتاجها طبعًا، لكنه لن يشكرني على شرحها له».

«أظن ذلك. ولكن اسمعي! إنه بحاله هذه وفلسفته الحالية

وخطة العيش قد أتعس نفسه والآخرين، أليس كذلك؟ حسن، افترضي أنه يلعب اللعبة. وإن بحث عن شيء يسعده في كل ما حدث له، فلن يكون متذمرًا شكاء لسوء الأمور في الوقت نفسه، ويمكنه جني الكثير. إذ سيكون العيش معه أسهل بكثير لنفسه ولأصدقائه. في الوقت نفسه إن التفكير في الكعكة المحلاة بدلًا من أكلها لن يجعل الأمور أسوأ عنده، بل لعلها تتحسن، لأن ذلك سيمنحه شعورًا جميلًا في قعر معدته، وسيتحسن هضمه. أقول لك إن المتاعب لا تحظى بعناق كثير، ففيها الكثير من الأشواك».

ابتسمت پوليانا بتقدير. «هذا يذكرني بما أخبرت سيدة عجوزًا يومًا. كانت إحدى السيدات المحسنات في الغرب، وكانت من أولئك الأشخاص الذين يستمتعون حقًا بالبؤس ويتحدثون عن أسباب تعاستهم. كنت في العاشرة ربما حينئذ، وأحاول تعليمها اللعبة. أظنني لم أحرز نجاحًا كبيرًا، وقد أدركت السبب بوضوح، لأني أخبرتها مبتهجة «حسن، على أية حال يمكنك أن تسري أن لديك أمورًا كثيرًا تشعرك بالبؤس لأنك تحبين أن تكوني بائسة!»».

«إنها تستحق ذلك!»، ضحك جيمي.

رفعت پوليانا حاجبيها.

«أخشى أنها لم تسعد بها بعد ذلك أكثر مما سيفعل الرجل في ألمانيا لو أني أخبرته الأمر نفسه».

«ولكن لا بد من إخبارهما، ولا بد أن تخبري...» توقف پندلتن وعلى وجهه تعبير غريب للغاية فنظرت إليه پوليانا مندهشة.

«عجبًا يا جيمي، ما الأمر؟».

«أوه لا شيء. لقد كنت أفكر فحسب»، أجاب وهو يلمظ شفتيه، «ها أنا أحثك لتفعلي الأمر نفسه الذي خشيت أن تفعليه قبل أن أراك، كما ترين. أعني أنني خشيت قبل أن أراك أن... أن...»، ارتبك في صمت بائس، وقد احمر حقًا.

«حسن يا جيمي بندلتن»، كظمت الفتاة، «ليس عليك التوقف هنا يا سيدي. ماذا تعني بكل هذا من فضلك؟».

«أوه، لا شيء.. حقًا».

«إنني أنتظر»، غمغمت پوليانا، وكان صوتها وأسلوبها هادئين لكن العينين لمعتا بخبث.

تردد الشاب، ونظر إلى وجهها الباسم واستسلم.

«أوه، حسن، لك ما شئت»، رفع كتفيه، «لقد ساورني القلق قليلًا بشأن اللعبة، خوفًا من أن تتكلمي عنها كعادتك كما تعرفين، ولكن...»، فقاطعته ضحكة مجلجلة مرحة.

«ألم أقل لك؟ لقد قلقت ألا أكون في العشرين كما كنت في العاشرة!».

«كلا، لم أقصد... صدقًا يا پوليانا، لقد ظننت، بل عرفت طبعًا...»، لكن پوليانا وضعت يديها على أذنيها وضحكة ضحكة مجلجلة أخرى.

الفصل التاسع عشر
رسالتان

وصلت هذه الرسالة إلى پوليانا من ديلا وذربي في النصف الثاني من يونيو.

أكتب لك لأطلب منك صنيعًا. أرجو أن بوسعك نصحي بعائلة هادئة بسيطة في بلدنغزڤِل مستعدة لاستقبال أختي للإقامة عندها فصل الصيف. سيكون القادمون ثلاثة؛ السيدة كرو وأمينة سرها وابنها المتبنى جايمي. (تذكرين جايمي، أليس كذلك؟) ولا يرغبون بالإقامة في فندق عادي أو نزل ما. إن أختي متعبة جدًا، وقد نصحها الطبيب بالذهاب إلى الريف طلبًا للراحة التامة والتغيير. واقترح ڤيرمونت أو نيو هامشاير، فخطرت لنا بلدنغزڤِل في الحال، ونسألك إن كان بوسعك نصحنا بالمكان المناسب لنا. أخبرت روث أنني سأكاتبك. وهم راغبون في الذهاب في الحال، في أول يوليو إن أمكن. هل أثقل عليك إن طلبت منك أن تبلغينا بأسرع ما يناسبك إن كنت تعرفين مكانًا مناسبًا؟ أرجو أن ترسلي لي هنا، فأختي معنا في المصح لعلاج يدوم بضعة أسابيع.

المخلصة لك بحب

ديلا وذربي

جلست پوليانا بعد فراغها من قراءة الرسالة عاقدة الحاجبين لبضع لحظات، وهي تبحث في ذهنها في بيوت بلدنغزڤِل بحثًا عن نزل مناسب لأصدقائها القدامى. ثم انعطفت أفكارها منعطفًا جديدًا فجأة، وهرعت إلى خالتها في غرفة الجلوس بعبارات مبتهجة.

«خالتي، يا خالتي»، لهثت، «لقد خطرت لي أجمل فكرة. أخبرتك أن أمرًا سيحدث، وأنني سأنمّي تلك الموهبة الرائعة يومًا ما. حسن، لقد فعلت، لقد فعلت الآن. أصغي إلي! وصلتني رسالة من الآنسة ديلا وذربي، أخت السيدة كرو، التي قضيت عندها الشتاء في بوسطن كما تعرفين، ويودون القدوم في للإقامة في الريف فصل الصيف، وكتبت الآنسة وذربي لتسألني إن كنت أعرف مكانًا يناسبهم. في البدء لم أعرف واحدًا، لكني الآن أعرف، أعرف يا خالتي پولي! خمني أين يكون».

«يا إلهي منك يا صغيرة!»، قالت السيدة تشلتن، «كيف تركضين؟! حسبتك فتاة في الثانية عشرة عوضًا عن امرأة راشدة. ما الذي تتحدثين عنه؟».

«عن مكان إقامة للسيدة كرو وجايمي، لقد وجدته»، هذرت پوليانا.

«حقًا؟! وماذا يعني ذلك؟ في أي شيء يهمني ذلك يا صغيرة؟»، غمغمت السيدة تشلتن بكآبة.

«لأنه هنا. سأستضيفهم هنا يا خالتي».

«بوليانا!»، اعتدلت السيدة تشلتن في جلستها خائفة.

«أرجو ألا ترفضي يا خالتي، أرجوك لا تفعلي»، توسلت بوليانا بحماس، «ألا ترين؟ هذه فرصتي، الفرصة التي كنت أنتظرها، وها هي قد صارت بين يدي. يمكننا فعل ذلك على نحو رائع، فلدينا فائض من الغرف، وتعلمين أن بوسعي الطبخ والاعتناء بالبيت، وهذا سيدر المال، لأنهم سيدفعون جيدًا، أعرف ذلك، وأنا متأكدة أنهم سيودون المجيء. سيكونون ثلاثة فمعهم أمينة السر».

«ولكني لا أستطيع يا بوليانا! أأحول هذا البيت إلى نزل؟ أتصبح عزبة هارنغتن سكنًا عامًا؟ أوه، لا أستطيع يا بوليانا، لا أستطيع!».

«ولكنه لن يكون نزلًا عامًا يا عزيزتي، بل سيكون عكس ذلك. ثم إنهم أصدقاؤنا. سيبدو الأمر كأننا نستضيف أصدقاءنا القادمين لرؤيتنا، عدا أنهم ضيوف مقابل أجر، وهذا يعني أننا سنجني المال أثناء ذلك، المال الذي نحتاجه يا خالتي، المال الذي نحتاجه»، أكدت على نحو واضح.

تشنج وجه الخالة بولي تشنج الكبرياء الجريحة، وأسندت ظهرها وبكت بكاء خفيض.

«ولكن كيف يمكنك فعل ذلك؟»، سألت في النهاية مترددة، «لا يمكنك إنجاز العمل وحدك يا صغيرة!».

«أوه، كلا طبعًا»، ترنمت پوليانا (كانت تقف على أرض صلبة، وقد عرفت أن رأيها سيرجح)، «لكني أستطيع القيام بالطبخ والإشراف، وأنا واثقة أن بوسعي طلب واحدة من أخوات نانسي الصغريين لمساعدتي في الباقي. وستغسل السيدة دروغن الغسيل كما تفعل الآن».

«ولكن يا پوليانا، أنا لست بخير البتة، وتعرفين أني كذلك، ولا يمكنني فعل الكثير».

«كلا طبعًا. ما من سبب يدعوك لذلك»، سخرت پوليانا بمرح. «أوه يا خالتي ألن يكون الأمر رائعًا؟ إنه رائع لحد لا يصدق، أن يسقط المال في يدي هكذا!».

«سقط في يدك حقًا! ما زلت بحاجة لتعلم بعض الأمور في هذا العالم يا پوليانا، وأحدها أن نزلاء الصيف لا يسقطون المال في يد أحد دون أن يحرصوا حرصًا شديدًا على أن يتلقوا مقابلًا جزلًا. وحين يتعين عليك جلب الأغراض وحملها والخبز والتخمير إلى أن تنهاري، وحين توشكين أن تقتلي نفسك محاولة ترتيب كل شيء من البيض الطازج وحتى الطقس، عندئذ ستقتنعين بما أخبرك به».

«حسن سأتذكر»، ضحكت پوليانا، «لكني لن أقلق الآن، وسأسرع للكتابة إلى الآنسة وذربي في الحال فأعطيها لجيمي بين ليرسلها في البريد حين يخرج بعد الظهر».

تململت السيدة تشلتن باضطراب. «أرجو منك يا پوليانا أن تسمي هذا الشاب باسمه اللائق. إن اسم بين يثير قشعريرتي، واسمه هو پندلتن، كما أعرف».

«فليكن»، وافقتها پوليانا، «غير أني أنساه معظم الوقت، إنني أدعوه هكذا في وجهه أحيانًا، وهذا مشين طبعًا فهو متبنى وما إلى ذلك. لكني متحمسة جدًا كما ترين»، فرغت من قولها وهي ترقص خارجة من الغرفة.

وأعدت الرسالة ليأخذها جيمي عندما جاء في الرابعة، ولم تزل ترتعش إثارة وحماسًا ولم تضع وقتًا في إخبار زائرها عن الأمر كله.

«ثم إنني أتحرق شوقًا لرؤيتهم»، قالت عندما أخبرته بخططها، «إذ لم أرهم قط منذ ذلك الشتاء. أنت تعلم فقد أخبرتك، ألم أخبرك؟ عن جايمي؟».

«أوه بلى أخبرتني»، كان في صوت الشاب أثر من تحفظ.

«حسن، أليس رائعًا إن أتوا؟».

«لست أدري إن أمكنني وصفه بالرائع تمامًا»، تحاشى الإجابة.

«أليس رائعًا أن تتسنى لي الفرصة لمساعدة الخالة پولي لهذا الوقت القصير؟ عجبًا يا جيمي، إنه لرائع حقًا».

«ما أراه أن الأمر سيكون صعبًا بعض الشيء عليك»، كابر جيمي بشيء أكثر من الحنق.

«أجل طبعًا بصورة ما. لكني سأكون سعيدة بالمال القادم وسأفكر به طوال الوقت، أترى؟ كم أنا جشعة يا جيمي»، تنهدت.

لم يحر جوابًا للحظة طويلة، ثم سأل الشاب بغتة «أخبرني كم عمر جايمي هذا؟».

نظرت پوليانا بابتسامة مرحة.

«أوه تذكرت، لم يعجبك الاسم جايمي يومًا»، طرفت بعينيها، «لا عليك، إنه متبنى الآن شرعيًا كما أظن، وقد أخذ اسم كرو، فيمكنك نداؤه بذلك».

«لكن هذا لا يخبرني كم عمره»، ذكرها جيمي بجفاف.

«لا أحد يعلم على وجه الدقة كما أظن. تعلم أنه لا يعلم، غير أنني أظنه في مثل عمرك. أتساءل كيف حاله الآن، لقد سألت عن هذا في رسالتي على أية حال».

«أوه، لقد سألت!»، نظر پندلتن إلى الرسالة في يده وقلّبها بشيء من الحقد. خطر له أنه يود نسيانها، أو تمزيقها أو إعطاءها لأحد ما لرميها أو فعل أي شيء بها عدا إرسالها.

عرف جيمي حق المعرفة أنه يشعر بالغيرة، وأنه شعر بها دومًا من هذا الشاب ذي الاسم الذي يشبه اسمه ولا يشبهه في آن. ليس لأنه واقع في حب پوليانا كما أكد لنفسه بغضب، فهو لا يحبها طبعًا. غير أنه لم يعجبه مجيء هذا الشاب الغريب ذي الاسم المتأنث إلى بلدنغزڤِل، وسيكون موجودًا دومًا لإفساد لحظاتها الحلوة. كاد أن

يقول هذا لپوليانا لكن شيئًا حبس الكلمات على شفتيه، ثم استأذن بالمغادرة حاملًا الرسالة معه.

ثبت بعد بضعة أيام أن جيمي لم ينس الرسالة أو يمزقها أو يعطها لأحد لإلقائها، فقد تلقت پوليانا ردًا سريعًا فرحًا من الآنسة وذربي، وحين أتى جيمي في المرة التالية سمعها أو بالأحرى سمع جزءًا منها، لأن پوليانا سبقت القراءة بقولها «إنها تقول في الجزء الأول طبعًا إنهم سعيدون بالمجيء وما إلى ذلك. لن أقرأ هذا، لكني أظنك تود سماع الباقي، لأنك سمعتني أتحدث كثيرًا عنهم. ثم إنك ستتعرف عليهم بنفسك قريبًا. إنني أعتمد عليك كثيرًا يا جيمي لتساعدني في جعل إقامتهم سعيدة».

«أوه، حقًا!».

«لا تسخر، هذا لأنك لا تحب اسم جايمي»، قرعته پوليانا بحدة متهكمة، «أنا واثقة أنه سيعجبك حين تعرفه، وستحب السيدة كرو».

«حقًا؟»، أجاب جيمي بازدراء، «حسن، هذا رأي خطير. لنأمل إن فعلت أن تكون السيدة لطيفة جدًا فترد بالمثل».

«طبعًا»، ابتسمت پوليانا، «اسمع الآن، سأقرأ عليك عنها. هذه الرسالة من أختها ديلا، الآنسة وذربي من المصح كما تعلم».

«حسن، امضي قدمًا!»، أمر جيمي بمحاولة واضحة جدًا ليبدي اهتمامًا مهذبًا. وبدأت پوليانا القراءة وهي تتبسم بخبث.

«لقد طلبت مني إخبارك كل شيء عن الجميع. إن هذه مهمة

طويلة، لكني سأبذل قصارى جهدي. في البداية أظنك ستجدين أختي قد تغيرت تمامًا، فالاهتمامات الجديدة التي شغلت حياتها في السنوات الست الأخيرة قد فعلت بها المعجزات. إنها نحيلة قليلًا ومتعبة من الإفراط في العمل، غير أن الراحة التامة ستعيد إليها عافيتها، وسترين كم تبدو شابة ومتوردة وسعيدة. أرجو أن تلاحظي قولي سعيدة، ولن يعني هذا شيئًا لك بقدر ما يعني لي. فقد كنت صغيرة ولم تدركي تعاستها عندما عرفتها أول مرة ذلك الشتاء في بوسطن. لقد رأت الحياة عندئذ شيئًا كئيبًا بائسًا، وباتت الآن زاخرة بالاهتمام والفرح.

إن لديها جايمي أولًا، وحين ترينهما معًا فلست بحاجة لأن يقال لك ما يعنيه لها. صحيح أننا لم نقترب من معرفة إن كان هو جايمي الحقيقي أم لا، لكن أختي تحبه مثل ابنها، وقد تبنته قانونيًا كما أظنك تعرفين.

ثم إن لديها فتياتها. هل تذكرين سادي دين البائعة؟ حسن، من الاهتمام بها ومحاولة مساعدتها لتعيش حياة أسعد، وسعت أختي جهودها شيئًا فشيئًا، حتى صار عندها كثير من الفتيات اللاتي ينظرن إليها على أنها ملاكهن الحارس الطيب. لقد أنشأت سكنًا للفتيات العاملات بمعايير جديدة. وقد ساعدها في ذلك ستة من الرجال والنساء الأثرياء، لكنها الرأس المدبر لكل شيء، ولا تتردد أبدًا في مساعدة كل فتاة. يمكنك أن تتخيلي كيف يؤثر ذلك في الأعصاب. إن معاونتها الرئيسة ويدها اليمنى هي سادي دين، سادي دين نفسها. ستجدين أنها تغيرت أيضًا غير أنها سادي القديمة نفسها.

أما عن جايمي، المسكين جايمي! أكبر مآسي حياته معرفته أنه لا يستطيع المشي، وقد أفعمنا بالأمل لبعض الوقت. لقد كان هنا في المصح تحت رعاية الطبيب إيمز لسنة، وقد تحسن إلى حد أنه يسير على عكازين. لكن الصبي المسكين سيظل كسيحًا على الدوام. بصورة ما بعد أن يتعرف المرء على جايمي، نادرًا ما يخطر له أنه مشلول، لأن روحه حرة. لا أستطيع شرح ذلك، لكنك ستفهمين ما أعني حين ترينه، وقد استعاد إلى درجة باهرة حماسه الصبياني القديم وبهجة العيش. ثمة أمر واحد فحسب، أمر واحد كما أظن، سيسحق هذه الروح ويلقي بها في مهاوي اليأس، أن يعرف أنه ليس جايمي كنت ابن أختنا. لقد فكر بهذا طويلًا وتمناه بحماس، حتى بات مؤمنًا فعلًا أنه جايمي الحقيقي، ولكن إن لم يكن كذلك فأرجو ألا يعرف أبدًا».

«هذا كل ما قالته عنهم»، قالت پوليانا وهي تطوي الورقات المتراصة الكتابة في يديها، «أليس هذا مثيرًا؟».

«إنه حقًا!»، صار في صوت جيمي رنة صدق. فقد أخذ يفكر فيما تعنيه ساقاه له، بل إنه ظن للحظة أنه راغب بأن يحظى هذا الشاب المسكين المشلول بجزء من اهتمام پوليانا وأفكارها، إن لم يكن يظن أنه سيحصل على الكثير منها طبعًا! «يا إلهي! إن الأمر قاس على الشاب المسكين حتمًا».

«قاسٍ؟! إنك لا تعلم شيئًا عن ذلك يا جيمي بين»، غصت پوليانا، «لكني أعلم. فلم أستطع المشي يومًا، أعلم».

«أجل، طبعًا طبعًا»، قطب الشاب وهو يتململ في مقعده. لم يكن جيمي واثقًا، وهو ينظر إلى وجه پوليانا المشفق وعينيها الطارفتين، أنه راغب بقدوم جايمي هذا إلى البلدة، إن كان التفكير به فحسب جعل پوليانا هكذا!

الفصل العشرون

الضيوف

كانت أيامًا مزدحمة عند پوليانا، تلك الأيام القليلة الفاصلة قبل وصول «أولئك الأشخاص البغيضين» كما نعتت الخالة پولي ضيوف ابنة أختها. غير أنها كانت أيامًا سعيدة أيضًا، إذ رفضت پوليانا أن تهن أو تحبط أو تخاف، مهما تكن المشكلات المحيرة اليومية التي ستضطر لمواجهتها.

تفحصت پوليانا البيت بانتظام غرفة تلو أخرى، ورتبت كل شيء لراحة نزلائها القادمين ورضاهم بعد استدعاء نانسي وأخت نانسي الصغرى لمساعدتها. لم تستطع السيدة تشلتن إلا تقديم قليل من العون، فهي ليست بصحة جيدة أولًا، ثم إن رأيها في الفكرة كلها لم يكن مغريًا بالمساعدة أو الطمأنة، لأنها عملت على ازدهار كبرياء هارنغتن اسمًا وسلالة، وعلى شفتيها رددت الشكوى الدائمة «أوه يا پوليانا، لم أحسب أن عزبة هارنغتن ستصل إلى هذا!».

«لن تفعل يا عزيزتي»، هدأتها پوليانا ضاحكة، «بل آل كرو هم من سيصلون إلى عزبة هارنغتن!».

لكن السيدة تشلتن لم تكترث البتة، وردت بنظرة ساخرة وتنهيدة أكبر، واضطرت پوليانا لتركها لتسافر وحدها في درب الكآبة.

في اليوم الموعود، ذهبت پوليانا مع تموثي (الذي يملك خيول هارنغتن) إلى المحطة لانتظار قطار بعد الظهر. لم يكن في قلب پوليانا شيء إلا الثقة والترقب والفرح حتى الساعة. غير أن هلعًا حقيقيًا من الشك والخجل والخوف قد انتابها لدى سماعها صافرة القطار. فقد أدركت فجأة ما ينتظر منها فعله، وحيدة ودون عون. وتذكرت ثروة السيدة كرو ومكانتها وذوقها النيق. كما تذكرت أيضًا أن هذا سيكون جايمي الشاب الجديد الطويل، ولا يشبه الصبي الذي عرفته.

فكرت للحظة بغيضة بالهرب إلى مكان ما، أي مكان.

«أشعر بالغثيان يا تموثي. لست على ما يرام. أنا... أخبرهم ألا يأتوا»، تلعثمت كأنها تستعد للهرب.

«سيدتي!»، قال تموثي المندهش.

كانت نظرة واحدة إلى وجه تموثي المندهش كافية، فضحكت پوليانا وقومت كتفيها بسرعة.

«لا شيء، لا عليك! لم أقصد ذلك طبعًا يا تموثي. أسرع... انظر! ها قد وصلوا»، لهثت. وأسرعت پوليانا في التقدم وقد عادت لطبيعتها.

لقد عرفتهم في الحال. وإن ساورها شك فالعكازان في يدي الشاب الطويل ذي العينين البنيتين قاداها إلى هدفها في الحال.

مرت بضع لحظات من المصافحات المتلهفة والعبارات المفككة، ثم وجدت نفسها في العربة والسيدة كرو بجانبها وجايمي وسادي دين في الأمام. فسنحت لها الفرصة حينئذ لأول مرة لرؤية أصدقائها حقًا، وأن تلحظ التغييرات التي أحدثتها ست سنوات.

كان الشعور الأول حيال السيدة كرو هو الدهشة. إذ نسيت أن السيدة كرو جميلة جدًا، ونسيت أن أهدابها طويلة جدًا، وأن العينين التي تظللهما جليتان. بل أنها ضبطت نفسها وهي تفكر بصفات الوجه المثالي، تقسيمة فأخرى، بمقياس الجمال البغيض ذاك. غير أنها ابتهجت أكثر ما ابتهجت لغياب الخطوط المتموجة للكآبة والمرارة.

ثم التفتت إلى جايمي، وفوجئت ثانية للسبب نفسه. فقد غدا جايمي وسيمًا أيضًا، وقالت پوليانا في نفسها إنه بهي الطلعة حقًا. إذ رأت عينيه الداكنتين ووجهه الشاحب قليلًا وشعره المتموج الداكن آسرة للغاية. ووقع نظرها على العكازين بجانبه، وقبضت على حنجرتها غصة من الشفقة الموجعة.

ومن جايمي انتقلت پوليانا إلى سادي دين.

بدت سادي دين، بقدر ما رأت من ملامحها، كما رأتها پوليانا أول مرة في الحديقة العامة، ولكنها لم تحتج إلى نظرة أخرى لتعرف أن سادي مختلفة حقًا إن أخذ الشعر والثياب والمزاج والحديث والمكانة في الحسبان.

ثم تحدث جايمي.

«لطف منكم أن تسمحوا لنا بالقدوم»، قال لپوليانا، «أتعرفين ما الذي فكرت به حين كتبت أن بوسعنا المجيء؟».

«كلا طبعًا»، تلعثمت پوليانا، ولم تزل تنظر إلى العكازين قرب جايمي ولم تزل حنجرتها متشنجة من الشفقة الموجعة.

«حسن، لقد فكرت بالفتاة الصغيرة في الحديقة العامة وكيسها المليء بالفول السوداني للسير لانسلوت والليدي غونڤير، وعرفت أنك تستبدلينا بهم فحسب، وإن كان عندك كيس من الفول السوداني وليس عندنا نحن، فلن تكوني سعيدة حتى تقاسمينا إياه».

«كيس من الفول السوداني إذن!»، ضحكت پوليانا.

«أوه، إن كيس الفول السوداني في حالتك لهو غرف مهواة في الريف، وحليب بقري وبيض حقيقي من قن دجاج حقيقي»، ثم تابع جايمي على نحو غريب «لكنها تؤدي الغرض نفسه. علي أن أحذرك؛ أتذكرين جشع السير لانسلوت؟ حسن...»، صمت متفكرًا.

«حسن، سأقبل المجازفة»، ابتسمت پوليانا، وهي تفكر بسعادتها لعدم وجود خالتها لسماع تحقق أسوأ تنبؤاتها بسرعة هكذا «يا للسير لانسلوت المسكين! أتساءل إن كان أحد يطعمه، أو إن كان هناك أصلًا».

«إن كان هناك، فله من يطعمه»، تدخلت السيدة كرو بمرح، «ما زال هذا الصبي السخيف يذهب مرة في الأسبوع على الأقل وجيوبه مثقلة بالفول السوداني وغيرها مما لا أعرف. يمكن اقتفاء أثره عبر

خط الحبوب الصغيرة التي يتركها خلفه، وحين أطلب الحبوب للإفطار لا أجدها غالبًا «لأن السيد جايمي قد أطعمها للحمائم يا سيدتي!».

«أجل ولكن دعيني أخبرك»، استغرق جايمي بحماس، ووجدت پوليانا نفسها تصغي بكل الانبهار القديم إلى قصة لزوج من السناجب في حديقة مشمسة. ورأت لاحقًا ما قصدته ديلا وذربي في رسالتها، إذ عندما وصلوا البيت دهشت دهشة جلية لرؤية جايمي يحمل عكازيه ويؤرجح نفسه من العربة بمساعدتها. وقد عرفت أنه أنساها أنه مشلول لعشر دقائق.

ارتاحت پوليانا كثيرًا لمضي اللقاء الأول، الذي خشيته كثيرًا، بين السيدة كرو والخالة پولي مضيًا أفضل مما ظنت. بدا القادمون الجدد مسرورين بالبيت القديم وكل شيء فيه، فغدا من المستحيل على سيدته ومالكته أن تستمر في موقفها المتحفظ نفورًا ولامبالاة. ثم بدا واضحًا قبل انقضاء ساعة أن سحر شخصية جايمي وجاذبيته قد ثقبت درع شك الخالة پولي؛ وأيقنت پوليانا أن واحدة من مشاكلها الفظيعة على الأقل لم تعد بمشكلة، لأن الخالة پولي قد أخذت تلعب دور المضيفة اللطيفة لضيوفها هؤلاء.

لم تجد پوليانا هذا إبحارًا سهلًا بأي شكل، رغم راحتها لتغير موقف الخالة پولي. فثمة عمل، الكثير منه، لا بد من إنجازه. كانت أخت نانسي، بيتي، طيبة ومستعدة لكنها ليست نانسي، كما تبين لپوليانا سريعًا. فهي بحاجة لتمرين والتمرين يستغرق وقتًا.

وقلقت پوليانا أيضًا خشية ألا يكون كل شيء على ما يرام، ففي هذه الأيام كان كرسي مغبر جريمة عندها والكعكة الفاشلة مصيبة.

شيئًا فشيئًا اضطلعت پوليانا بمهامها ببساطة، بعد جدل وتوسل مستمر من السيدة كرو وجايمي، وأدركت أن الجريمة والمصيبة الحقيقيتين في نظر أصدقائها ليستا كرسيًا مغبرًا أو كعكة فاشلة، بل تقطيبة قلق أو توتر على وجهها.

قال جايمي «كأنما استقبالك لنا ليس كافيًا حتى تقتلي نفسك بالعمل لتحضري لنا شيئًا نأكله».

«ثم إننا يجب ألا نأكل كثيرًا»، ضحكت السيدة كرو، «وإلا أصبنا بالانهضام[1] كما تقول إحدى فتياتي إن لم يوافقها الطعام».

كان انسجام الأعضاء الثلاثة الجدد على العائلة في الحياة اليومية رائعًا. فقبل مضي أربع وعشرين ساعة، أخذت الخالة پولي تسأل السيدة كرو باهتمام عن سكن الفتيات العاملات، وسادي دين وجايمي يتشاجران للمساعدة في تقشير البازلاء أو قطف الزهور.

مضى على وجود آل كرو في عزبة هارنغتن أسبوع حين جاء جون پندلتن وجيمي للزيارة ذات مساء. وتمنت پوليانا أن يأتيا بسرعة، بل إنها ألحت على ذلك قبل وصول آل كرو. وقد عرفتهم على بعض بكبرياء واضحة.

---

(١) تعني عسر الهضم.

«إنكم أصدقاء رائعون لي وأود أن أعرفكم على بعضكم فنكون جميعًا أصدقاء مقربين»، شرحت.

لم يفاجئ پوليانا إعجاب جيمي والسيد پندلتن الواضح بسحر السيدة كرو وجمالها، ولكن النظرة التي بدت على وجه السيدة كرو حين رأت جيمي فاجأتها كثيرًا، فقد كانت نظرة تعرّف.

«عجبًا يا سيد پندلتن، ألم ألتقك قبلًا؟»، صاحت السيدة كرو.

التقت عينا جيمي الجريئتان بنظرة السيدة كرو المعجبة.

«لا أظن ذلك»، ابتسم لها، «أنا واثق أنني لم ألتقك قط، ولو فعلت لتذكرتك»، انحنى احترامًا.

كان تأكيده الدال واضحًا فضحك الجميع، وضحك جون پندلتن «أحسنت القول يا بني نظرًا لشاب من عمرك الغض. لم أكن أنا نفسي لأجيب بأفضل مما فعلت».

احمرت السيدة كرو قليلًا وضحكت معهم.

«كلا، حقًا»، ألحت، «بعيدًا عن المزاح، في وجهك شيء مألوف ألفة غريبة حقًا. لا بد أنني رأيتك في مكان ما، إن لم ألتقك فعلًا».

«ولعلك فعلت»، صاحت پوليانا، «في بوسطن، فجيمي يرتاد الكلية التقنية في الشتاء كما تعرفين. سيبني جيمي السدود والجسور، أعني حين يكبر»، ختمت قولها بنظرة مرحة إلى الشاب البالغ طوله ستة أقدام ولم يزل واقفًا قرب السيدة كرو.

ضحك الجميع ثانية، الجميع عدا جايمي، ولم يلحظ أحد إلا

سادي دين أن جايمي، عوضًا عن الضحك، أغمض عينيه كأنه يرى شيئًا يؤلمه. ولم يعرف أحد إلا سادي كيف، ولماذا، تغير الموضوع لأن سادي من غيرته. وكانت سادي أيضًا، حين سنحت الفرصة، من حرص على أن يتحدث عن الكتب والزهور والبهائم والطيور -الأمور التي يعرفها جايمي ويفهمها- كما تحدث عن السدود والجسور التي (كما علمت سادي) لن يتمكن جايمي من بنائها أبدًا. لم يدرك أحد أن سادي فعلت كل هذا، ولا حتى جايمي، المعنيّ من بين الجميع.

حين انتهت الزيارة وغادر آل بندلتن، ألمحت السيدة كرو ثانية إلى الإحساس القوي الغريب بأنها رأت بندلتن الشاب في مكان ما من قبل.

«لقد رأيته، أعلم ذلك في مكان ما»، قالت ببهجة، «لا بد أن هذا حدث في بوسطن، ولكن...»، ولم تنه الجملة، ثم أضافت «إنه شاب رائع على أية حال، ويعجبني».

«أنا سعيدة! فهو يعجبني أيضًا»، هزت بوليانا رأسها، «لقد أعجبني جيمي دومًا».

«أتعرفينه منذ وقت طويل إذن؟!»، سأل جايمي بحزن.

«أوه أجل، أعرفه منذ سنوات حين كنت فتاة صغيرة كما تعلم. لقد كان جيمي بين حينئذ».

«جيمي بين؟ عجبًا أليس ابن السيد بندلتن؟»، سألت السيدة كرو مندهشة.

«كلا، بالتبني فحسب».

«التبني؟!»، قال جايمي، «فهو ليس ابنًا حقيقيًا مثلي»، كانَ في صوت الشاب نبرة فرح غريبة.

«كلا، ليس للسيد پندلتن أبناء، فلم يتزوج قط. كان سيفعل مرة لكنه لم يتزوج»، احمرت پوليانا وتَحدثت بحياء مفاجئ. لم تنس پوليانا أن أمها، منذ زمن بعيد، رفضت جون پندلتن نفسه، وصارت مسؤولة عن سنوات الرجل الطويلة من الوحدة والعزوبية.

لم تعرف السيدة كرو ولا جايمي هذا كله، ولم يريا إلا احمرار وجنتي پوليانا وخجلها فتوصلا إلى الاستنتاج نفسه.

وسألا نفسيهما «أمن الممكن أن هذا الرجل جون پندلتن، أحب پوليانا يومًا، وهي طفلة؟».

لم يقولا هذا جهرًا بطبيعة الحال، لذا فما من جواب ممكن. كما أن الفكرة لم تُنس رغم أنها لم تُقل، لكنها دفنت بعيدًا في زاوية من أذهانهم للسؤال في المستقبل إن دعت الحاجة.

الفصل الحادي والعشرون
أيام الصيف

أخبرت بوليانا جيمي قبل قدوم آل كرو أنها تعتمد عليه ليساعدها في تسليتهم. لم يبد أن جيمي راغب عندئذ في خدمتها على هذه الشاكلة، ولكنه لم يبد رغبته في ذلك بل قلقه أيضًا قبل وصول آل كرو إلى البلدة بأسبوعين، نظرًا لتواتر زياراته وطولها، وإفراطه في تقديم خيول بندلتن وسياراته.

نمت بينه وبين السيدة كرو في الحال صداقة حميمة فيما بدا انجذابًا قويًا نحو بعضهما بعضًا. فكانا يتنزهان ويتحدثان سويًا، ويعدان خططًا شتى لسكن الفتيات العاملات، لتنفذ الشتاء القادم حين يكون جيمي في بوسطن. كما حظي جايمي أيضًا بقدر جيد من الاهتمام، ولم تُنس سادي دين. كانت سادي تعتبر فردًا من العائلة كما أوضحت السيدة كرو، وقد حرصت على أن يكون لها نصيب في أي خطة من أجل اللهو.

لم يأت جيمي وحده من أجل التسلية، فكثيرًا ما جاء جون بندلتن معه. خططت الجولات والرحلات والنزهات ونفذت، وقضيت

العصريات البهيجة الطويلة في قراءة الكتب والأعمال الجميلة على شرفة هارنغتن.

كانت بوليانا مسرورة. لا لأن ضيوفها جنبوا أي احتمال للشعور بالضجر أو الحنين للديار فحسب، بل لأن أصدقاءها اللطيفين، آل كرو صاروا أصحابًا لأصدقائها اللطيفين الآخرين آل بندلتن. لذا كانت مثل الدجاجة الأم ترفرف بجناحيها على لقاءات الشرفة، وتفعل كل ما بوسعها لتجمع المجموعة وتسعدهم.

لم يقبل آل كرو ولا آل بندلتن أن تكون بوليانا متفرجة فحسب في أوقات لهوهم، بل ألحوا عليها بقوة أن تنضم إليهم، ولن يقبلوا الرفض جوابًا، ووجدت بوليانا الدرب مفتوحًا أمامها دومًا.

«كأننا سندعك تُشوين في هذا المطبخ الحار لتزيين الكعكة!»، قرعها جايمي يومًا بعد أن تسلل إلى معقلها الحصين. «إنه صباح بهي للغاية، ونحن ذاهبون إلى الفلج وسنأخذ طعامًا خفيفًا، وستذهبين معنا».

«ولكني لا أستطيع يا جايمي حقًا لا أستطيع»، رفضت بوليانا.

«ولم لا؟ لن تعدي لنا الغداء لأننا لن نكون هنا لتناوله».

«ولكن لدي وجبة الظهر».

«أخطأت ثانية. سنأخذ طعامنا معنا لذا لا يمكنك البقاء في البيت لإعداده. فما الذي يعيقك الآن عن الذهاب معنا لتناول طعام الظهر؟».

«لا أستطيع يا جايمي. لدي كعكة أزينها...».

«لا نريدها مزينة».

«والتنظيف».

«لا نريد المكان نظيفًا».

«والمشتريات من أجل الغد».

«قدمي لنا البسكويت والحليب. إننا نفضل أن تكوني معنا ونتناول البسكويت والحليب على أن نتناول الديك الرومي على الغداء ولست معنا».

«ولكني لا أستطيع إخبارك بالأمور التي لدي اليوم».

«لا أريدك أن تخبريني»، رد جايمي مرحًا، «أود منك أن تكفي عن إخباري. هلمي، اعتمري قبعتك. رأيت بيتي في غرفة الطعام وقالت إنها ستجهز طعامنا، أسرعي الآن».

«أوه يا جايمي أيها الفتى السخيف، لا أستطيع الذهاب»، ضحكت بوليانا، وهي تتراجع مترددة لما أمسك بكم ثوبها، «لا يمكنني الذهاب في تلك الرحلة معكم!».

لكنها ذهبت، ولم تذهب يومئذ فحسب، بل مرة وأخرى. لم تستطع ألا تذهب لأنها لم تجد جايمي مصطفًا لها فحسب بل جيمي والسيد بندلتن ناهيك عن السيدة كرو وسادي دين وحتى الخالة بولي.

«وأنا سعيدة بالذهاب طبعًا»، تنهدت بسعادة حين ينتزع عمل

كثيب من يديها رغم اعتراضها، «ولكن لا مثيل لنزلائي، يطلبون البسكويت والحليب والأشياء الباردة، ولا صاحبة نزل مثلي تجري في أنحاء الريف هكذا!».

غير أن الذروة كانت حين اقترح جون پندلتن (ولم تكف الخالة پولي عن التعليق لأنه جون پندلتن)، أن يذهبوا جميعًا في رحلة تخييم لأسبوعين إلى بحيرة صغيرة بين الجبال على مبعدة أربعين ميلًا من بلدنغزڤل.

تقبل الجميع الفكرة بقبول حماسي إلا الخالة پولي، التي قالت لپوليانا سرًا إن خروج جون پندلتن من حالة التحفظ الشكسة النكدة التي دامت لسنوات هو أمر حسن وجميل ولطيف، ولكن ليس من الضروري أن يتبع هذا محاولته العودة إلى العشرين ثانية، وهذا في رأيها ما بدا أنه يفعله! أما علنًا فقد أرضت نفسها بالقول إنها لن تذهب في رحلة تخييم مجنونة للنوم على الأرض الرطبة وأكل الحشرات والعناكب تحت ستار المتعة، ولا رأته ملائمًا لمن تجاوز الأربعين.

لم يظهر جون پندلتن أنه أحرج من هذا التلميح، ولم ينقص حماسه أو اهتمامه بلا شك. وأعدت الخطط لرحلة التخييم بسرعة، فقد اتفقوا بالإجماع أن عدم ذهاب الخالة پولي ليس سببًا لعدم ذهاب الباقين.

«وستكون السيدة كرو الناظورة التي نحتاجها»، قال جيمي بحماس.

لم يتحدث الجميع لأسبوع إلا عن الخيام ومؤونة الطعام وآلات التصوير ولوازم صيد السمك، وأنجز القليل الذي لا يعد تحضيرًا لرحلة.

اقترح جيمي بلهفة «ولنجعلها شيئًا حقيقيًا، حتى بالنسبة لعناكب السيدة تشلتن وحشراتها»، أضاف بابتسامة فرحة مواجهة لعيني السيدة المؤنبة الحازمة «لا نريد شيئًا من أفكار غرف الطعام خاصتكم! نريد مواقد نار حقيقية وبطاطا مشوية في الرماد، ونريد الجلوس حولها وسرد الحكايا وشي الذرة على العصي».

«ونريد أن نسبح ونجدف ونصطاد السمك»، وافقته بوليانا، «و...» توقفت فجأة وعيناها على وجه جايمي وصححت بسرعة «أعني أننا لن نفعل هذا كل الوقت. سيكون عندنا الكثير من الأشياء الهادئة لفعلها، فنقرأ ونتحدث كما تعلمون».

اكفهرت عينا جايمي وشحب وجهه وانفرجت شفتاه، ولكن قبل خروج كلماته تحدثت سادي دين.

«أوه، ولكن في رحلات التخييم والنزهات نتوقع أن نقوم بأفعال خارقة»، تدخلت بحرارة، «أكيد أننا نريد ذلك. كنا في ماين الصيف الماضي، ولو أنكم رأيتم السمكة التي اصطادها السيد كرو. لقد كانت... ولكن أخبرهم بنفسك»، توسلت ملتفتة إلى جايمي.

ضحك جايمي وهز رأسه نفيًا.

«لن يصدقوا ذلك... لن يصدقوا قصة سمكة كهذه!»، قال معترضًا.

«جربنا»، تحدته پوليانا.

ما زال جايمي يهز رأسه نفيًا، لكن اللون عاد إلى وجهه ولم تعد عيناه حزينتين كأنه يتوجع. تساءلت پوليانا، وهي تنظر إلى سادين دين، لم اعتدلت في كرسيها وقد بدت عليها أمارات الراحة.

جاء اليوم الموعود أخيرًا، وكان الانطلاق في سيارة جون پندلتن الكبيرة الجديدة يقودها جيمي. ثم انطلقوا بعد أزيز وهدير عال وجوقة من عبارات الوداع، بزعقة طويلة من البوق تحت أصابع جيمي الخبيثة.

في الأيام اللاحقة، كثيرًا ما عادت پوليانا بذاكرتها إلى الليلة الأولى في المخيم، فقد كانت التجربة جديدة جدًا ورائعة بطرق كثيرة.

انتهت رحلتهم البالغة أربعين ميلًا عند الرابعة. ومنذ الثالثة والنصف كانت سيارتهم الكبيرة تشق طريقها بتثاقل على الطريق القديم لنقل الأخشاب الذي لم يعدّ لسيارات تبلغ قوتها ستة سلندرات. كان هذا الجزء من الرحلة متعبًا للسيارة ولمن يقودها، لكنها لدى الركاب المبتهجين المتخففين من عبء الانتباه للحفر المختفية والمنعطفات الموحلة، لم تزد إلا بهجة وحماسًا في كل أفق عبر الأقواس الخضراء وكل ضحكة مجلجلة تحاشت الأغصان الخفيضة.

كان موقع المخيم معروفًا لجون پندلتن منذ سنوات، وقد حياه ببهجة ورضا خالطتها الراحة.

«أوه يا للروعة!»، ردد الآخرون.

«يسعدني أنه أعجبكم! ظننته سيكون ملائمًا»، هز جون پندلتن رأسه، «غير أنني قلقت قليلًا لأن هذه الأماكن تتغير كما تعلمون أحيانًا تغيرًا ملحوظًا. وقد نمت الشجيرات هنا ولكن يمكننا إزالتها بسهولة».

انطلق الجميع للعمل عندئذ ينظفون الأرض وينصبون الخيمتين الصغيرتين ويفرغون السيارة ويعدون الموقد ويرتبون «المطبخ والمؤونة».

أخذت پوليانا عندئذ تنتبه لجايمي خوفًا عليه، فقد أدركت فجأة أن الروابي والأغوار والتلال التي تناثر عليها الصنوبر ليست مثل أرضية مفروشة بالسجاد للعكازين، ورأت أن جايمي أدرك ذلك أيضًا. كما رأت رغم عجزه أن يحاول إنجاز نصيبه من العمل فضايقها المنظر. لقد هرعت مرتين وتصدت له وأخذت من ذراعيه الصندوق الذي يحاول حمله.

«انتظر، دعني آخذ هذا»، توسلت إليه، «لقد قمت بما يكفي»، وأضافت في المرة الثانية «اذهب واجلس في مكان ما وارتح يا جايمي، تبدو متعبًا جدًا!».

لو أنها نظرت عن كثب لرأت الدم يتدفق إلى جبينه، لكنها لم تنظر ولم تر ذلك. غير أنها رأت، لدهشتها البالغة، سادي دين تمضي قدمًا ويداها مملوءتان بالصناديق وسمعتها تقول «أوه، من فضلك يا سيد كرو، هلا ساعدتني في رفع هذه!».

فينطلق جايمي، الذي يجاهد في الإمساك بحزمة الصناديق

والعكازين، ويتقدم مسرعًا نحو الخيمتين. التفتت بوليانا إلى سادي دين وعلى شفتيها كلمات اعتراض، لكن الاعتراض لم ينطق لأن سادي كانت تسرع إليها واضعة إصبعها على شفتيها.

«أعلم أنك لم تفكري»، تلعثمت بصوت خفيض وهي تقترب من بوليانا، «ولكن ألا ترين؟ إنه يتألم لظنك أنه لا يستطيع فعل شيء مثل الآخرين. انظري إليه! انظري كم هو سعيد الآن».

نظرت بوليانا ورأت، رأت جايمي بكامل حماسه، يوازن ثقله على عكاز واحد ويؤرجح ثقله إلى الأرض. ورأته سعيدًا ووجهه مشرقًا وسمعته يقول بلامبالاة «هذه حصة أخرى من الآنسة دين، لقد طلبت مني إحضارها».

«بلى، إني أرى»، تنهدت بوليانا ملتفتة إلى سادي دين، لكن سادي ذهبت.

راقبت بوليانا جايمي كثيرًا بعد ذلك، رغم أنها حرصت على ألا يراها هو أو أي أحد آخر تراقبه. وأوجعها قلبها كلما راقبته. فقد رأته مرتين يصدع بمهمة ويفشل؛ مرة كان الصندوق ثقيلًا جدًا عليه ليرفعه، والمرة الأخرى مع الطاولة المطوية التي صعب عليه حملها إلى جانب عكازيه. ورأت في كل مرة نظراته السريعة من حوله ليرى إن لاحظ الآخرون. ورأت أيضًا أنه يتعب كثيرًا وأن وجهه رغم ابتسامته الجذلة بدا شاحبًا وممتقعًا كأنه يتألم.

«كان علينا أن نعرف أفضل»، غضبت بوليانا بشدة على نفسها وقد غشت عينيها الدموع «كان علينا أن نفكر بدلًا من السماح له

بالقدوم إلى مكان كهذا. التخييم حقًا! وبعكازين! لمَ لمْ نتذكر ذلك قبل انطلاقنا؟».

بعد ساعة حول النار وبعد العشاء حصلت بوليانا على جواب لسؤالها فمن النار المتوهجة أمامها والليل الشذي الرقيق حولها شعرت أنها تحت تأثير السحر الذي تنطقه شفتا جايمي، ونسيت مرة أخرى عكازيه.

الفصل الثاني والعشرون
الرفاق

كانوا ستتهم مجموعة مرحة ومنسجمة. ولم تلح نهاية للمباهج الجديدة التي تظهر مع كل يوم جديد، ليس أقلها الفتنة الجديدة للرفقة التي كانت جزءًا من هذه الحياة الجديدة التي يعيشونها.

قال جايمي ذات ليلة وهم جالسون حول النار «يبدو أننا عرفنا بعضنا بعضًا هنا في الغابة في أسبوع أفضل مما سنفعله في عام في البلدة».

«أشعر بذلك وأتساءل عن السبب»، قالت السيدة كرو وعيناها الحالمتان تتابعان اللهب المتوهج.

«أظنه شيئًا في الجو»، تنهدت پوليانا بسعادة، «في السماء والغابة والبحيرة شيء جميل جدًا، هذا كل ما في الأمر».

«أظنك تعنين أن السبب عزلتنا عن العالم»، قالت سادي دين بانكسار غريب في صوتها (لم تشارك سادي في الضحك الذي أعقب استنتاج پوليانا القاصر) «كل شيء هنا حقيقي وصادق فنصبح نحن

أيضًا حقيقيين وصادقين، وليس ما يقوله العالم عنا لأننا أثرياء أو فقراء أو عظماء أو وضيعين، بل ما نحن عليه حقًا».

«هو!»، تهكم جيمي بخفة، «يبدو هذا كله حسنًا، لكن السبب الحقيقي المنطقي أننا ليس معنا السيدة توم وديك وهاري جالسات في أروقتهن ويعلقن على كل حركة تبدر منا ويتساءلن بينهن أين نذهب، ولم نذهب إلى هناك وكم ننوي البقاء!».

«أوه يا جيمي كم تحب نزع شاعرية الأشياء»، أنبته پوليانا ضاحكة.

«لكن هذا عملي»، رد جيمي، «كيف تظنين أني سأبني السدود والجسور إن لم أر شيئًا آخر في المساقط المائية عدا الشعر؟».

«لا يمكنك يا پندلتن! والمهم هو الجسر في كل مرة!»، قال جايمي بصوت جعل الصمت يخيم على المجموعة قرب النار. ولم تمر سوى لحظة ثم كسرت سادي دين الصمت بعبارة جذلة «أف! أفضل أن أرى المساقط المائية في كل مرة دون جسور قربها تفسد المنظر!».

ضحك الجميع، وبدا أن التوتر ساد في مكان ما، ثم نهضت السيدة كرو.

«هيا هيا يا صغار، إن ناظورتكم الحازمة تقول إنه موعد النوم!»، وتفرقت الجماعة بعد تبادل عبارة ليلة سعيدة.

وهكذا مرت الأيام. كانت أيامًا رائعة لدى پوليانا، وأروع جزء فيها كان الصحبة الحميمة، التي اختلفت تفاصيلها لدى كل منهم لكنها ظلت مبهجة.

تحدثت مع سادي دين عن المسكن الجديد، والعمل البديع الذي تقوم به السيدة كرو. وتحدثتا أيضًا عن الأيام الخوالي حين كانت سادي تبيع الشرائط خلف المنضدة، وما فعلته السيدة كرو من أجلها. سمعت بوليانا أيضًا شيئًا عن الأم والأب العجوزين في الديار، والسعادة التي أدخلتها سادي على حياتهما بعملها الجديد.

«لقد بدأت أنت كل ذلك كما تعلمين»، قالت يومًا لبوليانا، لكنها اكتفت بهز رأسها نفيًا وقالت مؤكدة «كلام فارغ! هذا كله من عمل السيدة كرو».

وتحدثت بوليانا مع السيدة كرو عن المسكن، وعن خططها من أجل الفتيات. ومرة، أثناء نزهة في الغسق الهادئ تحدثت السيدة كرو عن نفسها وعن تغير نظرتها إلى الحياة. ومثلما فعلت سادي دين قالت بانكسار «لقد كنت أنت من بدأ ذلك يا بوليانا»، لكن بوليانا، كما فعلت مع سادي دين، لم تقبل بهذا، وأخذت تتحدث عن جايمي وما فعله.

«جايمي غالٍ عندي»، أجابت السيدة كرو بحب، «وأنا أحبه مثل ابني. لن يكون أعز علي إن كان ابن أختي الحقيقي».

«فلست تظنينه هو إذن؟».

«لا أدري، فلم نعلم شيئًا حاسمًا. أكون واثقة أنه هو أحيانًا، ثم يراودني الشك ثانية. أظنه يؤمن بذلك، بورك قلبه! في كل الأحوال ثمة أمر واحد أكيد؛ إن فيه دمًا نبيلًا في مكان ما. ليس جايمي

متشردًا عاديًا في الشوارع كما تعلمين، مواهبه والطريقة البديعة التي استجاب بها للتعليم والتمرين تثبت ذلك».

«صحيح»، هزت پوليانا رأسها موافقة، «وما دمت تحبينه كثيرًا فليس مهمًا حقًا إن كان جايمي الحقيقي أم لا، أليس كذلك؟».

ترددت السيدة كرو وتسلل إلى عينيها تجهم انفطار القلب.

«لا يتعلق الأمر به»، وتنهدت أخيرًا، «ولكن يخطر لي أحيانًا إن لم يكن هو جايمي فأين جايمي كِنت؟ أهو بخير؟ أهو سعيد؟ أيحبه أحد؟ حين أفكر هكذا يا پوليانا أكاد أن أجن. سأمنح أي شيء في العالم، كما أظن، لأعرف أن هذا الفتى هو جايمي كنت الحقيقي».

تذكرت پوليانا هذا الحوار أحيانًا في أحاديثها التالية مع جايمي، الواثق جدًا من نفسه.

«إنني أشعر بأني كذلك بطريقة ما»، قال مرة لپوليانا، «إنني موقن أنني جايمي كنت، لقد آمنت بذلك منذ زمن. وأخشى أنني آمنت به لوقت طويل فلا أطيق أن أعرف أنني لست هو. لقد فعلت السيدة كرو الكثير من أجلي، فتخيلي ألا أكون بعد ذلك سوى غريب!».

«لكنها تحبك يا جايمي».

«أعلم ذلك، وهذا سيؤلمني أكثر، ألا ترين؟ لأنه سيؤلمها. إنها تريدني أن أكون جايمي الحقيقي، وأعلم ذلك. ولو استطعت فعل شيء من أجلها يجعلها فخورة بي بصورة ما! لو استطعت فعل شيء

لإعالة نفسي مثل رجل! ولكن ماذا أستطيع بهذين؟»، تحدث بمرارة ووضع يده على العكازين بجانبه.

فوجئت پوليانا وحزنت، فهذه أول مرة تسمع فيها جايمي يتحدث عن علته منذ أيام الصبا الخالية. وحضرت في ذهنها بحماس الشيء الصحيح لتقوله، لكنها قبل أن تفكر بأي شيء تغير وجه جايمي تمامًا.

«ولكن اسمعي، انسي الأمر! لم أعن قول ذلك»، قال بجذل، «كما أن هذا انحراف بغيض عن اللعبة، أليس كذلك؟ أكيد أنني سعيد أن لدي عكازين، فهما أحسن بكثير من الكرسي المتحرك!».

«وماذا عن كتاب السعادة، هل تحتفظ به الآن؟»، سألت پوليانا بصوت متهدج قليلًا.

«طبعًا! لقد صار عندي مكتبة كاملة من كتب السعادة»، أجاب، «وكلها لها غلاف جلدي أحمر عدا الأول. إذ لم يزل هذا الدفتر الصغير القديم نفسه الذي أعطاه جيري لي».

«جيري! لقد نويت طوال الوقت سؤالك عنه»، قالت پوليانا، «أين هو؟».

«في بوسطن، ولم تزل مفرداته نابضة بالحياة كما السابق، إلا أنه يضطر أحيانًا إلى تخفيف نبرتها أحيانًا. لم يزل جيري يعمل في الصحيفة، لكنه يجلب الأخبار وليس بائعًا. أعني أنه مراسل كما تعرفين. لقد تمكنت من مساعدته وأميمتي. ألا تظنين أنني كنت سعيدًا؟ أميمتي في المصح من أجل الروماتزم».

«هل حالها أفضل؟».

«كثيرًا. ستخرج قريبًا جدًا، وستذهب لتدبير المنزل مع جيري، الذي أخذ يعوض أيام دراسته الضائعة خلال السنوات القليلة الماضية. إنه يسمح لي بمساعدته، شرط أن يكون قرضًا، وكان حريصًا على اشتراط هذا».

«صحيح»، هزت پوليانا رأسها استحسانًا، «أنا واثقة أنه يريده على هذه الشاكلة. فأن تكون لديك التزامات لا تستطيع دفعها أمر سيء، وأعرف كيف يكون ذلك. ولهذا أود مساعدة خالتي پولي، بعد كل ما فعلته من أجلي!».

«لكنك تساعدينها هذا الصيف».

رفعت پوليانا حاجبيها.

«أجل، إنني أستضيف نزلاء في الصيف. وأنا ماهرة أليس كذلك؟»، سألته وهي تشير بيديها إلى محيطها، «ما من مالكة نزل عندها مثل مهامي قطعًا! ولو أنك سمعت تنبؤات الخالة پولي الرهيبة لما يكونه نزلاء الصيف»، ضحكت بحيوية.

«وما تلك؟». هزت پوليانا رأسها نفيًا.

«لا يمكنني إخبارك. هذا سر مكتوم، ولكن..»، توقفت تنهدت وصار وجهها حزينًا، «هذا لن يدوم كما تعلم، لا يمكن، فنزلاء الصيف ليسوا بدائمين. علي فعل شيء للشتاء. وفكرت بالأمر، وأظنني سأكتب القصص».

التفت جايمي مندهشًا.

«ستكتبين ماذا؟»، سألها.

«أكتب القصص لبيعها كما تعلم. لا تندهش كثيرًا! الكثير من الناس يفعلون هذا، عرفت فتاتين في ألمانيا فعلتا ذلك».

«هل حاولت يومًا؟»، لم يزل جايمي يتحدث بغرابة.

«كلا، ليس بعد»، اعترفت پوليانا، ثم بحماس ردًا على تعبير وجهه قالت «أخبرتك أنني أستضيف نزلاء الصيف، ولا يمكنني فعل الأمرين معًا».

«طبعًا!».

فنظرت إليه نظرة موبخة.

«ألا تظن أن بوسعي فعلها؟».

«لم أقل ذلك».

«كلا، ولكنك تبدو كذلك. لست أرى لم لا يمكنني ذلك. إنه ليس مثل الغناء؛ فليس عليك أن يكون صوتك جيلًا لذلك. كما أنه ليس مثل آلة عليك تعلم عزفها».

«أظنه كذلك قليلًا»، كان صوت جايمي خفيضًا وعيناه تنظران بعيدًا.

«كيف؟ ماذا تعني؟ عجبًا يا جايمي، إنها ليست إلا قلم رصاص وورق، وهذا لا يشبه تعلم العزف على البيانو أو الكمان!».

«الآلة التي تعزفين عليها يا پوليانا ستكون القلب الكبير للعالم، وهذا عندي أروع آلة يتعلمها المرء. وإن كانت لمساتك ماهرة فسيرد العالم عليك بالابتسامات والدموع كما تشائين».

زفرت پوليانا زفرة واجفة، واخضلت عيناها.

«أوه يا جايمي، يا لروعة وصفك للأشياء دومًا! لم أفكر بالأمر هكذا قط. لكنه كذلك، صحيح؟ كم أحب فعلها! ربما لا أستطيع مطلقًا، لكني قرأت قصصًا في المجلات الكثير منها، ويهيأ لي أن بوسعي كتابة مثلها، فأنا أحب قص القصص، وأكرر دومًا تلك التي تقصها أنت وأضحك وأبكي دائمًا كما أفعل حين تقصها».

التفت جايمي بسرعة.

«أتجعلك تبكين وتضحكين يا پوليانا حقًا؟»، كان في صوته لهفة غريبة.

«طبعًا وأنت تعلم ذلك يا جايمي. وقد فعلت ذلك منذ زمن بعيد في الحديقة العامة. لا أحد يضاهيك في سرد القصص يا جايمي. عليك أن تكتب أنت القصص ولست أنا. اسمع يا جايمي، لم لا تفعل؟ أعلم أنك بوسعك ذلك تمامًا!».

ما من جواب، ويبدو أن جايمي لم يسمع، لأنه انتبه إلى السنجاب في تلك اللحظة الذي يجري بين الأحراج القريبة.

لم تتمتع پوليانا بالحديث والتنزه مع جايمي أو السيدة كرو أو سادي دين فحسب، بل تمتعت بذلك أيضًا مع جيمي وجون پندلتن.

وأيقنت بوليانا أنها لم تعرف جون بندلتن قط قبلًا، إذ زال كل الكآبة والتحفظ كليًا منذ أن جاؤوا إلى المخيم. فقد جدف وسبح وتجول بحماس تام بقدر جيمي، وبقدر نشاطه. وحول النار ليلًا نافس جايمي بحكايته لمغامراته المضحكة والمثيرة، وما عرض له في رحلاته في الدول الأخرى.

«في «صحراء سارا» كما تسميها نانسي»، ضحكت بوليانا ذات ليلة، بعد انضمامها للبقية عند بداية الحكاية.

غير أن الأفضل من هذا في رأي بوليانا كانت الأوقات التي حدثها جون بندلتن عن أمها -حين يكونان وحدهما- كما عرفها وأحبها في الأيام السالفة. وكان يُفرح بوليانا حديثه إليها، وفاجأها كثيرًا، إذ لم يتحدث جون بندلتن في السابق بحرية عن الفتاة التي أحبها بلا أمل. لعل جون بندلتن نفسه شعر بالدهشة لأنه قال مرة لبوليانا مازحًا «أتساءل لماذا أتحدث إليك هكذا».

«أوه، ولكني أحب أن تفعل»، تنهدت بوليانا.

«أجل أعلم. لكني لم أحسب أنني سأفعل. لا بد أن هذا عائد لشبهك الكبير بها، كما عرفتها. إنك تشبهين أمك كثيرًا يا عزيزتي».

«عجبًا، حسبت أمي كانت جميلة!»، قالت بوليانا في دهشة واضحة.

ابتسم جون بندلتن مداعبًا.

«لقد كانت يا عزيزتي».

وازدادت دهشة بوليانا.

«فلا أرى كيف أشبهها إذن!».

ضحك الرجل من صميم قلبه.

«لو قالت بعض الفتيات هذا يا بوليانا، أنا... حسن، لا تلقي بالًا لما أقول. أيتها الساحرة الصغيرة! بوليانا الحبيبة الصغيرة المسكينة».

فأظهرت بوليانا امتعاضًا صادقًا في عيني الرجل الفرح.

«أرجو ألا تنظر إليّ هكذا يا سيد بندلتن، ولا تغظني حول هذا. أحب أن أكون جميلة، رغم أن قولي هذا سخيف. ولكن عندي مرآة كما تعلم».

«فإني أشير عليك أن تنظري إليها حين تتكلمين يومًا ما»، قال الرجل بميل للوعظ.

اتسعت عينا بوليانا.

«عجبًا، هذا ما قاله جيمي»، صاحت.

«حقًا؟ يا للماكر الصغير!»، أجاب جون بندلتن بجفاف. ثم في واحد من التغييرات المفاجئة في السلوك التي تميزه قال بصوت خفيض «إن لك عيني أمك وابتسامتها يا بوليانا، وأنت عندي جميلة».

وصمتت بوليانا وقد غامت عيناها بالدموع الحارة.

ورغم أن هذه الأحاديث عزيزة، لكنها لم تكن عند بوليانا مثل

الأحاديث مع جيمي. فهي وجيمي لا يحتاجان للحديث ليشعرا بالسعادة. فقد كان جيمي مرتاحًا ومريحًا دومًا سواء أتحدثا أم لم يفعلا فلا يهم، ومتفهّمًا دومًا. وما من لعب على أوتار قلبها طلبًا للشفقة مع جيمي، فهو طويل طولًا حسنًا وقوي وسعيد. ولم يتفجع على ابن أخت مفقود منذ زمن بعيد، ولا يتألم لفقدان محبوبة الصبا. لم يكن بحاجة لأرجحة نفسه بألم على عكازين، وهذا يؤلم في رؤيته ومعرفته والتفكير به. يمكن للمرء أن يكون مسرورًا وسعيدًا وحرًا فحسب مع جيمي، يا له من غال! إنه يريح المرء حقًا!

الفصل الثالث والعشرون
المربوط إلى عصوين

حدث ذلك في اليوم الأخير في المخيم. رأت پوليانا أن حدوثه أصلًا أمر مؤسف، لأنه كان أول غيمة تجلب ظلالًا من الأسى والتعاسة إلى قلبها خلال الرحلة بأسرها، ووجدت نفسها تتنهد سدىً «ليتنا عدنا إلى البيت أمس الأول، لما حدث هذا».

لكنهم لم يعودوا «أمس الأول»، وقد حدث على هذا النحو.

في الصباح الباكر من اليوم الأخير ذهبوا جميعًا إلى تجوال لميلين إلى «الحوض».

«سنحصل على غداء شهي آخر من السمك قبل عودتنا»، قال جيمي ووافق الباقون بسعادة.

انطلقوا باكرًا وقد أخذوا معهم طعامًا خفيفًا ولوازم صيد السمك. ومشوا ضاحكين ومتحدثين لبعضهم بعضًا بمرح قاطعين الدرب الضيق في الغابة يقودهم جيمي الذي يعرف الطريق جيدًا.

في البدء مشت پوليانا خلف جيمي، ثم تراجعت شيئًا فشيئًا

وعادت إلى جايمي الذي كان الأخير في الصف. فقد ظنت پوليانا أنها لمست على وجه جايمي تعبيرًا عرفت أنه يعلوه حين يحاول شيئًا ينهك طاقته في الاحتمال حد الانهيار. وعرفت أن ما من شيء يهينه مثل ملاحظتها صراحة حالته هذه. كما عرفت في الوقت نفسه أنه سيقبل منها، راضيًا أكثر من أي شخص آخر، يدًا داعمة سريعة لتخطي جذع شجرة أو حجر. ولذا في الفرصة الأولى التي سمحت بالتغيير دون إظهار تعمدها، عادت للخلف خطوة فخطوة حتى وصلت هدفها؛ جايمي. وكوفئت بسرعة بالهيئة التي أشرق بها وجه جايمي، وبالطمأنة البسيطة التي قابل بها جذع شجرة واقع عبر دربهم وهزمه تحت الخيال اللطيف (الذي اختلقته پوليانا بحذر) لمساعدتها على العبور.

وما إن خرجوا من الغابة حتى صادفهم سور حجري طويل قديم له امتداد عريض على مراع مرتفعة مشمسة على كل جانب ومنزل مزرعة فاتن بعيد. ورأت پوليانا نبات عصا الذهب[1] في المراعي المحاذية وأرادته في الحال.

«انتظر يا جايمي! سأذهب لقطفه»، قالت بحماس، «ستكون باقة جميلة لمائدة نزهتنا!»، وتخطت السور الحجري العالي بنشاط وألقت بنفسها على الجانب الآخر.

غريب إغراء العصا الذهب، إذ رأت دومًا أمامها باقة أخرى وأخرى وكل واحدة أجمل من التي في يدها. قفزت پوليانا من باقة

(١) نبات عشبي معمر، يوجد في المراعي والمروج.

لباقة تزيد ما في يدها، وهي تنادي جايمي المنتظر بجذل، وقد بدت فاتنة في معطفها القرمزي. كانت يداها مملوءتين بها حين وصلت إلى مؤخرة بشعة لثور غاضب، وترددت صرخات جايمي المعذبة وصوت الحوافر أسفل التلة.

ما حدث تاليًا لم يتضح لها قط، فقد عرفت أنها ألقت بعصا الذهب وجرت وجرت كما لم تفعل قبلًا، وجرت كما ظنت أنها لن تفعل عائدة إلى السور وجايمي. عرفت أن وقع الحوافر خلفها يفوز دومًا، يفوز. بضبابية رأت أمامها بعجز وجه جايمي المتألم وسمعت صرخاته المبحوحة. ثم جاء صوت ما من مكان ما فجأة؛ صوت جيمي يصرخ صرخات مرحة مشجعة.

وظلت تجري وتجري بلا هدى، وهي تسمع خبط الحوافر يقترب ويقترب. وتعثرت وكادت أن تقع، ثم قومت نفسها واندفعت للأمام. شعرت أن طاقتها نفدت تمامًا حين سمعت قربها صيحات جيمي المرحة ثانية. ثم شعرت أنها انتزعت وحملت قرب شيء ينبض بقوة أدركت بغموض أنه قلب جيمي. كانت غشاوة مخيفة من الصراخ والأنفاس اللاهثة الساخنة والحوافر الخابطة تقترب وتقترب. ثم حين أيقنت أن هذه الحوافر ستكون فوقها، شعرت بنفسها تقذف جانبًا بقوة ولم تزل بين ذراعي جيمي، ولم تزل تشعر بأنفاس الحيوان المجنون الحارة وهو يسرع قربها. ووجدت نفسها على الجانب الآخر من السور وجيمي منحن فوقها يتوسل إليها أن تخبره أنها لم تمت.

جهدت لتبعد ذراعيه بضحكة صاخبة أقرب للنشيج ووقفت.

«ميتة؟ كلا، شكرًا لك يا جيمي. أنا بخير، أنا بخير. أوه كم كنت سعيدة سعيدة سعيدة لسماع صوتك! كان هذا رائعًا كيف فعلت ذلك؟»، لهثت.

«أف! ليس هذا بشيء. لقد...»، وأوقفت كلماته فجأة صيحة عاجزة. فالتفت ليرى جايمي قد أخفض رأسه على مبعدة منهما. وهرعت پوليانا نحوه.

«ما الأمر يا جايمي؟»، صاحت، «هل وقعت؟ هل جرحت؟».

ما من جواب.

«ما الأمر أيها الصديق؟ هل جرحت؟»، سأل جيمي.

ما من جواب أيضًا. ثم سحب جايمي نفسه ناهضًا والتفت، فرأيا وجهه عندئذ وتراجعا وذهلا ودهشا.

«جرحت؟ هل جرحت؟»، غص بصوت أجش مادًا يديه الاثنتين، «ألا تظنان أن رؤية شيء كهذا وعجزي عن فعل شيء أمر مؤلم؟ أن أكون موثوقًا إلى هاتين العصوين عاجزًا؟ أخبركما أنه ليس في العالم جرح مماثل!».

«ولكن... ولكن يا جايمي...»، تلعثمت پوليانا.

«لا تفعلي!»، قاطعها المشلول بقسوة، وجهد لينهض «لا تقولي شيئًا. لم أقصد إثارة الشفقة هكذا»، وختم قوله منكسرًا واستدار وتأرجح عائدًا إلى الدرب الضيق المؤدي إلى المخيم.

راقبه الاثنان خلفه يذهب للحظة كأنهما مسمران.

«حسن، بحق السماء!»، لهث جيمي بصوت تهدج قليلًا، «لقد كان هذا قاسيًا عليه!».

«وأثنيت عليك أمامه دون تفكير»، نشجت پوليانا، «ويداه، هل رأيتهما؟ كانتا تنزفان حيث جرحت المسامير اللحم»، أنهت قولها ومضت تمشي بلا هدى على الدرب.

«ولكن يا پوليانا... إلى أين تذهبين؟»، صاح جيمي.

«سأذهب إلى جايمي طبعًا! أتظنني سأتركه هكذا؟ هيا علينا اللحاق به للعودة».

وذهب جيمي متنهدًا زفرة لم تكن من أجل جايمي.

الفصل الرابع والعشرون
جيمي يتنبه

في الظاهر، قيل إن رحلة المخيم ناجحة نجاحًا كبيرًا، ولكن في الخفاء...

تساءلت پوليانا أحيانًا إن كان الخطأ منها، أو إن شعر الجميع بارتباك غامض غريب نحو الجميع. لقد شعرت بذلك حتمًا، ورأت براهين على شعور الآخرين به، وقد عزت سببه بلا تردد إلى اليوم الأخير في المخيم والرحلة التعسة إلى الحوض.

صحيح أنها وجيمي لحقا بجايمي بسهولة، وأقنعاه بعد كثير من المراوغة أن يدور ويعود إلى الحوض معهم. ومع جهود الجميع الواضحة ليتصرفوا كأن شيئًا خارج العادة لم يحدث، ولكن لم يفلح أحد في فعل ذلك. بالغ پوليانا وجيمي وجايمي بمرحهم قليلًا، ربما وشعر الآخرون بجلاء أن ثمة خطبًا رغم محاولاتهم إخفاء شعورهم هذا، دون أن يعرفوا حقيقة ما حدث. في هذه الحال، لا بد أن تكون السعادة والهناءة متعذرتين، وحتى غداء السمك المرتقب كان تفهًا وانطلقوا في رحلة العودة إلى المخيم أول العصر.

رجت پوليانا بعد العودة إلى البيت أن تنسى حكاية الثور الغاضب، لكنها لم تستطع نسيانها، لذا فمن العدل ألا تلوم الآخرين إن لم يفعلوا. وتذكرتها دومًا كلما نظرت إلى وجه جايمي، فرأت المعاناة على وجهه، والبقع القرمزية على راحتي يديه. انفطر قلبها عليه ولهذا فإن وجوده قد صار مؤلمًا لها. اعترفت لنفسها نادمة إنها لم تعد تحب وجودها مع جايمي ولا التحدث معه، غير أن هذا لا يعني أنها لم تكن معه كثيرًا. بل كانت معه أكثر من ذي قبل، ولأنها كانت نادمة وخائفة أن يلمح تعاستها، فلم تضع فرصة في الاستجابة إلى مبادراته للرفقة بل بحثت عنه عامدة أحيانًا. لم يتعين عليها البحث عنه كثيرًا على أية حال إذ بدا جايمي متعلقًا برفقتها أكثر فأكثر.

ظنت پوليانا أن سبب هذا يكمن في حادثة الثور وإنقاذها منه. لا يعني هذا أن جايمي ألمح يومًا إليها مباشرة، إذ لم يفعل قط. بل كان أكثر مرحًا من المعتاد، وظنت پوليانا أنها رأت مرارة تحت كل هذا لم تكن موجودة قبلًا. لم تستطع تجنب رؤية أنه يحاول تحاشي الآخرين وأنه يتنهد كأنما يتنفس الصعداء حين يجد نفسه وحده معها. وظنت أنها عرفت سبب هذا بعد أن قال لها كما قال لها يومًا حين كانا يراقبان الآخرين يلعبون كرة المضرب «في نهاية الأمر كما ترين، لا يمكن لأحد أن يفهم كما تفعلين يا پوليانا».

«أفهم؟»، لم تعرف پوليانا ما قصده في البدء، فقد كانا يتابعان اللاعبين لخمس دقائق دون أن ينطقا بكلمة.

«أجل، لأنك لم تتمكني من المشي مرة».

«أوه، أجل، أعلم»، تلعثمت پوليانا وعرفت أن قلقها الكبير لا بد ظهر على وجهها لأنه غير الموضوع بسرعة كبيرة وبابتهاج كبير بعد أن ضحك «هيا هيا يا پوليانا، لماذا لا تقولين لي أن ألعب اللعبة؟ لو كنت مكانك لفعلت. انسي الأمر من فضلك، لقد كنت ظالمًا إذ جعلتك تشعرين على هذا النحو!».

وابتسمت پوليانا وقالت «كلا، كلا حقًا!»، لكنها لم تنس الأمر، ولم تستطع. وزاد قلقها هذا من وجودها مع جايمي ومساعدته بما استطاعت.

«كأنني سأدعه يراني تعسة بوجودي معه!»، فكرت بحماس وهي تسرع لأخذ دورها في اللعبة.

لم تكن پوليانا وحدها من أحس بوجود الحرج والتحفظ الجديدين، فقد أحس به جيمي پندلتن، رغم أنه حاول هو أيضًا ألا يظهره.

لم يكن جيمي سعيدًا هذه الأيام. إذ تحول من الشاب خلي البال الذي يحلم بجسور رائعة فوق الأغوار السحيقة، إلى شاب قلق العينين يحلم بخصم يخشاه يبعد عنه الفتاة التي أحب.

أيقن جيمي جيدًا أنه واقع في هوى پوليانا، وشك بأنه كذلك منذ بعض الوقت. بل إنه وقف مبهوتًا ليجد نفسه رخوًا وضعيفًا للغاية أمام هذا الشيء الذي أصابه. وعرف أن جسوره الحبيبة ليست

بشيء إن قورنت بابتسامة في عيني الفتاة وكلمة من شفتيها. وأدرك أن أروع جسر في العالم سيكون ذاك الذي يساعده في عبور هوة الخوف والريبة اللذين شعر بهما يجولان بينه وبين پوليانا، الشك بسببه والخوف بسبب جايمي.

لم يدرك فراغ هذا العالم، عالمه دون پوليانا، حتى رآها في خطر ذلك اليوم في المرعى. ولم يدرك كم هي غالية عنده حتى اندفع كالسهم لسلامة پوليانا بين ذراعيه. بل إنه شعر للحظة وذراعاه تلفانها وذراعاها متعلقتان حول عنقه، أنها له وحتى في لحظة الخطر الفائق تلك أحس بإثارة النعمة الفائقة. ثم رأى بعد قليل وجه جايمي ويديه. ولم تعن عنده إلا شيئًا واحدًا أن جايمي أيضًا أحب پوليانا، وأن عليه الوقوف عاجزًا موثوقًا إلى عصوين. هذا ما قاله جايمي. وأيقن جيمي أنه إن اضطر إلى الوقوف قريبًا عاجزًا مربوطًا إلى عصوين وآخر ينقذ الفتاة التي يحبها، لبدا على هذه الشاكلة.

عاد جيمي إلى المخيم ذلك اليوم وأفكاره في صخب خوفًا وثورة، وتساءل إن كانت پوليانا تحب جايمي، وهذا منبع خوفه. وإن أحبته قليلًا فسيتنحى جانبًا، بضعف، ويدع جايمي، دون نزاع، يجعلها تتعلم أن تحبه أكثر. وهذا منبع الثورة. في الحقيقة كلا، عزم جيمي ألا يفعل ذلك، يجب أن يكون نزاعًا عادلًا بينهما.

ثم خجل جيمي من نفسه وحده، أيكون هذا نزالًا عادلًا؟ أيمكن أن يكون النزال بينه وبين جايمي عادلًا؟ فانتابه الإحساس نفسه الذي انتابه قبل سنوات، حين كان صبيًا، إذ تحدى صبيًا

جديدًا للنزال من أجل تفاحة ادعى كل منهما أنها له، ثم تبين له عند الضربة الأولى أن ذراع الصبي مشلولة. فخسر متعمدًا، طبعًا، وجعل الصبي المشلول يربح. لكنه قال لنفسه إن هذه الحالة مختلفة، فليس موضوع النزاع تفاحة، بل سعادة حياته، بل لعلها سعادة حياة پوليانا أيضًا. قد لا تكون مهتمة بجايمي على الإطلاق، بل تهتم بصديقها القديم جيمي، إن أبدى لها مرة رغبته في أن تهتم، وسيبدي لها ذلك، سيفعل...

احمر وجه جيمي بحرارة مرة أخرى، لكنه عبس غاضبًا أيضًا، لو أنه يستطيع نسيان هيئة جايمي حين قال تلك الكلمات الحزينة «مربوط إلى عصوين»! لو أنه... ولكن ما الفائدة؟ إنه ليس نزالًا عادلًا، وهو يعرف ذلك. كما عرف حينها، أن قراره سيكون كما هو؛ إذ سيراقب وينتظر. وسيعطي جايمي فرصته وإن أظهرت پوليانا اهتمامها فسينسحب بهدوء من حياتهما، ولن يعرف أحد منهما أبدًا بحزنه المرير. وسيعود إلى جسوره، كأن أي جسر حتى إن أخذه للقمر، يقارن بلحظة مع پوليانا! لكنه سيفعل ذلك، يجب أن يفعل ذلك.

كان هذا حسنًا وبطوليًا، وشعر جيمي بالنشوة والإثارة فيما يشبه السعادة حين خلد للنوم تلك الليلة. لكن العذاب يختلف في النظرية عن التطبيق كما عرف المعذبون منذ أزمان سحيقة. لقد كان قراره بإعطاء جايمي فرصته قرارًا حسنًا حين كان وحده في الظلام، غير أن ذلك كان أمرًا مختلفًا تمامًا حين تعلق بترك پوليانا وجايمي معًا في كل مرة يراهما سويًا. ثم أقلقه أيضًا موقف پوليانا الظاهر

من الفتى المشلول، فقد بدا هذا لجيمي كأنها تهتم لأمره حقًا، إذ كانت حريصة للغاية على راحته وبادية اللهفة لتكون معه. ثم جاء اليوم الذي كان لدى سادي دين ما تقوله حول الموضوع، كأن ذلك إزاحة لأي شك في ذهن جيمي.

كانوا كلهم في الخارج في ملعب التنس، وسادي تجلس وحدها حين جاء إليها جيمي.

«أنت التالية مع پوليانا، أليس كذلك؟»، سألها.

هزت رأسها نفيًا.

«لن تلعب پوليانا هذا الصباح».

«لن تلعب؟!»، تجهم جيمي الذي كان يعتمد على هذه اللعبة مع پوليانا، «لماذا؟».

لم تجب سادي دين للحظة قصيرة، ثم قالت بصعوبة واضحة «أخبرتني پوليانا ليلة البارحة أنها ترى أننا نلعب كرة المضرب كثيرًا، وهذا ليس حسنًا للسيد كرو، لأنه لا يستطيع اللعب».

«أعلم، ولكن...» صمت جيمي عاجزًا، وقد حفر التجهم غضنة عميقة في جبينه. ثم تعجب كثيرًا من التوتر في صوت سادي دين وهي تقول «لكنه لا يريدها أن توقف اللعب، إنه لا يريد أحدًا منا أن يغير شيئًا من أجله، فهذا يؤلمه. إنها لا تفهم، لا تفهم! لكني أفعل، رغم أنها تظن أنها تفهم!».

سبّب شيء ما في الكلمات أو الأسلوب خبطة في قلب جيمي،

فنظر إلى وجهها نظرة ثاقبة، وحلق سؤال على شفتيه. حبسه لدقيقة ثم أطلقه محاولًا أن يخفي جديته بابتسامة ممازحة.

«عجبًا يا آنسة دين، إنك لا تقصدين الإيحاء بأن ثمة اهتمامًا خاصًا ببعضهما، بين هذين الاثنين، أليس كذلك؟!».

نظرت إليه نظرة موبخة.

«أين كانت عيناك؟ إنها تعشقه! أعني أنهما يعشقان بعضهما»، صححت قولها بسرعة.

استدار جيمي، بكلام مخنوق، وذهب فجأة. لم يستطع البقاء أكثر، ولم يعد راغبًا بالحديث أكثر عندئذ إلى سادي دين. فاستدار بغتة حتى إنه لم يلحظ أن سادي دين أيضًا التفتت مسرعة وأشغلت نفسها بالنظر إلى قدميها على العشب كأنها أضاعت شيئًا. من الواضح جدًا أن سادي لم ترغب بالحديث أكثر.

قال جيمي بندلتن لنفسه إن ما قالته سادي دين ليس صحيحًا البتة، وإنه ليس إلا هراء. ورغم ذلك، وسواء أكان صحيحًا أم لا لم يستطع نسيانه، فقد لون كل أفكاره التالية، وتراقص أمام عينيه مثل ظل كلما رأى پوليانا وجايمي معًا. فنظر إلى وجهيهما خفية، وأصغى إلى نبرة صوتيهما. فبات موقنًا بمرور الوقت أن ذلك صحيح، أنهما يعشقان بعضهما وعقبى ذلك صار قلبه صلبًا كالرصاص. ثم عزم على الابتعاد موفيًا بوعده لنفسه، وقال في نفسه ما من خط للرجعة، وإن پوليانا ليست له.

تلا ذلك أيام حزينة على جيمي، ولم يجرؤ على الابتعاد تمامًا عن

عزبة هارنغتن لئلا يفتضح سره، وكان وجوده مع پوليانا عذابًا، ووجوده مع سادي دين بغيضًا، لأنه لم يستطع نسيان أنها هي من فتح عينيه أخيرًا. لم يكن لدى جيمي ملاذ في هذه الظروف، وهذا يبقي له السيدة كرو، وكانت هذه مريحة ووجد جيمي الراحة في صحبتها هذه الأيام. فقد بدت دومًا عارفة كيف تماشي مزاجه سواء أكان مرحًا أم حزينًا، وكانت معرفتها الكبيرة بالجسور أمرًا رائعًا، الجسور نفسها التي سيبنيها. كما كانت حكيمة وعطوفًا تعرف دومًا الكلمة المناسبة لقولها. لقد كاد أن يخبرها يومًا عن الرزمة، لولا مقاطعة جون پندلتن لهما في اللحظة الخاطئة، فلم تُحك القصة. خطر لجيمي غاضبًا أن جون پندلتن يقاطعهما دومًا في اللحظة الخطأ. ثم تذكر ما فعله جون پندلتن من أجله وشعر بالخجل.

كانت الرزمة شيئًا يعود إلى أيام صبا جيمي، ولم يذكر شيء عنها لأحد عدا جون پندلتن، مرة واحدة في وقت تبنيه. لم تكن الرزمة سوى ظرف كبير أبيض، اهترأ بمرور الزمن، منتفخ بالألغاز خلف ختم أحمر كبير. أعطاه له أبوه، وقد كُتب عليه بخط أبيه «إلى ابني جيمي، لا يفُتح الظرف حتى عيد ميلاده الثلاثين، إلا في حال موته، فيفتح في الحال».

فكر جيمي مرارًا بمحتوى ذلك الظرف. كان خوفه الأعظم في الأيام الخوالي في ملجأ الأيتام أن يكتشف أمره ويؤخذ منه. فوضعه تلك الأيام دومًا في بطانة معطفه. وفي الأيام التالية وضع في خزنة جون پندلتن بناء على اقتراحه.

«لأننا لا نعلم قيمته»، قال جون پندلتن مبتسمًا، «ثم إن أباك أرادك أن تأخذه، ولن نغامر بفقدانه».

«كلا، لا أريد فقدانه طبعًا»، ابتسم جيمي بشيء من الرزانة، «لكني لا أظنه ذا قيمة حقيقية يا سيدي، فلم يكن عند أبي المسكين ما هو قيّم كما أذكر».

أوشك جيمي على إخبار السيدة كرو يومًا عن هذه الرزمة لولا مقاطعة جون پندلتن لهما.

«ولعل من الأفضل أنني لم أخبرها»، فكر جيمي لاحقًا في طريقه للبيت، «فقد تظن أن في حياة أبي أمرًا مريبًا، ولا أريدها أن تظن بأبي الظنون».

الفصل الخامس والعشرون
اللعبة ويوليانا

قال آل كرو وسادي دين الوداع وعادوا إلى بوسطن قبل منتصف سبتمبر. وتنفست پوليانا الصعداء بعد أن درج قطارهم خارجًا من محطة بلدنغزفِل، رغم يقينها بافتقادها لهم. لم تفصح پوليانا عن إحساس الراحة هذا لأحد، واعتذرت في نفسها عن هذه الأفكار.

«لا يعني هذا أنني لا أحب كل واحد منهم بقوة»، تنهدت مراقبة اختفاء القطار في المنعطف على السكة، «بل إنني أشعر بالأسى على جايمي المسكين طوال الوقت، وأنا متعبة. سأكون سعيدة بالعودة إلى الأيام الخوالي مع جيمي».

غير أن پوليانا لم تعد إلى هذه الأيام، وكانت الأيام التي تلت مغادرة آل كرو هادئة قطعًا، ولكنها لم تقضها مع جيمي. فلم يعد يأتي إلى البيت إلا نادرًا، وحين يأتي، لم يكن جيمي القديم الذي عرفته. فقد صار مزاجيًا وقلقًا وصموتًا، أو مرحًا وثرثارًا على نحو متوتر أثار حيرتها وضيقها. وقد ذهب هو أيضًا إلى بوسطن

بعد وقت قصير، ولم تره قط. فوجئت پوليانا كثيرًا بافتقادها له. إن معرفة أنه في البلدة وأن ثمة فرصة لقدومه أفضل من الفراغ الموحش للغياب الأكيد، وكانت تؤثر مزاجه المتغير بين الكآبة والمرح على هذا الصمت المطبق للاشيء. ثم تنبهت لنفسها يومًا بوجنتين ساخنتين وعينين خجلتين.

«حسن يا پوليانا ويتير»، أنبت نفسها بقسوة، «قد يتبادر لذهن المرء أنك واقعة في هوى جيمي بين پندلتن! ألا يمكنك التفكير بشيء آخر سواه؟».

ثم استنهضت نفسها في الحال لتكون مرحة ونشطة، وأن تزيح جيمي بين پندلتن من أفكارها، وقد صدف أن الخالة پولي ساعدتها في هذا رغم أنها لم تفعله عامدة. برحيل آل كرو رحل أيضًا مصدر دخلهما الرئيس، وأخذت الخالة پولي تبدي قلقها ثانية لحالتهما المالية.

«لست أدري ما الذي سيحل بنا يا پوليانا»، تشكت دومًا، «صحيح أننا أفضل بعد عمل الصيف، ولدينا مبلغ قليل من الأملاك، لكنني لا أعلم متى سيتوقف هذا مثل بقية الإيرادات. لو استطعنا فعل شيء يدر بعض المال».

وقعت عينا پوليانا يومًا، بعد واحدة من نوبات العويل والتفجع، على إعلان مسابقة لكتابة القصة. وكان ذاك مغريًا للغاية، فالجوائز كبيرة وعديدة، ووضعت الشروط بطريقة مثيرة للحماس، يظن المرء حين يقرؤها أن الفوز أسهل شيء في العالم. كما كان فيها دعوة خاصة كأنها كتبت لپوليانا:

هذا الإعلان لك، يا من تقرأ. وماذا لو لم تكتب قصة من قبل؟! هذا ليس دليلًا على عدم قدرتك على كتابة واحدة. حاول، هذا كل ما في الأمر. ألا تحب أن تحصل على ثلاثة آلاف دولار؟ ألفي دولار؟ ألف دولار؟ خمسمئة أو مئة دولار؟ فلم لا تسعى لذلك إذن؟

«هذا هو!»، قالت پوليانا وهي تصفق، «إنني سعيدة بأني رأيته! ويقول الإعلان أن بوسعي فعلها أيضًا. أظنني قادرة إن حاولت فحسب. سأذهب لإخبار خالتي، فلا تقلق بعد الآن».

نهضت پوليانا وفي منتصف الطريق نحو الباب أوقف خطواتها رأي آخر.

«أحسب أنني لن أخبرها بعد أن فكرت بالأمر، ستكون مفاجأتها أجمل، إن حصلت على الجائزة الأولى...!».

خلدت پوليانا إلى الفراش تلك الليلة وهي تخطط بما ستفعله بثلاثة الآلاف دولار.

بدأت پوليانا قصتها اليوم التالي. فقد أخرجت كمية من الورق، بسحنة جادة، وبرت ستة أقلام رصاص وأجلست نفسها على مكتب هارنغتن عتيق الطراز في غرفة الجلوس. وبعد عضعضة أطراف الأقلام بقلق، كتبت ثلاث كلمات على الورقة الفارغة البيضاء أمامها. ثم زفرت زفرة طويلة، وألقت بالقلم الثاني المكسور، وأخذت واحدًا أخضر رشيقًا له رأس جميل، وتأملت هذا الرأس مقطبة.

«أوه يا إلهي! من أين يأتون بعناوينهم؟!»، قنطت، «لربما علي أن أقرر القصة أولًا، ثم أفكر بعنوان يناسبها. سأكتبها على أية حال». وفي الحال خطت خطًا أسود على الكلمات الثلاث وهيأت القلم لبداية جديدة.

لكنها لم تبدأ في الحال، وحين بدأت تبين أنها بداية كاذبة، ففي نهاية نصف الساعة لم يكن في الورقة شيء إلا خليط من السطور المخربشة، فيها كلمات قليلة هنا وهناك تركت لتحكي الحكاية.

دخلت الغرفة عندئذ الخالة پولي، وأدرات عينين متعبتين نحو ابنة أختها.

«حسن يا پوليانا، ما الذي تعدين له الآن؟»، سألتها.

ضحكت پوليانا واحمرت شاعرة بالذنب.

«لا شيء مهم يا خالتي، لا يبدو مهمًا بعد»، أقرت بابتسامة حزينة، «ثم إنه سر ولن أخبرك به».

«حسن جدًا، كما تشائين»، تنهدت الخالة بولي، «ولكني أستطيع اخبارك الآن أنك إن حاولت الخروج بنتيجة مختلفة من وثائق الرهن التي تركها السيد هارت، فذلك عبث. لقد حاولت بنفسي مرتين».

«كلا يا عزيزتي، إنها ليست الوثائق، إنها كومة ألطف من أي ورق»، زعقت پوليانا مبتهجة عائدة إلى عملها. لمع في عيني پوليانا خيال متألق فجأة لما قد يحدث حين تكون ثلاثة الآلاف دولار من نصيبها.

كتبت پوليانا وشطبت لنصف ساعة أخرى، وعضت أقلامها، ثم بعد أن ثبطت عزيمتها -لكنها لم تفن- جمعت أوراقها وأقلامها وغادرت الغرفة.

«أحسب أن من الأفضل لي الكتابة في الطابق العلوي وحدي»، خطر لها وهي تسرع في الردهة «ظننت أن علي الكتابة على مكتب، ليكون عملًا أدبيًا. ولكن المكتب لم يساعدني هذا الصباح. سأجرب مقعد النافذة في غرفتي».

تبين أن مقعد النافذة أكثر إلهامًا نظرًا إلى الصفحات المكتوبة والمعاد كتابتها التي سقطت من يد پوليانا. وبعد نهاية نصف ساعة أخرى، اكتشفت پوليانا أن الوقت حان لتناول الغداء.

«أنا سعيدة أنه حان»، تنهدت لنفسها، «أفضل تناول الغداء على القيام بهذا. إنني أريد فعل هذا حتمًا، غير أني لم أعرف أنه عمل صعب، مجرد قصة حقًا!».

عملت پوليانا بإخلاص وعزم خلال الشهر التالي، غير أنها وجدت أن «مجرد قصة» ليست عملًا سهلًا إنجازه. لكنها لم تكن لتبدأ مشروعًا وتحجم. ثم إن الجائزة ثلاثة آلاف دولار، أو غيرها من الجوائز الأخر إن لم تفز بالأولى! ولكن حتى جائزة المئة دولار كانت مهمة! لذا كتبت يومًا بعد يوم ومسحت، وكتبت ثانية حتى صارت القصة أخيرًا كاملة أمامها. ثم لا بد من القول إنها ببعض الهواجس أخذتها إلى ميلي سنو لتطبعها على الآلة الكاتبة.

«إنها جيدة، أعني أنها منطقية»، ابتهجت پوليانا بشك وهي

تسرع نحو كوخ آل سنو. «كما أنها قصة جميلة عن فتاة رائعة للغاية. لكني أخشى أن فيها شيئًا في مكان ما لا يبدو جيدًا. على أية حال، أظن أن علي ألا أتوقع الجائزة الأولى، فلا أصاب بخيبة الأمل عندما أحصل على واحدة من الأخرى».

تذكرت پوليانا جيمي دومًا كلما ذهبت إلى آل سنو، فقد رأته أول مرة على جانب الطريق قرب بيتهم، وكان فتى يائسًا فارًا من ملجأ الأيتام قبل سنوات. فكرت به ثانية اليوم، وقد حبست أنفاسها. ثم رفعت رأسها بزهو كما تفعل دومًا حين تفكر بجيمي، وأسرعت في ارتقاء عتبة آل سنو وقرعت الجرس.

رحب آل سنو بپوليانا ترحيبًا حارًا كما يفعلون دومًا، ولا يمضي وقت طويل حتى يأخذهم الحديث عن اللعبة، فلم تعد تلعب بحماس في أي بيت من بيوت بلدنغزفِل أكثر من بيت آل سنو.

«حسن، كيف تمضي أموركما؟»، سألت پوليانا حين أنهت من جزء العمل في زيارتها.

«رائعة!»، ابتسمت ميلي سنو، «هذا العمل الثالث الذي أحصل عليه هذا الأسبوع. أوه يا آنسة پوليانا كم أنا سعيدة لأنك جعلتني أتعلم الطباعة، لأن بوسعي فعل ذلك في البيت كما ترين! وهذا كله بفضلك».

«كلام فارغ!»، أنكرت پوليانا بمرح.

«لكنه صحيح. أولًا لم يكن لي أن أقوم به على أية حال، لولا أن اللعبة جعلت أمي تتحسن كثيرًا كما تعرفين، فصار عندي وقت لنفسي. ثم إنك من اقترح الطباعة منذ البداية وساعدتني في شراء الآلة. فكيف لا يكون ذلك بفضلك؟!».

لكن پوليانا اعترضت ثانية، وقاطعتها السيدة سنو هذه المرة من كرسيها المتحرك قرب النافذة. وتحدثت السيدة سنو بوقار وجدية فأصغت پوليانا إلى ما عندها رغمًا عنها.

«أصغي إلي يا صغيرتي، فأنا أظنك لا تعرفين ما فعلت، وليتك تعلمين! ثمة نظرة في عينيك يا عزيزتي اليوم لا أحب رؤيتها فيهما. إنك مكروبة وقلقة لأمر ما، أعلم ذلك ويمكنني رؤيته. ولا أستغرب، فموت عمك وحالة خالتك وكل شيء، ولن أقول المزيد حول هذا. لكن ثمة أمر أود قوله يا عزيزتي، ولا بد أن تسمحي لي بقوله، لأني لا أطيق رؤية هذا الظل في عينيك دون محاولة إزاحته بإخبارك بما فعلت لي ولكل هذه البلدة ولكثير من الناس في كل مكان».

«سيدة سنو!»، اعترضت پوليانا في حزن صادق.

«أوه، أنا أعني ذلك وأعرف عم أتحدث»، هزت العليلة رأسها فرحة، «دعيني أبدأ وانظري إلي. ألم تجديني امرأة مهمومة شكاءة لا ترغب بما لديها حتى تعثر على ما لا تملكه؟ ألم تفتحي عينيّ بإحضارك ثلاثة أنواع فأضطر لتناول ما أردت مرة؟».

«أوه، يا سيدة سنو، هل كنت يومًا وقحة هكذا؟»، تمتمت پوليانا وقد احمرت متألمة.

«لم تكوني وقحة»، اعترضت السيدة سنو بحزم، «لم تقصدي أن تكوني وقحة، وهذا ما أحدث فارقًا كبيرًا. كما أنك لا تعظين يا عزيزتي. ولو فعلت لما وجدتني ألعب اللعبة، ولا أي أحد آخر، كما أظن. لكنك جعلتني ألعبها، وانظري ما فعلته لأجلي ولميلي! ها أنا ذي أحسن بكثير فأجلس على كرسي متحرك، وأتحرك على هذه الأرضية به أينما شئت. وهذا يعني كثيرًا حين يتعلق بخدمة نفسك، ومنح مَن حولك فرصة لالتقاط الأنفاس، أعني ميلي في هذه الحال. ويقول الطبيب إن هذا بفضل اللعبة. ثم لديك الآخرون، الكثير منهم في هذه البلدة الذين أسمع عنهم طوال الوقت. انكسر رسغ نيلي ماهوني، وسرت أنها ليست ساقها وأنها لا تبالي بالرسغ أبدًا. وفقدت السيدة تبتز العجوز سمعها، لكنها سعيدة أنها لم تفقد بصرها وهي مسرورة حقًا. أتذكرين جو الأحول الذي لقب بجو الشكس لنزقه؟ لا يعجبه شيء مثلما كنت أنا. حسن، علمه أحد اللعبة كما يقولون وصنع منه رجلًا مختلفًا. واسمعي يا عزيزتي، ليست هذه البلدة فحسب، بل أماكن أخرى. وصلتني رسالة من نسيبتي في ماسوشستس، البارحة وأخبرتني عن السيدة توم بايسون التي كانت تعيش هنا. أتذكرينهم؟ كانوا يسكنون على طريق تلة بندلتن».

«أوه، أجل أذكرهم». قالت بوليانا.

«حسن، لقد تركوا البلدة في الشتاء الذي قضيته في المصح وذهبوا إلى ماساشوستس حيث تعيش أختي، وهي تعرفهم جيدًا.

تقول إن السيدة بايسون أخبرتها عنك، وكيف أنقذتهم لعبة السعادة من الطلاق. ولا يلعبونها بأنفسهم فحسب، بل إن الكثيرين صاروا يلعبونها هناك، ويعلمونها لآخرين أيضًا. لذا ها أنت ترين يا عزيزتي، لا يمكن القول إن لعبة السعادة ستوقف. أردتك أن تعرفي هذا، فقد ظننته يساعدك في أن تلعبي اللعبة أحيانًا. ولا تظني أني لا أفهم يا عزيزتي، أنه يصعب عليك لعب لعبتك أحياناً».

نهضت بوليانا، مبتسمة لكن الدموع تلألأت في عينيها وهي تمد يدها مودعة.

«شكرًا لك يا سيدة سنو»، قالت بصوت متهدج، «إن الأمر صعب أحيانًا، ولعلي احتجت مساعدتك في لعبتي. ولكن على أية حال الآن...»، لمعت عيناها بفرحها السابق، «إن فكرت يومًا أنني لا أستطيع لعب اللعبة بنفسي فسأتذكر أنني يمكنني أن أسعد لأن الكثير من الناس يلعبونها!».

عادت بوليانا إلى البيت وهي تمشي بهدوء تلك العصرية. ورغم تأثرها بما قالته السيدة سنو، ولكنها شعرت بشيء من الحزن الخفي. إذ تذكرت الخالة بولي، التي لا تلعب إلا نادرًا، وتساءلت إن كانت هي نفسها تلعبها حين توجب عليها.

«لعلي لم أكن حريصة دومًا على البحث عن الجانب السعيد في الأشياء التي تقولها الخالة بولي»، خطر لها بإحساس مبهم بالذنب. «لعل الخالة بولي تلعب اللعبة إن أنا أحسنت لعبها، لكني سأحاول. وإن لم أتنبه لوجدت كل هؤلاء الآخرين يلعبون أحسن مما أفعل!».

الفصل السادس والعشرون
جون پندلتن

أرسلت پوليانا قصتها (وقد طبعت طباعة أنيقة) قبل عيد الميلاد بأسبوع من أجل المسابقة، ولن تعلن أسماء الفائزين قبل شهر أبريل. هذا ما ذكره إعلان المجلة، فأعدت پوليانا نفسها للانتظار الطويل بصبر ورباطة جأش.

«لا أدري على أية حال، لكني سعيدة إنه وقت طويل»، قالت لنفسها، «لأني أستطيع الاستمتاع كل الشتاء بالتفكير في حصولي على الجائزة الأولى بدلًا من الأُخَر التي سأحصل عليها. لعل من الأفضل أن أفكر بحصولي عليها، فإن حصلت عليها، فلن أكون قضيت أيام الانتظار تعسة. وإن لم أحصل فلا أكون قضيت كل هذه الأسابيع في تعاسة مسبقة، ويمكنني أن أسعد بحصولي على واحدة من الجوائز الصغرى». لم يخطر في بال پوليانا أنها قد لا تحصل على أي جائزة. فقد بدت القصة لدى پوليانا وقد طبعتها ميلي سنو، جميلة بقدر ما ستكون مطبوعة في المجلة.

لم يكن عيد الميلاد وقتًا سعيدًا في عزبة هارنغتن هذا العام، رغم

جهود پوليانا الحثيثة لجعله سعيدًا. فقد رفضت الخالة پولي تمامًا أي شكل من أشكال الاحتفال بهذا اليوم، وجعلت موقفها واضحًا تمام الوضوح لا يداخله شك فلم تستطع پوليانا تقديم أبسط الهدايا.

زارهما جون پندلتن مساء عيد الميلاد، فانصرفت الخالة پولي معتذرة، غير أن پوليانا المنهكة من اليوم الطويل مع خالتها رحبت به فرحة. لكنها وجدت شيئًا يعكر صفو فرحتها، فقد أحضر جون پندلتن معه رسالة من جيمي لم يكن فيها إلا الخطط التي يعدها هو والسيدة كرو لاحتفال رائع بعيد الميلاد في مسكن الفتيات العاملات، ورغم أن پوليانا شعرت بالخجل لأنها أرادتها لنفسها، فلم تشعر بمزاج يسمح بسماع احتفالات عيد الميلاد من جيمي عدا عن الجميع.

لم يكن جون پندلتن مستعدًا لتجاهل الموضوع، بعد أن قرئت الرسالة.

«إنها خطط رائعة!»، قال بعد أن طوى الرسالة.

«أجل، حقًا، جميلة!» غمغمت پوليانا محاولة أن تتحدث مبدية حماسًا.

«وهي الليلة أيضًا أليس كذلك؟ أود المرور بهم الآن».

«أجل»، غمغمت پوليانا ثانية بحماس حذر.

«أتصور أن السيدة كرو عرفت ما سيحدث حين انتقت جيمي لمساعدتها»، ضحك الرجل، «ولكني أتعجب من حب جيمي لهذا، أن يقوم بدور سانتا كلوز لخمسين شابة مرة واحدة!».

«حسن، إنه يرى ذلك ممتعًا طبعًا!»، رفعت پوليانا ذقنها عاليًا.

«ربما، لكن عليك الاعتراف أن هذا مختلف قليلًا عن بناء الجسور».

«أوه، أجل».

«لكني أراهن على جيمي، وأراهن أن هؤلاء الفتيات لم يقضين يومًا وقتًا ممتعًا مثل ما سيمنحه لهن الليلة».

«أجل، طبعًا»، تلعثمت پوليانا محاولة الحفاظ على الحماسة الحارة في صوتها، ومحاولة جاهدة ألا تقارن أمسيتها الكئيبة في بلدنغزڤِل التي ليس فيها سوى جون پندلتن، مع تلك التي فيها خمسون شابة في بوسطن مع جيمي.

ساد صمت قصير حدق جون پندلتن أثناءه باللهيب المتراقص للنار أمامه.

«إنها امرأة رائعة، أعني السيدة كرو»، قال أخيرًا.

«إنها كذلك فعلًا!» كان الحماس في صوت پوليانا صادقًا هذه المرة.

«كتب جيمي لي قبلًا عما فعلته لهؤلاء الفتيات»، تابع الرجل ولم يزل محدقًا بالنار، «وكتب في الرسالة الأخيرة قبل هذه الكثير عنه وعنها، وقال إنه أعجب بها دومًا، لكنه أعجب بها أكثر الآن بعدما رأى حقيقتها».

«إنها محبوبة، هذه حقيقة السيدة كرو»، قالت پوليانا بدفء، «إنها محبوبة بكل شكل، وأنا أحبها».

تململ جون بندلتن فجأة، والتفت إلى بوليانا وفي عينيه نظرة حزينة غريبة.

«أعلم يا عزيزتي. وعن هذا فقد يكون ثمة آخرون يحبونها أيضًا».

أسقط قلب بوليانا نبضة، فقد خطرت لها فكرة مفاجئة بقوة مضللة شادهة؛ جيمي! أمن الممكن أن يعني جون بندلتن أن جيمي يهتم بالسيدة كرو على هذا النحو؟

«أتعني...؟»، تلعثمت بوليانا ولم تستطع التكملة.

نهض جون بندلتن بانتفاضة متوترة تميزه.

«أعني الفتيات طبعًا»، أجاب بخفة بتلك الابتسامة الحزينة، ألا تظنين أن هؤلاء الفتيات الخمسين يحببنها حتى الموت؟».

قالت بوليانا «بلى، طبعًا»، وهمهمت بشيء آخر لائق ردًا على تعليق جون بندلتن التالي، لكن أفكارها كانت مبلبلة وتركت الرجل يتحدث لبقية الأمسية.

لم يكن جون بندلتن عازفًا عن هذا، فقد دار في الغرفة مرة أو اثنتين قلقاً ثم جلس في مكانه، وحين تحدث، كان الكلام عن موضوعه السابق، عن السيدة كرو.

«غريب أمر جايمي ابنها بالتبني، أتساءل إن كان هو ابن أختها؟».

ولما لم تجب بوليانا، تابع الرجل بعد لحظة صمت.

«إنه شاب طيب على أية حال ويعجبني. ففيه شيء صادق وأصيل. إنها مرتبطة به، وهذا واضح لمن يرى سواء أكان قريبها أم لا».

ساد صمت مرة أخرى، وبصوت تغير قليلًا قال جون پندلتن «إنه غريب أيضًا، حين تفكرين بالأمر، إنها لم تتزوج ثانية قط. إنها امرأة جميلة للغاية قطعًا، ألا ترين هذا؟».

«بلى بلى، إنها كذلك حقًا»، اندفعت پوليانا بعجلة وتهور، «امرأة جميلة للغاية».

كان في صوت پوليانا شيء من الانكسار، فقد رأت پوليانا حينئذ انعكاس وجهها في المرآة المقابلة، وپوليانا لم تر نفسها قط امرأة جميلة للغاية.

هام جون پندلتن وهام بتأمل ورضا وعيناه على النار. سواء أأجيب أم لم يجب لم يقلقه ذلك، وسواء أأصغي إليه أم لا لم يعرف إلا لمامًا، لقد أراد فيما يبدو أن يتحدث فحسب، لكنه نهض كرهًا في النهاية وقال ليلة طيبة.

تاقت پوليانا لذهابه لنصف ساعة منهكة فيتسنى لها البقاء وحدها، لكنها تمنت لو عاد بعد رحيله. فقد وجدت فجأة أنها لا تود البقاء وحدها مع أفكارها.

لقد اتضح الأمر لپوليانا الآن كثيرًا، وما من شك فيه. إن جيمي يحب السيدة كرو، وهذا ما جعله مزاجيًا وقلقًا حين غادرت. هذا ما جعله قليلًا ما يأتي لرؤية پوليانا، صديقته القديمة، وهذا ما...

احتشد الكثير من الأحداث الصغيرة من الصيف الماضي في ذاكرة پوليانا، شهادات جلية لا يمكن نكرانها.

ولم لا يحبها؟ كانت السيدة كرو جميلة وفاتنة قطعًا. صحيح أنها أكبر من جيمي، لكن الشبان يتزوجون نساء أكبر منها بأضعاف كثيرة، وإن أحبا بعضهما...

بكت پوليانا حتى نامت تلك الليلة.

في الصباح حاولت مواجهة الأمر بشجاعة، بل حاولت بابتسامة دامعة أن تخضعه لاختبار لعبة السعادة. وتذكرت عندئذ أمرًا قالته نانسي قبل سنوات «إن لم يستفد ثنائي من لعبة السعادة في العالم فسيكونان عاشقين متخاصمين!».

«لكننا لسنا متخاصمين ولا عاشقين»، فكرت پوليانا وقد احمرت، «ولكن يمكنني أن أسعد لسعادته، ولسعادتها أيضًا، عدا...»، لم تستطع پوليانا إكمال الجملة لنفسها.

أصبحت پوليانا، بعد أن تأكدت من حب السيدة كرو وجيمي لبعضهما، حساسة للغاية لأي شيء يميل لتعزيز هذا الرأي. وفي مراقبتها وجدته كما توقعت في رسائل السيدة كرو أولًا.

«أرى صديقك پندلتن الشاب كثيرًا»، كتبت السيدة كرو يومًا، «ويعجبني أكثر فأكثر. أتمنى على أية حال، بدافع الفضول فحسب، أن أتمكن من اقتفاء أثر منبع الإحساس المضلل بأني رأيته في مكان ما من قبل».

كثيرًا ما ذكرته، بعد هذا، بأريحية، ولدى پوليانا في أريحية هذه الإشارات تكمن الشوكة الأحدّ، لأنها أظهرت أن جيمي وحضوره كانا أمرًا مسلمًا به لدى السيدة كرو. ووجدت پوليانا من مصادر أخرى أيضًا وقودًا لنار شكوكها. وكثيرًا ما مر جون پندلتن مع قصصه عن جيمي، وعما يفعله جيمي، ودومًا تذكر السيدة كرو. تساءلت پوليانا المسكينة أحيانًا إن كان بوسع جون پندلتن الحديث عن شيء آخر، غير أن على شفتيه تردد دومًا اسما السيدة كرو وجيمي دومًا.

ووصلتها رسائل سادي دين أيضًا وهي تتحدث عن جيمي وما يفعله لمساعدة السيدة كرو، وحتى جايمي الذي كتب قليلًا عنده نصيب يضيفه لأنه كتب ذات مساء «إنها العاشرة وأنا أجلس هنا وحدي بانتظار عودة السيدة كرو، فقد ذهبت هي وپندلتن إلى إحدى مناسباتهم الاجتماعية المعتادة في المسكن».

أما من جيمي نفسه، فلم تسمع پوليانا إلا نادرًا، وبسبب هذا قالت في نفسها إنها يمكنها أن تسعد «لأنه لا يكتب لها كثيرًا إن لم يكن عنده ما يتحدث عنه سوى السيدة كرو والفتيات!»، وتنهدت.

الفصل السابع والعشرون
يوم لم تلعب پوليانا اللعبة

وهكذا مرت أيام الشتاء واحدًا تلو الآخر. مر شهرا يناير وفبراير بالثلج والقطقط، وجاء مارس بريح تصفر وتعول في أرجاء البيت القديم، وجعلت مصاريع النوافذ المرتخية تتمايل والبوابة المرتخية تصر صريرًا يرهق الأعصاب التي بلغت حد الانهيار.

لم تجد پوليانا لعب اللعبة أمرًا سهلًا هذه الأيام، لكنها لعبتها بإخلاص وجسارة. أما الخالة پولي فلم تلعبها قط، وهذا لم يسهل لعبها على پوليانا. كانت الخالة پولي كئيبة ومحبطة، كما أنها لم تكن على ما يرام وقد انغمست انغماسًا واضحًا في كآبة مطلقة.

لم تزل پوليانا تتوقع الجائزة، وتنازلت عن الجائزة الأولى إلى واحدة من الجوائز الصغرى، غير أنها كتبت قصصًا أخرى، وقد أخذ انتظام عودة هذه القصص من رحلتها إلى محرري المجلات يهز يقينها بنجاحها كاتبة.

«أوه، حسن، يمكنني أن أسعد لأن خالتي پولي لا تعلم شيئًا عن ذلك»، قالت پوليانا لنفسها بشجاعة، وهي تطوي بإصابعها

رسالة «رُفض مع الشكر» التي شبكت مع قصة فاشلة أخرى، «لا يمكن أن يقلقها هذا، فهي لا تعلمه!».

تمحورت حياة بوليانا هذه الأيام حول الخالة بولي، ومن المشكوك فيه أن الخالة بولي تعرف أنها صارت متطلبة، وأن ابنة أختها تكرس حياتها لها. بلغت الأمور ذروتها في يوم كئيب للغاية من مارس، فقد نظرت بوليانا عند استيقاظها إلى السماء وتنهدت، إذ تكون الخالة بولي أكثر نزقًا في الأيام الغائمة. نزلت بوليانا، بأغنية مرحة بدت مصطنعة، إلى المطبخ وأخذت تعد الإفطار.

«أظنني سأعد كعك الذرة»، قالت للموقد سرًا، «فلعل الخالة بولي تتغاضى عن أمور أخرى قليلًا».

طرقت على باب خالتها بعد نصف ساعة. «استيقظت باكرًا؟ أوه، هذا حسن! وقد صففت شعرك بنفسك!».

«لم أستطع النوم، فاضطررت للنهوض»، تنهدت الخالة بولي بوهن، «اضطررت لتصفيف شعري أيضًا فلم تكوني موجودة».

«لكني لم أحسبك مستعدة من أجلي يا خالتي»، شرحت بوليانا على عجل، «لا عليك، ستسعدين أنني لم أكن موجودة حين تعرفين ماذا كنت أفعل».

«بل لن أسعد، ليس هذا الصباح»، قطبت الخالة بولي تقطيبة غريبة، «لا يمكن لأحد أن يسعد هذا الصباح. انظري إنها تمطر! هذا ثالث يوم ماطر هذا الأسبوع».

«هذا صحيح، ولكنك تعلمين أن الشمس لا تكون رائعة للغاية كما تبدو بعد مطر كهذا»، ابتسمت پوليانا، وهي ترتب الدانتيلا والشرائط على عنق خالتها ترتيبًا أنيقًا، «هلمي، الإفطار جاهز. انتظري حتى تري ما أعددته لك».

غير أن الخالة پولي لم تكن لتغير مزاجها هذ الصباح حتى مع كعك الذرة. فما من شيء صحيح وما من شيء يطاق كما شعرت، وأخذ صبر پوليانا يوشك على النفاد قبل انتهاء الوجبة. وما زاد الأمور سوءًا أن نافذة العلية الشرقية تسرب، ووصلتها رسالة كريهة بالبريد. قالت پوليانا، المؤمنة بعقيدتها، ضاحكة إنها من جانبها سعيدة أن لديها سقفًا يرشح، وأما بخصوص الرسالة، فقد انتظرتها منذ أسبوع وكانت سعيدة على أية حال لأنها لن تضطر للقلق خوفًا من قدومها. إذ إن وصولها ليس ممكنًا لأنها وصلت، وانتهى أمرها.

كل هذا، إلى جانب عراقيل وإزعاجات شتى، أخرت عمل الصباح المعتاد حتى ما بعد الظهر، وهو أمر أثار استياء الخالة پولي المنظمة، التي نظمت حياتها بإيثار على تكة الساعة.

«لكن الساعة الآن الثالثة والنصف يا پوليانا! هل علمت هذا؟»، سخطت في النهاية، «ولم ترتبي الأسرّة بعد».

«كلا يا عزيزتي، ولكني سأفعل، لا تقلقي».

«هل سمعت ما قلته؟ انظري إلى الساعة يا صغيرة، لقد تجاوزت الثالثة!».

«هذا صحيح، ولكن لا عليك يا خالتي پولي. يمكننا أن نسعد أنها لم تتجاوز الرابعة».

نخرت الخالة پولي في ازدراء.

«أظنك تستطيعين»، قالت على نحو لاذع.

ضحكت پوليانا.

«أنت ترين يا خالتي أن الساعات أشياء لطيفة إن توقفت عن التفكير بها. لقد تبين لي هذا منذ زمن في المصح. إن كنت أفعل شيئًا أحبه ولا أريد للوقت أن يمر سريعًا، فإني أنظر إلى عقرب الساعة، وأشعر أن عندي الكثير من الوقت، وأنه يمضي بطيئًا. ثم في أيام أخرى، إن تعين علي فعل شيء يؤلم لساعة أو نحوها، أراقب عقرب الثواني الصغير فأجد أنني أشعر أن الزمن العجوز قد أحدب ظهره لمساعدتي فيمر بأسرع ما يمكنه. إنني أراقب عقرب الساعات اليوم، لأني لا أريد للزمن العجوز أن يسرع. أتفهمين؟»، ولمعت عيناها بخبث وهي تسرع خارجة من الغرفة قبل أن يتسنى الوقت للخالة پولي للرد.

لقد كان يومًا شاقًا قطعًا، وبدت پوليانا بحلول الليل شاحبة ومنهكة. وكان هذا أيضًا مصدر قلق للخالة پولي.

«يا إلهي أيتها الصغيرة! تبدين متعبة حد الموت!»، اضطرمت «لا أدري ماذا نفعل، أحسب أنك ستمرضين!».

«كلام فارغ يا خالتي! أنا لست مريضة البتة!»، قالت پوليانا

وهي تلقي بنفسها على الأريكة متنهدة، «لكني متعبة، يا إلهي! يا لها من أريكة مريحة! أنا سعيدة لأني متعبة فالراحة جميلة في النهاية».

استدارت الخالة پولي بإيماءة نافدة الصبر.

«سعيدة، سعيدة، سعيدة! أنت سعيدة طبعًا يا پوليانا. إنك سعيدة دومًا بكل شيء. لم أر فتاة مثلك. أوه، لقد عرفت، إنها اللعبة»، تابعت ردًا على النظرة التي علت وجه پوليانا، «وهي لعبة جميلة جدًا أيضًا، لكني أراك تغالين فيها. هذه العقيدة الخالدة «قد يكون الأمر أسوأ» تثير نزقي يا پوليانا، صدقًا سأشعر براحة عظيمة إن لم يسعدك شيء أحيانًا!».

«عجبًا يا خالتي!»، اعتدلت پوليانا.

«أجل، هذا صحيح، جربيه أحيانًا فحسب وانظري».

«ولكن يا خالتي...»، توقفت پوليانا ونظرت إلى خالتها بتفكر. فبدت في عينيها نظرة غريبة ومالت شفتاها بابتسامة بطيئة. السيدة تشلتن، التي عادت لعملها، لم تلق بالًا، ثم استلقت پوليانا على الأريكة دون إنهاء جملتها، ولم تزل الابتسامة الغريبة على شفتيها.

كانت تمطر ثانية حين نهضت پوليانا اليوم التالي، ولم تزل ريح شمالية شرقية تصفر في المدخنة. زفرت پوليانا زفرة عفوية قرب النافذة، لكن وجهها تغير في الحال.

«أوه، أنا سعيدة»، وضعت يداها على شفتيها، «يا إلهي!»، ضحكت بهدوء وعيناها ترقصان، «لقد نسيت، عرفت أنني سأفعل

وأفسد الأمر كله! علي أن أتذكر ألا أسعد بأي شيء، لا شيء اليوم».
لم تصنع پوليانا كعك الذرة هذا الصباح، ولكنها أعدت الإفطار وذهبت إلى غرفة خالتها.

لم تزل السيدة تشلتن في فراشها.

«أرى أنها تمطر كالعادة»، قالت على سبيل التحية.

«أجل، هذا فظيع، فظيع للغاية»، استاءت پوليانا، «لقد أمطرت كل يوم في هذا الأسبوع تقريبًا أيضًا. أكره هذا الطقس».

التفتت الخالة پولي بدهشة خافتة في عينيها، لكن پوليانا كانت تنظر إلى الجهة الأخرى.

«هل ستنهضين الآن؟»، سألت بشيء من الفتور.

«عجبًا، أجل»، غمغمت الخالة پولي، بتلك الدهشة الباهتة في عينيها، «ما الأمر يا پوليانا؟ أأنت متعبة؟».

«أجل، إني متعبة هذا الصباح فلم أنم جيدًا. أكره الأرق، إن الهواجس تجتاح المرء في الليل حين يظل يقظًا».

«أظنني أعرف هذا»، حنقت الخالة بولي، «لم يغمض لي جفن بعد الثانية. ثم إن لدينا هذا السطح! كيف سنصلحه من فضلك، إن لم يتوقف المطر؟ هل صعدت لإفراغ القدور؟».

«أوه أجل، وأخذت أخرى أيضًا، ثمة تسريب جديد، أبعد».

«تسريب جديد؟! إنه يسرب كله!».

فتحت پوليانا فمها، كادت أن تقول «يمكننا أن نسعد بإصلاحه

في الحال إذن»، حين تذكرت وبدلت جملتها بصوت ضجر «أجل يا خالتي. يبدو كذلك الآن، على أية حال، إنه يحدث ضجيجًا يكفي سطحًا كاملًا، وقد تعبت منه!» وقد أشاحت بوجهها واستدارت ومشت بوهن خارجة من الغرفة.

«إنه ممتع للغاية وصعب للغاية، أخشى أنني أفسد الأمر»، همست لنفسها بقلق وهي تسرع في النزول إلى المطبخ.

خلفها حدقت الخالة بولي في غرفة النوم بعينيها المندهشتين.

تسنت للخالة بولي فرص في مرات عديدة قبل الساعة السادسة تلك الليلة بالنظر إلى بوليانا بعينين حائرتين مندهشتين. ما من شيء يرضي بوليانا، فالنار لا تشتعل والريح قلقلت أحد المصاريع ثلاث مرات، واكتشفت تسريبًا ثالثًا في السطح، وجلب البريد لبوليانا رسالة أبكتها (رغم أن أسئلة الخالة بولي الكثيرة لم تستطع إقناعها أن تخبرها بالسبب بلا جدوى). وحتى الغداء لم يكن جيدًا، والكثير من الامور التي حدثت عصرًا استدعت تعليقات محبطة وحانقة.

لم ينقض نصف النهار حتى أخذت نظرة الشك الحاد تصارع للتغلب على الحيرة والتساؤل في عيني الخالة بولي. وإن رأت بوليانا هذا فهي لم تبدِ علامة، فلم يكن في غيظها وامتعاضها أي تراجع بلا شك. غير أن الشك في عيني الخالة بولي تحول إلى يقين قبل السادسة بوقت طويل، وهُزم التساؤل والحيرة هزيمة مشينة، غير أن نظرة جديدة، على نحو غريب تمامًا، حلت محلها، وكانت بريق متعة.

في النهاية، وبعد شكوى حزينة من جانب بوليانا، رفعت الخالة بولي يديها بإيماءة يأس نصف ضاحكة.

«هذا يكفي، هذا يكفي يا صغيرة! سأستسلم، سأعترف بهزيمتي في لعبتي، يمكنك أن تسري لهذا إن شئت»، ختمت قولها بابتسامة عابسة.

«أعلم يا خالتي، ولكنك قلت...»، قالت بوليانا بجدية.

«أجل أجل، لكني لن أفعل ثانية»، قاطعتها الخالة بولي بتأكيد، «يا إلهي الرحيم! يا له من يوم! لا أريد عيش واحد مثله أبدًا»، ترددت واحمرت ثم تابعت بمشقة واضحة «ثم إنني أود منك أن تعرفي أنني أدرك أني لم ألعب اللعبة جيدًا في الآونة الأخيرة. ولكني سأحاول بعد هذا، أين منديلي؟»، ختمت قولها بحدة مفتشة في طيات ثوبها.

نهضت بوليانا ومشت بسرعة نحو خالتها.

«أوه يا خالتي بولي، لم أقصد... لقد كانت دعابة فحسب»، ارتعشت في حزن بالغ «لم أحسب أنك سترينها على هذا النحو».

«أعلم أنك لم تقصدي»، ردت الخالة بولي بكل فظاظة امرأة متجهمة مكبوتة تمقت الأحاسيس والانفجارات العاطفية، والتي تخشى تأثر قلبها، «ألا تظنيني أعرف أنك لم تقصديها على هذا النحو؟ هل تظنين أنني لو عرفت أنك تحاولين تلقيني درسًا لـ...»، لكن ذراعي بوليانا الشابتين القويتين قد لفتاها في عناق حميم، ولم تستطع إنهاء جملتها.

الفصل الثامن والعشرون

جيمي وجايمي

لم تكن پوليانا وحدها من رأى ذلك الشتاء عصيبًا. ففي بوسطن تبين جيمي پندلتن أن شيئًا لم يمح حلمه بعينين زرقاوين ضاحكتين، ولم يطمس شيء من ذاكرته صوتًا مرحًا محبوبًا، رغم محاولاته المضنية لإشغال وقته وأفكاره.

قال جيمي لنفسه إنه لولا السيدة كرو، وإنه قد يكون ذا جدوى لها لما استحقت الحياة أن تعاش. ولم يكن الوقت كله مبهجًا في منزل السيدة كرو، فجايمي موجود دومًا، وجايمي يستحضر التفكير بپوليانا أفكارًا تعسة. لما اقتنع تمامًا أن جايمي وپوليانا يهتمان لبعضهما، واقتنع أنه ملزم بمواثيق الشرف أن يتنحى جانبًا ويفسح الطريق أمام جايمي المشلول، فلم يخطر له أن يسأل أكثر. لم يرغب بالحديث عن پوليانا أو السماع عنها، وقد عرف أن كلًا من جايمي والسيدة كرو يراسلانها، وحين يتحدثان عنها، يجبر نفسه على الإصغاء رغم انفطار قلبه. لكنه يغير الموضوع بأسرع ما يستطيع، وقد جعل رسائله إليها رسائل محدودة وشديدة الإيجاز وغير منتظمة. ذلك أن پوليانا في نظر جيمي ليست له، ولن تكون إلا

مصدرًا للألم والأسى، وقد سر بأن الوقت حان ليغادر بلدنغزڤِل ويستأنف دراسته ثانية في بوسطن. فأن يكون قريبًا من پوليانا، بعيدًا عنها في الوقت نفسه ما هو إلا عذاب.

في بوسطن، بكل حيوية الذهن القلق الذي يبحث عن الإلهاء من قلقه، ألزم نفسه بالاضطلاع بخطط السيدة كرو لأجل فتياتها العاملات الحبيبات، وكلما استطاع ادخار وقت من واجباته، كرسه للعمل، وهذا ما أسعد السيدة كرو وأثار امتنانها.

وهكذا مر الشتاء على جيمي وجاء الربيع، ربيع بهيج مزهر، ناضح بالنسيم العليل والأمطار الرقيقة والبراعم الخضراء الناعمة تتوسع إلى نضار صاخب وشذى. غير أن هذا لم يكن لدى جيمي ربيعًا مزهرًا، ففي قلبه لم يزل الشتاء الكئيب والضجر.

«لو أنهما يسويان الأمور ويعلنان الخطبة، مرة واحدة»، غمغم جيمي لنفسه، مرارًا وتكرارًا هذه الأيام «لو أنني أعرف شيئًا أكيدًا، لتحملت الأمر أفضل!».

ثم ذات يوم من أواخر أبريل تحققت أمنيته، بل جزء منها، وعرف شيئًا أكيدًا.

كانت الساعة العاشرة من صباح السبت وقادته ماري، في منزل السيدة كرو، إلى غرفة الموسيقى بقولها بتهذيب «سأبلغ السيدة كرو أنك هنا، أظنها تنتظرك».

وجد جيمي نفسه في غرفة الموسيقى وقد توقف مذعورًا لدى رؤية جايمي جالسًا إلى البيانو، ويداه على الحامل، ورأسه متكئ

عليهما. دار بندلتن نصف دورة ليتراجع بهدوء حين رفع الرجل الجالس إلى البيانو رأسه، مظهرًا خدين محمرين وعينين براقتين من الحمى.

«يا للهول يا كرو»، تلعثم بندلتن مبهوتًا، «هل حدث شيء؟».

«حدث؟! حدث؟!»، قال الشاب المشلول، مادًا يديه وفي كل منهما، كما رأى بندلتن، رسالة مفتوحة، «حدث كل شيء! ألن تظن ذلك إن كنت سجينًا طوال حياتك، ثم رأيت البوابات تفتح فجأة؟ ألن تظن ذلك لو استطعت في لحظة سؤال الفتاة التي تحبها لتكون زوجتك؟ ألن تظن ذلك لو... ولكن اسمع! إنك تظنني مجنونًا، لكني لست كذلك. وقد أجن في نهاية الأمر من الفرح. أود إخبارك، فهل يمكنني؟ لا بد أن أخبر أحدًا!».

رفع بندلتن رأسه، كأنه يعد نفسه بلا وعي لضربة، فقد شحب لكن صوته ظل ثابتًا حين أجاب.

«يمكنك طبعًا يا صديقي العزيز، يسعدني سماعك».

لم ينتظر كرو سماحه، بل تحدث حديثًا مفككًا.

«إن الأمر لا يعني كثيرًا عندك، فلديك قدمان وحريتك، ولديك طموحك وجسورك، لكني... إنها كل شيء عندي، إنها فرصة لأحيا حياة الرجال وأعمل عمل الرجال، ربما، حتى إن لم يكن ذلك سدودًا وجسورًا. إنها شيء ما، وهي شيء أثبتّ أن بوسعي فعله! اسمع، في الرسالة إعلان أن قصة قصيرة من قصصي قد ربحت الجائزة الأولى،

ثلاثة آلاف دولار، في مسابقة، وفي الرسالة الأخرى، دار نشر كبيرة تقبل بحماس بالغ مخطوط كتابي الأول لنشره، وقد وصلتا اليوم، هذا الصباح، هل تتعجب أن أجن سعادة؟».

«كلا، كلا، حقًا! بل أهنئك يا كرو من كل قلبي»، قال جيمي بحرارة.

«شكرًا لك، وبوسعك تهنئتي، فكر بما يعنيه هذا لي، فكر بما يعنيه إن استطعت أن أكون مستقلًا مثل الرجال. فكر بما أستطيع فعله يومًا، أن أجعل السيدة كرو فخورة وسعيدة أنها منحت فتى مشلولًا مكانًا في بيتها وقلبها. فكر بما يعنيه هذا لي أن أخبر الفتاة التي أحبها؛ أنني أحبها».

«أجل أجل، طبعًا يا فتاي العزيز!»، تحدث جيمي بحزم رغم أنه شحب أكثر.

«ربما لا يتوجب علي فعل الأخير الآن»، استأنف جايمي وقد غشت هيئته المشرقة المتألقة غيمة حزن، «فما زلت مربوطًا إلى هذين»، وربت على العكازين بجانبه، «لا يمكنني أن أنسى ذلك اليوم في الغابة الصيف الماضي، حين رأيت پوليانا، لقد أدركت أنني سأمر دومًا باحتمال رؤية الفتاة التي أحب في خطر ولا أقدر على إنقاذها».

«أوه، ولكن يا كرو»، قال الآخر بصوت أجش.

رفع كرو يدًا آمرة «أعرف ما ستقول، ولكن لا تقله، لا يمكنك أن تفهم، فلست مربوطًا إلى عصوين، أنت من أنقذتها. لقد تبين لي

عندئذ كيف سيكون الأمر معي دومًا ومع سادي، إذ سيتعين علي دومًا أن أتنحى جانبًا وأرى الآخرين...».

«سادي؟!»، قاطعه جيمي بحدة.

«أجل، سادي دين، تبدو متفاجئًا، ألم تعلم؟ ألم تشك بشعوري نحوها؟»، قال جايمي، «هل أخفيته جيدًا إذن؟ لقد حاولت ولكن...»، أنهى قوله بابتسامة باهتة وإيماءة يائسة.

«لقد أخفيته تمامًا بلا شك يا صديقي العزيز، عني على أية حال»، قال جايمي جذلًا. لقد عاد اللون إلى وجه جيمي بتدفق غزير، وغدت عيناه فجأة أكثر لمعانًا، «إنها سادي دين إذن. جيد! أهنئك ثانية، حقًا حقًا كما تقول نانسي»، كان جيمي يهذر فرحًا وحماسًا، فقد كانت ردة الفعل لديه رائعة وهائلة لدى معرفة أنها سادي، لا بوليانا، من أحبها جايمي. احمر وجه جايمي وهز رأسه نفيًا بشيء من الحزن.

«لا تهاني، فأنا لم أحدثها بعد كما ترى. لكني أظنها تعلم، ظننت الجميع يعلمون. ولكن عفوًا، من ظننتني أحب إن لم تكن سادي؟».

تردد جيمي قليلًا ثم قال باندفاع.

«لقد ظننتها بوليانا».

ابتسم جايمي وضغط شفتيه.

«بوليانا فتاة جذابة، وأنا أحبها، ولكن ليس بهذا الشكل أكثر مما تحبني هي. ثم إنني أتصور أحدًا آخر لديه ما يقوله في هذا، أليس صحيحًا؟».

احمر وجه جيمي احمرار صبي سعيد واعٍ.

«حقًا؟»، سأله، محاولًا جعل صوته محايدًا تمامًا.

«طبعًا! جون پندلتن!».

«جون پندلتن؟!»، سأل جيمي بحدة.

«ما خطب جون پندلتن؟»، سأل صوت جديد، وتقدمت السيدة كرو مبتسمة.

استجمع جيمي، الذي تحطم العالم إلى كسر في أذنيه للمرة الثانية في غضون خمس دقائق، شجاعته ليحيي تحية خفيضة، لكن جايمي بلا خجل، استدار بهيئة مبتهجة مطمئنة.

«لا شيء، سوى أنني قلت إنني أظن جون پندلتن لديه ما يقوله عن حب أحدهم لپوليانا عداه».

«پوليانا؟! جون پندلتن؟!»، جلست السيدة كرو فجأة في أقرب كرسي إليها. لو لم يكن الرجلان أمامها مشغولين بشؤونهما لرأيا أن الابتسامة تلاشت من شفتي السيدة كرو، وأن نظرة غريبة من الخوف قد سكنت عينيها.

«قطعًا»، تابع جايمي، «أكان كلاكما أعمى الصيف الماضي؟ ألم يكن معها كثيرًا؟».

«حسن، ظننته كان مع... معنا كلنا»، غمغمت السيدة كرو بتردد.

«ليس كما كان مع پوليانا»، أصر جايمي، «ثم هل نسيتما ذلك

اليوم حين كنا نتحدث عن زواج جون پندلتن، واحمرت پوليانا وتلعثمت وقالت أخيرًا إنه فكر بالزواج مرة. حسن، تساءلت حينها إن كان بينهما شيء، ألا تذكران؟».

«بلى، بلى أظنني أذكر وقد ذكرتَه الآن، لكني نسيت»، همهمت السيدة كرو ثانية.

«ولكني أستطيع تفسير ذلك»، قال جيمي مبللًا شفتيه الجافتين، «كان لجون پندلتن علاقة حب يومًا، لكنه أحب والدة پوليانا».

«والدة پوليانا؟!»، قال الآخران في دهشة.

«أجل، لقد أحبها منذ سنوات بعيدة، لكنها لم تبادله الحب، كما أظن. بل أحبت شخصًا آخر، كاهنًا وتزوجته بدلًا منه، إنه والد پوليانا».

«أوه!»، تنهدت السيدة كرو، وهي تميل للأمام فجأة في كرسيها، «ألهذا لم يتزوج قط؟!».

«أجل»، أكد جيمي، «لذا فإن هذا لا أساس له، أعني أنه لا يحبها، بل أحب امها».

«بل على العكس، أرى أن هذا يعزز الفكرة كثيرًا»، قال جايمي هازًا رأسه بتأمل، «أظن هذا يجعل الأمر أقوى. اسمع، لقد أحب أمها يومًا، ولم ينلها، أليس من الطبيعي إذن أن يحب الابنة الآن ويظفر بها؟».

«أوه يا جايمي، إنك ناسج قصص حرون!»، قرعته السيدة كرو

بضحكة عصبية، «هذه ليست رواية رخيصة، إنها حياة حقيقية. إنها تصغره كثيرًا، وعليه أن يتزوج بامرأة لا فتاة، أعني إن أراد الزواج بإحداهن»، صححت متلعثمة وقد تدفق اللون إلى وجهها فجأة.

«ربها، ولكن ماذا لو صدف أنه يحب فتاة؟»، جادل جايمي بعناد، «ثم فكرا بالأمر حقًا، هل وصلتنا منها رسالة واحدة لم تخبرنا فيه بزيارته؟ وتعرفين كم يتحدث عن پوليانا في رسائله».

نهضت السيدة كرو فجأة.

«أجل، أعلم»، همهمت السيدة كرو بإيماءة غريبة، كأنها تلقي بشيء بغيض جانبًا، «ولكن...» ولم تنه جملتها، بل غادرت الغرفة سريعًا. وحين عادت بعد خمس دقائق، فوجئت بذهاب جيمي.

«عجبًا، لقد ظننته ذاهبًا معنا في نزهة الفتيات!»، قالت.

«وأنا أيضًا»، عبس جايمي، «غير أنه شرح أو اعتذر أو شيء من هذا القبيل لاضطراره للذهاب فجأة إلى البلدة، وأنه جاء لإخبارك بعدم قدرته على الذهاب معنا. على أية حال لقد ذهب كما ترين...»، ولمعت عينا جايمي ثانية، «لست أدري ما قاله تمامًا، لدي أمر آخر أفكر به»، وبسط أمامها جذلًا الرسالتين اللتين ظل ممسكًا بهما طوال الوقت.

«أوه يا جايمي!» تنهدت السيدة كرو حين قرأت الرسالتين، «كم أنا فخورة بك!» ثم اغرورقت عيناها بالدموع فجأة لدى رؤيتها الفرح الفائق الذي أضاء وجه جايمي.

الفصل التاسع والعشرون
جيمي وجون

كان شابًا عازمًا وقويًا ذاك الذي ترجل في محطة بلدنغزفِل في وقت متأخر ليلة السبت. وكان شابًا أكثر عزمًا وقوة ذاك الذي، قبل العاشرة صباحًا، سار في شوارع البلدة الهادئة يوم الأحد وارتقى التلة نحو عزبة هارنغتن. حين لمح خصلات حبيبة مألوفة لشعر بلون الكتان على رأس صغير تختفي في الظلة الصيفية. تجاهل الشاب العتبات الاعتيادية للباب الأمامي والجرس، وعبر المرج وسار عبر دروب الحديقة حتى صار وجهًا لوجه مع صاحبة الشعر الأشقر.

«جيمي!»، شهقت پوليانا وهي تتراجع بعينين مندهشتين، «من أين أتيت؟».

«بوسطن، ليلة البارحة. كان لا بد لي من رؤيتك يا پوليانا».

«رؤيتي؟»، كانت پوليانا تحاول اكتساب الوقت لتتمالك نفسها ثانية. بدا جيمي ضخمًا وقويًا ورائعًا عند باب الظلة الصيفية، وخشيت أن تفضح عيناها المندهشتين إعجابها، إن لم يكن أكثر.

«أجل يا پوليانا، أردت... أعني أني فكرت، أعني خشيت، أوه، تجاهلي ذلك يا پوليانا، لا يمكنني اللف والدوران هكذا، سأتحدث في الأمر صراحة. هذا هو الأمر، لقد تنحيت جانبًا قبلًا، لكني لن أفعل الآن. فلم تعد المسألة مسألة عدل بعد الآن، فهو ليس مشلولًا مثل جايمي، بل لديه يدان وقدمان ورأس مثلي، وإن فاز فعليه أن يفعل ذلك في نزال عادل، لدي بعض الحقوق!».

حدقت پوليانا بوضوح.

«جيمي بين پندلتن، عم تتحدث بحق السماء؟»، سألت.

ضحك الشاب خجلًا.

«لا عجب أنك لا تفهمين. لم يكن ذاك فصيحًا، أليس كذلك؟ ولكن لا أظنني فصيحًا منذ البارحة، حين عرفت الأمر من جايمي نفسه».

«عرفت من جايمي؟!».

«أجل، لقد بدأ الحديث عن الجائزة، فقد فاز بواحدة و...».

«أوه، علمت بهذا»، قاطعته پوليانا بحماس، «أليس رائعًا؟ فكر فحسب، الجائزة الأولى، ثلاثة آلاف دولار! لقد كتبت إليه رسالة البارحة، حين رأيت اسمه وأدركت أنه جايمي صديقنا، تحمست للغاية فنسيت البحث عن اسمي، وحين لم أجده عرفت أنني لم أحصل على شيء، أعني أنني تحمست وسعدت من أجل جايمي فنسيت كل شيء آخر»، صححت پوليانا ناظرة نظرة خائفة

إلى وجه جيمي، ومحاولة بحماس إخفاء الاعتراف الجزئي الذي أدلت به.

غير أن جيمي شديد الانشغال بمشكلته فلم يلحظ مشكلتها.

«أجل، أجل، هذا رائع طبعًا، وأنا سعيد لحصوله عليها. ولكن يا پوليانا ما أعنيه هو ما قاله تاليًا. لقد ظننت حتى هذا الوقت أنه يحب.... أنك تحبين... أعني تحبان بعضكما و...».

«ظننتني وجايمي متحابين؟!»، قالت پوليانا التي تسلل لون خجل رقيق، «ويحك يا جيمي، إنها سادي دين، وكانت دومًا سادي دين، إنه يتحدث عنها لساعات، وأظنها تحبه أيضًا».

«جيد! آمل أن تفعل. لكني لم أعرف كما ترين، ظننتك وجايمي... وظننت أنه بسبب شلله، لن يكون نزالًا عادلًا كما تعرفين إن ظللت وحاولت الظفر بك لنفسي».

توقفت پوليانا فجأة وحملت ورقة شجر قرب قدمها، وحين نهضت أشاحت بوجهها بعيدًا.

«لا يمكن للمرء أن يشعر بالرجولة، فيجري سباقًا مع شاب مشلول منذ البداية، لذا ظللت بعيدًا ومنحته فرصته رغم أن هذا فطر قلبي يا فتاتي الصغيرة. حقًا! ثم عرفت صباح البارحة، لكني عرفت أمرًا آخر أيضًا. يقول جايمي إن ثمة أحدًا آخر في هذه المسألة. لكني لا أستطيع التنحي جانبًا من أجله يا پوليانا، لا أستطيع رغم كل ما فعله من أجلي. الرجل هو جون پندلتن ولديه

قدمان يجري بهما السباق، عليه أن يأخذ فرصته، إن كنت تحبينه، إن كنت تحبينه حقًا...».

التفتت بوليانا بعينين غاضبتين. «جون بندلتن؟! ماذا تعني يا جيمي؟ ما الذي تقوله عن جون بندلتن؟».

غمرت وجه جيمي فرحة عظيمة، فمد يديه.

«أنت لا تحبينه إذن، لا تحبينه! يمكنني رؤية هذا في عينيك».

تراجعت بوليانا، وكانت شاحبة وترتعد.

«ماذا تعني يا جيمي؟ ماذا تعني؟» توسلت إليه بحزن.

«أعني أنك لا تحبين العم جون بهذا الشكل، ألا تفهمين؟ جايمي يظنك تحبينه وأنه يحبك. ثم بدأت أرى... أنه قد يحبك، فهو يتحدث عنك دومًا، ثم إنه أحب أمك...».

بكت بوليانا بصوت خفيض وغطت وجهها بيديها. اقترب جيمي ولف كتفيها بذراع مُحبة، لكن بوليانا أفلتت منه ثانية.

«بوليانا، يا فتاتي الصغيرة، لا تفعلي! ستفطرين قلبي»، توسل إليها، «ألا تحبيني؟ أهذا ما تريدين قوله لي؟».

فأنزلت يديها وواجهته، وفي عينيها نظرة حيوان جامح مطارد يتألم.

«هل تظنه يحبني بهذا الشكل يا جيمي؟»، ناشدته فيما يشبه الهمس.

هز جيمي رأسه نفيًا بنفاد صبر.

«لا تهتمي بهذا الآن يا پوليانا، لست أدري طبعًا، وكيف لي أن أعرف؟ ولكن هذا ليس السؤال يا عزيزتي، أنت ما يهم، إن كنت لا تحبينه وإن منحتني فرصة، نصف فرصة لأجعلك تحبيني»، أمسك بيدها وحاول جذبها نحوه.

«كلا، كلا يا جيمي، يجب ألا! لا أستطيع!» ودفعته براحتي يديها بعيدًا عنها.

«هل تعنين أنك تحبينه يا پوليانا؟»، شحب وجه جيمي.

«كلا، كلا ليس بهذا الشكل»، تلعثمت پوليانا، «ألا تفهم؟ إن كان يحبني فسيتعين أن أتعلم حبه بطريقة ما».

«پوليانا؟!».

«لا تفعل! لا تنظر إلي هكذا يا جيمي!».

«تعنين أنك ستتزوجينه يا پوليانا؟».

«أوه، كلا، أعني أجل، أظن ذلك»، أقرت مترددة.

«لن تفعلي يا پوليانا! لا يمكنك! إنك تحطمين قلبي يا پوليانا!».

نشجت پوليانا بصوت خفيض، وغطت وجهها بيديها، فنشجت بحرقة، ثم رفعت رأسها بحركة حزينة ونظرت في عيني جيمي المتألمتين المؤنبتين.

«عرفت ذلك، عرفت ذلك»، ثرثرت بانفعال، «إنني أحطم

قلبي أيضًا، لكني مضطرة، سأحطم قلبك وقلبي ولكني لن أحطم قلبه أبدًا!».

رفع جيمي رأسه، واضطرمت نار فجأة في عينيه، وتغيرت هيئته كلها تغيرًا سريعًا وهائلًا. وسحب پوليانا بين ذراعيه وعانقها بقوة بصرخة رقيقة.

«أعرف الآن أنك تحبينني!»، قال هامسًا في أذنها، «قلت إنك تحطمين قلبك أيضًا، هل تظنين أني سأتخلى عنك لأي رجل في العالم؟ يا عزيزتي، إنك لا تفهمين حبي إلا قليلًا إن ظننتني سأتخلى عنك. قولي إنك تحبيني، قوليها بشفتيك الحلوتين!».

وظلت پوليانا للحظة طويلة بلا مقاومة في العناق الرقيق الذي طوقها، ثم بتنهيدة بين الرضا وبين الصدود أخذت تسحب نفسها بعيدًا.

«أجل يا جيمي، أحبك فعلًا»، ضيق جيمي ذراعيه وسحبها إليها، لكن شيئًا في وجه الفتاة منعه. «إنني أحبك بقوة، لكني لا أستطيع أن أشعر بالسعادة معك وأشعر أن... ألا ترى يا عزيزي جيمي؟ لا بد لي أن أعرف أنني حرة أولًا».

«كلام فارغ، يا پوليانا! إنك حرة طبعًا!»، كانت عينا جيمي ثائرتين مرة أخرى.

هزت پوليانا رأسها نفيًا. «ليس وهذا يتدلى فوق رأسي يا جيمي. ألا ترى؟ لقد كانت أمي هي من حطم قلبه قبل زمن

طويل، أمي، وعاش هذه السنوات كلها حياة وحدة بغيضة بعدها. إن أتى إلي وسألني أن أحبه، علي فعل ذلك يا جيمي. علي ذلك، لا أستطيع الرفض. ألا تفهم؟».

لكن جيمي لم يفهم، لم يستطع أن يفهم، ولن يفهم، رغم أن پوليانا توسلت إليه وجادلته طويلًا وهي تبكي. لكن پوليانا أيضًا كانت عنيدة، رغم أنها عنيدة بعذوبة وبانفطار قلب حتى أن جيمي برغم ألمه وغضبه، شعر بقليل من الراحة.

قالت پوليانا في نهاية المطاف «عزيزي جيمي، علينا الانتظار، هذا كل ما أستطيع قوله الآن. أرجو أنه لا يحبني، ولا أظنه يحبني، ولكن لا بد لي أن أعرف يا جيمي، علي أن أتأكد. سننتظر قليلًا فحسب حتى نتبين يا جيمي، حتى نتبين!».

واضطر جيمي للإذعان لهذه الخطة، رغم رفض قلبه.

«لا بأس يا فتاتي الصغيرة، سيكون الأمر كما قلت طبعًا»، قال يائسًا، «لكن ما من رجل سينتظر جوابًا من الفتاة التي يحبها وتحبه، حتى تتبين إن كان الرجل الآخر يريدها!».

«أعلم، ولكنك ترى يا عزيزي، أن الرجل أراد أمها من قبل»، تنهدت پوليانا وتغضن وجهها في عبوس قلق.

«حسن، سأعود إلى بوسطن طبعًا»، قال جيمي كارهًا، «لكن لا تظني أني استسلمت، لأني لم أفعل، ولن أستسلم، ما دمت أعرف أنك تحبيني حقًا يا حبيبتي الصغيرة»، أنهى قوله بنظرة جعلتها تتراجع مرتجفة بعيدًا عن ذراعيه.

الفصل الثلاثون
جون پندلتن يفتح الأقفال

عاد جيمي إلى بوسطن تلك الليلة بمزيج من المشاعر المعذبة من السعادة والأمل والحنق والتمرد. فقد ترك خلفه الفتاة التي لم تكن بحالة تحسد عليها، لأن پوليانا ترتجف سعادة بالفكرة الرائعة لحب جيمي لها. لكنها مذعورة للغاية من فكرة الحب المحتمل لجون پندلتن فلم تشعر بإثارة فرح إلا رافقتها خفقة خوف.

لحسن حظ الجميع، لم تدم هذه الحالة طويلًا. فقد صادف أن جون پندلتن، الذي بين يديه مفتاح اللغز دون أن يعلم، أدار مفتاح ذلك القفل بعد أقل من أسبوع من سفر جيمي إلى بوسطن، وفتح باب الحقيقة.

كان أصيل الخميس عندما جاء پندلتن لزيارة پوليانا. وصادف أن رأى پوليانا، مثل جيمي، في الحديقة فجاء إليها مباشرة.

شعرت پوليانا بوجيب في قلبها عند رؤية وجهه.

«لقد جاء، لقد جاء!»، ارتعشت واستدارت لاإراديًا لتهرب.

«أوه، انتظري لحظة من فضلك يا پوليانا»، نادى الرجل وهو

يسرع خطاه، «إنك من أردت رؤيته. تعالي، ألا يمكننا الدخول هنا؟»، اقترح مشيرًا إلى الظلة الصيفية، «أود الحديث إليك عن أمر ما».

«حسن، أجل، طبعًا»، تلعثمت پوليانا، بمرح متكلف. عرفت پوليانا أن وجنتيها احمرتا، وتمنت ألا تفعلا حينئذ. كما أن اختياره دخول الظلة الصيفية للحديث لا يجدي نفعًا في المسألة أيضًا. فقد كان هذا المكان لديها مقدسًا لذكريات عزيزة مع جيمي، «وها هو الأمر يحدث هنا، هنا!» ارتعدت أوصالها، لكنها قالت جهرًا بمرح «إنه مساء جميل أليس كذلك؟».

ما من جواب. دخل جون پندلتن الظلة الصيفية وألقى بنفسه على كرسي صدئ دون انتظار پوليانا لتجلس، وهذه سابقة غير معهودة عن جون پندلتن. اختلست پوليانا نظرة عصبية إلى وجهه، ودهشت لرؤيته استعاد الوجه الصارم الشكس القديم من ذكريات طفولتها، فتعجبت منه؟

لم يزل جون پندلتن لم يكترث، بل جلس شكسًا تلفه هواجسه، غير أنه في آخر الأمر رفع رأسه ونظر في عيني پوليانا المتعجبتين بجدية.

«پوليانا!».

«أجل يا سيد پندلتن».

«أتذكرين الرجل الذي كنته حين عرفتني أول مرة قبل سنوات؟».

«أجل، أظن ذلك».

«نوع محبوب مبهج من البشر، أليس كذلك؟».

رغم قلقها ابتسمت پوليانا بفتور.

«لقد أحببتك يا سيدي»، لم تدرك پوليانا وقع الكلمات حتى قالتها، وجهدت بانفعال عندئذ لتعديلها أو استحضارها فكادت أن تضيف، «أعني أنني أحببتك عندئذ!» حين توقفت في الوقت المناسب، فلم يكن هذا ليجدي نفعًا في المسألة! فأنصتت عندئذ خائفة إلى كلمات جون پندلتن التالية، التي خرجت دفعة واحدة.

«أعلم أنك فعلت، بورك قلبك الصغير! وكان هذا ما أنقذني. أتساءل يا پوليانا إن جعلتك يومًا تدركين ما فعله بي حبك وثقتك الطفوليين».

تلعثمت پوليانا باعتراض مبلبل، لكنه أسكتها مبتسمًا.

«أجل، إنه كذلك! لقد كنت أنت ولا أحد سواك. أتساءل إن كنت تذكرين أمرًا آخر أيضًا»، استأنف الرجل بعد لحظة صمت. نظرت پوليانا أثناءها خلسة وبشوق نحو الباب، «أتساءل إن كنت تذكرين إخباري إياك أنه ما من شيء يجعل البيت دارًا إلا يد امرأة وقلبها أو وجود طفل».

شعرت پوليانا بالدم يتدفق إلى وجهها.

«أجل، كلا، أعني أجل»، تلعثمت، «لكني لا أظن أن الأمر هكذا دومًا. أعني... أعني أنا واثقة أن بيتك الآن رائع كما هو...».

«لكنه بيتي الذي أتحدث عنه يا صديقتي»، قاطعها الرجل

نافد الصبر، «تعلمين يا پوليانا شكل البيت الذي تمنيت الحصول عليه يومًا، وكيف انهارت آمالي. لا تظني يا عزيزتي أنني ألوم أمك. لست ألومها، فقد أطاعت قلبها، وهذا هو الصواب، واتخذت الخيار الأكثر حكمة على أية حال كما تبين لي من خسارتي وعيشي حياة الوحدة. أليس غريبًا يا پوليانا»، أضاف جون پندلتن وصوته يغدو أرقّ، «أن تكون يد ابنتها الصغيرة هي التي ستأخذني إلى درب السعادة أخيرًا؟».

بللت پوليانا شفتيها.

«أوه، لكن يا سيد پندلتن، أنا، أنا...».

لكن الرجل أسكت اعتراضاتها بابتسامة.

«أجل، إنها كذلك. يدك الصغيرة في الزمن البعيد، أنت ولعبة السعادة».

«أوه!»، استرخت پوليانا في مقعدها استرخاء واضحًا، وبدأ الخوف في عينيها ينسل ببطء.

«وخلال هذه السنوات صرت رجلًا مختلفًا شيئًا فشيئًا يا پوليانا. لكن ثمة أمرًا لم أغيره يا عزيزتي»، صمت ونظر بعيدًا وأدار عينين رقيقتين إلى وجهها، «ما زلت أرى أن الدار تحتاج يد امرأة وقلبها ووجود طفل».

«أجل، ولكنك حصلت على وجود الطفل»، اندفعت پوليانا وقد عاد الخوف إلى عينيها، «فلديك جيمي كما تعلم».

ضحك الرجل ضحكة فرحة.

«أعلم، ولكني لا أظنك تقصدين أن جيمي يمثل وجود الطفل تمامًا»، عقب.

«كلا، طبعًا».

«ثم إنني حسمت أمري يا پوليانا، علي أن أحصل على يد المرأة وقلبها»، واختلف صوته وتهدج.

«أوه، حقًا؟»، تشابكت أصابع پوليانا في تشنج، ولم يبد أن جون پندلتن يراها أو يسمعها فقد نهض وأخذ يذرع الظلة الصغيرة جيئة وذهابًا.

«پوليانا»، توقف وواجهها، «لو كنت مكاني وستسألين المرأة التي أحببتها لتأتي وتحول البيت الحجري الرمادي الكبير إلى دار، فكيف ستفعلين ذلك؟».

نهضت پوليانا من مقعدها وعيناها تبحثان عن الباب صراحة وبلهفة.

«أوه، ولكن يا سيد پندلتن، لن أفعل ذلك أبدًا، أبدًا، أنا واثقة أنك أسعد حالًا كما أنت الآن».

رمقها الرجل بدهشة وحيرة ثم ضحك عابسًا.

«يا إلهي يا پوليانا! هل الأمر سيء إلى هذا الحد؟».

«سيء؟»، وقفت پوليانا كمن يستعد للهرب.

«أجل، أهذه طريقتك لتخفيف صدمة قولك إنك لا تظنينها تقبل بي؟».

«أوه، كلا، كلا حقًا، ستقول نعم، بل عليها أن تقبل كما تعلم»، شرحت پوليانا بجدية وذعر، «لكني كنت أفكر، أعني فكرت إن لم تحبيك الفتاة فستكون أسعد دونها حقًا و...» توقفت پوليانا سريعًا عندما رأت النظرة على وجه جون پندلتن.

«لن أطلبها إن لم تحبني يا پوليانا».

«كلا، لا أظن ذلك أيضًا»، أخذت پوليانا تبدو أقل تشتتًا.

«ثم إنها ليست فتاة»، واصل جون پندلتن، «إنها امرأة ناضجة تعرف رأيها»، كان صوت الرجل جادًا ومقرعًا بعض الشيء.

«أوه، أوه»، قالت پوليانا، وفي عينيها تتراقص سعادة من الراحة والفرح الفائقين، «فأنت تحب إذن»، وكتمت پوليانا بجهد خارق كلمة «امرأة أخرى» قبل أن تخرج من شفتيها السعيدتين.

«تحب امرأة ما! أليس هذا ما كنت أخبرك به؟»، ضحك جون پندلتن نصف حانق «ما أريد معرفته، هل يمكنها أن تحبني؟ لهذا كنت أعتمد على مساعدتك، إنها صديقة عزيزة عليك كما ترين».

«حقًا؟»، ضحكت پوليانا، «فلا بد أن تحبك إذن، سنجعلها تحبك! لعلها تفعل، من هي؟».

ساد صمت طويل قبل أن يأتي الجواب. «أظن يا پوليانا في النهاية أنني لن... أجل، سأفعل، إنها... ألا يمكنك التخمين؟».

«أوه»، شهقت پوليانا بوجه فرح صافٍ، «يا للروعة إنني سعيدة سعيدة سعيدة!».

أرسلت پوليانا بعد ساعة طويلة رسالة مفككة مشوشة إلى جيمي، فيها سلسلة من الجمل غير المكتملة غير المنطقية الفرحة على خجل، استجمع جيمي منها قليلًا مما كتب والكثير مما لم يكتب، ثم هل يحتاج حقًا أكثر من هذا؟

«أوه يا جيمي، إنه لا يحبني، بل يحب أخرى، لن أخبرك من هي لكن اسمها ليس پوليانا».

وكان لدى جيمي وقت للحاق بقطار السابعة إلى بلدنغزفِل فاستقله.

الفصل الحادي والثلاثون

بعد سنوات طويلة

كانت پوليانا سعيدة تلك الليلة بعد إرسال الرسالة إلى جيمي، فلم تستطع إبقاءها سرًا. وقد اعتادت قبل خلودها للنوم أن تمر بغرفة خالتها لترى إن كانت تحتاج شيئًا. الليلة، بعد الأسئلة المعتادة التفتت لتطفئ المصباح عندما أعادها دافع فجائي إلى قرب سرير خالتها. وجثت على ركبتيها منقطعة الأنفاس. «إنني سعيدة يا خالتي پولي، وأود إخبار أحد بسعادتي، هلا أخبرتك؟».

«تخبريني؟ بم تخبريني يا صغيرة؟ يمكنك إخباري طبعًا، أتعنين أنها أنباء سعيدة من أجلي؟!».

«أجل يا عزيزتي، أرجو ذلك»، احمرت پوليانا، «أرجو أن تسعدك قليلًا من أجلي كما تعلمين، سيخبرك جيمي بنفسه على نحو لائق يومًا ما، لكنني أود إخبارك أولًا».

«جيمي!» تغير وجه السيدة تشلتن وتشنج.

«أجل، أجل، حين يطلبني منك»، تلعثمت پوليانا بدفقة وهاجة من اللون، «وأنا سعيدة، علي إخبارك!».

«يطلبك مني؟! بوليانا!» اعتدلت السيدة تشلتن في فراشها «أنت لا تقصدين أن بينك وبين جيمي بين أمرًا جديًا»، تراجعت بوليانا في خوف.

«ويلي يا خالتي، ظننتك تحبين جيمي».

«إنني أحبه في مكانه، غير أن هذا المكان ليس زوج ابنة أختي».

«خالتي بولي!».

«هيا، هيا يا صغيرتي لا تذهلي، هذا كله كلام فارغ فحسب، أنا سعيدة أنني استطعت إيقاف الأمر قبل أن تتعقد الأمور».

«ولكن يا خالتي بولي، لقد تعقدت الأمور»، ارتعشت بوليانا، «لقد أحـ... اهتممت به سلفًا».

«فعليك إذن أن تنسي ذلك يا بوليانا لأنني لن أسمح أبدًا أبدًا بزواجك من جيمي بين».

«ولكن لماذا يا خالتي؟».

«السبب الأول والأهم أننا لا نعرف شيئًا عنه».

«ولكننا عرفناه دومًا يا خالتي بولي، منذ أن كنت فتاة صغيرة».

«أجل، وماذا كان؟ هارب مشاكس من ملجأ الأيتام، ولا نعرف شيئًا عن أهله ونسبه».

«لكني لن أتزوج بأهله ولا نسبه».

عادت الخالة بولي إلى وسادتها بتجهم ونفاد صبر.

«إنك تصيبيني بالمرض يا بوليانا، قلبي يدق مثل مطرقة سقّاطة. لن يغمض لي جفن الليلة، ألا يمكنك ترك هذا حتى الصباح؟».

نهضت بوليانا بسرعة يكسو وجهها الندم.

«بلى، بلى يا خالتي بولي فعلًا! وغدًا سيكون شعورك مختلفًا، أنا واثقة، أنا واثقة من ذلك»، كررت الفتاة بصوت مرتعش بالأمل، وهي تستدير لتطفئ المصباح.

لكن شعور الخالة بولي لم يختلف في الصباح، بل إن معارضتها للزواج كانت أقوى. توسلت بوليانا وجادلت بلا جدوى، وتحدثت بلا جدوى عن أمر سعادتها، لكن الخالة بولي حرون ولن تقبل الفكرة مطلقًا. لقد حذرت بوليانا بحزم من شرور الوراثة، ونبهتها لمخاطر الزواج من شخص لا تعرف عائلته. بل إنها تحدثت في النهاية عن إحساسها بالواجب والعرفان نحو نفسها، وذكرت بوليانا بالسنين الطويلة من الرعاية المحبة التي كانت لها في بيت خالتها، وتوسلت إليها بحرارة ألا تفطر قلبها بهذا الزواج كما فعلت أمها قبل زواجها.

حين جاء جيمي مشرق الوجه متلألئ العينين في العاشرة، رأى بوليانا خائفة ترتعش باكية حاولت بلا جدوى إبعاده بيدين مرتجفتين. لكنه طلب منها تفسيرًا بوجه شاحب وذراعين حنونين وعانقها متحديًا. «بوليانا الأغلى، ما معنى هذا بحق السماء؟».

«أوه، جيمي. لم أتيت يا جيمي، لم أتيت؟ كنت سأكتب لك وأخبرك بالأمر»، بكت بوليانا.

«لكنك كتبت إلي يا عزيزتي، لقد وصلت رسالتك بعد ظهر البارحة، في الوقت المناسب للحاق بالقطار».

«كلا، كلا، أعني ثانية، لم أعلم عندئذ أنني لن أستطيع».

«لن تستطيعي! بوليانا...» اتقدت عيناه بغضب عارم، «لا تقصدين إخباري أن ثمة حب أحد آخر تظنين أن عليك إبقائي منتظرًا من أجله؟»، سألها وهو يطوقها بذراعيه.

«كلا يا جيمي ! لا تنظر إلي هكذا، فلا أطيق ذلك!».

«فما الأمر إذن؟ ما الذي لا تستطيعين فعله؟».

«لا يمكنني الزواج بك».

«أتحبينني يا بوليانا؟».

«أوه، أجل أجل».

«ستتزوجينني إذن»، ابتهج جيمي وذراعاه تطوقانها ثانية.

«كلا، كلا يا جيمي، إنك لا تفهم، إنها الخالة بولي»، جهدت بوليانا.

«الخالة بولي؟!».

«أجل، لن تسمح لي».

«هوا»، أرجع جيمي رأسه ضاحكًا، «سنقنع الخالة بولي، إنها تظن أنها ستفقدك، لكننا سنذكرها أنها ستكسب ابن أخ جديد!»، أنهى كلامه متصنعًا الأهمية.

لكن پوليانا لم تبتسم، وأدارت رأسها بعجز من جانب لآخر.

«كلا، كلا يا جيمي إنك لا تفهم إنها... إنها... كيف أشرح لك؟ إنها تعترض عليك».

ارتخت ذراعا جيمي وحزنت عيناه.

«أوه، حسن، أظنني لا أستطيع لومها، فأنا لست خارقًا!»، اعترف بتحفظ، ومع ذلك، أدار إليها عينين محبتين، «سأحاول إسعادك يا حلوتي».

«ستفعل حقًا، وأعلم أنك ستفعل»، اعترضت پوليانا دامعة.

«فلماذا لا تمنحيني فرصة للمحاولة يا پوليانا؟ وإن لم توافق تمامًا في البداية، فلعلنا بمرور الوقت، بعد زواجنا نكسبها لصفنا».

«أوه، لكنني لا أستطيع، لا أستطيع فعل ذلك»، ناحت پوليانا، «بعد ما قالته لا يمكنني الزواج دون موافقتها. فقد فعلت من أجلي الكثير كما ترى، وهي معتمدة علي كثيرًا فهي ليست على ما يرام الآن يا جيمي. ولقد كانت حقًا حقًا محبة للغاية وتحاول جاهدة أن تلعب اللعبة كما تعلم، رغم كل متاعبها. وقد بكت يا جيمي وتوسلت إلي ألا أفطر قلبها كما فعلت أمي منذ زمن، ولا أستطيع أن أفعل ذلك بعد كل ما فعلته من أجلي يا جيمي».

مرت لحظة صمت ثم تحدثت پوليانا ثانية بانكسار وقد تدفق اللون الأحمر الوهاج إلى جبينها. «إن استطعت إخبار خالتي بشيء ما عن أبيك يا جيمي، وأهلك و...».

أنزل جيمي ذراعيه فجأة، وتراجع قليلًا، وقد امتقع وجهه.

«أهذا هو الأمر؟»، سأل.

«أجل»، اقتربت پوليانا ولمست ذراعه بخوف، «لا تظنني... هذا ليس من أجلي يا جيمي، فلست آبه. ثم إنني أعرف أن أباك وأهلك كانوا طيبين ونبلاء، لأنك طيب ونبيل، لكنها يا جيمي... لا تنظر إلي هكذا!».

لكن جيمي ببكاء خفيض ابتعد عنها، ثم غادر البيت ببضع كلمات مخنوقة لم تستطع فهمها.

اتجه جيمي إلى البيت مباشرة من عزبة هارنغتن وبحث عن جون پندلتن، ووجده في المكتبة القرمزية الكبيرة التي بحثت فيها پوليانا قبل سنوات خائفة عن الهيكل العظمي في خزانة جون پندلتن.

«أتذكر الرزمة التي اعطاها لي أبي يا عم جون؟»، سأل جيمي.

«أجل، ما الأمر يا بني؟»، دهش جون پندلتن لرؤية وجه جيمي.

«لا بد من فتح تلك الرزمة يا سيدي».

«لكن الشروط!».

«لا أستطيع، لا بد من فتحها، هلا فعلت؟».

«أجل يا بني، إن أصررت. ولكن...»، صمت مترددًا.

«إنني أحب پوليانا كما ظننت يا عمي جون، وسألتها أن تكون زوجتي ووافقت»، قال الرجل المسن قولًا مبتهجًا، لكن الآخر

لم يصمت، أو غير تعبيره المصمم الحازم، «تقول إنها لا تستطيع الزواج بي، فالسيدة تشلتن تعترض، تعترض علي».

«تعترض عليك!»، اتقدت عينا جون پندلتن غضبًا.

«أجل، وعرفت السبب حين توسلت إلي پوليانا أن أخبر خالتها شيئًا عن أبي وأهلي».

«هراء! ظننت پولي تشلتن أكثر تعقلًا، ولكن هذا طبعها في النهاية. يفخر آل هارنغتن دومًا بالسلالة والعائلة»، رد جون بندلتن، «حسن، هل يمكنك؟».

«هل يمكنني؟! كنت على وشك اخبار پوليانا أنه ما من أب يبز أبي، ثم تذكرت الرزمة فجأة وما تقول، وخفت. لم أجرؤ على قول كلمة حتى أعرف ما بداخل الرزمة. ثمة أمر لم يرغب أبي أن أعرفه حتى أبلغ الثلاثين، حين أكون رجلًا راشدًا ويمكنني احتمال أي شيء، أترى؟ ثمة سر في مكان ما من حياتنا، وعلي معرفة السر، وعلي معرفته الآن».

«ولكن يا بني يا جيمي لا تبد حزينًا للغاية، فقد يكون سرًا جيدًا، قد يكون أمرًا تحب معرفته».

«ربما، ولكن إن كان كذلك فلم حرص أبي على إخفائه عني حتى أبلغ الثلاثين؟ كلا يا عمي جون، إنه أمر حاول إخفاءه عني حتى أبلغ من العمر ما يمكّنني من احتماله ولا أفزع. أرجو أن تفهم أنني لا ألوم أبي. أيًا يكن فهو أمر لم يستطع تفاديه، أنا واثق. ولكن

لا بد من معرفته، هلا أحضرتها من فضلك؟ إنها في خزنتك كما تعلم».

نهض جون بندلتن من فوره.

«سأحضرها»، قال، وكانت بين يدي جيمي بعد ثلاث دقائق، لكنه أعادها في الحال.

«أفضل أن تقرأها أنت يا سيدي من فضلك، ثم أخبرني».

«ولكن يا جيمي أنا... حسن جدًا»، حمل جون بندلتن بحركة حاسمة قاطع الورق وفتح المظروف وأخرج محتوياته. كان فيه حزمة أوراق مربوطة معًا وورقة مطوية وحدها، وهي رسالة فيما يبدو. فتح جون بندلتن هذه وقرأها أولًا وراقب جيمي، متوترًا ومنقطع النفس، وجه جون بندلتن وهو يقرأ فرأى نظرة العجب والفرح وشيئًا آخر لم يستطع تسميته.

«ما الأمر يا عمي جون؟ ما الأمر؟»، سأل.

«اقرأها بنفسك»، أجاب الرجل واضعًا الرسالة في يد الشاب الممدودة وقرأ جيمي التالي:

> إن الأوراق المرفقة إثبات قانوني أن ابني جيمي هو جيمس كنت الحقيقي، ابن جون كنت الذي تزوج بدورس وذربي ابنة وليم وذربي من بوسطن. توجد رسالة أشرح فيها لولدي لماذا أخفيته عن عائلة أمه كل هذه السنين. إن فُتحت هذه الرزمة عند بلوغه الثلاثين فسيقرأ الرسالة وأرجو أن يغفر لأبيه الذي خشي من فقدان ابنه كثيرًا، فقام بهذه الفعلة

القاسية ليبقيه لنفسه. وإن فتحها الغرباء بسبب موته، أطلب أن يبلغ أهل أمه في بوسطن في الحال، وتسلم حزمة الأوراق سليمة إلى أيديهم.

جون كنت

شحب وجه جيمي وارتعش حين رفع رأسه لينظر إلى جون بندلتن.

«أأنا جايمي المفقود؟»، تلعثم.

«تقول الرسالة إن عندك وثائق تثبت ذلك»، هز الآخر رأسه.

«ابن أخت السيدة كرو؟».

«طبعًا».

«ولكن لماذا... ماذا... لا أستطيع فهم الأمر!»، مرت لحظة صمت قبل أن يشرق وجه جيمي بفرح جديد، «أنا أعرف حتمًا من أنا، يمكنني اخبار السيدة تشلتن شيئًا عن أهلي».

«أظنك تستطيع»، رد جون بندلتن بجفاف، «يعود أصل آل وذربي من بوسطن إلى الصليبيين إلى عهود سحيقة، لا بد أن يرضيها هذا. أما أبوك فهو كريم المحتد أيضًا، لقد أخبرتني السيدة كرو بذلك رغم أنه كان غريب الأطوار ولم يعجب العائلة كما تعرف طبعًا».

«أجل، يا لأبي المسكين! وأي حياة عاشها معي تلك السنوات، وهو يخشى اقتفاء أثرنا. يمكنني فهم الكثير من الأمور الآن التي

خيرتني دومًا. نادتني امرأة جايمي مرة، يا للهول! كم غضب عندئذ! أعرف الآن لماذا أسرع بي تلك الليلة دون انتظار العشاء، يا لأبي المسكين، لقد اعتلت صحته بعد هذا، ولم يستطع تحريك يديه أو قدميه، ولم يتمكن من الحديث بوضوح، بل أعاق كلامه شيء ما. أذكر قبل موته أنه حاول إخباري شيئًا عن الرزمة، أظنه قال لي أن أفتحها وأذهب إلى أهل أمي، ولكني ظننته يقول عندئذ أن أحافظ عليها وهذا ما وعدته به، لكن ذلك لم يرحه بل أقلقه أكثر، لم أفهمه كما ترى يا لأبي المسكين!».

«لنلق نظرة على هذه الوثائق»، اقترح جون پندلتن، «ثم إن هنا رسالة من أبيك لك، ألا تود قراءتها؟».

«بلى، طبعًا»، ومن ثم ضحك الشاب خجلًا ونظر إلى الساعة، «كنت أتساءل متى يمكنني العودة إلى پوليانا».

عبس جون پندلتن مفكرًا، ونظر إلى جيمي وتردد ثم تحدث «أعلم انك تود رؤية پوليانا يا فتى ولست ألومك، لكن خطر لي أن عليك الذهاب في ظل هذه الظروف إلى السيدة كرو أولًا وأن تأخذ هذه»، ونقر على الأوراق أمامه.

عقد جيمي حاجبيه وفكر. «حسن يا سيدي، سأفعل»، وافق مذعنًا.

«وأود الذهاب معك إن لم تمانع، اقترح جون پندلتن بشيء من الخجل، «فلدي أمر يخصني أود رؤية خالتك بشأنه، هلا ذهبنا اليوم في قطار الثالثة؟».

«جيدا سنفعل يا سيدي، يا إلهي! إنني جايمي إذن لا أستطيع استيعاب ذلك بعد»، قال الشاب ناهضًا ومتحركاً في الغرفة بقلق، «أتساءل الآن»، قال وقد احمر بصبيانية «هل تظن أن خالتي روث ستمانع؟».

هز جون پندلتن رأسه نفيًا، وقد غمرت عينيه لمحة من الحزن القديم.

«كلا يا بني، لكني أفكر بنفسي، إن كنت فتاها فما موقعي أنا؟».

«أنت؟ أتظن شيئًا يمكن أن ينحيك جانبًا؟»، تهكم جيمي بحماس، «لست بحاجة للقلق من هذا، ولن تمانع فلديها جايمي كما تعلم»، وتوقف سريعًا والخوف في عينيه، «يا إلهي! لقد نسيت جايمي يا عمي جون، سيكون هذا قاسيًا على جايمي».

«أجل فكرت بهذا، لكنه متبنى قانونيًا، أليس كذلك؟».

«بلى، ولكن ليس هذا هو الأمر، بل حقيقة أنه ليس جايمي الحقيقي وهو بتلكما الساقين عديمتي الجدوى، سيقتله ذلك يا عمي جون. لقد سمعته يتحدث عن هذا وأعرف. ثم إن كلًا من پوليانا والسيدة كرو أخبرتاني عن شعوره، وثقته بأنه جايمي الحقيقي وأنه سعيد بذلك. يا للهول! لا يمكنني سلب هذا منه، ولكن ماذا أفعل؟».

«لست أدري يا بني، لا أرى شيئًا يمكنك فعله إلا ما تفعله».

ساد صمت طويل، وعاد جيمي يذرع الغرفة جيئة وذهابًا

بتوتر، ثم توقف فجأة وقد أشرق وجهه، «ثمة طريقة وسأفعلها، وأعلم أن السيدة كرو ستوافق. لن نخبر أحدًا، لن نخبر إلا السيدة كرو وپوليانا وخالتها، سأضطر لإخبارهما»، أضاف عازمًا.

«ستفعل حتمًا يا بني، أما الباقون...»، فصمت جون پندلتن مرتابًا.

«ليس هذا شأن أحد».

«ولكن تذكر أنك تقدم على تضحية عظيمة من عدة أوجه، أود منك أن تزن الأمر جيدًا».

«أفكر بالأمر؟ لقد وزنته ولا رأي لي فيه بوجود جايمي على الكفة الأخرى من الميزان يا سيدي. لا يمكنني فعل ذلك هذا كل ما في الأمر».

«لست ألومك وأظنك مصيبًا»، أجاب جون پندلتن بحرارة، «ثم إنني أظن السيدة كرو ستوافقك خاصة بعد أن تعرف أنها عثرت على جايمي الحقيقي أخيرًا».

«أنت تعرف إنها تقول دومًا إنها رأتني في مكان ما»، ضحك جيمي، «والآن متى ينطلق هذا القطار؟ فأنا جاهز».

«حسن، أنا لست كذلك»، ضحك جون پندلتن، «من حسن الحظ أنه لن ينطلق قبل ساعات على أية حال»، أنهى قوله وهو ينهض ويترك الغرفة.

الفصل الثاني والثلاثون

مصباح علاء الدين الجديد

أيًا كانت استعدادات جون پندلتن للسفر، وقد كانت كثيرة ومتعجلة، فقد أنجزت علانية إلا اثنين منها. كان الاستثناءان رسالتين، واحدة موجهة إلى پوليانا والأخرى إلى السيدة پولي تشلتن. هاتان الرسالتان سويًا سلمتا إلى سوزان مدبرة بيته بتعليمات دقيقة وحريصة، بأن تسلمهما بعد سفرهما، لكن جيمي لم يعلم شيئًا من هذا.

كان المسافران يقتربان من بوسطن حين قال جون پندلتن لجيمي «أود سؤالك صنيعًا واحدًا أو اثنين بالأحرى. الأول ألا نقول شيئًا للسيدة كرو حتى بعد ظهر غد، والآخر أن تسمح لي أن أذهب أولًا وأكون سفيرك، وألا تظهر أنت في الساحة قبل.. لنقل الساعة الرابعة، أأنت موافق؟».

«أنا موافق طبعًا»، أجاب جيمي بسرعة، «لست موافقًا فحسب، بل سعيد أيضًا. كنت أتساءل كيف سأكسر هذا الجليد وأنا سعيد أن لدي من يفعله».

«جيد! سأحاول الاتصال بخالتك غدًا صباحًا لتحديد الموعد».

لم يظهر جيمي، وقد وفى بوعده، في بيت السيدة كرو حتى الرابعة من عصر اليوم التالي، وقد شعر عندئذ بالحرج فجأة. فسار قرب البيت مرتين قبل أن يستجمع شجاعة كافية ليرتقي العتبات ويقرع الجرس. وما إن صار في حضرة السيدة كرو حتى عاد لطبيعته، وسرعان ما شعر بالراحة، وقد اضطلعت بالأمر بحصافة. صحيح أنها ذرفت بعض الدموع، وقالت عبارات مفككة في البداية، فاضطر جون پندلتن إلى البحث بسرعة عن منديله. لكنها استعادت سريعًا مظهرها الهادئ العادي، ولم يبق إلا البريق في عيني السيدة كرو والسعادة النشوى في عيون جيمي وجون پندلتن تظهر أن ثمة ما هو خارج عن المألوف.

«وأظن هذا رائعًا منك، أعني جايمي»، قالت السيدة كرو بعد قليل «في الحقيقية يا جيمي (وسأظل أدعوك جيمي لأسباب واضحة، ثم إنني أحبه أكثر لك) في الحقيقة أرى أنك مصيب إن كنت راغبًا بفعل ذلك وأنا سأضحي أيضًا»، وتابعت دامعة، «لأني سأفخر بتقديمك للعالم على أنك ابن أختي».

«وفي الحقيقة يا خالتي روث»، وصمت جيمي لدى قول جون پندلتن شيء بصوت مكتوم، فقد رأى أن جايمي وسادي دين يقفان عند الباب وامتقع وجه جايمي جدًا.

«خالتي روث؟!»، قال وهو ينقل نظره من واحد لآخر بعينين مندهشتين، «خالتي روث! هل تعني؟».

وامتقع وجه السيدة كرو ووجه جيمي أيضًا لكن جون پندلتن

تابع بمرح. «أجل يا جايمي. ولم لا؟ كنت سأخبرك سريعًا على أية لكني سأخبرك الآن» (شهق جيمي وتقدم للأمام بسرعة لكن جون پندلتن أسكته بنظرة)، «منذ قليل فقط جعلتني السيدة كرو أسعد الرجال حين أجابت بنعم عن سؤال سألته لها، والآن ما دام جيمي يناديني العم جون فلم لا ينادي السيدة كرو الخالة روث؟».

«أوه، أوه»، قال جايمي في بهجة صريحة في حين أن جيمي تحت نظرة جون پندلتن الثابتة تمكن من إنقاذ الموقف فلم يظهر دهشته وسعادته. من الطبيعي عندئذ أن السيدة كرو المحمرة خجلًا قد أصبحت مركز اهتمام الجميع، ومرت لحظة الخطر. وسمع جيمي جون پندلتن يقول له بصوت خفيض «ها أنت ترى أيها المحتال الصغير إنني لن أفقدك في النهاية، ستكون لنا كلينا».

كانت التهاني والتبريكات في ذروتها حين التفت جايمي وفي عينيه لمعان جديد بلا إنذار إلى سادي دين «سأخبرهم الآن يا سادي»، قال فرحًا.

ثم تعالت التهاني والتبريكات، لدى رؤية الاحمرار المتورد على وجه سادي الذي وشى بالقصة الرقيقة قبل أن تنطقه شفتا جايمي، وكان الجميع يضحكون ويتصافحون. أخذ جيمي ينظر إليهم جميعًا بحزن وشوق.

«هذا رائع لكم جميعًا»، تذمر، «كل واحد منكم معه آخر، ولكن أين موقعي؟ غير أنني أود إخباركم لو أن سيدة شابة بعينها كانت هنا، لكان عندي ما أخبركم به».

«لحظة يا جيمي»، تدخل جون پندلتن، «لنتظاهر أنني علاء الدين، ودعني أفرك المصباح، هل لي بإذنك باستدعاء ماري يا سيدة كرو؟».

«أجل، أجل قطعًا»، غمغمت السيدة بدهشة وحيرة وجدتها مضاعفة على وجوه الآخرين.

بعد لحظات وقفت ماري بالباب.

«هل سمعت أن السيدة پوليانا قد جاءت قبل قليل؟»، سأل جون پندلتن.

«أجل يا سيدي، إنها هنا».

«هلا طلبت منها الدخول من فضلك؟».

«پوليانا هنا؟!»، ردد الجميع بعجب حين اختفت ماري وشحب وجه جيمي ثم احمر. «أجل، لقد أرسلت لها رسالة البارحة مع مدبرة منزلي، وسمحت لنفسي بسؤالها بالمجيء لبضعة أيام لرؤيتك يا سيدة كرو. ظننت الفتاة بحاجة لراحة وإجازة، ولدى مدبرة منزلي تعليمات بالبقاء مع السيدة تشلتن والاعتناء بها. كما كتبت رسالة للسيدة تشلتن»، أضاف ملتفتًا لجيمي، وفي عينيه مغزى لا يداخله الشك، «وظننتها بعد قراءة ما قلت ستسمح لپوليانا بالقدوم، وقد فعلت، ها هي».

وها هي بالباب محمرة تائهة العينين، زد على ذلك أنها خجلة ومحتارة قليلًا.

«بوليانا غاليتي»، كان جيمي أول من نهض لملاقاتها وعانقها وقبلها دون لحظة تردد.

«أوه يا جيمي أمام كل هؤلاء الناس؟»، شهقت بوليانا في اعتراض وحرج.

«أف! كنت سأقبلك لو كنت وسط شارع واشنطن»، تعهد جيمي، «وبهذا الخصوص انظري إلى كل هؤلاء الناس وانظري بنفسك إن كان عليك القلق بشأنهم».

ونظرت بوليانا ورأت قرب إحدى النوافذ جايمي وسادي دين يديران ظهريهما، وقرب نافذة أخرى رأت السيدة كرو وجون بندلتن يفعلان الشيء نفسه، فابتسمت بوليانا بعذوبة وقبلها جيمي ثانية. «أوه يا جيمي، أليس هذا رائعًا وجميلاً؟»، همهمت بنعومة، «والخالة بولي تعرف كل شيء الآن وكل شيء على ما يرام، وأظنها ستكون كذلك على أية حال، بل شعرت بالحزن من أجلي لكنها سعيدة الآن، وأنا أيضًا. يا للروعة يا جيمي، أنا سعيدة سعيدة سعيدة بكل شيء!».

حبس جيمي أنفاسه من الفرح الفائق.

«لنصل للرب يا فتاتي أن تكون الأمور هكذا دومًا معك»، غص بصوت متهدج وذراعاه تلفانها.

«أنا واثقة أنها ستكون»، زفرت بوليانا بعينين براقتين ثقةً.

النهاية

"ثمة شيء في كل شيء يمكن أن يسعدك، إن واصلت البحث للعثور عليه".

هذا هو جوهر لعبة السعادة وعقيدة بوليانا، الرواية التي نشرت عام ١٩١٣، ونجحت نجاحًا هائلًا جعل كاتبتها تتبعها بجزء ثاني عام ١٩١٥. بل لقد حرضت لعبة السعادة وبطلتها كتّابًا آخرين على نشر سلسلة عرفت باسم "كتاب السعادة". وصُنع لبوليانا تمثال أمام المكتبة العامة في لتلتن في نيوهامشاير.

منذ عام ١٩٢١، دخلت بوليانا عددًا من القواميس الشهيرة من مثل أكسفورد وكامبرج وكولنز لتصبح وصفًا يطلق على الشخص المفرط في تفاؤله وسعادته. ظلت السعادة مطلبًا ملحًّا للإنسان على مر العصور، وقد حاول دراستها وفهمها فوضع لها النظريات، رابطًا إياها بالمتعة تارة وبفعل الخير تارة أخرى. وأنشأ لها وزارات متخصصة - في بعض البلدان- وفي هذا كله أشكال مختلفة من "السعي نحو السعادة". لكن بوليانا لم تحتج إلى كل ذلك، فقد تعلمت في عمر مبكر أن تجد سعادتها في أصغر الأشياء وأبسطها، وواظبت على العثور على شيء يسعدها في أصعب المواقف وأشدها وقعًا.

لم تنكر بوليانا وجود ما يسبب الألم والضيق في الحياة، ولكن ما ضر لو واجهنا ذلك بشيء من المرح؟
درب السعادة يبدأ ببوليانا!

المترجمة








www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com